

الدكتور محمد رضوان الداية

في

الأطب الأندلسية

دار الفكر
دمشق - سورية



دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

في
الأدب الأندلسي

في الأدب الأندلسي / تأليف محمد رضوان الداية . - دمشق :
دار الفكر ، ٢٠٠٠ . - ٣٨٤ ص ؛ ٢٥ سم .

١- ٩٦٠٠٩، ٨١٠ داي ف ٢- ٩٢٨، ٢ داي ف
٣- العنوان ٤- الداية

مكتبة الأسد

ع : ٢٤٨١ / ٩ / ٢٠٠٠

الدكتور
محمد رضوان الداية

في الأدب الأنثري

دار الفكر
دمشق - سورية



دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

الرقم الاصطلاحي : ١٣٩٥, ٠٣١

الرقم الدولي : ISBN: 1-57547-815-3

الرقم الموضوعي : ٨١١

الموضوع : دراسات أدبية

العنوان : في الأدب الأندلسي

التأليف : د. محمد رضوان الداية

الصف التصويري : دار الفكر - دمشق

التنفيذ الطباعي : المطبعة العلمية - دمشق

عدد الصفحات : ٣٨٤ ص

قياس الصفحة : ٢٥ × ١٧ سم

عدد النسخ : ١٠٠٠ نسخة

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع
والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي
والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن
خطي من

دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد

ص.ب : (٩٦٢) دمشق - سورية

فاكس ٢٢٣٩٧١٦

هاتف ٢٢١١١٦٦، ٢٢٣٩٧١٧

<http://www.fikr.com/>

E-mail: info @fikr.com

الطبعة الأولى

جمادى الآخرة ١٤٢١ هـ

أيلول (سبتمبر) ٢٠٠٠ م

المحتوى

الموضوع	الصفحة
استهلال	٩
الفصل الأول - التعريف بالأندلس	١٥
الأندلس	١٧
السكان	٢١
من تاريخ الأندلس	٢٦
عصر الولاة	٢٨
الدولة الأموية المروانية بالأندلس	٢٩
عصر الطوائف	٣٤
دخول المرابطين	٣٥
دخول الموحدين	٣٧
من الموحدين إلى بني الأحمر	٣٨
الحضارة والعمران	٤١
الثقافة والعلوم والآداب	٤٣
الفصل الثاني - الشعر الأندلسي	٥١
الغزل	٥٣
المديح	٦١
الهجاء	٧٢
الفخر	٧٧
الزهد	٨١
المدائح النبوية	١٠٠
شعر الطبيعة	١١٢
الحنين إلى الوطن	١٣١
الرثاء	١٤٠
شعر الاستنجد واستنهاض الهمم	١٦٠
- الموشحات الأندلسية	١٧٨

الموضوع	الصفحة
متى ظهر الموشح	١٧٩
أصل الموشح	١٨٠
تطور الموشح	١٨٢
في نظام الموشحة	١٨٦
مصطلحات في الموشح	١٨٧
أغراض الموشحات	١٩٠
في فنية التوشيح	١٩١
أشهر الوشاحين	١٩٢
- الزجل في الأندلس	٢٠١
الزجالون في الأندلس	٢٠٣
الفصل الثالث - النثر الفني	٢١١
الكتابة الديوانية	٢١٣
الرسائل الإخوانية	٢٢٧
الرسائل الأدبية	٢٣٤
المقامة في الأندلس	٢٥٦
أدب الرحلة	٢٦٧
الفصل الرابع - تراجم أندلسية	٢٨٧
بجى بن حكم (الغزال)	٢٨٩
سعيد بن جودي	٢٩٥
ابن عبد ربه	٣٠٠
ابن زيدون	٣١١
ابن خفاجة	٣٣١
ابن أبي الخصال	٣٤٢
أبو البقاء الرندي	٣٥٦
لسان الدين بن الخطيب	٣٦٧
الخاتمة	٣٧٥

إهداء

في ٣١ تموز (يوليه) من صيف ١٩٧٦ كنّا في طريقنا من مدينة تولوز (طلّوشة في المُسمّى العربيّ) من أقصى غرب فرنسا متجهين إلى شبه جزيرة إيبيرية. اخترقنا الحدود وتوقّفنا ظهيرة ذلك اليوم في بعض الطريق الجبلي الوعر. وحين خيمنا لبعض الوقت لامسنا البرد الشديد، وجاورنا كتل الثلج المتناثرة، وقاسينا من وعورة المكان ووحشته؛ وإن كان المنظر رائعاً.

قلت لابني الفتى - ونحن في ذلك الموقع، وفي ظلال تلك الظروف -: من هذا الممر، وأربعة منافذ أخرى عُرفت بالأبواب، نفذ أجدادنا، واندفعوا يبشّرون بالرسالة، آخر الرّسالات؛ لم يقف دون أداء الواجب: ارتفاع الجبال، ووعورة المسالك، وقسوة الجو، وبُعد المسافة.

لقد جعلوا الأندلس على مدى ثمانية قرون مركزاً حضارياً متقدّماً، ومنارة علمية وثقافية وأدبية، ذات إشعاع اخترق المكان والزّمان...

فإلى ابني: لؤي، والسّيدة والدته رفيقة الدرب ومرافقة تلك الرّحلة، وإلى سائر إخوة لؤي وأخواته؛ وهم يعايشون أحداث حياتنا المعاصرة، ويعاينون ظروف الأمة وأحوالها الآنيّة أهدي هذا الكتاب، ليتذكّروا مجريات رحلتنا إلى الأندلس، ويسترجعوا من عطاء الأمة في ذلك القطر النائي.

وإلى القارئ الكريم

وهو يقلّب صفحاتٍ من الجانب الأدبي في حياة ذلك البلد الذي خلّد هو وأهله في تاريخ الأمة في المشرق والمغرب، وخلّد في سجل حضارة العالم أيضاً.

استهلال

من الظواهر التي تلفت النظر أنّ العناية بالتراث الأندلسي، وبحياة العرب والمسلمين في الأندلس لم تنقطع، على الرغم من مرور أكثر من خمسة قرون على الغياب العربيّ عن تلك البلاد. لقد اهتم العرب في أقطارهم القريبة من الأندلس والبعيدة عنها بذلك التراث، وتلك الحضارة المتألّقة، ولم يلبث المستشرقون أن انتبهوا إلى الثراء العظيم في التراث الأندلسي الباقي من المخطوطات العربية الأندلسيّة.

ولئن ضاع من ذلك التراث الأندلسي الكثير لقد بقي منه ما يُسهم في البناء الثقافي والحضاري من جهة، وما يدلُّ على عظمة دور الأندلس في أرض أوربة من جهة أخرى. والذي صدر من الكتب الأندلسية في الموضوعات المختلفة يضع ذلك القطر في الأقطار ذات الأهميّة الحضاريّة باعتبار ما مضى أولاً، وباعتبار ما نستفيد منه ونرجع إليه إلى اليوم ثانياً.

ويُسعد النفس أنّ جمهرة المستشرقين الإسبان، والبرتغاليين، وكثرة من المثقّفين والباحثين صاروا يُعدّون المدة العربية الإسلامية جزءاً مكملّاً لشخصيّتهم، وجزءاً من ثقافتهم وحضارتهم. وهذا اعتراف حضاري تأخر كثيراً، ولكنّ ظهوره يُعدُّ تطوراً إيجابياً ونظرة، تقترب من الموضوعية عن الحضارة العربية والثقافة الإسلامية.

واستطاع هذا القطر النائي أن تكون له خصوصية في أكثر من جانب من جوانب الفكر والفن والعلم والأدب، ووجوه الثقافة المختلفة، ووصلت تلك الخصوصية إلى أشياء في العادات والتقاليد.

وأثر الأندلسيون على امتداد تاريخ الحضارة العربية الإسلامية مثلما تأثروا، وأثبتوا هويتهم الشخصية - عند أهل المشرق - بل كانوا مرجعاً مهماً في أمور مختلفة كثيرة في جوانب العلوم والفنون والآداب وسائر المناشط الثقافية والفكرية والحضارية.

* * *

وكان للأدب مكانة في هذه الهالة الأندلسية الباهرة في جوانب المنظوم والمنثور.

- فمضى الأندلسيون على آثار المشاركة، وأتقنوا إتقانهم وشاركوا في قضايا الأدب، وموضوعاته في قطرهم النائي البعيد؛

- وكان لهم، أحياناً رؤى وملاحظات من خلال تلك المتابعة والمجاعة، والمنافسة أيضاً؛

- وأسهموا بالجديد مما يُنسب إليهم، وبقي اسمهم لاصقاً به، ودالاً، مع مرور الزمن، عليهم.

- وألبسوا بعض الأغراض والموضوعات حلةً أندلسيةً فيها الإبداع والتجديد، وفيها التميز والخصوصية.

واشتهر من أهل الأندلس أعلام في فنون النظم والنثر يُعدّون في كبار أدباء العربية.

ويمكن أن نقول: إن بُعد الأندلس عن المشرق من جهة، وتخييم المحلي المشرقي على الساحة الأدبية من جهة أخرى، حجّب عن الناس كثيراً من ذلك النتاج الأدبي الأندلسي؛ فعرفه الخاصة أو القلة، وغفل عنه الكثرة الكاثرة؛ في القرون الأولى. ولم يلبث المشرق أن عَرف فضل الأندلسيين ووجوهاً من جوانب عطائهم ومشاركاتهم وإبداعهم. وقد روي أن المتنبي لما سمع بعض شعر ابن عبد ربّه من أحد الأندلسيين أعجبه شعره، وقال: يا ابن عبد ربّه لقد يأتيك العراق حبّوا!

ومغزى العبارة يدل على طبقة هذا الشاعر الأندلسي في فن الشعر، ويدل أيضاً على عدم شيوع آثار الأندلسيين في المشرق، إلا في القليل الذي ينقله العلماء والرحالة وطلبة العلم الوافدون من الأندلس إلى المشرق^(١).

على أنّ الأبواب انفتحت في المشرق على كثير من التّاج الأندلسي مع القرن الرابع الهجري، وهلم جرّاً مع توالي الأعوام والعصور، بل إن الموشحات والأزجال الأندلسية - على خصوصيّتها ومحلّيتها المغرقة أحياناً - انتقلت إلى المشرق، وأعجبت الناس، حتى إنهم حاكوها، وجروا على آثار الأندلسيين فيها، بل إن أوّل كتاب وصل إلينا - في ما نعرف - عن فنّ التوشيح - هو كتاب (دار الطراز في عمل الموشحات) لابن سناء الملك^(٢)، وهو مشرقيّ.

* * *

وإذا وصلنا إلى القرن الحادي عشر الهجري قرأنا ما سجّله المقرّي في (نفع الطيب) لأهل دمشق والشام من رغبة عارمة لمعرفة الأندلس وثقافتها وآدابها ورجالها، ومن ثم وقفوا عند شخصيّة لسان الدين بن الخطيب^(٣) خاصة، فقد كان لأشعاره ومؤلفاته وموشحاته صدى واسع لديهم. وقد ألف أبو العباس المقرّي انطلاقةً من رغبة أهل الشام كتابه (نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب) الذي عُرِفَ بعنوان مختصر^(٤). وجاء هذا الكتاب دراسة شاملة في شخصيّة لسان الدين، وتعريفاً بمؤلفاته،

(١) يُعدّ كتاب (جذوة المقتبس) الذي ألفه الحميدي الأندلسي في المشرق من كُتب التراجم المهمّة التي أسهمت في التعريف برجال الأندلس. وقد ألف الحميدي كتابه من ذاكرته وهو ببغداد. وكان من تلاميذ ابن حزم القرطبي. (ولد الحميدي ٤٢٠ هـ، وتوفي ٤٨٨ هـ).

(٢) حققه د. جودة الركابي. وطبع أوّل مرة في المعهد العلمي الفرنسي بدمشق ١٩٤٩، ثم طبع بدار الفكر بدمشق.

(٣) له ترجمة في هذا الكتاب.

(٤) طبع الكتاب أكثر من مرة آخرها طبعة في ٨ مجلّات حقّقها د. إحسان عباس. وانظر كتابه الآخر: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض (طبع في ٥ أجزاء) ٣ في مصر و ٢ في المغرب. وطبع جملةً بالتعاون بين المملكة المغربية ووزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بأبوظبي.

وآثاره، وموشحاته وأشعاره وأشياء كثيرة تتعلق به. وكان الكتاب أيضاً موسوعة كبيرة تحتوي على فوائد وتراجم ومناسبات ونصوص أندلسية.. إلخ. وقد كان القرن الرابع عشر (الهجري) المنصرم، وطلائع القرن الخامس عشر مجالاً واسعاً للعودة إلى الأندلس:

- متابعة لما بدأ به المستشرقون الإسبان، وغيرهم، في وقت سابق.

- واستئنافاً للاهتمام العربي بالأندلس: تحقيقاً للتراث الأندلسي وتذييلاً عليه، ودراسةً لجوانبه، وإبرازاً لأعلامه، وإعادةً لكتابة تاريخه، واهتماماً بجغرافيته وبلدانه...

وعبارة: ((التراث الأندلسي)) تفتح الباب واسعاً للعلوم والفنون والآداب والمقاصد الشرعية وما هو منها بسبب.

* * *

وبهذه المناسبة من ذكر التراث الأندلسي، والدراسات الأندلسية أقول: إنني أسهمت بجهدى - وبمقدار ما فسح الوقت وسمحت الظروف والسفر والاغتراب - فحققت عدداً من النصوص الأندلسية والمغربية، ودرست عدداً من الشخصيات، وآلفت في جوانب من الأدب، والثقافة في الأندلس. وهذا - وإن كان جهد المقل - يرضي النفس، أو هو يُقنعها بأنني أؤدي ما أستطيع من واجب؛ وقد جعلت الأندلس، والأندلسيات والمغربيات هدفي ومجال محبتي وأفق حلمي ونصب عيني...

* * *

هذا الكتاب:

وهذا الكتاب دراسة متوسّطة، أو هي محدّودة الإطار، نقدّمها للقارئ المتشوّف إلى الأندلس وأدبها وأدبائها: يكون له مدخلاً، ويُقدّم له من المحيط خليجاً؛ وهو يعرفه من جهة، ويشوّقه إلى المزيد من جهة أخرى؛ وقد قال أهل العرفان: مَنْ ذاق عَرَفَ!

والكتاب - عند التمثيل والتشبيه - لقطات التقطت من بُعد حيناً لتكون الصورة شاملة عامة، وأخذت عن قرب حيناً آخر ليكون الكلام مركزاً مقرباً. وهو مدخل إلى الأدب الأندلسي، وتقدمة عامة تمهد لكتاب أكثر اتّساعاً وشُمولاً نُصَدِرُهُ قريباً - بإذن الله - بعنوان: (تاريخ الأدب الأندلسي) في ثلاثة أجزاء.

وكتابنا هذا (في الأدب الأندلسي): يأتلف ائتلافاً حسناً في خطة منظمّة؛ فهو:

- يقدّم تعريفاً عاماً بالأندلس العربية الإسلاميّة؛
- ونظرة شاملة للأدب العربي في ذلك القطر، في عصوره المتوالية؛
- ولحّة كافية عن حال الأندلس الحضارية بصفة إجمالية لتكون صلة بين الحياة العامة والحياة الأدبية، ولتكون تنويراً عاماً.
- ويقدم رؤية كافية، على طريقة الاختصار واللمح الدالّ، للموضوعات التي عالجها الأدب الأندلسي من التقليدي المعروف إلى الجديد المبتكر؛
- وتعريفاً بعدد من ذوي المكانة البارزة، والتأثير الظاهر من الأدباء والشعراء.
- وقد زوّدت الموضوعات، والتراجم بعدد من النصوص الشعرية والنثرية: بعضها تامّ دون انتقاص، وبعضها مختارات من أصول: في انسجام بين التامّ الوافي والموجز الكافي.

وأدعو الله تعالى أن يكون كتاباً نافعاً؛ وأن يكون مُفتتحاً حسناً للمبتدئ في
تعرفِ الأندلسيات؛ وبلغه، وتذكراً لغيره. والله المُستعان في كل آن.

والحمد لله ربّ العالمين

محمد رضوان الداية

أعيد النظر فيه للطباعة مستهل شهر محرم الحرام عرفنا الله بركته ١٤٢١ هـ، الموافق
شهر نيسان ٢٠٠٠ م. بمدينة الشارقة.

في الأدب الأندلسي

الفصل الأول

التعريف بالأندلس

- الاسم.
- المكان.
- السكان.
- التاريخ.
- الثقافة ومعطيات الحضارة.
- الحضارة الأندلسية.

الأندلس

١ - اسم الأندلس

أطلق الإغريق اسم إيبيريا (Iberia) على البلاد التي عرفت في الحضارة الإسلامية باسم الأندلس. وأطلقوا عليها اسماً آخر هو إسبانيا (Ispania)، فلما دخلها الرومان صار الاسم: (Hispania)؛ وهو - في رأي بعض المؤرخين الإسبان - مأخوذ من كلمة ذات أصل فينيقي.

واسم الأندلس له صلة باسم قبائل الوندال التي سكنت البلاد بعد الرومان. وغير الاسم من (Vandalos، أو Wandalos)؛ واتخذ سَمْتاً عربياً فقليل: الأندلس، أو بلاد الأندلس^(١).

وانتشر هذا الاسم بعد الفتح الإسلامي، ومحا اسم إسبانيا تماماً، وشاع استعماله في المؤلفات العربية الأندلسية والمغربية والمشرقية في الوثائق والتواريخ والرحلات وكتب الجغرافية... إلخ.

واسم الأندلس كان مُرتبطاً بالدولة الإسلامية وحدها مهما كان امتدادها: يتسع باتساعها، ويضيق بانحسارها. ولم يذهب هذا الاسم بنهاية دولة الإسلام

(١) انظر: الروض المعطار في خبر الأقطار للحميري (٣٢ - ٣٥). ونقل عن الرازي (المؤرخ الأندلسي والجغرافي المشهور): ((أول مَنْ سكن الأندلس بعد الطوفان.. قوم يُعرفون بالأندلس بهم سُمِّيَ البلد، ثم عُرِبَ))، ومعجم البلدان (١: ٢٦٢ - ٢٦٤)، والحلل السندسية ٣٥/١ - ٣٦، ودراسات أندلسية د. طاهر مكي (الفصل الأول)، وفجر الأندلس د. حسين مؤنس: ٤٣، والأدب الأندلسي (مقدمته) د. أحمد هيكمل، ودولة الإسلام في الأندلس/ القسم الأول (مقدمة المؤلف والفصل الأول).

في الأندلس؛ فإنه ما يزال مستعملاً للمعنى القديم كلما ذكرت الأندلس، أو ذكر عَلمٌ من أعلامها، أو فنٌّ من فنونها، أو أثر من آثارها؛ أو أيّ شيء له صلة بها. وبقي اسم الأندلس في إسبانية الحديثة^(١) بعد أن أخذ صورة أندلسيا (أو أندلوثيا) (Andalucia)، ويُشبه ما سماه بنو سعيد^(٢) مَوْسَطَة الأندلس، والتي تضم أقاليم: المريّة، وغرناطة، ومالقة، وجيان، وقرطبة، وإشبيلية، وقادس، وولبة.

٢ - بلاد الأندلس

في كتب جغرافية الأندلس، وصُفَّ لطبيعة البلاد، وتنوّع تضاريسها بين سهول وجبال ووديان وهضاب، وأنهار كبرى وأنهار صغرى، ونهيرات، إضافة إلى الينابيع العذبة، والينابيع المعدنية والكبريتية الباردة والحارة (الحمّات). وأوضحت تلك الكتب والدراسات والإشارات أن الأندلس متعدّدة الأوصاف في شبه جزيرة مترامية الأطراف، ومتعدّدة المناخات من السواحل (المتوسطية والأطلسية) إلى الهضاب المعتدلة الارتفاع إلى الجبال الشاهقة التي تكسوها الثلوج زمناً طويلاً من شهور السنة.

وهذا يُفسّر - ولو جزئياً - تلوّن الأدب الأندلسي - والشعر منه خاصة - بألوان الطبيعة الأندلسية من الاعتدال، إلى الطّرفين المتضادين: شدة الحرّ من جهة، وشدة البرودة من جهة أخرى؛ ويفسّر لنا شعر الطبيعة الأندلسية الذي أجاد فيه وأبدع أمثال ابن خفاجة وأتباع مذهبه (أو مدرسته)^(٣) في زمانه، ومَنْ كان قبْلَهُ، ومَنْ جاء بَعْدَهُ أيضاً.

والأندلس: شبه جزيرة يَحُدُّها البحر المتوسط شرقاً، والمحيط الأطلسي غرباً، ويفصلها عن فرنسا وسائر أوربة شمالاً جبال وعرة هي جبال البرتات (أو

(١) دراسات أندلسية: ٢٤

(٢) انظر كتاب: المغرب في حلى المغرب لابن سعيد، ومقدمة د. شوقي ضيف.

(٣) انظر دراستنا المعنونة: ((المذهب الخفاجي)) في سلسلة الروائع الجديدة.

الأبواب كما تسمى في النصوص العربية) وكان فيها خمسة منافذ للدخول إلى الأندلس والخارج منها.

ويفصل الأندلس عن المغرب مضيق عُرف منذ الفتح الإسلامي بـ (بحر الزُّقاق) لضيقه (الذي يبلغ في بعض نواحيه نحو عشرة أميال) وعُرف أيضاً بالاسم الباقي إلى اليوم: مضيق جبل طارق. وأُطلق عليه قديماً اسم بحر العدو، كما قبل فيه: بحرُ الزُّقاق.

وتتألف شبه جزيرة إيبيريا من عناصر تضريسيّة مختلفة. ففي الوسط تشغل الهضبة الكبرى حيّزاً واسعاً؛

- وتتخلل إيبيريا سلاسلُ جبالٍ ترتفعُ في مُعظم أرجائها:

- ففي الجنوب جبال سيرا مورينا (الجبال السّمرّاء) وسّماها العرب جبال الشارات، وبعدها سهلٌ منبسط.

- ويليهما جنوباً، ويرتفعُ من السّهل الفسيح جبال سيرا نيفادا (وسّماها العرب جبال الثلج؛ أو جبل الثلج) ويشاهد - بثلوجه - بوضوح من غرناطة المستلقية على أحد سفوحه.

- وترتفعُ في أقصى شمال الهضبة الكبرى جبال كانتربيا.

- وينحدرُ من غرب الهضبة السّهلُ الغربيّ.

* وفي إيبيريا أنهار كثيرة منها:

- الوادي الكبير الذي يروي أكثر أراضي السهل الجنوبي، ويمرّ بمدينتي قرطبة وإشبيلية وغيرهما، ويصب في المحيط الأطلسي.

- ووادي آنة (أو وادي يانة) وتقع عليه مدن كثيرة مثل: ماردة، وبطليوس، وميرتلة، ويصب في البحر المحيط.

- ونهر التَّاجُ وتقع عليه طُلَيْطَلَة، وطَلْبَيْرَة، وشَنْتَرَيْن، ويصبُّ عند أَشْبُونَة في المحيط (هي اليوم مدينة لِشْبُونَة).

- ونهر دَوِيرُهُ (ويسمى عند العرب الوادي الجوفيّ) ينحدر إلى الغرب حتى يصبّ في المحيط.

- وهناك أنهار تصبُّ في البَحْرِ المتوسط منها:

- نهر إِيْرُهُ وتقع عليه مدينة سَرْقُسْطَة، وتُطَيْلَة؛ ويصبّ قرب طُرْطُوشَة.

- والوادي الأبيض، ويَمُرُّ شمال بَلَنْسِيَة.

- ونهر شُقْر، ويمرُّ بمدينة شُقْر، من مُنتَصَفِهَا، وهي مدينة ابن خفاجة أشهر وُصَافٍ للطبيعة في الأندلس.

- ونهر شَقُورَة الذي يخترق مدينة مُرْسِيَة.

* ويساعد الأنهار والنهيرات في توفير مياه الشّرب والسّقي والاستعمال ينابيع، وعيون، وآبار، وأمطارٌ مختلفة النسب بحسب المواقع الجغرافيّة.

* وتكثر في الأندلس ينابيع المياه المعدنية الباردة منها والساخنة (ويسمّون الساخنة منها الحمّات جمع حَمّة).

* ويلاحظ على شبه جزيرة إيبيريا اختلاف درجات الحرارة اختلافاً كبيراً بحسب الأقاليم، تماماً كاختلاف أحوال الطبيعة، وأنواع المزروعات والأشجار والمحاصيل الزراعية. والمناخ يقترب من أوربة في الأقاليم الشمالية، ويقترب من المغرب في الأقاليم الجنوبية.

وقد فضّل العرب، منذ الفتح، النزول في الأماكن الخصبة الدّافئة.

السُّكَّان

أُعِيدَ تَشَكُّلُ سَكَّانِ الأندلسِ تَشَكُّلاً جَدِيداً بَعْدَ الفَتْحِ الإِسْلامِيِّ، فَإِنْ عَنَّا صَهرَها السَّكَّانِيَّةُ تتألفُ من العَرَبِ والبَرَبَرِ، والإِسبانيِّ، وهؤلاءُ كانوا قَسَمينَ فَقَسَمَ دَخَلَ في الإِسْلامِ، وقَسَمَ بَقِيَ على دينِهِ القَدِيمِ (وَكَلَّا الجانِبينَ من الإِسبانيِّ تَعَرَّبَ، واتَّخَذَ العَرَبِيَّةَ لُغَةً وأَدبَ وفِكرَ وفنَّ وحيَاةً)؛ ومن عَنَّا صَهرَ السَّكَّانِ في الأندلسِ: البَرَبَرُ، والصَّقَّالِبَةُ، واليَهُودُ. وقد اسْتَطَاعَتِ تلكَ البلادُ أَنْ تَصْهَرَ هَذِهِ العَنَّا صَهرَ، وتَكُونَنَّ مِنْها صِيغَةً أُنْدَلُسِيَّةً أُسْهَمَتِ في بِناءِ ((الدَّولَةِ)) الأُنْدَلُسِيَّةِ، وإِظْهَارِ وجوهِها الحضاريَّةِ للعالمِ.

- ويُعرَفُ العَرَبُ الذينَ دَخَلُوا معَ الفَتْحِ بِاسْمِ البَلَدِيِّينَ. ويعرَفُ الذينَ دَخَلُوا معَ طالِعةِ بُلُجِ بنِ بَشرِ القُشَيْرِيِّ سَنَةَ ١٢٥ بِاسْمِ الشَّامِيِّينَ. وأُطْلِقَ على الإِسبانيِّ الذينَ عَاصَرُوا جِيلَ العَرَبِ منَ الفاتِحِينَ، الذينَ دَخَلُوا في الإِسْلامِ بِاسْمِ المُسالمَةِ، على حِينِ دُعِيَ الذينَ بَقُوا على دينِهِم مِّنَ أَهلِ الذِّمَّةِ بِاسْمِ العَجَمِ أو (عَجَمِ الأندلسِ)، وكانَ لَهُم رَئِيسٌ يُدعى بِالغُومِسِ. وكانَ هؤلاءُ، وسائِرُ أَهلِ الذِّمَّةِ، مُحَصَّنِينَ بِرِعايَةِ الدَّولَةِ وحمايَها. ويليَ هؤلاءُ^(١): المُولَدُونَ، وهُمُ الذينَ وُلِدُوا منَ آباءِ مُسلمينَ، ونشَئُوا على الإِسْلامِ. وكانُوا يُؤلفونَ في عَهْدِ أُمراءِ بَنِي أُمَيَّةِ الكَثَرَةِ الغالِبَةِ منَ السَّكَّانِ^(٢). ومنهُم تَكَوَّنَت جَماهيرُ الأُنْدَلُسِيِّينَ، وأَهْلُ البيوتاتِ مِنْهُم... وكانَ منَ شَأْنِ كَثَرَةِ أبناءِ هَذا الجِيلِ مِنَ المُولَدِينَ انْتِشارُ اللُغَةِ

(١) الإِسْلامُ في إسبانيا - د. لُطْفِي عَبدِ البَديع: ٢٤، وفَجَرَ الأندلس - د. حَسينَ مَوْنس.

(٢) انْظُر كُتابنا: سَعِيدُ بنِ جُودِي الأُنْدَلُسِي؛ وفيهِ كَلامٌ على الخِلاف - آنذاك - والصِّراعُ بَينَ العَرَبِ والمُولَدِينَ. والجزءُ الأوَّلُ منَ كُتابِ مُحَمَّدِ عَبدِ اللَّهِ عَنان.

الرومانسية بين الأندلسيين وهي اللاتينية الحديثة، ويسمّيها المؤرخون العرب: العجميّة أو اللّطينيّة. ((ومن طريق المولّدين تداخلت العربية والرومانسية تداخلاً كان من مظاهره نشأة فنّ الموشّحات...))^(١).

- ويُطلق لفظ المستعربين على نصارى الإسبان الذين تعايشوا مع العرب وتعرّبوا، وأقاموا في ديار الإسلام. وقد كفلت لهم الدولة الإسلامية حرية العقيدة فأبقت لهم كنائسهم وأديرتهم ولم تتعرّض لهم في ذلك بشيء. والاستعراب يمثل تأثير الثقافة العربية في غير المسلمين من الإسبان...^(٢). وترصد أخبارهم اندماجهم في الجوّ العربي والثقافة العربية الإسلامية، وكيف قرضوا الشعر العربي، وصاروا جزءاً من المنظومة السكّانية الأندلسيّة سواء بسواء. وقد أسهم هؤلاء المستعربون في حركة الترجمة من العربيّة إلى اللاتينيّة. وعن طريقهم انتشرت الثقافة العربية الإسلامية وعُرفت في الدّول النصرانية الشمالية، وفي أوربة أيضاً.

- ومن عناصر المجتمع الأندلسي البربر. ومعلوم أن جيش طارق الذي بدأ عملية الفتح الإسلامي تشكل من كلا العنصرين: العربي والبربري. وقد كثر البربر في الأندلس في المدة القريبة من الفتح؛ ونقرأ في (نفح الطيب) للمقري أن الناس من أهل برّ العدو ((تسامعوا بالفتح على طارق، وسعة المغنم فيها؛ فأقبلوا نحوه من كلّ وجه وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب...))^(٣). وقد سجّل ابن حزم منازل البربر في الأندلس مثلما سجّل منازل العرب. ولم ينقطع وفود البربر على الأندلس طوال العصور الإسلاميّة^(٤).

(١) العرب في إسبانيا: ٢٤. ولأستاذنا الدكتور عبد العزيز الأهواني كلام مهم في هذا الموضوع في كتابه (الرّجل في الأندلس). راجع ((الموشحات والأزجال)) في مكانه من كتابنا هذا.

(٢) المرجع السابق ٢٤، ٢٥.

(٣) نفح الطيب: ١/١٦٣.

(٤) ينظر كتاب ابن حزم: جمهرة أنساب العرب؛ وفجر الأندلس د. حسين مؤنس ٣٧٨ - ٣٩٦. وبحسبنا: منازل اليسيين في الأندلس في كتابنا (أندلسيات شامية) طبع بدار الفكر - دمشق.

واشتهرت من البربر أسماء لامعة في الإدارة والحكم والجيش والشرطة، كما قامت لهم دويلات في عصر الطوائف خاصة.

وأشار الدكتور مؤنس^(١) إلى عنصر الموالي باعتباره من عناصر المجتمع الأندلسي، وقال: إنَّ الأندلس عرف في هذا الوقت (عصر الولاة) نظام الولاء، وكان الموالي مشاركة أقبلوا إلى الأندلس مرتبطين بروابط ولاء قديمة للبيت الأموي، أو لأفرادٍ منه، أو مغربيين دخلوا في ولاء بني أمية أو ولاء قوادهم، أو بعض قبائل العرب، وانتقلوا إلى الأندلس مُحفَظِينَ بهذا الولاء، أو إسبانياً دَخَلُوا في ولاء بني أمية، أو ولاء قوادهم، وظلُّوا مُحفَظِينَ، هُم وأبنائهم بهذه العلاقة...

- وعرف المجتمع الأندلسي ((الصَّقالبة)):

وقد أُطلق اسم الصَّقالبة في الأندلس على أسرى كان يتاجر بهم تجَّار من الجرَّمان وغيرهم، وكانوا يُسَبَّون من مناطق مختلفة، وإن كان الأصل في الاسم أن يكونوا من السَّلاف، ثم عُمِّ استعمال الكلمة، فصارت تدل على مُطلق الأسرى، ومن يُباعون من أوربة في الأندلس. وربما أخذوا من مناطق غير إسلامية في الأندلس. وكان هؤلاء الصَّقالبة يدخلون في سلك الجنديَّة، أو يُتَّخذون - وخاصة الخُصيان منهم - لخدمة الدُّور والقصور. وكان هؤلاء (الفتيان) من الصَّقالبة يُدرَّبون ويُعلَّمون العلوم المختلفة، إضافة إلى المهمات العسكرية والشرطيَّة؛ فإذا بهم يُصبحون مثقَّفين بالثقافة العربيَّة، عارفين بخصائص الحضارة الإسلاميَّة.

وقد عَرَف المجتمع الأندلسي هؤلاء الصَّقالبة من وقتٍ مبكَّر من أيام عبد الرَّحمن الداخل، وكانوا قوَّةً عسكريَّةً مهمة في أيام عبد الرَّحمن النَّاصر، وتولى بعضهم أعمالاً كبيرة، فقادوا الجيوش وأسهموا في بعض الشُّؤون الإداريَّة والسياسيَّة.

(١) فجر الأندلس: ٤٠٦.

وفي عصر دُول الطوائف استأثر الصَّقالبة بشرق الأندلس، وقامت لهم دويلات مستقلة؛ وفيهم: مبارك والمظفر (في بلنسية) ولبيب في (طُرطوشة) وأبو الجيش مجاهد في (دَائِيَّة) وخيران وزهير في (المَرِيَّة)...

ومن مظاهر قوتهم، و ((وجودهم)) في المجتمع الأندلسي مجاهرة ابن غرسية بدعوى الشعوبية^(١).

- اليهود

ووجد اليهود في الأندلس ما وجدته بنو جلدتهم في المشرق من سماحة الإسلام، وحُسن المعاملة، وحرية التدنُّن، وفسح الفرص أمامهم في كل اتجاه. وكان دخول الإسلام إلى الأندلس إنقاذاً لهم من حالهم البائسة التي كانوا عليها أيام القُوط، فقد كانوا مضطهدين في أنفسهم وفي دينهم وفي أحوالهم الشخصية، وأمورهم العامة. وقد رحَّبوا بالعرب وكانوا عوناً لهم. وكانت لهم أكثرية في بعض البلدان والقُرى في فترة من الفترات. ودرجت العربية على ألسنتهم، ودخلت الثقافة العربية في صلب ثقافتهم، وأفادوا من اللغة العربية وقواعدها في صناعة أجرومية عبرية للنحو والصرف. ونبغ من اليهود أعداد كبيرة في الآداب والعلوم والطب وغير ذلك، وفيهم حسداي بن شبروط طبيب عبد الرحمن الناصر، وكان طبيباً وعشاباً. وتعدّ آثارهم الأدبية والفكرية إنتاجاً للثقافة العربية الإسلامية في الأندلس.

* * *

وقد انصهر السَّكان في إطار الأندلس الجديدة، وعرف المجتمع الأندلسي - في معظم عهوده - التناسق بين عناصره، ولم يطغ جانب على جانب. واستطاعت الدَّول المتعاقبة إقامة توازن شامل، بما في الإسلام من سماحة، وبما في قوانينه وشرائعه من اعتدال. وكانت الأندلس في ظلال حكم إسلامي متعدد الصُّور

(١) نشرت الرسالة المشار إليها في رسائل: نَوادر المخطوطات.

والأطر. فقد عرفوا نظام الإمارة (القسم الأول من حياة الدولة الأموية) ونظام الخلافة (منذ عبد الرحمن الناصر إلى آخر الدولة الأموية) ونظماً شتى أقرب إلى الإمارة المورثة (دول الطوائف) وتلقب المرابطون بلقب (أمير المسلمين) لكي لا يتكرر لقب الخليفة على امتداد الأرض الإسلامية؛ وتلقب الموحدون بالخلافة وبأمير المؤمنين؛ وتلقب حكام دولة بني نصر (أو بني الأحمر) بالسلطان والمملك. وكان مذهب الدولة المذهب المالكي، مع وجود قلة تتمذهب بمذاهب أخرى كالشافعية والظاهرية. وتركت للنصارى حرياتهم الدينية التامة، وكان لهم قيم منهم برتبة وزير يدعى (قومس النصارى)، أما اليهود فكانت أيامهم مع المسلمين في الأندلس أياماً ذهبية.

من تاريخ الأندلس

١ - كانت الأندلس قبل الفتح الإسلامي في ظلّ دولة القُوط التي امتدّت زهاء قرنين من الزّمان. وكان المجتمع الإسباني آنذاك كما يصفه المؤرخ محمّد عبد الله عنان (دولة الإسلام في الأندلس ١/١ : ٣٠ - ٣١): ((يعاني من صنوف الشقاء والبؤس، وقد مزّقتة عصورٌ طويلةٌ من الظّلم والإرهاق والإيثار... لقد كانوا يستأثرون بمزايا الغلبة والسّيادة، وإحراز الإقطاعات، والضياع الواسعة؛ ومنهم - وحدهم - الحكام والسّادة والأشراف. أمّا سواد الشعب الأعظم فقوامه طبقة متوسطة رقيقة الحال.. وزرّاع شبه أرقّاء.. ويتمتع رجال الدين بأعظم قسط من السّلطان والنفوذ. أمّا الشعب فكان في حالة يُرثى لها.. وكان يهود الجزيرة كتلةً كبيرةً عاملة، ولكنهم كانوا موضع البُغض والتّعصّب والتّحامل، ويعانون أشنع ألوان الجور والاضطهاد.. واعتنق النصرانية كثير منهم كرهاً ورياءً...)).

وكان على عرش إسبانية في تلك المدّة الملك وتيزا (تسمّيه الرواية العربية: غَيْطَشَة). وقد خلعه رُودريك (هو عند العرب: لُذْرِيْق) الذي سَمَل غَيْطَشَة عَيْنَيْ أَبِيهِ: دوق تيودوفرد. ووقع الصّراع بين ولدي غَيْطَشَة وبين رُودريك، واستقرّت الأمور لصالح رُودريك.

٢ - سُبِق الفتح الإسلامي بحملة صغيرة للاختبار، ولتحسّس الأحوال؛ وقاد تلك الحملة القائد طريف بن مالك في رمضان سنة ٩١ هـ من سَبْتَة إلى بقعة

مقابلة في أرض الأندلس سُميت باسم طريف. وما يزال اسمها كذلك إلى اليوم. وكانت الحملة ناجحة جداً^(١).

وفي رجب سنة ٩٢ هـ جَهَّز موسى بن نصير جيشاً بقيادة أحد رجاله: طارق بن زياد، وكان حاكماً لطنجة. ونزل أول ما نزل في المكان المسمى إلى اليوم باسم جبل طارق.

ولَمَّا علم لذريق بدخول المسلمين هَرَعَ من شمال البلاد، ونزل جنوباً بجيش ضخم في نحو مئة ألف، مقابل اثني عشر ألفاً من المسلمين، من العرب والبربر، والتقى الجيشان عند وادي لكّه (من كورة شذونة) فانهزم لذريق هزيمة عظيمة، وفُقد هو فلم يُعثر له على أثر!

وقسم طارق بعد ذلك جيشه أربع فرق؛ سارت تفتح بلاد الأندلس من أقطارها بيسر وسهولة في معظم الأماكن؛ لأن الشعب الإسباني كان يتلقى العرب بالترحاب حباً في التخلص من ظلم حكامه القوط.

ولم يلبث موسى بن نصير أن لحق بطارق بن زياد، وأنجزا فتح الأندلس إلا مواضع يسيرة تكفل بها عبد العزيز بن موسى بن نصير. ورجع القائدان إلى الشام برغبة من الوليد بن عبد الملك ليطلع مباشرة على نتائج الفتوح، وعلى أحوال الناس، والبلاد الإسلامية الجديدة. ولم يُتَح لموسى وطارق أن يرجعا إلى الأندلس، فقد وصلا إلى دمشق وقد مات الوليد، وتولى الخلافة سليمان بن عبد الملك^(٢).

٣ - يُقسم الحكم العربي الإسلامي في الأندلس إلى الفترات الآتية:

(١) عصر الولاة (٩٢ - ١٣٨ هـ).

(١) ينظر كتاب محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس بأجزائه كلها مع كتابه الآخر الآثار الباقية في إسبانية والبرتغال وكتاب التاريخ الأندلسي للدكتور عبد الرحمن الحجي (مجلد واحد) والمجمل في تاريخ الأندلس بإشراف د. عبد الحميد العبادي.

(٢) أردت الاختصار. ويمكن لمن شاء أن يعود إلى أخبار طارق وموسى في كتب التاريخ الموسعة، وكتب التراجم. وانظر ((موسى بن نصير)) في عدد مستقل من سلسلة أعلام العرب.

٢) الدولة الأموية (المروانية) (١٣٨ - ٤٢٢ هـ).

وفيها: عصر الإمارة (١٣٨ - ٣١٦ هـ).

- وعصر الخلافة (٣١٦ - ٤٢٢ هـ).

٣) عصر دول الطوائف أو ملوك الطوائف (٤٢٢ - ٤٨٤ هـ).

٤) عصر المرابطين (دخل يوسف بن تاشفين الأندلس للمرة الثالثة ٤٨٤ هـ على نية القضاء على دول الطوائف. وصارت الأندلس والمغرب وحدة واحدة).

٥) عصر الموحّدين (دخل أول جيش للموحّدين الأندلس ٥٤١ هـ لإنهاء نفوذ المرابطين).

٦) دولة غرناطة (أو: مملكة غرناطة، أو دولة بني نصر، أو بني الأحمر) (٦٣٥ - ٨٩٧ هـ).

عصر الولاة:

تمتدُّ الفترة المُسمّاة بـ (عصر الولاة) من الفتح سنة ٩٢ هـ إلى مجيء عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) واعتلائه سدّة الحكم في قرطبة سنة ١٣٨ هـ. وهي مدّة قصيرة ولكنها حافلة بالأحداث الإيجابية والسلبية بالقياس إلى الوجود العربي الإسلامي في الأندلس؛ فقد وصلت الطلائع العربية الإسلامية إلى مناطق متوغلة في أوربة. ولكنّ سنواتٍ معدودةً صعبةً على الصعيد الداخلي (قبل سقوط الأمويين في المشرق سنة ١٣٢ هـ حتى وقت دخول عبد الرحمن): قد أسهمت في انحسار الوجود العربي الإسلامي هناك من المناطق الشمالية، وأدّت إلى تقديم فرصة ذهبية للعدو المتربّص شمالاً. وضاعت من أيديهم بلادهم في سبتمانيا ولانجدوك، ثم سقطت أربونة المنيعّة بعد أن ثبتت نحو ٥ سنوات لحصارٍ شديدٍ. وأسهم انسحاب البربر من المناطق الأندلسيّة الشماليّة في اكتساب العدو (الشمالى) الأراضي الغالية دون مجهودٍ يُذكر. وخسر الإسلام

نحو رُبْع إيبيريا، بسوء التقدير؛ وبالخلاف بين العناصر التي كَوَّنت الجماعة الإسلامية في الأندلس. وورث عبد الرحمن الداخل هذه الظروف الجديدة من الصراع بين الشمال المتحالف مع أوربة والبابوية وبين الجنوب الأندلسي المتحالف (وبحسب الظروف) مع بلاد المغرب.

وكان ولاية الأندلس في هذه المدّة يُعَيَّنُون من دمشق مباشرة، أو من والي إفريقية، أو والي مصر. وفي مدّة الولاية ظهرت شخصيات مهمة في تاريخ الأندلس، وفي تأصيل الوجود الإسلامي، وفيهم: عبد الرحمن الغافقي الذي فاجأته قوَّات شارل (ويسميه العرب قارُلُه) بين مدينتي تُوْر وبُواتِيَه. وكان عدد العرب قليلاً جداً، فاستشهد معظم جنده، وكان هو معهم. ودُعيت هذه المعركة عند الإفرنج باسم (بواتيه) وعند المسلمين باسم (بلاط الشهداء) لكثرة من قُتل منهم. وكان ذلك في شوال ١١٤ هـ (أواخر ٧٣٢ م).

الدولة الأموية - المرَوانيّة بالأندلس

كان عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك في القلّة الأموية القليلة الذين نجوا من سَطْوَةِ المُسَوَّدَةِ العباسية^(١) ومن سيوف السفاح. تغلغل في البلدان غرباً مع مولاه بدر حتى استقر عند أخواله من قبيلة نفزة بالقرب من طنجة.

وكان الأندلسيون قد أقاموا لأنفسهم نظاماً مؤقتاً للحكم تنافس فيه اليمنيّة والمُضَرِّيّة، وتربّص بعضهم ببعضهم الآخر. واستطاع عبد الرحمن أن يدخل الأندلس، ويكون أوّل داخل أموي، بذكاء خارق، وبتمهيد سُمعة الأمويين التي ما تزال ثابتة في الأذهان، وبتدبير أنصارهم. وقد أسَّس عبد الرحمن دولةً أموية

(١) سُمّوا: المسوَّدة؛ لأنهم رفعوا شعار السَّوَاد، بدلاً من شعار البياض الذي اتَّخذه بنو أميَّة. وإلى هذا يشير ابن حزم على سبيل التلميح في أثناء نصِّ غزلي:

ومذ لاحت الرايات سُوداً تيقنت نفوس الوري أن لا سبيل إلى الرشدا
نظر كتابنا: المختار من الشعر الأندلسي).

جديدة فتية تجمع فلول قومه، وتعيد سيادتهم على تلك الأرض الأوربية، حتى صارت الأندلس منارة إشعاع علمي وفكري وحضاري، حين كانت أوربة في ظل جهالة عمياء تلف معظم أقطارها وبلدانها.

وتقسم مدة الدولة الأموية إلى فترتين:

(١) فترة الإمارة (من ١٣٨ هـ إلى ٣١٦ هـ).

(٢) فترة الخلافة (من ٣١٦ هـ إلى ٤٢٢ هـ).

وعند توزيع مدة الخلافة إلى طبيعة الحكم فيها، فتقسم إلى:

- فترة ازدهار الخلافة الأموية (٣١٦ هـ - ٣٦٦ هـ).

- فترة استبداد المنصور محمد بن أبي عامر (٣٦٦ هـ - ٣٩٢ هـ).

- فترة الفتنة (٣٩٢ هـ - ٤٢٢ هـ) وإن لم تظهر الفتنة عالية الصوت إلا في زمن شنجول ولد المنصور بن أبي عامر الثاني الذي تولى الحجابة أيضاً بعد أخيه المظفر.

(أ) أنشأ عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) دولة حديثة جديدة في حدود الأندلس؛ وأنهى بذلك صراعاً على الحكم هناك، وجمع الناس حوله، وحول العصبية لبني أمية؛ وترك شؤون المغرب لأهله، ولم يتسم باسم الخلافة، واكتفى بلقب الأمير. ونظم شؤون الأندلس السياسية والعمرانية، والاقتصادية والاجتماعية، وقضى على الفتن، ودواعيها. وحين هاجم شارلمان الأندلس (سنة ١٦١ هـ - ٧٧٨ م) لم تفلح غزوته على الرغم من تحالفه مع بعض الخارجين على الدولة الأموية. وانقض المسلمون على مؤخرة جيشه فاضطرب، ثم هزم وتفرق جنوده، ورجع خائباً. وسلمت الأندلس لعبد الرحمن وولاته.

- وكان عبد الرحمن ينظم الشعر، وبقي من شعره ما يدل على معرفة بهذا الفن وإتقان له أيضاً.

وخلفَ عبد الرحمن ابنه هشام، وتلقب بالرضي (حكم بين ١٧٢ هـ - ١٨٠ هـ) ومن أعماله المهمة هزيمته لبرمودة الأول (سنة ١٧٦ هـ) ملك جيليقية حين هاجم الأندلس. وفي أيامه انتشر المذهب المالكي في الأندلس على يدي فقيه الأندلس الشهير: يحيى بن يحيى الليثي (ت ٢٣٤ هـ).

وجاء بعده ابنه الحكم (الأول). ولاقى عدداً من المشكلات منها: سقوط برشلونة في يد شارلمان (١٨٥ هـ) وهيجُ الرّبض (ربض قرطبة) الذي قام به جماعة من الفقهاء وأنصارهم ضدّ الحكم، وأسفر عنه مقتل عدد منهم وتغريب عدد آخر استقروا في جزيرة إقريطش (كريت)؛ وهما هيّجان تما سنة (١٨٩ هـ - ٢٠٢ هـ). وبهذا عُرف هذا الأمير باسم الحكم الرّبضي.

وخلفه عبد الرحمن (الثاني، وعُرف بالأوسط) (٢٠٦ هـ - ٢٣٨ هـ). وفي زمانه هاجم الأندلس النورمانديون (سمّاهم العرب الأردمانيين). وأصيب المسلمون إصابة بليغة من وراء تلك الغزوات. ونتج عنها تقوية الأسطول الأندلسي وإنشاء دار صناعة للسفن مهمّة، وأرسلت سفارة إلى النورمان، قام بها يحيى الغزال ورفيق له. ونظّمت في زمانه حركة الاستخفاف، وهي حركة ((نظمتها البابوية ودولة الإفرنجية (فرنسة) وكان رئيسها في الأندلس الراهب أولوغبوس وأما ممولّها فكان ألبارو اليهودي وقوامها أن يقوم راهبٌ أو رجل نصراني من العامّة قرب الجامع أو في ساحة عاتّة ثم يشتم محمّداً (صلّى الله عليه وسلم ونزّه وكرّم) وكان عوام المسلمين يشورون إلى هذا ((المستخف)) فيصربونه أو يقتلونه. ولكن رجال الدّين المسيحي في الأندلس شجّبوا هذه الحركة الطائشة، ثم تمكّن عبد الرحمن الأوسط بحكمته من تخفيف حدّتها^(١)، ثم انتهت نهائياً في عهد ابنه كما سيأتي.

وفي عصر عبد الرحمن وفدَ زريابُ من المشرق، وكان له تأثير بالغ في حركة الموسيقى والغناء؛ وكان لهذه الحركة أثرٌ في الأدب، وتمهيدٌ لفنّ التّوشيح.

(١) عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي ٥٨/٤

- في عصر ابنه محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ هـ - ٢٧٣ هـ) قُضي على حركة الاستخفاف، ونجحت حركة عمر بن حفصون، وكان رجلاً يتظاهر بالإسلام، وشغل الدولة الأموية بحركته التي كان وراءها أيضاً: البابوية، ودولة الفرنجة؛ كما يقرر المؤرخون مثل محمد عبد الله عنان وعُمر فروخ، والمؤرخون الغربيون أيضاً.

ولم يطل عهد الأمير المنذر أكثر من سنتين (٢٧٣ هـ - ٢٧٥ هـ) ليحيى الأمير عبد الله (٢٧٥ هـ - ٣٠٠ هـ) وقد بلغت الأندلس دركة ضعفها، وكادت أن تنقسم إلى أجزاء متناحرة^(١). وفي هذه المدة ظهر بنو حجاج في إشبيلية، وقد مدحهم ابن عبد ربّه، وآل تُجيب بسرْقُسطة وقلعة أيّوب، وبنو ذي النون في طليطلة. ونجحت فتنة بين العرب والمولدين في مناطق مختلفة من جنوبيّ الأندلس.

وخلف الأمير عبد الله حفيده عبد الرحمن بن محمد (٣٠٠ هـ - ٣٥٠ هـ) وقد رعاه رعاية خاصة، وأعدّه لتحمل أعباء الحكم؛ ولكنه في الوقت نفسه أورثه دولة مضطربة يتنازعها الطامعون بالاستقلال، وابن حفصون داعية السوء الممدود اليد إلى الأجانب الأعداء.

(ب) بدأ بعد الرحمن (الثالث) بن محمد حياته السياسية والعسكرية بحملة شاملة انتهت بالقضاء على فتنة ابن حفصون؛ وانحياز الثائرين هنا وهناك إلى الدولة الأموية، والتفافهم حول الرجل القوي الذي أعاد تأسيس الدولة، وأرجع إليها سطوتها ونفوذها.

وأعلن عبد الرحمن نفسه خليفة سنة (٣١٦ هـ) بعد تداعي قوّة الخلفاء العباسيين، وظهور الخلافة الفاطمية.

(١) ينظر كتابنا: سعيد بن جودي: أحد ثوار الدعوة العربية وشعرائها بالأندلس.

وفي زمانه كان قدوم أبي عليّ القالي من المشرق؛ وتأسيس أكبر مكتبة في العالم القديم على يد ابنه وولي عهده: الحكم بن عبد الرحمن (الملقب بالمستنصر).

وكانت أيامه أيام قوة وتمكّن وسيادة.

وامتدّ زمان الحكم من (٣٥٠ هـ إلى ٣٦٦ هـ) وخلفه ابنه القاصر هشام، وعُرف بلقبه: ((هشام المؤيد))، ورعت شؤونه أمّه صُبح: (أورورا).

وصعد نجم محمد بن أبي عامر الذي كان وزيراً للحاجب (رئيس الوزراء) جعفر المصحفي. وما لبث أن استبد بالحكم، وجعل الخليفة مجرد رمز لا قوة له. وتبدأ هنا مدّة سيطرة ابن أبي عامر الذي عُرف بـ (الحاجب المنصور) الذي توفي سنة (٣٩٢ هـ) ليخلفه في الحجابة ابنه عبد الملك الملقّب بالمظفر الذي توفي سنة (٣٩٨ هـ)، وخلفه أخوه عبد الرحمن الملقّب بـ (شُنجُول)^(١)، ولم يكن مثل أبيه وأخيه: قدرة وحزمًا. ثم إنه أقنع هشاماً المؤيد (حكم من ٣٦٦ هـ إلى ٣٩٩ هـ) فجعله ولياً للعهد.

ودخلت الأندلس عصر اضطراب وفتنة، فقد أبى الأمويّون تولية شُنجُول، ونصبوا خليفة آخر غير هشام، ثم تدخل البربر وعيّنوا خليفة، ثم استبدّ بقرطبة بنو حمّود (حسنيّون من المغرب) مدّة، ثم كان آخر خلفاء بني أمية هشام المعتدّ الذي قُتل سنة (٤٢٢ هـ) وبموته انتهت الدّولة الأمويّة^(٢).

وكان انقضاء دولة بني أمية إيذاناً بئساً بالعَدّ التّنازلي للضعف والتّخاذل والانقراض، وإنذاراً بخطورة تضييع الوُحدة، وبمساوئ الانقسام والتّشرذم.

(١) أي شأنجُه الصّغير (كانت أمّه حفيدة ملك بنبلونة الفرنجي المسّي شأنجُه).

(٢) وظهر عدد من الخلفاء المستضعفين، أو الذين لم يتمكنوا من ضبط الأمور وإن كانوا أكفّاء لضعف العصبية وتشتت الأهواء. ولم تستطع الأندلس النجاة من عصر الفتنة هذا (٤٠٠ هـ - ٤٢٢ هـ) بسلام. وذهبت الدّولة الأمويّة مأسوفاً عليها.

عصر الطوائف (دويلات متشرذمة متناحرة في الأندلس)

كانت ثورة قرطبة على أولاد المنصور بن أبي عامر، والفتنة الكبرى التي أعقبتها قاضيتين على الخلافة. وقد تطاحت على دفعة الأمور خلال هذه الفتنة المبيرة طوائف شتى، كان كلٌّ منها يحسب أنه قادر على قطع دابر الفتنة، وإعادة الدولة، وتسيير الأمور. فقامت عقب سقوط الخلافة حكومة في قرطبة أشبه بحكومة البلديات (سنة ٤٣١ هـ) وانتهى تطاحن الطوائف إلى تحزبها خلال أدوار الفتنة الأهلية في طوائف ثلاث متعادية فيما بينها: البربر، وقد استولوا على الجزء الجنوبي من الأندلس، والصقالبة؛ وقد انحازوا إلى شرقه واستبدوا به، والأندلسيين وقد أقاموا دُولهم في ما بقي للمسلمين من الجزيرة^(١).

ويؤرخ لعصر الطوائف بزمانٍ يمتد من (٤٢٤ هـ إلى ٤٨٤ هـ) سنة سقوط دولة بني عباد في يد يوسف بن تاشفين. وهو تقديرٌ مقاربة.

وكانت دول الطوائف أو دويلاتها تتألف من مدينةٍ وما حولها، أو مدينتين، أو أكثر من ذلك بحسب المقدرة والنفوذ. وقد اتخذوا جميعاً شارات الحكم وأبهة السُلطة، وجمَعُوا في بلاطاتهم الشعراء والكتاب والعلماء، وبددوا الأموال، وأغدق كثيرٌ منهم على الحركة الأدبية والعلمية. وقد صَوَّر ابن رشيق هذه الدويلات في قوله:

مما يزهدي في أرضِ أندلسٍ ألقابُ مُعتَمِدٍ فيها ومُعتَضِدٍ^(٢)
ألقابُ مملكةٍ في غير موضعها كالمهرٍ يحكي احتيلاً صولة الأسد!

وعدَّ الدكتور عمر فروخ من دُول الطوائف ثلاثاً وعشرين^(٣)، وفيها:

(١) تاريخ الفكر الأندلسي: ١٣

(٢) المعتمد والمعتضد لقبان لأmirين من دولة بني عباد. ضربهما الشاعر مثلاً. وقد سبق العباسيون إلى هذين اللقبين وغيرهما من الألقاب.

(٣) تاريخ الأدب العربي ٢٨٧/٤

- دُوَيْلاتُ العامريين (أعقاب المنصور ومواليه)، وكان مواليه فتیاناً من الصَّقالبة. ومنهم مُجاهد العامريّ في دانية، والجزائر الشرقية: (ميورقة ومنورقة ويايسة).

- ومنهم عبد العزيز حفيد المنصور في بَلَنْسِيَّة.

- ومنهم الفتى خَيْرَان العامري الصقلبي في المَرِيَّة، التي انتقلت سلطتها إلى زهير العامريّ، ثم استقرَّت أمورها لابن صُمادح سنة (٤٤٤ هـ) وكان أديباً شاعراً.

- ومن دول الطوائف دولة بني هُود في سَرَقُسْطَة؛

- ودويلة بني ذِي النُّون في طَلِيْطَلَة؛

- ودولة بني زَيْرِي في غَرْناطَة؛

- ودولة بني الأَفطس في بطليوس؛

- ودولة بني عَبَّاد في إشبيلية؛ وكانت أكبر الدُّول وأشهرها.

- ودولة بني جَهْوَر في قرطبة.

دخول المرابطين

وكان لا بدّ لهذا التفرُّق في زمن دول الطوائف^(١)، وذلك الصراع الذي لم يهدأ في ما بين حكامها، والتَّائمين على أمورها، من أن يؤدِّيَ إلى نتائج وخيمة، وهناك عدوٌّ يترَبَّص بالمسلمين الدُّوائر، ويتنهر كل فرصة سانحة.

- ومن هذه النتائج الوخيمة: سقوط مدينة بُرْبَشْتَر سنة (٤٥٦ هـ) في أيدي الأَرْدُمَانِيَّين (النُّورمانديين)، وأصيبَ في تلك النكبة نحو خمسين ألفاً بين قتلٍ

(١) تنظر كتب التاريخ الأندلسي. ونذكر منها: ((دول الطوائف)) عنان؛ تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس / مجموعة من الأساتذة/ الموصل؛ والتاريخ الأندلسي للدكتور عبد الرحمن الحجّي. وتاريخ العرب.

وسبي. وكان سقوطها بتقاعس من يوسف بن هود صاحب سرْقُسطة؛ على أن ابنه أحمد استردّ المدينة بعد شهر؛

- ومنها استيلاء ألفونسو السادس (الأذفونش كما يُسمّيه العرب) على طَلِيْطلة سنة (٤٧٨ هـ).

- ومنها سُقوط بلنسية بيد قائد عسكري مُرتزق عُرف بالسّيد القَمْبِيْطُور، وكان سقوطها مروّعاً، والخسائر في أهلها فادحة. وبقيت محتلة حتى سنة (٤٩٥ هـ) واستعادها ابنُ تاشفين زعيم المرابطين.

* وكان لهذا كله صدّى واسع في الأدب الأندلسي.

- واستطال ألفونسو على أمراء الطوائف وحكامهم، ووضع في خطته الاستيلاء على الأندلس كلها. ورفض عطايا أولئك الحكّام وما فرضه عليهم مبالغة في إذلالهم، ومنهم: المُعتمد بن عباد صاحب إشبيلية.

واجتمع الرّأي من العلماء والفقهاء وأهل الحلّ والعقد، ومن المُعتمد أيضاً على الاستنجاد بالمرابطين^(١)، ووافقهم على ذلك جمهرةُ أمراء الطوائف.

وجاز يوسف إلى الأندلس والتقى ألفونسو السادس عند (الزّلاّقة) إلى الشّمال الشرقي من بَطْلْيُوس في (١٢ رمضان ٤٧٩ هـ) وانتصر عليه ومزّق جيشه. وترك الغنائم للأندلسيين.

ثم جاز مرّة أخرى، فراه من عددٍ من أولئك الحكّام عودتُهم إلى الاستنجاد بالعدوّ. فجاز ثالثة سنة (٤٨٣ هـ) ليقضي على معظم تلك الدّويلات ويوحّد العُدوّتين^(٢). ويبدأ عهد جديد في بلاد الأندلس مع الدولة الفتية النشطة.

وتوحّدت العُدوّتان (الأندلسيّة والمغربيّة) أيامَ دولة المرابطين (٤٨٤ هـ - ٥٣٩ هـ)، وتوالى على الدّولة: يوسف بن تاشفين (ت: ٥٠٠ هـ) ثم ابنه عليّ

(١) انظر: نشوء دولة المرابطين.

- والجزء الخاص بالمرابطين والموحّدين من تاريخ محمد عبد الله عنان.

(٢) أي عُدوة المغرب وعُدوة الأندلس.

(٥٠٠ هـ - ٥٣٧ هـ) ثم حفيده تاشفين بن عليّ (٥٣٧ هـ - ٥٣٩ هـ)، وفي زمن تاشفين نهض الموحدون بدولتهم الجديدة، وحلّوا محلّ المرابطين في الأندلس والمغرب معاً.

- دخول الموحدين:

تُنسبُ حركة الموحدين إلى أمغار بن تومرت الهرغي من قبيلة مَصْمُودَة من أهل الشّوس، ويسمّيه أتباعه أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت، وتلقّب هو بالمهديّ بن تومرت. وكان قد طاف بالأندلس طلباً للعلم، وقصد إلى المشرق، ولقي العلماء وبعض تلامذة الغزالي؛ وعاد ليعظ الناس، ويجمّعهم حوله، ويدعو إلى إسقاط دولة المرابطين. ولما تولّى سنة (٥٢٤ هـ) فجأة قام بأمر الموحدين واحد من القادة المقربين إلى المهديّ هو عبد المؤمن بن علي. وقد طهر سواحل إفريقية من النورمان ودخل الأندلس.

وبرز من خلفاء الموحدين: حفيد عبد المؤمن، وهو الملقّب بالمنصور الذي جاز إلى الأندلس سنة (٥٩١ هـ) وهزم تجمّعاً عظيماً لألفونسو الثامن والحشود الصليبية التي جاءت من أوربة في معركة الأرك التي تُذكر بواقعة الزلاقة.

على أنّ الموحدين هُزموا في الأندلس سنة (٦٠٢ هـ) وخليفتهم الملقب بالناصر في وقعة العقاب، وهزموا أيام ابنه الملقب بالمنتصر سنة (٦١٠ هـ) في معركة أبي دانس.

وكانت هذه الهزائم إيذاناً بضعف الموحدين، وكانت فرصة سانحة للدول الشمالية لتحتلّ معظم بلاد الأندلس في عقود قليلة من القرن السابع الهجري، وانتهاء دور الموحدين في الأندلس.

وتوالى على الموحدين: المؤسس ابن تومرت (ت ٥٢٤ هـ) ثم جاء معاونه عبد المؤمن بن علي (ت ٥٥٨ هـ) وأبو يعقوب يوسف (ت ٥٨٠ هـ) وأبو

يوسف يعقوب المنصور (ت ٥٩٥ هـ) وأبو عبد الله محمد الناصر (ت ٦١٠ هـ) ويوسف المستنصر (ت ٦٢٠ هـ).

وعبد المؤمن بن علي هو أول من دخل الأندلس من خلفاء الموحّدين؛ وأمر ببناء مدينة الفتح عند جبل طارق، ولقيه العلماء والفقهاء والأدباء عند دخوله في يوم مشهود.

وشهد عصر الموحّدين في الأندلس عهد قوّة وتمكّن، وانتصروا في هذه المدة على جيوش العدو في أكثر من موقعة مثل حملة أبي يوسف يعقوب الملّقب بالمنصور سنة (٥٨٧ هـ) التي استعاد فيها قصر أبي دانس ومدينة شلب، وهما مدينتان كانتا قد سقطتا في يد العدو المتحالف مع الحملات الصليبية المتوجهة غرباً. كما سجّل تاريخ الموحّدين انتصار المنصور سنة (٥٩١ هـ) في موقعة الأرك التي هُزم فيها جيش ألفونسو (الثامن) ملك ليون.

ولكن ابنه أبا عبد الله محمد الملّقب بالناصر خسر معركة فاصلة سنة (٦٠٢ هـ) عرفت باسم العقاب مع ألفونسو الثامن الذي كانت ((معه جيوش صليبية من عدد من دول أوربة التي تولّى البابا أنوصان - أنوسنت الثالث - تشجيعها على المشاركة في حرب المسلمين في الأندلس))^(١).

وقد كانت موقعة العقاب نذيراً بضعف الدولة الموحّدية في الوقت نفسه الذي كانت فيه نذيراً باضطراب أحوال الأندلس وظهور فترة مشابهة لمدة عصر الطوائف في التشرذم والتشتت والضعف، وتكالب العدو على البلاد والعباد.

من الموحّدين إلى بني الأحمر

ومع ضعف الموحّدين (في المغرب والأندلس) ظهر على الساحة السياسيّة عدد من الطامحين والطامعين من الولاة والقادة وغيرهم. فثار عليهم محمد بن

(١) التاريخ الأندلسي - د. الحجي - ٤٦٤

يوسف بن هود الجُذامي (أصله من سرقسطة) كان في مرسية وأطاعته مدن كثيرة مثل مرسية وقرطبة وإشبيلية وغرناطة ومالقة والمرية وغيرها.

وتصدى لمنافسة ابن هود على حكم بقايا الأندلس رجل من قرطبة هو محمد ابن يوسف بن نصر (وعرفوا ببني الأحمر) فاستبدَّ بحكم غرناطة سنة (٥٢٩ هـ) وتنافسوا وأضاعوا مدناً وحصوناً في أيدي العدو الذي استنجدوا به (فرديناند الثالث ملك قشتالة، ووالده ألفونسو التاسع ملك ليون).

وقد هُزم ابن هود في عدد من المعارك، وكان فُأله في حكم الأندلس سيئاً وطالعه على أهل البلاد شؤماً. وأضاع ابن الأحمر فرصاً وتخلَّى عن بلاد أيضاً، حتى استقرَّ له الحال في دولة صغيرة عاصمتها غرناطة.

وكان القرن السابع في الأندلس عصر انهيار حقيقي اجتمع فيه عناصر متعدّدة:

- ضعف الموحّدين وتنافس أمرائهم الذين كان تنافسهم مزمياً في بعض جوانبه.

- قيام الثوار الطامعين على الدولة الموحّدية في الأندلس والمغرب.

- تحالف دول الشمال مثل قشتالة وليون وأرغون ونبرّه والبرتغال^(١).

وكان عصر بني الأحمر الصحوة العربية الإسلامية الأخيرة في الفردوس الأندلسي. واستمرت دولتهم أكثر من قرنين ونصف قرن من الزّمان. وكانت مدّتهم تجمع بين الجهاد والمقاومة والهجوم والدّفاع على امتداد زمانهم من جهة؛ وبين النهضة المحدّدة في مناحي الحياة العلمية والعملية والثقافية والعمرانيّة من جهة أخرى.

(١) يُنظر بيان عمّوكهم وأمرائهم في: التاريخ الأندلسي: ٥٢٤ - ٥٣١

لقد كانت الأندلس في ظل دولة بني الأحمر أندلساً مصغرة من الأندلس العظمى، فيها من سماتها وملامحها، وفيها من ألقها وعنقوانها، ووجودها الحضاري.

وقد ظهر عدد كبير من العلماء ونبغوا في هذه المدة في صنوف العلوم والصنائع والمعارف والآداب والفنون، وصارت مدينة غرناطة وأخواتها الباقيات منارة علم وأدب وفن وصناعة متقنة، وعمل متقن.

وكان لتعاون بني مرين (خلفاء الموحدين في المغرب الأقصى) مع الأندلس أثر مهم جداً في استمرار الوجود العربي الإسلامي في الأندلس. ودام هذا التعاون زماناً طويلاً. وضعف باختلاف الدولتين أحياناً، وانهار بتهافت قوة بني مرين في القرن التاسع.

ونلخص موقف الأندلس وأهلها في هذه المدة، في مواجهة دول الشمال القوية العاتية المتعاونة مع أوربة والبابوية بقول أحد المؤرخين: ((لقد عُدد في الغرائب استمرار مملكة غرناطة هذه المدة على رغم صغرها وقلة عدد سكانها، محافظة على ما بقي للمسلمين من سلطان سياسي ووجود حضاري معطاء))^(١).

الحضارة والعمران

وُصِفَت حياة النَّاس في الأندلس في بدايات الفتح بأنها كانت أقرب إلى البداوة والتّقصّف^(١)، واستمرت كذلك أيام الوُلاة يستوي في ذلك العرب والبربر وأهل الأندلس، غير أنهم أخذوا في التحضّر زمن الدولة الأموية بسبب ما ساد حياتهم من أمن واستقرار، وأخذوا يخطّون في ذلك خطوات قوية منذ عهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ)؛ لشغفه بحضارة أهل المشرق... وسرعان ما انتقل الأندلسيون من جلب الطّرف والتّحف إلى صناعتها والإبداع في تلك الصناعة. وقد أسهم زرياب في نقل كثير من أساليب الحياة وأسباب الرفاهية مما رأى في بغداد إلى الأندلس^(٢).

وتستمر الحال على هذه الأناقة حتى وصلت إلى نوعٍ من الانغماس في الحضارة. وساعدهم على ذلك وفرة الخيرات - في معظم أحوال النَّاس على تبدّل العُصور - إلا في حالات الأزمات، والشّدائد.

ويذكر تاريخ الحضارة والفنّ الاهتمام بالمباني والعُمران والحِدايق كالذي صنعه عبد الرحمن الناصر. والذي حاكاه كثير من حكام دول الطوائف حتى خرج بعضهم إلى التّرف والسّرف؛ وفي ديوان أبي إسحاق الإلبيري (ت ٤٦٠) ما يشير إلى هذا بوضوح^(٣).

(١) الأندلس د. شوقي ضيف: ٤٧

(٢) انظر دراسة عن زرياب في عدد من سلسلة أعلام العرب: محود الحفني - ونفح الطيب ١٢٧/٣ وما بعدها.

(٣) لأبي إسحاق ترجمة في هذا الكتاب.

ولئن كانت دولة المرابطين دولة، عملية، كما يقال اليوم لقد استمر أهل الأندلس على أناقة الحياة بل أثروا في المجتمع العربي، أيام وحدة العدوتين مع المرابطين، ومع الموحدين بعدهم.

ولا ينسى التاريخ، ولا عالم الآثار ما بقي على أرض الأندلس من المباني العريقة الأنيقة التي ما تزال تسحر ألباب الزوار من أنحاء العالم في مسجد قرطبة (بني على عهود عدد من أمراء الأمويين وخلفائهم) وفي القصر (الكازار) في إشبيلية، والجامع الكبير ومثذنته المشهورة بالدوّاره (الخيرالدا)، وقصر الحمراء في غرناطة...

وقد أشار ابن خلدون (ت ٨٠٧ هـ) إلى شيء من هذا حين دخل الأندلس فقال: إنا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة، وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو إليه عوائد أمصارها كالمباني والطبخ، وأصناف الغناء واللهو، من الأوتار والآلات والرقص، وتنضيد الفرش والرياش، وحسن الترتيب والأوضاع في بناء القصور، وصوغ الآنية من المعادن والخزف وجميع المواعين وسائر الصنائع التي يدعو إليها الترف وعوائده، فنجده أقوم عليها، وأبصر بها، ونجد صنائعها مستحكمة لديهم وهم على حصة موفورة من ذلك وحظ متميز بين جميع الأمصار لما قدّمناه من رسوخ الحضارة أيام الدولة الأموية ودول الطوائف^(١).

(١) مقدمة ابن خلدون: ٩٣٨ (تحقيق علي عبد الواحد وافي).

الثقافة والعلوم والآداب^(١)

١ - حين دخل الفاتحون العرب إلى الأندلس كان هدفهم نشر الدعوة، وتبليغ الرسالة، وحملوا معهم كل ما كان لديهم من ألوان الثقافة والعلم والفكر؛ وانتشرت كتاتيب المؤدّبين واتسعت حلقات الفقهاء والعلماء لطلاب العلم من كل جنس ودين. وساعد على ذلك تسامح الإسلام ومعاملة سائر المواطنين بالعدل والحُسن.

وصارت بلاد الأندلس مقصداً للطامحين إلى المجد والمال من أهل العلم والتجارة والصنائع. واستقدم الأندلسيون بعض الشخصيات المؤثرة في الحياة الأدبية والعلمية والفنية مثل (زرياب) تلميذ آل الموصلي، وأبي علي القالي البغدادي.

وبلغت الأندلس الأوج أيام عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) واشتهرت المكتبة العظيمة التي أنشأها بإشراف ولي عهده الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ). حتى قال ابن خلدون: ((اجتمعت بالأندلس لعهد هذه خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده))^(٢).

وصارت الأندلس في عهد الطوائف أندلسات كثيرة، وراجت سوق العلوم والفنون والآداب، متابعة لما كان، أو محاولة من حكام دول الطوائف لتكون لهم سابقة في هذا الجانب الثقافي. وفي كتب التراجم إشارات كثيرة إلى كتب ألّفت

(١) ينظر: تاريخ الفكر الأندلسي: بالثيا، ترجمة د. حسين مؤنس؛ و فضل الأندلس على ثقافة الغرب: خوان فيرنيت، ترجمة نهاد رضا، ودولة الإسلام في الأندلس: محمد عبد الله عنان (فصول حضارية في ذيول الأبواب التاريخية المختلفة). ومناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية - الجزء الثاني.

(٢) تاريخ ابن خلدون ١٤٦/٤

وأهديت إلى أولئك الحكّام وطرزّت بأسمائهم: في الآداب، والعُلوم، والفلسفة، والطّب، والصيدلة... إلى غير ذلك.

وظلت الحركة العلمية والأدبيّة والفلسفية مطّردة النمو في عصر دولتي المرابطين والموحّدين. وكان للأندلسيين أثر في المغرب، ثقافياً وفكريّاً في تناسق وتكامل.

وعلى الرغم من انحصار دولة غرناطة الباقية في حيّز محدود من أرض الأندلس استمرّت الحركة العلمية والأدبية والحضارية عامّة على حالها من النشاط والحيويّة؛ بل ازدادت تركيزاً بانضمام كثير من العلماء والأدباء الذين سقطت بلادهم إلى أهل دولة غرناطة، في ظل سلاطين بني الأحمر الذين اهتموا بهذه الجوانب، وكان بعضهم مشاركاً في الفقه والأدب، وخلف بعضهم دواوين شعريّة مثل يوسف الثالث.

٢ - أثبت دارسو تاريخ العُلوم المختلفة أن الأندلس أسهمت في حركة التقدم الحضاري على كل صعيد؛ ومن يتابع هذه الحركة منذ أيام الدولة الأمويّة إلى ما بعد سقوط غرناطة يلاحظ: إسهام الأندلسيّين في ما كان يدعى علوم الأوائل من الرياضيّات والفلك والفلسفة. وظهرت فيهم أسماء لامعة، ونسبت إليهم نظريات وأدوات وتطبيقات علمية بارعة، ونذكر هنا - على سبيل التمثيل الذي قد يكون غريباً - أن القلّصادي كان من علماء الرّياضيّات البارعين، ووصل صيته إلى المغرب والمشرق، علماً أنه أدرك أواخر أيّام الإسلام في الأندلس، وتوفي سنة (٧٩١ هـ) في بجاية بإفريقية (هي الآن في الجزائر)، وذلك قبل سقوط الأندلس بنحو سبع سنوات.

٣ - وازدهر الطّب في الأندلس، بل إنّ ازدهاره أدّى إلى ظهور أسر اشتهرت بهذا العلم وبرعت فيه، وتركت آثاراً تأليفية مهمّة كأسرة بني زُهر الإشبيليّين، والذين سيذكر لهم مشاركة مهمة في الشّعْر وفنّ التّوشيح، وشخصيات مؤثّرة في تاريخ الطّب عند العرب، كالزّهراوي صاحب الاستنباطات والاكتشافات،

والذي سارت كتبه، وترجمت إلى لغات كثيرة (ت ٤٠٤ هـ)، وقد ألف الزهراوي موسوعته الطبية: (التصريف لمن عجز عن (التأليف) في ثلاثين جزءاً).

أما بنو زهر فتسلسل من مشهورهم عبد الملك وابنه أبو العلاء، وابنه عبد الملك، وابنه أبو بكر بن زهر. وظهر في هذا البيت أطباء آخرون وطبيبات.

٤ - وبرع الأندلسيون في علم الصيدلة وصناعة الأدوية، وأسهموا في فصل هذا العلم عن علم الطب. كما نبّهوا في دراسة النباتات بصفة عامة والأعشاب والحشائش والنباتات الطبية؛ وبرز منهم (عشابون) ذوو أهمية عربية وعالمية؛ وفي هؤلاء العلماء بالنبات والأعشاب ابن الرومية الإشبيلي (ت ٦٣٧ هـ) وتلميذه ابن البيطار الذي يوصف بأنه أعظم العشابين والصيدلة أندلسيين وغير أندلسيين، وهو صاحب كتاب (الجامع لمفردات الأغذية والأدوية) والمشهور باسم: مفردات ابن البيطار (توفي سنة ٦٤٦ هـ بدمشق).

٥ - وظهرت الدراسات الفلسفية والمنطقية في الأندلس، وإن تأخرت عن مثيلاتها في المشرق (أول من أظهر الفلسفة وكان له رأي ابن مسرة ت ٣١٩ هـ). ونبه صاعد الأندلسي في كتابه (طبقات الأمم) على المشتغلين بالمنطق من الأندلسيين، والمشتغلين بالفلسفة.

ولا يغيب عن الذاكرة أعمال ابن السيد البطليوسي، وابن باجة، وابن الطفيل وابن رشد، ولا يُنسى أثر كثير منهم في الفلسفة العربية خاصة وفي الفلسفة الأوربية، وخصوصاً ابن رشد، وأتباعه من (المدرسة الرشدية).

٦ - وبرع الأندلسيون في علم الجغرافية، ووضعوا مؤلفات تشمل بلاد الأندلس وتوضح خصائصها وبلدانها وما تشتهر به من طبيعة ونتاج. وأصدروا مؤلفات عن بلدان أخرى في المغرب والمشرق.

ويبرز فيهم: أحمد بن محمد الرازي (ت ٣٤٤ هـ) وهو مؤرخ جغرافي. وأبو عُبَيْد البكري صاحب (المسالك والممالك)، وأحمد بن عمر العذري الدلائي (ت ٤٧٦ هـ)، ومحمد بن أبي بكر الزُّهري.

ومن الكتب التي قدّم لها مؤلفوها بمقدّمات جُغرافية كتاب (الإحاطة في أخبار غرناطة) للسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ)، وكتاب (المغرب في حلى المغرب) لابن سعيد.

٧ - وكان للأندلس مكانتها، وأثرها في مجال علوم اللغة والنحو والبلاغة، والنقد. كانت الحركة العلمية في هذه الجوانب متناسقة مع ما يجري في المشرق، وكان علماء ذوو شأن يفدون إلى الأندلس أو يُستقدمون، كما كان طلبة العلم والمستزيدون من العلماء يقصدون إلى المشرق: حرصاً على الرواية، ورغبة في لقاء العلماء، وتحصيل علم جديد، وأسهم هؤلاء في نقل الكتب الغالية، والشمينة.

وتحدّثنا كتب التراجم وغيرها عن أثر المؤدّبين والمعلّمين، وكبار الأساتذة أيضاً في إضفاء جوّ غزير الفائدة من إشاعة العربية والحرص على علومها، ومن انتشار العربيّة العالية في العرب والبربر والإسبان الذين ظلّوا على ديانتهم القديمة والمولّدين الذين دخلوا الإسلام من أهل البلاد.

ولا يُنسى أثرُ أبي علي القالي البغدادي وما أفاضه من جوّ علمي وثقافي عام في جوانب اللغة والنحو والأدب وغيرها؛ وما خرّج من أصحاب وتلامذة^(١).

ونشاط الأندلس في النحو لا يقل عن نشاطها في اللغة إن لم يتفوّق عليه^(٢). وقد دخل كتاب سيبويه وكتبُ النحو المهمّة دون إبطاء، وظهر فيهم نحويون مشهورون، وشاعت كتب نحو أندلسيّة، واشتهرت في المغرب والمشرق معاً.

(١) كتاب طبقات اللغويين والنحويين للزبيدي وهو تلميذ القالي وصاحبه.

(٢) عصر الدول والإمارات (الأندلس): ٩٥

وتبرز أسماء ابن الإفيلي، وابن السيد البطليوسي، وابن الباذش والسُّهيلي، والشُّلويين وابن خروف، وابن مضاء القرطبي صاحب الكتاب المشهور (الردّ على النُّحاة)، وابن عصفور، وابن مالك الملقب بـ ((ملك النُّحاة))... .

٨ - وأثبت الأندلسيون لأنفسهم اسماً في الدراسات البلاغية والنقدية. فممن اشتغل بالبلاغة ابن عبد الغفور الكلاعي صاحب (إحكام صنعة الكلام)^(١)، والمواعيني (ت ٥٦٤ هـ) صاحب الرِّيحان والرِّيعان، وابن رشد الذي تلتحم البلاغة عنده بالفلسفة^(٢)، وهو الذي لخص كتابي (الخطابة) و (الشعر) لأرسطو. وفيهم أبو البقاء الرندي صاحب كتاب (الروافي في نظم القوافي)^(٣).

ومن النقاد في الأندلس: ابن شُهيد، وابن حَزْم والكلاعي، والرُّندي الذي استفاد من ابن رشيق، وابن السّراج الشنتريني وحازم القرطاجني صاحب (منهاج البلغاء وسراج الأدباء)...

وكان الأندلسيون يفيدون من الدراسات النقدية والبلاغية في المشرق، ويفيدون من كتب أرسطو المترجمة، ولحازم مكانة خاصة بين نقاد الأندلس^(٤).

٩ - وأسهم الأندلسيون في علوم القرآن والقراءات، والتفسير، وعلوم الحديث، والفقه وعلم الكلام. كانت لهم صلاتهم بعلماء المشرق ورواياتهم عن العلماء هناك، كما ظهر في الأندلس (والمغرب) علماء في هذه الفنون صاروا أساتذة، وأنشؤوا مؤلفات مهمّة، ونظموا منظومات تعليمية ما يزال بعضها يدرّس إلى اليوم.

وقد اشتهر من العلماء بالقراءات جمهرة فيهم أبو عمر الطَّلْمَنكي (ت ٤٢٩ هـ) ومكي بن أبي طالب (أو حَمَوْش القيرواني) المتوفى سنة (٤٣٧ هـ) وأبو

(١) انظر الطبعة الثانية من الكتاب في عالم الكتب - بيروت.

(٢) الأندلس: د. ضيف ١٠٢

(٣) انظر دراسة عنه في كتاب (أبو البقاء الرندي) وآرائه البلاغية والنقدية في النقد الأدبي في الأندلس. وكلاهما من تألّيفي.

(٤) انظر: النقد الأدبي في الأندلس، والنقد الأدبي عند العرب.

عمرو الدّاني صاحب المؤلفات الكثيرة ومنها: (التيسير في القراءات السّبع) (ت ٤٤٤ هـ)، والإمام الشاطبي (صاحب منظومة الشاطبية) واسمه القاسم بن فيّره، وأبو حيان الغرناطي الأندلسي نزيل القاهرة.

وفي المفسّرين^(١) نذكر بقيّ بن مخلّد (ت ٢٧٦ هـ) وتفسيره مفقود، وابن عطية، عبد الحق بن غالب (ت ٥٤٢ هـ) صاحب: (المحرّر الوجيز) طبع في ١٥ مجلداً، والقرطبي، محمد بن أحمد (ت ٦٧١ هـ) صاحب: (الجامع لأحكام القرآن) طبع في ٢٠ مجلداً.

١٠ - وفي الحديث ألف بقي بن مخلّد في فترة متقدمة من تاريخ الأندلس كتاباً ضخماً رتبه على أسماء الصحابة، رضي الله عنهم، روى فيه عن ألف وثلاث مئة صحابي وزيادة، ثم رتب حديث كل صحابي على أسماء الفقه وأبوابه فهو: مصنّف ومسنّد، كما وصفه ابن حزم. وفي المحدثين بالأندلس محمد ابن وضاح (ت ٢٨٧ هـ)، وله رحلتان إلى المشرق. وثابت بن عبد العزيز السّرقسطي (ت ٣١٣ هـ) صاحب (الدلائل)، وقاسم بن أصبغ (ت ٣٤٠ هـ)، وفيهم الحميدي صاحب كتاب (جذوة المقتبس: في تراجم الأندلسيين)، وفيهم رزين السّرقسطي (ت ٥٢٤ هـ)، وفيهم عبد الحق الإشبيلي المعروف بابن الخراط (ت ٥٨١ هـ)، وعليّ بن محمّد المشهور بابن القطان (ت ٦٢٨ هـ)...

١١ - وفي الفقه كانت الأندلس في أول عهدها بالفتح على مذهب الأوزاعي فقيه الشام (ت ١٥٧ هـ)، واستمر العمل به إلى أن ساد المذهب المالكي - وكان مذهب أهل المدينة - وكان لأمراء الأندلس الأوائل ميل إلى الإمام مالك^(٢).

وقد سمع كثير من الأندلسيين من مالك، ومن تلاميذه أيضاً في المشرق عند رحلتهم في طلب العلم. وأول فقيه أندلسي يعدّ بين أئمة المالكية عيسى بن دينار

(١) مدرسة التفسير في الأندلس - مصطفى المشني - مؤسسة الرسالة ١٤٠٦ - ١٤٨٦

(٢) انظر تعليل د. شوقي ضيف لهذا الأمر في كتابه عن الأندلس: ١١٢

(ت ٢١٢ هـ)، وأخذ عن أصحاب مالك، وتألق بعده يحيى بن يحيى الليثي (ت ٢٣٤ هـ)، وفي فقهاء الأندلس عبد الملك بن حبيب (ت ٢٣٨ هـ)، وابن عُتْبَة، محمد بن أحمد (ت ٢٥٤ هـ)، وابن عبد البرّ القرطبي (ت ٤٦٣ هـ)، وأبو الوليد الباجي (ت ٤٧٤ هـ)، وأبو الوليد بن رُشد (ت ٥٢٠ هـ)، عُرف بالجدّ تمييزاً له عن الحفيد. وأبو بكر بن العربي الإشبيلي (ت ٥٤٣ هـ)، وابن حرب، محمد بن أحمد (ت ٧٤١ هـ)، وابن جُزي (ت ٧٤١ هـ) صاحب القوانين الفقهية، وسبطه أبو بكر بن عاصم (ت ٨٢٩ هـ).

ووجد من تمذهب للإمام الشافعي وخاصة في العصر الأموي، ودخل المذهب الظاهري الأندلس مبكراً، واشتهر عدد من الفقهاء بالأخذ به، أو التأليف فيه. وتمذهب الإمام ابن حزم بالمذهب الظاهري، وألّف فيه. وما يزال كتابه (المحلّى) المرجع المهم لهذا المذهب. كما أخذ الموحدون بالمذهب الظاهري، وظهر في أيامهم الفقيه والنحوي اللغوي ابن مضاء القرطبي.

١٢ - وألّف الأندلسيون في التاريخ: التاريخ العربي الإسلامي العام، والتاريخ المحلّي. وتحتفظ كتب التراجم والتواريخ بأسماء كتب كثيرة تناولت بلاد الأندلس بالتاريخ: في شكل أندلسي شامل، أو تاريخ المرحلة من المراحل أو بلدة من البلدان. كما حظيت السيرة النبوية وتراجم الصحابة بعناية متميّزة، وخصوصاً في أيام دولة الموحّدين.

ومن مؤرّخي الأندلس: ابن حيّان الأندلسي صاحب كتاب (المقتبس في تاريخ رجال الأندلس)، وكتاب (المتين)، والصيرفي (ت ٥٥٧ هـ) له كتاب في دولة المرابطين، وابن صاحب الصلّاة (ت ٥٧٧ هـ) صاحب كتاب (المنّ بالإمامة على المستضعفين...).

وفي مؤرّخي الأندلس: ابن عبد البرّ القرطبي، وسليمان بن موسى الكلاعي (ت ٦٣٤ هـ) وله كتاب في السيرة والثلاثة الخلفاء، وابن سيّد الناس صاحب (عيون الأثر).

وهناك سلسلة في تراجم أهل الأندلس، انتظم في تأليفها عدد من المؤلفين على امتداد عصور الأندلس مثل: (تاريخ علماء الأندلس) لابن الفرضي و (جذوة المقتبس) للحميدي، و (بغية الملتبس) للضبي، و (التكملة لابن الأبار) وقبله كتاب (الصلة) لابن الزبير.

ومن الباقي من كتب تواريخ البلدان كتاب (الإحاطة في أخبار غرناطة) للسان الدين بن الخطيب.

وأكثر الأندلسيون من التأليف في برامج العلماء، أو الفهارس^(١)، وقد نُشر عددٌ منها مثل (فهرسة ابن خير)، و (برنامج شيوخ الرعيبي)، و (فهرسة ابن عطية)...

وأكثر الأندلسيون من التأليف في تراجم العلماء والأدباء واللغويين في كتب شاملة، أو خاصة بعصر من العصور، أو قرن من القرون أو مدينة من المدن المهمة...

(١) انظر: المكتبة العربية ومنهج البحث - محمد رضوان الداية - دار الفكر - دمشق.

الفصل الثاني

الشعر الأندلسي

٥٣	الغزل
٦١	المديح
٧٢	الهجاء
٨١	الزهد
٩٥	التصوف
١٠٠	المدائح النبوية
١٠٧	الأدب والحكمة
١١٢	شعر الطبيعة
١٣١	الحنين إلى الوطن
١٤٠	الرثاء
١٤٠	(رثاء الأفراد)
١٤٨	(رثاء الدول والممالك الزائلة)
١٦٠	شعر الاستنجاد واستنهاض الهمم
١٧٨	الموشحات الأندلسية
٢٠١	الزجل في الأندلس

الغزل

من الغَزَل الجَيِّد في أوائل الشعر الأندلسي قصيدة للأمير الأموي عبد الرحمن بن الحكم^(١) (المعروف بالأوسط) جمع فيها بين الغزل والحماسة، فقد كان الأمير في غزوة بأرض جليقية (الشمالية) وطالت غزاته فقال يتشوق إلى زوجته المسماة بـ (طُرُوب):

فقدتُ الهوى مُذ فقدتُ الحبيبا	فما أقطع الليلَ إلّا نَحيبا
وإمّا بدت لي شمسُ النَّها	ر طالعةٌ ذكّرتني طُروبا
فيا طول شوقي إلى وجهها	ويا كبداً أورتتها ندوبا
ويا أحسن الخلق في مقلتي	وأوفرهم في فؤادي نصيبا
لئن حالَ دونك بُعدُ المزا	رٍ من بعد أن كنتَ منّي قريبا
لقد أورتَ الشَّوقُ جسمي الضَّنَى	وأضرَمَ في القلبِ منّي لهيبا
عَداني عنك مَزارُ العدا	وقودِي إليهم لهماً مهيباً ^(٢)
سموتُ إلى الشُّرك في جحفلٍ	ملأتُ الحزون به والشُّهوبا

فالغزل رقيق، والشاعر يتشوق إلى محبوبته، ويتذكّرها بعد طول غياب، ويصرّح بحقيقة مكانتها من نفسه وقلبه، ويعتذر - في إطار الغزل - عن غيابه

(١) البيان المغرب ٨٢/٢، وتاريخ افتتاح الأندلس ٨٠، وتاريخ ابن خلدون ١٢٧/٤، والمغرب ٤٥/١،

ونفح الطيب ٤٣٩/١، وأعمال الأعلام ١٨، والمعجب ٤٨

(٢) اللّهام: الجيش العظيم. والمهيب من المهابة. وروي: ((لهاماً لحياناً)).

عنها، ولكن لا بأس فإنه يحمي بذلك أرض الوطن ويدافع عن كرامته وكرامة قومه... وخطة الجهاد تسبق كل خطة وكل عاطفة...

- وفي ديوان ابن عبد ربّه قطع غزليّة تدلّ على مشاركته في هذا الفنّ، ومنه قوله:

يا لؤلؤاً يسبي العُقُولَ أنيقاً	ورشاً بتعذيبِ القلوبِ رفيقاً
ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله	دُراً يعودُ من الحَياءِ عقيقاً
وإذا نظرتَ إلى محاسن وجهه	أبصرتَ وجهك في سناه خريقاً
يا من تقطّع خصره من رقّة	ما بال قلبك لا يكون رقيقاً

فهذه المخاطبة كاللؤلؤ المنظوم، والرّشّ الرشيق، وهي تجمع إلى محاسن جمال الخلقة روعة الخنر والحياء...

- واشتهر في عصر الخلافة أحمد بن فرج الجيّاني^(١) الذي برع في الغزل وعده

د. ضيف ((حامل لواء الشعر العذري في الأندلس))، وله الأبيات المشهورة:

وطائفة الوصال عفت عنها	وما الشيطان فيها بالمطاع
بدت في الليل سافرة فبات	دياجي الليل سافرة القناع
وما من لحظة إلا وفيها	إلى فتن القلوب بها دواع
فملكت النهى جمحات شوقي	لأجري في العفاف على طباعي

- كما ذاعت قصيدة لأبي أيوب سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد

الرحمن الناصر (٣٥٤ - ٤٠٧ هـ)، وقد حكم الأندلس خليفة في مدّة الفتنة، وتلقب أيضاً بلقب الظّافر بالله. وقضى على يد علي بن حمّود.

وبعيداً عن جو السياسة المتقلب في تلك المدّة، كان المستعين أديباً فصيحاً، وشاعراً مكثراً، وكاتباً بارعاً.

(١) جذوة المقتبس: ٩٧، وقلائد العقيان: ٧٩، وبغية المتّمس: ١٤٠، والمغرب ٥٦/٢، والمطرب: ٤،

ومن تلك القصيدة قوله على أسلوب لفّ الغزل بالحماسة والفخر:

عَجَباً يَهَابُ اللَّيْثُ حَدَّ سِنَانِي وَأَهَابُ لَحْظَ فَوَاتِرِ الْأَجْفَانِ
وَأَقَارِعُ الْأَمْوَالِ لَا مَتَهَيِّباً مِنْهَا سِوَى الْإِعْرَاضِ وَالْهَجْرَانِ
وَتَمَلَّكَتْ نَفْسِي ثَلَاثُ كَالِدُمَى زُهْرُ الرَّجْوِ نَوَاعِمُ الْأَبْدَانِ
كَكَوَاكِبِ الظُّلُمَاءِ لُحْنٌ لِنَاطِرِ مِنْ فَوْقِ أَغْصَانٍ عَلَى كَثْبَانِ
لَا تَعْذِلُوا مَلِكاً تَذَلُّ لِلْهُوَى ذُلُّ الْهُوَى عِزٌّ وَمُلْكُ ثَانِ!
والقصيدة معارضةً لقطعةٍ نظمها هارون الرَّشِيدُ أولها:

((ملك الثلاث الأنساتُ عناني))

وكان كثرة من خلفاء بني أمية وأمراءهم ينظمون الشعر، ويجيدون، ونجد في أشعارهم ميلاً إلى شعر الغزل الذي استحسنته العرب من قديم، وصار غرضاً من أغراض كل من نظم الشعر.

- وكان عَصْرُ الطوائف مجالاً لنشر الشعراء أشعارهم في مجالس الحكام والأمراء وفي المنتديات والمليقات؛ وكان للغزل أثر بارز. ومن هؤلاء الشعراء ابن شهيد وابن حزم، وابن زيدون، والمعتمد بن عباد، وابن عمار، وابن الحذاد.

ومن شعراء الغزل مروان الطليق^(١) (أبو عبد الملك مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الناصر (٣٥٠ - نحو ٤٠٠ هـ) قال فيه ابن حزم إنه في بني مروان كابن المعتز في بني العباس ملاحاة شعر وحسن تشبيه. ومن غريب الاتفاق في حياته أنه عاش ١٦ سنة من صباه إلى أن دخل السجن ١٦ وعاش بعدها ١٦ سنة أخرى..

(١) ترجم له، وجمع الباقي من شعره المستشرق الإسباني إميليو غارثيا غومس، وقد نشر بالعربية مع نخوت أخرى بعنوان: (مع شعراء الأندلس والنتي) وصدر عن دار المعارف بالقاهرة.

ويعرف بلقب: المرواني الطليق، أو الشريف الطليق، كما يلقب بـ (طليق النعامة) ولذلك خبر طريف رواه المراكشي في كتابه: المعجب.

ومن شعره قصيدة قافية طويلة، بدأها بالغزل^(١) :

غصنٌ يهتزُّ في دِعْصِ نَقَا يجتني منه فؤادي حُرْقَا^(٢)
أطلع الحسنُ لنا من وجهه قمرًا ليس يُرى مُمَحَقَا
وتناهى الحسنُ فيه إنَّما يحسنُ الغُصْنُ إذا ما أورقا
ومن غزله أيضًا^(٣) :

فيا ليت شعري هل لمولاي عطفةٌ يُدَاوِي بها منِّي فؤادٌ مُجَرَّحُ
يحنُّ إلى البدر الذي فوقَ خدِّه مكان سوادِ البدر وردٌ مفتَحُ
تقنَّعَ بدرُ التَّمِّ عندَ طلوعه مخافةً أن يسري إليه فيُفْضَحُ!

- ومن شعر ابن حزم الذي طرَّز به مواضع كثيرة من كتابه: ((طوق الحمامة)) قوله^(٤) :

ودِدْتُ بأنَّ القلبَ شُقَّ بمِديَّةٍ وأدْخَلتِ فيه ثمَّ أُطْبِقَ في صدري
فأصبحتُ فيه لا تحلِّين غيره إلى مقتضى يوم القيامة والحشرِ
تعيشين فيه ما حييتُ فإنَّ أُمْتُ سكنتِ شغاف القلب في ظلم القبرِ

فهذا غزل رقيق، وهو يجري على نهج شعراء الغزل العذري في شفافية الحب، ورقة العبارة، وروعة الموقف.

(١) مجموع شعره: ٦٦

(٢) الدَّعْص: القطعة المستديرة من الرَّمْل.

(٣) مجموع شعره: ٦٨

(٤) طوق الحمامة: ٩٢

- ومن شعراء هذا العصر الذي نضج فيه الشعر في الأندلس وتمكن أكثر شعرائه من ناصية هذا الفن، وأوغل كثير منهم في مجال الإبداع والإتيقان محمد بن البين^(١) الذي كان الوزير الكاتب ليحيى بن المظفر على يابره، ومن شعره الحسن:

غَصَبُوا الصَّبَّاحَ فَقَسَّمُوهُ خُدُودَا	وَاسْتَوْهَبُوا قُضْبَ الْأَرَاكِ قُدُودَا
وَرَأَوْا حَصَى الْيَاقُوتِ دُونَ مَحَلِّهِمْ	فَاسْتَبَدَّلُوا مِنْهُ النُّجُومَ عَقُودَا
وَاسْتَوْدَعُوا حَذَقَ الْمَهَا أَجْفَانَهُمْ	فَسَبَّوْا بِهِنَّ ضِرَاجِمًا وَأُسُودَا
لَمْ يَكْفِ أَنْ سَلَبُوا الْأَسِنَّةَ وَالظُّبَا	حَتَّى اسْتَعَانُوا أَعْيُنًا وَنُهُودَا
وَتَضَافَرُوا بِضَفَائِرِ أَبْدَانِنَا	ضَوْءَ النَّهَارِ بَلِيلَهَا مَعْقُودَا

ووجه الحُسن في الشعر هو هذا التناول للمعاني، وتلك العبارة الرقيقة السلسلة التي تجري كأنها جدول رقيق ينساب فيعجب العين، ويطرب الأذن. والمعاني - وإن كانت مألوفة ومما جرت به ألسنة الشعراء على وجوه مختلفة - استفادت من الشاعر ((هذه الصياغة الرائعة، فإذا كلَّ الصُّور، والمعاني، تأخذ نسقاً أندلسياً جديداً)) كما عبّر د. شوقي ضيف^(٢).

- ولمع في هذا العصر نجم ابن زيدون الذي صدح بشعره الغزلي وساجلته في جزء منه ولادة بنت المستكفي في انسجام فني أعجب النقاد والأدباء قديماً وحديثاً^(٣).

(١) الذخيرة ٨٠٢/٢

- وترجم له ابن بسام في كتابه هذا (٧٩٩/٢) وانظر أيضاً: المغرب ٣٧٠/١، ورايات المبرزين: ٦٠، ونفع الطيب ٤٥٣/٣

(٢) الأندلس: ٢٦٤

(٣) لابن زيدون ترجمة مفردة في هذا الكتاب. وانظر في ابن زيدون وولادة عدداً خاصاً بكل واحد منهما في سلسلة (الروائع الجديدة).

- ومن الشعراء الذين اتصلت أسمائهم باسم معين أجرى عليه غزله ابن الحدّاد الوادي آشي^(١)، فقد شهر بشعره الغزلي الذي خصّ به فتاة نصرانية اسمها (جميلة)، وكنى عنها باسم (نؤيرة) واستنفد فيها غزله.

ومن شعره فيها من مقدمة قصيدة مدحية:

لعلّك بالوادي المقدس شاطئُ فكألعنبرِ الهنديّ ما أنت واطئُ^(٢)
وإني في ريّاك واجِدٌ رِيحهم فروح الهوى بين الجوانح ناشئُ
ولي في السُرى من نارهم ومنارهم هداةٌ حُداةٌ والنجوم طوافئُ
لذلك ما حنّت ركابي وحمّحتُ عِرابي وأوحى سَيْرُها المتباطئُ^(٣)
فهل حاجها ما حاجني أو لعلّها إلى الوَخذِ من نيرانِ وَجدي لواجئُ^(٤)!
وقد نحا الشاعر في هذه القصيدة منحى بدوياً، واصطنع لذلك أسلوباً ملائماً. ونلمح الإشارة إلى نؤيرة في البيت الثالث واضحة تماماً.

وقد كثر الاختيار من قصيدة تائية له، أولها:

قلبي إلى ذاتِ الأثيلاتِ رهينُ لوعاتٍ وروعاتِ!
يقول فيها، واصفاً نؤيرة وصويحباتها بالظباء، موجّهاً حديث الغزل إليها:
والشمسُ شمسُ الحُسن من بينهم تحت غمامات اللّثاماتِ
وناظري مختلسٌ لمَجْهَها ولحُها يُضرم لوعاتِ
وفي الحشا نار نويريّة علّقتهَا منذُ سُنَيّاتِ
لا تنظفي وقتاً وكم رُمْتها بل تلتظي في كل أوقاتِ
فحيّ عني رشاً المنحني وإن أبى رَجْعَ تحيّاتِ!

(١) له ذكر في شعراء المديح.

(٢) شطأ: مشى على الشاطئ، وقطعه طولاً.

(٣) أي الخيل العراب: العربية الأصيلة التي ليست فيها هُجنة.

(٤) الوخذ: مصدر وَخَدَ (البعير): أسرع ووسّع الخطو.

- ومن الشعراء الأندلسيين الذين أكثروا من ذكر اسم واحد على طريقة العذريين، أو محاكاة لهذا الجانب منهم: ابن زيدون، وابن الحَدَّاد، والمُعتمد بن عباد الذي أكثر من ذكر اعتماد^(١)، وأبو جعفر بن سعيد (وحفصة الرُّكُونِيَّة).

- ومن الشعراء الذين برعوا في الغزل في عصر المرابطين: الأعمى التُّطيلي، وابن خَفَاجَة، وابن وهبون، وابن الزقاق البُلنسي.

- وفي عصر الموحِّدين أبو جعفر (أحمد بن عبد الملك) بن سعيد، وحفصة الرُّكُونِيَّة، ومن شعرها:

أغارُ عليك من عيني ومني ومنك ومن زمانك والمكان
ولو أني حبَّأتك في عيوني إلى يوم القيامة ما كفاني!

ومن رقيق شعر الغزل قصيدة لأحد ملوك بني نصر أصحاب دولة غرناطة، هو ثالث ملوكهم أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن يوسف (٦٥٥ - ٧١٠ هـ)، وفي هذه القصيدة:

واعدني وعداً وقد أخلفنا أقلُّ شيء في الملاح الوفا
وحال عن عهدي ولم يرعه ما ضره لو أنه أنصفنا
ما بالها لم تتعطف على صبَّ بها ما زال مستعطفا
يستطلع الأنباء من نحوها ويرقبُ البرق إذا ما هفا
ملكتك القلب وإنني امرؤ عليّ ملك الأرض قد وقفا
يرهفُ سيفي في الوغى مُصلتاً ويَتَّقِي عزمي إذا أرهفنا
وترجى يُمناي يوم الندى تخالها السُّحب غدت وكفا
يا ليت شعري، والمنى جمّة والدهر يوماً هل يرى منصفنا..
هل يرجي العبدُ تدانيكم أو يصبحُ الدهرُ له مُسعفاً!

- وهي قطعة رقيقة؛ تُشفُّ عن شاعريَّة حسنة، وذوق مرهف.

(١) وهي زوجته وأم أولاده.

- ويستمر غرض الغزل في عصر الدولة النصرية غرضاً أصيلاً في دواوين الشعراء؛ ويلفت النظر، على سبيل المثال - قصائد ومقطوعات خالصة للغزل في ديوان يوسف الثالث أحد ملوك غرناطة في أوائل القرن التاسع الهجري. وله ديوان مطبوع^(١). وفي ديوان ابن خاتمة الأنصاري (ت ٧٧٠ هـ) ولسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ).

- وفي ديوان ابن فركون^(٢) نلاحظ الغزل التقليدي في مطالع عدد غير قليل من قصائد الديوان.

- كما أن الموشحات، أعطت الغزل نفحة خاصة؛ كالذي نجده في موشحات ابن خاتمة، ولسان الدين وابن زمرك.

- ومن الغزل التقليدي قول ابن فركون من قصيدة يساجل بها ملك غرناطة يوسف الثالث^(٣):

أمنها سرى طيفاً إلى حبيب	وليس سوى نجم السماء رقيب
أتى وظلام الليل يسحب ذيله	وللبرق ثغر في دجاء شنيب
تطلع خفاق الجناح كأنه	فؤاد محب قد جفاه حبيب
وهيهات يشفي القلب طيف خيالها	وقد علمت أن الخيال كذوب!

وهي ردّ على بيتين أرسلهما إليه يوسف الثالث، وهما:

((وكم عائد زادت عيادته الأسى	ولو عُدت قرّت أعين وقلوب
فذكرك حظ النفس في كل خطرة	فيا ليت حظ العين منك قريب))

(١) انظر الطبعة الثانية منه في مكتبة الأنجلو - المصرية بالقاهرة. وحققه الأستاذ عبد الله كنون.

(٢) انظر إشارة إليه في ((شعر الحنين)) من هذا الكتاب.

(٣) ديوان ابن فركون: ١٥٤

المديح:

لم يختلف شعر المديح في الأندلس عنه في المشرق من جهة وفرة دواعيه، وكثرة شعرائه، فقد كانت الدولة الأموية - بأمرائها وخلفائها وحكامها ورجالها - مقصداً لشعراء الأندلس، وغيره من الأقطار. على أن الشعر القديم الذي صدر عن شعراء المراحل الأولى من التاريخ الأندلسي - في ما وصل إلينا - قليل. ولكنه يدل على هذا الذي نذهب إليه من استمرار هذا التيار من الأغراض الشعرية، ووجود الشعراء الجوديين.

- فمنهم أبو القاسم عباس بن فرناس (أواخر القرن الثاني - إلى نحو ٢٧٤ هـ) وكان إلى جانب معرفته بالشعر عالماً في فنون شتى من الرياضيات والموسيقى والفيزياء والفلسفة والكيمياء والفلك، ومن أشهر ما عُرف عنه محاولته الطيران، وحذقه للموسيقى. كان مرة في مجلس أحد ولاة الأمير عبد الرحمن الأوسط واسمه محمود بن أبي جميل فغنى ابنٌ لزياب^(١) :

ولو لم يشقني الظاعنون لشاقي حَمَامٌ تداعت في الديار وقوعُ
تداعين فاستبكين مَنْ كان ذا هوى نوائح ما تجري لهنّ دموعُ
فلما انتهى أخذ عباس بن فرناس العود، وغنى بهذين البيتين المذكورين ثم زاد من عنده ارتجالاً يمدح صاحب المجلس:

شدّتْ بمحمودٍ يداً حين خانها زمانٌ لأسباب الرّجاء قَطُوعُ.
بنى لسماع الجود والمجد قبةً إليها جميع الأجودين ركوعُ!
ومدح الأمير محمّداً، وقد عاد من غزوة ظافرة لأهل بنبلونة في نبارة بأقصى الشمال بقصيدة جاء فيها:

(١) المقتبس لابن حيان (بيروت): ٢٧٩، وطبقات اللغويين والنحويين للزبيدي ٢٩١، وحذوة المقتبس رقم ٣٧١، والمغرب ٣٣٣/١، وبغية الملتبس ٤١٨

إِنَّ الْقُفُولَ الَّذِي أَوْفَى بَعِيدَيْنِ مَكْرَمِينَ عَلَى الدُّنْيَا عَزِيزَيْنِ
قَدُومُ أَكْرَمٍ مِنْ فِي الْأَرْضِ قَاطِبَةً قَدُومُ فَطَرٍ فَكَانَا خَيْرَ عِيدَيْنِ
وقد وافق مجيء الأمير (قفوله من الغزو) وقت عيد الفطر فجمع الشاعر (من أجل المدح) بين المناسبتين؛ وأعلى من شأن العودة الظّافرة من الجهاد.

- وظهر من شعراء الدولة الأموية في غرض المديح ابن عبد ربّه^(١) الذي عاصرَ مدة الإمارة الأموية، وأدرك إعلان الخلافة في قرطبة أيضاً. وديوانه الأصلي مفقود. وقد جمعتُ شعره من المصادر المختلفة^(٢). وكثر في شعره الباقي مدح عبد الرحمن (الناصر) وتسجيل معاركه الداخلية التي انتصر فيها على الثوّار المتوثبين كابن حفصون رأس الفتنة في عصره.

ومن شعره في أحد فتوح الناصر الأموي^(٣):

فِي غَزْوَةٍ مِثَّتَا حَصْنٍ ظَفَرَتْ بِهَا فِي كُلِّ حَصْنٍ غَوَاةٌ لِلْعَنَاجِيحِ^(٤)
مَا كَانَ مَلِكٌ سَلِيمَانٍ لِيَدْرِكَهَا وَالْمُبْتَنِي سَدَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ!
فهو يُثني على عبد الرحمن، وجيشه الذي فتح مئتي حصن من المخالفين، وناقضي العهود. وهو نصر يشبه بانتصارات جيوش الرُّسل والأنبياء وأولي العزم.

- وكان أبو عمر أحمد بن درّاج الفسطلّي^(٥) (٣٤٧ - ٤٢١ هـ) أشهر شعراء الحاجب المنصور (محمد بن أبي عامر)، كما لقي عناية من ابنه المظفر عبد

(١) له ترجمة واختيارات شعرية في هذا الكتاب.

(٢) ديوان ابن عبد ربّه. الطبعة الثالثة. دار الفكر - دمشق.

(٣) ديوانه: ٤٦ - ٤٧.

(٤) العناجيج (ج عنجوج): جياذ الخيل.

(٥) نسبته إلى قسطلّة دراج من أعمال جَيّان في وسط الأندلس. دخل قرطبة رجاء الانتفاع بشاعريته التي اشتهرت في بلده ووسط قومه. وتعرّض لاختبار من ديوان الشعراء فظهرت براعته وبداهته فألحق بديوان الحكم، وتعلق به المنصور بن أبي عامر. وأثنى ابن حزم على أسلوبه في الكتابة الفنية (فقد كان ابن دراج مترسلاً وشاعراً).

- لابن دراج ديوان طبع في دمشق ط ١ + ط ٢ بتحقيق د. محمود علي مكي.

- وانظر ترجمة مطولة في مقدمة الديوان. وفي المختار من الشعر الأندلسي: ٥٠.

الملك، بعده؛ حكم (٣٩٢ - ٣٩٩ هـ)، ولم يطل عهد أخيه عبد الرحمن (الملقب شنجول) أكثر من شهرين لتدخل الأندلس بسببه، وبظروف أخرى لها علاقة بسياسة العامرين عامة، في عصر الفتنة. ويضطر ابن دراج إلى مدح كثير ممن تلقبوا بالخلافة في مدة الضعف هذه (٤٠٠ - ٤٢١ هـ) من حياته؛ ويمدح عدداً من أمراء الساحل الشرقي مثل خيران الصقلي من موالي العامرين:

لك الخير قد أوفى بعهدك خيرانُ وبشراك قد آواك عزُّ وسلطانُ

ولا يلقي العطاء المجزئ ولا الرعاية الكافية. فيقصد إلى سرقسطة وحكامها التجييين، فيمدح منذر بن يحيى (ت ٤١٢ هـ) وابنه يحيى. ويفد على مجاهد العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية بعد أن سمع عن إعطاء الشعراء والعلماء ويمدحه:

إلى أيّ ذكرٍ غير ذكرك أرتاحُ ومن أيّ بحرٍ بعد بحرك أمتاحُ

ولقي عنده قدراً من الرعاية شجعه على البقاء عنده. ولكن الموت فاجأه سنة (٤٢١ هـ).

- وقد أثنى المشاركة والأندلسيون على ابن دراج في شعره، وفي ترسله (الذي ضاع)، وقال فيه ابن حيان أشهر مؤرخي الأندلس، وكان ذواقة للأدب عارفاً بالشعر: ((أبو عمر بن دراج القسطلّي سابق حلبة الشعراء العامريين وخاتمة مُحسني أهل الأندلس أجمعين)).

ومن خصائص شعره:

- كثرة معارضة المشاركة كأبي نواس والمتنبي.

- والولوع بالبديع.

- وكثرة الشكوى من الزمان، وتقلب أحواله وخصوصاً بعد اضطراره إلى السعي في الأرض من أجل لقمة العيش منذ عصر الفتنة نحو (٤٠٠ هـ) إلى وفاته.

- جاء وفد نبارة من دول الشمال وعلى رأسه ملك تلك البلاد يعلن ولاءه لدولة بني أمية والحاجب المنصور، فقال ابن دراج من قصيدة:

ألا هكذا فليسمُ للمجد مَنْ سما ويحمي ذمارَ الملك والدين مَنْ حمى
فهذا عظيمُ الشُّركِ قد جاء خاضعاً وألقى بكفِّهِ إليك محكِّماً!

- واقترح الحاجب المنصور على ابن دراج أن ينشئ قصيدة يعارض فيها أبا نواس في قصيدته التي مدح بها الخُصيب بن عبد الحميد خراج مصر:

أجارة بيتينا أبوك غيورُ وميسور ما يُرجى لديك عسيرُ
فنظم هذه القصيدة البارعة، التي أولها:

دعي عزمات المستضام تسيرُ فتنجدُ في عُرضِ الفلا وتغورُ

ويبدو أنّ الشاعر استفاد من تجربة شخصية فصورَ لهفة زوجته عليه وقد عزم على المسير والسفر، وإشفاقها عن خروجها وابنته صغيرة في المهد. وذكر عزمه على الرحلة وإن كانت شاقّة عليه بترك أهله، وصعوبة المراد بوعشاء الطريق؛ ومدح المنصور وذكر جهاده في أعداء الأندلس، ونصرته للدين الحنيف..

وكان ملوك الطوائف في حاجة إلى أصوات الشعراء ودعايتهم فمال أكثرهم إلى تقريبتهم، وإثابتهم على مدائحهم. ومن هؤلاء ابن اللبّانة الذي مدح المعتمد بن عباد (ووفى له بعد نكبته)، كقوله:

ملكٌ إذا عقدَ المغافرَ للوغى حلّ الملوكُ معاقِدَ التيجان^(١)
وإذا غدت رايأته منشورةً فالخافقان لهنّ في خفّقان^(٢)
يا منشئ العلّاء بعد مماتها تفنّى النجومُ وما ثناؤك فان
الأرضُ حاجتها إليك بطبعها كالعينِ حاجتها إلى الإنسان^(٣)!

(١) المغافر جمع مغفرة: الخوذة من زرد.

(٢) الخافق: الأفق، فهما خافقان: أفق المشرق وأفق المغرب.

(٣) إنسان العين: البؤبؤ.

وفيهم ابن الحَدَّاد الوادي آشي (أبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي) وأكثر شعره غزل في اسم نورية (واسمها الأصلي جميلة) ومديح للمعتصم بن صمادح صاحب المَرِيَّة.

- ومن شعره في ابن صمادح قصيدة بدأها بالغزل أولها:

عُجَّ بالحمى حيث الغياضُ العَيْنُ فعَسَى تعنَّ له مَهَاهُ العَيْنُ

يقول فيها متخلصاً بعد الغزل المتقن إلى المديح:

أنتِ الهوى لكن سلوان الهوى قصْدُ ابن معنٍ والحديث شجون

فالحسن أجمع ما يُريك عيانه لا ما أرتَه سرالف وعيون^(١)

والروض ما اشتملت عليه سهوله لا ما أرتَه أباطحٌ وحُزون^(٢)

قصر تبينت القصور قصورها عنه، وفضل الأفضلين يمين

هو جنة الدنيا تبوأ ظلها ملك تملكه التقي والدين

فمن ابن ذي يزن؟ وما غمدانه النقل شكٌ والعيان يقين!

فملك ابن صمادح يفوق مُلك سيف بن ذي يزن ملك اليمن المشهور، وقصره أرفع من قصر ابن ذي يزن وأروع!..

- وفيهم ابن عَمَّار الذي مدح المعتضد والمعتمد من بني عَبَّاد. وله أخبار مشهورة.

واشتهر في شعر مدح المرابطين الأعمى التَّطِيلِي، وابن خفاجة، وابن وهَّبُون، وأبو الحسن بن الجَدِّ. وقد سلم ديوانا التَّطِيلِي وابن خفاجة وهما مطبوعان محققان.

وقد مدح الشعراء يوسف بن تاشفين أول أمرائهم، ومدحوا أبناءه، وفيهم علي الذي تولى بعد أبيه، وأخواه تميم وإبراهيم. وتوجَّهوا بالمدح إلى بعض

(١) العيان: المشاهدة.

(٢) الأباطح جمع الأبطح: الأرض الواسعة المستوية. والحزون جمع الحزن: الأرض الصَّلْبَة.

عقائل المرابطين من سيداتهم الفاضلات كالحُرّة مريم والحُرّة حواء. وإلى ولاتهم المرموقين.

- ومن شعر ابن خفاجة في زوجة الأمير تميم^(١) :

مشهورة في الفضل قدماً والنهي والجود شهرة غرة في أدهم
تولي الأيادي عن يد نزل الندى منها بمنزلة المُحبّ المكرم
حمل الثناء بها القريض وإنما حُملَ الحديثُ روايةً عن مسلم

- وحين دَخَلَ عبد المؤمن بن علي خليفة دولة الموحّدين جبل طارق سنة (٥٥٦ هـ)، بعد أن أمر ببناء مدينة هناك، أقام شهراً يستقبل وفود المهنيين والمبايعين، وأقام ديواناً للشعراء، وكان فيهم: الأصمّ المرواني (حفيد المرواني الطليق)، والرّصافي البلسي، وأحمد بن سيّد الإشبيلي.

وكان أولاد عبد المؤمن، ومن جاء بعده على الخلافة يقرّبون العلماء والأدباء ويشيرون الشعراء. واستأثر نصر الأرك (٥٩١ هـ) على يد المنصور يعقوب الموحدي بأقوال شعراء المديح، وفيهم عليّ بن حزمون؛ الذي سجّل الانتصار:

حيّتك معطّرة النَّفْسِ نفحاتُ الفتح بأندلس
فذر الكفار ومأتمهم إنّ الإسلامَ لفي عُرسٍ
إمام الحقّ وناصره طهّرت الأرض من الدّنسِ
وصدّعت رداء الكفر كما صدع الديجور سنا قَبَسِ

- ومن شعراء العصر الموحّدي ابن الأَبّار^(٢)، وحازم القرطاجيّ^(٣).

- وعلى امتداد نحو قرنين ونصف قرن من الزّمان كان الإسلام في الأندلس في ظل دولة بني الأحمر (وهم بنو نصر) أصحاب دولة غرناطة، أو مملكة

(١) ديوان الأعمى التطيلي حقه د. إحسان عباس، وديوان ابن خفاجة حقه الدكتور سيد غازي.

(٢) له ذكر في شعر الاستنجد والصريح لنجدة الأندلس. وله ديوان مطبوع.

(٣) له ديوان شعر مطبوع. وهو صاحب الكتاب النقدي البارع (منهاج البلغاء).

غرناطة. ورجع للأدب شيء كثير من رونقه؛ وكان في شعراء المديح: أبو البقاء الرندي وابن الجيّاب، ولسان الدين بن الخطيب، وابن زمرّك، وابن فركون، والبسطي، وابن خاتمة الأنصاري وغيرهم^(١).

- ومن شعر ابن جُزَيٍّ^(٢) الأديب الأندلسي والشاعر البارع يمدح أبا الحجاج يوسف ملك غرناطة (٧٣٣ - ٧٥٥ هـ) قوله:

إنّ المعالي والعوالي والنّدى والبأس طوع يدي أبي الحجاج
ماضي العزيمة والسيوف كليله طلق الحيا والخطوب دواج
ليث الوغى والخيل تُزجى بالقنا والبيض تنهل من دم الأوداج!

والقصيدة معارضة لقصيدة جرير في الحجاج بن يوسف الثقفي:

هاج الهوى لفؤادك المهتاج فانظر بتوضّح باكر الأحداج

وفي شعراء المديح: الرّصافي البلنسي^(٣) وهو أبو عبد الله محمد بن غالب؛ ونسبته إلى رُصافة بلنسية، وهي بلدة مجاورة لبلنسية، موصوفة بالحسن والخضرة وكثرة المياه، ومظاهر الجمال الطبيعي، وفيها يقول:

بلادي التي ريشت قويديمتي بها فريخاً وآوتني قرارتها وكرا
مبادئ لين العيش في ريق الصّبا أبى الله أن أنسى لها أبداً ذكرا

تنقل الرّصافي البلنسي في بلاد الأندلس والمغرب مادحاً، باحثاً عن موارد الرزق، فنزل مالقة وغرناطة، ومرّاكش وغيرها. وكان في جملة الشعراء الذين مدحوا عبد المؤمن حين نزل مدينة جبل الفتح.

(١) انظر في هذا الكتاب ترجمة لأبي البقاء الرندي، ولسان الدين بن الخطيب.

(٢) هو الذي دوّن رحلة ابن بطوطة. رواها الأخير مشافهة، وتلقفها ابن جُزَيٍّ في المجالس التي عقدت لذلك ثم دوّنها بلغته وأسلوبه ومنهجه.

(٣) ترجمته في بغية الملتبس ١٠٩ (رقم ٢٥١)، المغرب ٣٤٢/٢، تحفة القادم ٥٦، وفيات الأعيان

٤٣٢/٤، المعجب ١٥٤، نفح الطيب ٣٣٥/٢

- وانظر مقدمة ديوان الرّصافي البلنسي د. إحسان عباس ط ٢ - دار الشروق - بيروت -

- وله قصيدة في مدح الوزير الوقشي، أولها^(١) :

الأَجْرَعُ تحتلُّه هنْدُ يندى النَّسيمُ ويأرجُ الرُّندُ^(٢) ؟

وفي قِسم المديح منها:

ذُكر الوزيرُ الوقشيُّ لهم فأتاهم للقائه الوُدُ
مترقبين حلسول ساحتِه حتى كأنَّ لقاءَهُ الخلدُ
قد رنَّحتُهُم من شمائلِه ذُكرٌ كما يتضوَّع النَّدُ
رجُلٌ إذا عَرَضَ الرجالُ له كثر العديدُ وأغورَ النَّدُ
من معشرِ نَجَمِ العلاءِ بهم زهراً كما يتناسقُ العُقْدُ
سترى الوزيرَ ومجده فترى جَبَلاً يلاذُّ به ويُعتدُّ
وترى مآثرَ لا نفاذَ لها بالعدِّ حتى ينفسدَ العدُّ

ومال الشاعر إلى ذكر القلم، على أسلوبه الخاص، متابعة للشعراء حين يمدحون الكتاب ورجال الدولة الإداريين، وأشار إلى أن الممدوح الوقشي كاتب تتضاءل دون مهارته في الكتابة مهارة أصحاب الرماح:

وهبأتُه تصفُّ الندى بيدٍ علماء أقدمُ وفرها المجدُ
خفَّتْ بها في الطُّرسِ بارِقةٌ حدَّقُ القنا من دونها رُمْدُ
محمولة حَمَلِ الحُسام وإنْ خَفِيَ النِّجادُ هناك والغَمْدُ
يَسْطُو بها فأقول يا عَجَباً ماذا يُري عليها الجِدُّ
حتى البراعةُ بين أنمِلِه يا قومُ ممَّا تطبعُ الهنْدُ!
وكفى بأنَّ وسمَ الندى سمةً لم تمحُها الأيامُ من بَعْدُ!
بعوارفِ عَمَرِ البلادِ بها فاخضرَّ منها الغورُ والنَّجْدُ!

(١) الوقشي كان وزيراً (ت ٥٧٤ هـ).

(٢) القصيدة في الديوان: ٦١ - ٦٢

- والرّصافي يُذكر عادة في مدرسة ابن خفاجة: المحافظين على رونق الشعر الجزل؛ وتقوم طريقته الشعرية على التنقيح والتجويد^(١).

- واستمر غرض المديح في عصر دولة بني الأحمر، فكان من شعراء هذا الغرض في القرن السابع أبو البقاء الرُّندي - وله ترجمة في هذا الكتاب - وفي القرن الثامن جمهرة عظيمة منهم، فيهم أبو الحسن بن الجيّاب وتلميذه والخلف بعده على ديوان الكتاب: لسان الدين بن الخطيب، وتلميذ لسان الدين ابن: زَمْرَك الذي خلّد شعره المذّحيّ بنقشه في الحجر على جُدران قصر الحمراء وأعمدته وأقواسه وأبنيائه؛ وفي القرن التاسع ابن فرْكُون.

وقد نظم ابن زَمْرَك مدائحه - كأستاذ لسان الدين - شعراً وتوشيحاً؛ ومن ذلك قصيدة مطوّلة مدح فيها الغني بالله ووصف أشياء في قصر الحمراء ممّا اعتنى به ذلك السلطان، وأول القصيدة^(٢):

سَلِ الأفق بالزُّهر الكواكب حالياً فإنّي قد أودعته شَرَحَ حالياً
يقول فيها:

فلولاك يا شمسَ الخلافة لم يَينُ سبيل جهادٍ كان من قبلُ خافياً
ولولاك لم تُرْفَع سَمَاءُ عَجَاجَةٍ تلوحُ بها بيضُ النّصولِ درارياً
ولولاك لم تَنهَلْ غصونٌ من القنا وكانت إلى ورْدِ الدماء صوادياً
فكم معقل للكفر صَبّحتَ أهله بجيش أعادَ الصبحَ أَظْلَمَ داجياً
رقيت إليه والسيوف مشيخةً وقد بلغت فيها النفوس التراقياً
ففتحتَ مرقاة الممنع عنوةً وبات به التّوحيدُ يعلو منادياً
وناقوسه بالقسر أمسى معطلاً ومنبره بالذّكر أصبح حالياً

(١) انظر مقدمة محقق الديوان في تقويم شعره.

(٢) أزهار الرياض ٥٦/٢ - ٥٨

ويعرّج على المباني الباهرة فيقول في طرف من القصيدة:

وَلِلَّهِ مَبْنَاكَ الْجَمِيلُ فَإِنَّهُ يَفُوقُ عَلَى حُكْمِ السُّعُودِ الْمَبَانِيَا
فَكَمْ فِيهِ لِلْأَبْصَارِ مِنْ مَتَنَزِهِ تُجِدُّ بِهِ نَفْسُ الْحَلِيمِ الْأَمَانِيَا
وتَهْوَى النُّجُومُ الزُّهْرَ لَوْ ثَبَّتَ بِهِ وَلَمْ تَكُ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ جَوَارِيَا!

وهكذا تدور معاني المديح في شعر ابن زمرك على المعاني المدحية المألوفة مع محاولة التوليد في المعاني الجزئية، والتقوي بوصف الحال الراهنة من نتائج الحركة العمرانية وإبداعاتها الجمالية.

- ويزخر ديوان ابن فركون بشعر المديح الذي يستحضر فيه معاني المديح التقليدية، ويحاول تقديم ملامح جديدة في معاني هذا الغرض الذي عرفه الشعر العربي في وقت مبكر من العصر الجاهلي؛ وفي الجديد كلامٌ على الوقائع والأحداث المحلية؛ ومزج غرض المديح بوصف الطبيعة على المنهج الحفاجي كقوله من قصيدة أنشدتها سنة (٨١٣ هـ) في مدح السلطان يوسف الثالث ملك غرناطة، أولها^(١):

سَلَّ رَكَابَ الْحَمَى غَدَاةً اسْتَقَلَّتْ مِنْ حَوْتٍ فِي رَحَالِهَا وَأَقْلَّتْ
يقول فيها:

أَيُّهَا النَّاصِرُ الْإِمَامُ الْمَرْجِيُّ فُتَّةَ الْعِزِّ لِلْمُنَاوِي أَذَلَّتْ
جَبَلُ الْفَتْحِ قَدْ خَلَلَتْ لَدَيْهِ ذُرُوءَةً قَدْ عَلَتْ مَكَاناً وَجَلَّتْ
وَلَأَهْلِيهِ فِي الْخِلَافِ نَفُوسٌ بِشَيَاطِينِ الضَّلَالِ اسْتَزَلَّتْ
فَتَرَامَتْ لَهُمْ كِتَابُ عِزٍّ لَوْ رَمَتْهَا يَدُ الزَّمَانِ لَشُلَّتْ
لَوْ تَجَارَى الرِّيحُ مِنْهَا جِيَاداً لَانْتَتَ عَنْ مَدَى السَّبَاقِ وَكَلَّتْ
بِهَوَادٍ غُرِّ الْفَتْوحَاتِ أَهْدَتْ إِذَا أَطَلَّتْ جَمُوعُهُمْ وَأَضَلَّتْ

(١) ديوان ابن فركون: ١٦٤ - ١٦٥

أرياضٌ أنهاره فيه سالتُ أم سيوف في ملتقى الحرب سُلتُ؟
وعوالٍ يجلو الظلام سناها أم نجومٌ من السماء تدلّت!

وتدور في أشعار المديح عند ابن فركون أيضاً معاني الجهاد، ومباغطة العدو،
والنيل من جُنده، واحتياز البلاد الذي يسيطر عليها، مما يعطي النص الشعري
خصوصية أخرى أندلسية لا تغيب مقاصدها وإشاراتهما عن القارئ المتابع،
وانظر قوله^(١) في السلطان يوسف المذكور:

تدلُّ على العلياء منه مخايلٌ عليهنّ مصداق الفراسةِ باحثُ
لِمَا عزّ وهابٌ، وبالسّيف دافعٌ وفي الحربِ منّاعٌ وللجيشِ باعثُ
فوفّى حقوق المكرّماتِ وطالما وفّى بعهودِ المجدِ والدّهرِ ناكثُ
ورّد جنودَ الشُّركِ وهي عوابثُ وأردى أسود الغاب وهي دلاهِثُ^(٢)
فلا العزم مفلول، ولا الرأي فائلُ ولا الحزمُ مخذول ولا الخطبُ كارثُ!

(١) المصدر نفسه: ٣٤٦

(٢) دلاهِثٌ: جريئةٌ مُقدمة.

الهجاء:

من الشعراء الذين اشتهروا بالهجاء مؤمن بن سعيد^(١) (ت ٢٦٧ هـ)، وقد رماه طول لسانه في السجن حتى مات فيه؛ وعبد الله بن الشَّمر^(٢). ويروى من أخباره أن قاضياً اسمه يُخامر كانت فيه غفلة، فدرس ابن الشَّمر بين أوراق الدعاوى ورقة فيها اسمان: مدعى ومدعى عليه، وسجّل فيها: المسيح بن مريم ويونس بن متى، فأمر يُخامر أن ينادى على الخصمين (المذكورين) فلما كرّر المنادي الدعاء بالاسمين صاح ابن الشَّمر: نزولهما من علامات الساعة، وكتب في بطاقة شعراً، منه:

يُخامرُ ما تنفك تأتي بفضحةٍ دعوت ابن متى والمسيح بن مريما
قفاك قفا جحشٍ ووجهك مظلم وعقلك ما يسوى من البعر درهما!..

وسيتعرّض يحيى بن حكم الغزال^(٣) ليخامر هذا أيضاً بالدُّعابة القاسية.

ومَن شارك في الهجاء محمد بن يحيى الشهير بلقب القلنط (ت ٣٠٢ هـ)، وكان صديقاً لابن عبد ربّه. ثم انقلبت الصداقة إلى عداوة، واشتركا معاً في الهجاء! وخفّ الهجاء في القرن الرابع في مدة الناصر، وابنه الحكم المستنصر، وأيام سطوة المنصور بن أبي عامر.

وظهر الهجاء ثانيةً مع دول الطوائف في قضايا شخصيّة، أو قضايا عامّة كالظلم، والهزيمة في الحرب، والخلل الإداري... وهذا أبو عامر الأصيلي يقول:

(١) جذوة المقتبس (المصرية) ٣٣٠، بغية الملتبس ٤٥٦، الوافي بالوفيات ٩٤/٦
(٢) المقتبس لابن حبان ٦٥، ٤٧٧، والمغرب ١/١٢٤، وطبقات اللغويين والنحويين ٢٨٠، وجذوة المقتبس (رقم ٥٠٥)، وبغية الملتبس: ٣٠٤
(٣) أفردناه بترجمة مُستقلة.

أرى الأوغاد يعتمرون دُوراً ومالي في بلاد الله دار!
أجولُ فلا أرى إلا رعاعاً كبارهم إذا اختبروا صغاراً!

وأثار ابن النغيلة حماسة الشعراء لهجائه والتحريض عليه. وكان صاحب
غرناطة باديس قد اختار ابن النغيلة اليهودي كاتباً له. فاشتطَّ في حكمه،
واحتلس الأموال، وأفسد في الأرض، وتآمر - سرّاً - على قتل وليّ عهد باديس
لأنّه كان يكرهه، وأنفَذ مؤامرتَه. واحتاج الأمر تنبيه الحاكم باديس بمبادرات
العلماء والفقهاء، وظهور قصائد تعرّي أعمال الكاتب غير الأمين؛ وممن شارك
في هجاء ابن النغيلة السُّميسر، وأبو الحسن يوسف بن الجدد، ومن شعر ابن
الجدد:

تحكّمت اليهود على البروج وتاهت بالبغال وبالسُّروج
وقامت دولة الأنذال فينا وصار الحكمُ فيها للغُلوج
فقل للأعور الدّجال هذا زمانك إن عزمت على الخروج

فقد صار هذا الكاتب - الذي هو بمنزلة كبير الوزراء - متحكماً في أمور
المسلمين رجالهم ونسائهم، واستغل مركزه ليحتج من الأموال والرياش ما يتيه
به على الناس. وهذا الذي يجري في غرناطة يرشح لظهور الأعور الدّجال،
وقُرب نهاية الدُّنيا!

- وقد عبّر خلف بن فرج الإلبيري^(١) (السُّميسر) عن غضبته على المتهاونين
من ملوك الطوائف، الغارقين في ملذاتهم، وقد تركوا شؤون الناس، وأهملوا
الدِّفاع عن الأرض فقال فيهم دون تسمية واحد معين، في حملة شاملة^(٢):

نادِ الملوك وقل لهم ماذا الذي أحدثتم؟
أسلمتم الإسلام في أسر العدا وقعدتم

(١) انظر: الذخيرة ٨٨٢/١، وجزوة المقتبس: ١٩٣، والمطرب: ٩٣، والمغرب ١٠٠/٢، ونفح الطيب ٢٢٧/٣

(٢) الشعر في الذخيرة ٨٨٥/١

وجب القيام عليكم إذ بالنصارى قُمْتُمْ
لا تنكروا شقَّ العصا فعصا النبي شَقَّ قَتْمُ

وكان السُّميسر مولعاً بهجاء المقصّرين والمفسدين، وكل من يظن أنه ليس على المنهج المرضي، وألّف كتاباً في ذلك سمّاه (شفاء الأمراض في أخذ الأعراض) وعرض بحاكم غرناطة عبد الله بن بلقين في قوله:

يبي على نفسه سفاها كأنه دودة الحريـر

فقد انشغل ببناء قصر عظيم (قلعة) في وقت يحتاج فيه الناس في الأندلس إلى تهيئة الجيوش ضد هجمات الدول الشمالية، والعناية بشؤون الرعية الذين بهظتهم الضرائب والإتاوات.. وقد هدّد بلقين الشاعر فلجاً إلى حضرة المعتصم ابن صمادح صاحب المريّة.

- وعلا صوت الفقيه الزاهد أبي إسحاق الإلبيري^(١) ضدّ ابن النغيلة، وأنشد قصيدة طويلة مجلجلة الصّوت؛ حفظها الناس، وكانت في أهمّ المحرّضات على الثورة العارمة لأهل غرناطة، والتي انتهت بمقتل ذلك المتنفذ السيّء السُّلوك والمفسد في الأرض، ومن شعره المذكور^(٢):

ألا قل لصنهاجة^(٣) أجمعين بدور النديّ وأسد العرين
لقد زلّ سيّدكم زلّةً تقرُّ بها أعين الشّامتين
تخيّر كاتبه كافراً ولو شاء كان من المسلمين

(١) له ذكر في هذا الكتاب في شعر الزُّهد، وله ترجمة مفردة.

(٢) ديوان الإلبيري - تحقيق محمّد رضوان الدّاية - الطّبعة الثالثة: ١٠٨

(٣) صنهاجة قبيلة بربرية ينتمي فيها حكام منطقة إلبيرة التي عرفت في ما بعد بمنطقة غرناطة؛ فإنهم هم الذين نقلوا حاضرة الإقليم من مدينة إلبيرة إلى غرناطة.

وأعلن الإلبيري صراحة أن الحلّ هو التخلص من هذا الكاتب الفاسد، الذي قويت شوكته، وصار يتصرّف بالمملكة كلّها على حين غاب عن باديس مفسد كاتبه، وجازت عليه مؤامراته المتواصلة.

وفي شعراء الهجاء عبد الله بن سارة (ويقال: صارة) الشنتريني^(١) (ت ٥١٧) الذي يخاطب فقهاء السوء الذين يتسترون بالرّياء، ويتظاهرون بالصّلاح، والذين يأكلون الدنيا بالدين؛ وفي ذلك قوله:

أهل الرّياء لبستم ناموسكم كالذّئب أدلج في الظلام العاتم
فملكتم الدنيا بمذهب مالكٍ وقسمتم الأموال بابن القاسم
وركبتُم شهب الدّواب بأشهب وبأصبع صبغت لكم في العالم

وقد علق د. ضيف على هذه القطعة بقوله: إن الشاعر يتهمهم بالمراعاة وأكل الأموال بالباطل، ويزعم أنهم ملكوا الدنيا بمذهب مالك وأئمة المصريّين الذين تتلمذ عليهم فقهاء الأندلس، واتّخذوا كتبهم مضدراً لفتاويهم وأحكامهم، وهم ابن القاسم (ت ١٩١)، وأشهب بن عبد العزيز (ت ٢٠٤)، وأصبع بن الفرّج (ت ٢٢٥)^(٢).

وفي الهجائين الأعمى المخزومي (أبو بكر محمد)^(٣)، وقد لقّب ببشار الأندلس الذي عرف بكثرة الهجاء، واستطالة لسانه على الناس؛ وجعله ابن سعيد في منزلة الخطيئة ((لم يسلم من هجوه أحدا)). وروي أن جدّه عبد الملك ابن سعيد صاحب قلعة يَحْصُب سأل مرّة عن الأعمى المذكور متى يَرْحَلُ - وكان زائراً في البلدة، لكي يُكرمه ويحمّله من عطائه - فأخطأ المرسل أداء الرسالة، ممّا حفز الشاعر على الإسراع إلى التّعليق بلسان الهجاء:

(١) انظر: الذخيرة ٨٣٤/٢، وخريدة القصر (قسم الأندلس) ٣١٥/٢، وقلائد العقيان ٢٦١، وبغية

الملتصم ٣٢٥

(٢) الأندلس: ٢٢٧

(٣) المغرب ٢٢٨/١، والإحاطة ٤٢٤/١؛ ٢١٦/٣

لا تَرْجُونَ بني سعيد للندى فالظلُّ أفيْدُ منهم للسَّائل!
 قومٌ مصيبتهم بطلعةٍ وافِدٍ وسرورهم أبداً بخيبةٍ راحِلِ!..
 وهو هجاء مرٌّ، صدر من الأعمى المخزومي على البديهة وحمله برسالة إلى
 عبد الملك بن سعيد!

- وفي هجائي الأندلس أبو بكر يحيى بن سهل اليكِّي^(١) (من يكة شمال
 مُرْسِيَّة) الذي شُبّه بابن الرّومي، ومن شعره قوله في أحد مهجويّه:

أعدِ الوضوءَ إذا نطقْتَ بهِ متذكراً من قبل أن تنسى
 واحفظ ثيابك إن مررت به فالظلُّ منه ينجّس الشمساً!..

- وفيهم أبو الحسن عليّ بن عبد الرحمن، عُرف بابن حَزْمُون^(٢)، ومن أخباره
 أنه قصد الوزير أبا سعيد بن جامع، وانتظر طويلاً فلما أعاد السؤال عنه قالوا:
 إنه خرج من الباب الآخر، فأنشد فيه:

نعوذ بالله من وجد ومن يئِنِ ومن وقوف على دار بياين
 ومن زيارة أرباب بلا عددٍ لا يملكون حياتي لا ولا حَيِّنِي
 إني وجدتهم لما رجوتهم كالريّح تطلبها ما بين كَفِّينِ!

وهجا ابن حَزْمُون نفسه فقال من قطعة:

تأملتُ في المرآة وَجْهِي فَحِلَّتُهُ كوجهٍ عجوزٍ قد أشارتُ إلى اللَّهُوِ
 إذا شئت أن تهجو تأملُ خليقتي فإنّ بها ما قد أرَدْتَ من الهَجْوِ!

(١) زاد المسافر لصفوان بن إدريس ٧٧، والمغرب ٢/٢٦٦، والخريدة (قسم الأندلس) ٣/٥٨٠، وبُعية

الملتقى: ١٨٨

(٢) المعجب ٣٧٠، وزاد المسافر ٦٤، والمغرب ٢/٢١٤، وأزهار الرياض ٢/٢١١

الفخر

دخل شعر الفخر الأندلس مع الوافدين إليها، والفاحين لها. ونقرأ في شعر عبد الرحمن الداخل من قصيدة؛ يفخر بنفسه ويردّ على من نسب الفضل في إمارة عبد الرحمن إليه، وعلى من زعم أنّ سعد عبد الرحمن (حظّه) لاعقله هو الذي أنجح دعوته، قال:

لا يُلَفَ مِمَّنْ عَلَيْنَا قَائِلٌ لولاي ماملك الأنام الداخل
سَعْدِي وَحَزْمِي وَالْمَهْنَدُ وَالْقَنَا ومقادِرٌ بَلَغَتْ وَحَالَ حَائِلٌ..
ويقول قوم: سَعْدُهُ لَا عَقْلَهُ خير السَّعَادَةِ مَا حَمَاهَا الْعَاقِلُ...

- وفي شعر الحكم بن هشام (عُرف بالحكم الربضي ١٨٠-٢٠٦هـ) بعد أن قضى على ثورة الرّبط الجنوبي بقرطبة ضده:

رَأَيْتُ صَدُوعَ الْأَرْضِ بِالسَّيْفِ رَاقِعَا وَقِدْمًا لَأَمْتُ الشَّعْبِ مَذْكَتُ يَافِعَا
فَسَائِلُ ثَغُورِي هَلْ بِهَا الْيَوْمُ ثَلَمَةٌ أَبَادَرَهَا مُسْتَنْضِي السَّيْفِ دَارِعَا؟

- ويقول ابنه الذي ولي الإمارة بعده عبد الرحمن بن الحكم (عُرف بالأوسط ١٧٦-٢٣٨هـ) من قصيدة يعتذر فيها إلى زوجته لطول غيابه في جهاد العدو بأرض جيلقية:

عَدَانِي عَنْكَ مَزَارُ الْعِدَا وَقَوْدِي إِلَيْهِمْ لَهَامًا مَهِيًا^(١)
كَأَيِّنْ تَخْطِيتُ مِنْ سَبَسَبٍ^(٢) وَجَاوَزْتُ بَعْدَ دُرُوبٍ دُرُوبَا
أَلَا قِي بَوَجْهِي حَرًّا الْمَجِيرِ إِذَا كَادَ مِنْهُ الْحَصَى أَنْ يَذُوبَا
أَنَا ابْنُ الْهَشَامِينَ^(١) مِنْ غَالِبٍ أَشْبُ حُرُوبًا وَأُطْفِي حُرُوبَا

(١) اللّهام: الجيش العظيم.

(٢) السبب: المفازة، والأرض المستوية الممتدة بعيداً

بِي إِدَارِكُ اللّٰهُ دِينَ الْهَدَى فَأَحْيَيْتُهُ وَأَمَتَ الصَّلِيَا
وَسَرْتُ إِلَى الشَّرِكِ فِي جَحْفَلٍ مَلَأْتُ الْحَزُونَ بِهِ وَالسُّهُوبَا

- وحين ثارت العصبية بين العرب والمولدين كثر شعر الفخر والهجاء، ومن شعراء العرب: محمد بن سعيد الأسدي، ومن شعره قوله يردّ على العبلي شاعر المولدين:

مَنَازِلُنَا مَعْمُورَةٌ لَا بِلَاقِعُ وَقَلَعْنَا حَصْنَ مِنْ الضِّيمِ مَانِعُ
أَلَا فَأَذْنُوا مِنَّا قَرِيبًا بِوَقْعَةٍ تَشِيبُ لَهَا وَلِدَانُكُمْ وَالْمَرَضِيعُ!

- وظهر في هذه المدة سعيد بن جودي (وله ترجمة مفردة في هذا الكتاب).

- وكان نزار الفاطمي المتلقب بالخلافة قد بعث إلى المستنصر (الحكم بن عبد الرحمن ٣٥٠-٣٦٦هـ) كتاباً يشتمه فيه ويسبّه، فكتب إليه الحكم الأموي هذه العبارة مع بيتين من الشعر، فقال له: ((أما بعد فإنك عرفتنا فهجوتنا، ولو عرفناك لأجبناك:

أَلَسْنَا بَنِي مَرْوَانَ كَيْفَ تَبَدَّلْتُ بَنَا الْحَالُ أَوْ دَارَتْ عَلَيْنَا الدَّوَائِرُ؟
إِذَا وَلَدَ الْمَوْلُودُ مِنَّا تَهَلَّلْتَ لَهُ الْأَرْضُ وَاهْتَزَّتْ إِلَيْهِ الْمَنَابِرُ))^(٢)

فأبلس المستنصر الفاطمي، ولم يجر جواباً على المستنصر الأموي.

- وتعرض ابن حزم لمضايقات عدد كبير من أهل زمانه من الفقهاء الذين حسدوه ونفسوا عليه علمه ومؤلفاته، ومن الأحكام من سايروا الفقهاء وتقربوا إليهم بإزعاجه، فقال من قطعة حسنة جداً:

أَنَا الشَّمْسُ فِي جَوِّ الْعُلُومِ مَنْيرَةٌ وَلَكِنْ عَيْبِي أَنَّ مَطْلَعِي الْغَرْبُ
وَلَوْ أَنَّنِي مِنْ جَانِبِ الشَّرْقِ طَالَعُ لَجَدَّ عَلَى مَا ضَاعَ مِنْ ذِكْرِي النَّهْبُ

(١) الهشامان: هشام بن عبد الرحمن (الداخل) وهشام بن عبد الملك.

(٢) نفح الطيب ٥٥٨/٣

يقول إنه: ((لا كرامة لني في قومه))، و((زامر الحي لا يطرب)) ولو كان من أهل المشرق لتلقى الأندلسيون كتبه بالقبول، وشخصه بالتكريم!..

- وفي ملوك عصر الطوائف الأمراء عبد الملك بن هذيل. حكم أبوه هذيل منطقة السَّهْلَة (بين طليطلة وسرقسطة). تولى بعد أبيه سنة (٤٣٦هـ) ووصف بأنه ((كان غيثاً في الندى وليثاً في العدا)). ومن شعره.

أَنَا مَلِكٌ تَجَمَّعَتْ فِيَّ خَمْسٌ كُلُّهَا لِلْأَنَامِ مُحْيِي مُمَيَّتٌ
هِيَ: ذَهْنٌ، وَحِكْمَةٌ، وَمَضَاءٌ وَكَلَامٌ فِي وَقْتِهِ، وَسُكُوتٌ!

ويظهر أثر الحداثة والحضارة في هذه الخمسة التي تجمعت في الشاعر الأمير، التي يمدح بها نفسه، ولم يورد من الأركان الثلاثة القديمة في معاني المديح شيئاً أعني: الكرم، والشجاعة، والنسب. وإن كانت كلمة المضاء في البيت الثاني قد تُدْخِلُ عنصر الشجاعة تحت مظلتها.

- ويفخر ابن خفاجة بنفسه، وبنفر من صحبه الذين يراهم على شاكلته من أهل بلده (شُقر):

مَضَاءٌ كَمَا سُلَّ الْحُسَامُ مِنَ الْغَمْدِ وَبَأْسٌ كَمَا طَارَ الشَّرَارُ مِنَ الزُّنْدِ
تَسَاقَوْا وَمَا غَيْرُ النَّجِيعِ سُلَافَةٌ تَدَارُ وَلَا غَيْرُ الْأَسِنَّةِ مِنْ وَرْدٍ^(١)
وَإِنِّي - عَلَى أَنْ لَسْتُ صَدْرُ قَنَاتِهِمْ لَخِذْنُ الْعَلَا تَرِبُ النَّدَى لِدَّةُ الْمَحْدِ
أَخْرُضُ الظُّبَا تَحْضَرَّ فِي النَّقْعِ بَيْضُهَا فَأَلْقَى الْمَنَايَا الْحُمَرَ فِي الْحَلْلِ الرُّمْدِ^(٢)

وهو فخر على الطريقة العربية البدوية، يستحضر الشاعر معانيه كما يصطنع أدواته وأساليبه.

(١) النجيع: الدم.

(٢) الظُّبَا جمع ظُبة وهي الحذ من السيف وغيره.

- وفي شعراء ملوك بني الأحمر يوسف الثالث (٨١٠-٨٢٠هـ) ومن شعره
يفخر بنفسه، وشجاعته، وجهاده:

راقَ الزَّمانُ وجاءنا مِقاتُهُ بالضَّحوةِ الغراءِ من أيَّامِهِ
ناتَمُّ في حربِ الصليبِ وحزبه بشَفيعِ كلِّ موحدٍ وإمامِهِ
وقوله:

لقد علمتُ نصرٌ بأنِّي كفيْلُها إذا هاجت الهيجاءُ واحمَرَّت الأرضُ
أدافعُ عنهم بالصَّوارمِ والقنا وأحمي حماها أن يُنال لها عِرْضُ
بنا ساعة الهيجاءِ يَحْمِي وطيسُها وتُهتِكُ أَسْتارُ البغاةِ إذا انْقَضُوا
إلى عِرةِ الأنصارِ تُعزِي أرومِي إلى معشرٍ في الذِّكرِ حُبُّهم فَرَضُ

فهو يشير إلى جانبي الفخر: أحدهما: الفخر بقومه من الأنصار (فهم ينتمون
في سعد بن عباد) والثاني الفخر بنفسه وشخصه فهو يحمي قومه، ويحمي
الشعب الذي التفَّ حوله؛ وسرد في مقاصد الفخر النسب والشجاعة، ورسوخ
المكانة.

الزُّهْد:

عرف الشعر الأندلسي غرض الزُّهد، في جملة الأغراض الشعرية المألوفة، وكان ابن أبي زَمِين، من رجال القرن الرابع، أحد الذين طرَقوا هذا الفن. وكان الشعر الزهدي يتردّد على قلة عند بعض الشعراء على وجه تلقائي غالباً، تقف وراءه خطراتُ الشعراء، وظروف الحياة بعد التقدّم في السن، والملاحظات العابرة لوجوه الحياة المُختلفة.

وكان القرن الخامس الهجري، في ظل دول الطوائف، منطلقاً لعدد غير قليل من الشعراء لنظم شعر الزُّهد، ونجد بعض الشعراء الذين غلب الزُّهد على دواوينهم أو مجموعاتهم كأبي إسحاق الإلبيري.

وظروف القرن الخامس من النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية أيضاً - سمحت بمثل هذا الاستغراق في شعر الزُّهد، فقد شحذتُ هذا النوع من الشعر: ((فَوَضَى الحياة السياسية، وزادت في حُبّ الخلاص لدى الفرد من غوائل الحياة، وشجّعته على طلب النّجاة لنفسه حين كان يرى الأوضاع الاجتماعية تزداد سوءاً، وأصبح الزُّهد لدى بعض أصحابه مذهباً أدبياً أخلاقياً معاً كما كان عند أبي العتاهية في المشرق))^(١).

١- ومن الشعراء الذين مالوا إلى القول في الزُّهد أبو القاسم السُّمَيْسِر: وكان زُهدُه باللسان دون الاعتقاد به والاعتماد له مذهباً؛ لقد زَهِد شعره حين قصّرت أحواله عن مطالبه، ومن شعره في الدّنيا وحقيقة موقف الناس منها:

(١) تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمرابطين: د. إحسان عباس ١٣٠.

لله في الدُّنيا وفي أهلها
مَنْ بَشَرٍ نَحْنُ فَمَنْ طَبَعْنَا
دَعَايَ مَنْ النَّاسِ وَمَنْ قَوْلِهِمْ
لَمْ تُقْبَلِ الدُّنْيَا عَلَى نَاسِكَ
وَإِنَّمَا يُعْرِضُ عَنْ وَصْلِهَا
مَنْ صَرَفَتْ عَنْهُ مُحَيَّاها^(١)
نَحِبُ فِيهَا الْمَالَ وَالْجَاهَا
فَإِنَّمَا النَّاسُ خَلَاها
إِلَّا وَبِالرَّحْبِ تَلَقَّاها
مَنْ صَرَفَتْ عَنْهُ مُحَيَّاها!

وهذا موقف صريح جداً، بالغُ الإسراف في التعميم، وقياس الناس على مثال واحد؛ وهو موقف مبني على ((سوء الظن بالناس، وعدم الاطمئنان إليهم))^(٢). وهو القائل:

جُمْلَةُ الدُّنْيَا ذَهَابُ
وَالَّذِي فِيهَا مَشِيدُ
وَأَرَى الدَّهْرَ بَخِيلًا
سَالِبٌ مَا هُوَ مُعْطٍ
وَلِيَوْمِ الْحَشْرِ إِنْعَا
فَاتَّقِ اللَّهَ وَجَنِّبْ
مِثْلَمَا قَالُوا سَرَابُ
فَحَرَابُ وَيِيَابُ
أَبْدًا فِيهِ اضْطِرَابُ
فَالَّذِي يُعْطِي عَذَابُ
م: سَسْؤَالٌ وَجَوَابُ
كُلُّ مَا فِيهِ حَسَابُ

وهو يدعو الناس إلى القناعة والرضى بالكفاف، والبعد عن الإسراف:
دَعِ عَنْكَ جَاهًا وَمَالًا
قَسْوَةً حَالًا وَأَمْنًا
وَكُلِّ مَا هُوَ فَضْلُ
لَا عَيْشَ إِلَّا الْكَفَافُ
مِنْ الرَّدَى وَعَفَافُ
فَإِنَّهُ إِسْرَافُ!

(الفضل: الزيادة).

(١) معميات أمور فيها خفاء، وتحتاج إلى ذكاء وبراعة لاستخراج مقاصدها.

(٢) عصر الطوائف والمرابطين ١٣٥.

٢- وقد تكون الفلسفة - لا التقوى - مصدراً من مصادر الشعر الزهدي كالذي تجده عن ابن الحداد^(١) الذي كان من مُدّاح المعتصم بن صُمّاح صاحب المَرِيّة، ومنه قوله:

لَزِمْتُ قَنَاعِي وَقَعَدْتُ عَنْهُمْ فَلَسْتُ أَرَى الْوَزِيرَ وَلَا الْأَمِيرَا
وَكُنْتُ سَمِيرَ أَشْعَارِي سَفَاهَا فَعُدْتُ لِفَلَسَفِيَّاتِي سَمِيرَا

٣- ومن الشعراء الزهاد من صَدَرُوا فِي شِعْرِهِمُ الزَّهْدِي عَنْ قَنَاعَةٍ وَرَأَى. وهي فئة من ((العلماء الأتقياء العاملين بعلمهم))^(٢) ابن الرّيوالي ومن شعر الزهدي:

يَا مُعْجِباً بَعْلَائِهِ وَغَنَائِهِ وَمَطْوِلاً فِي الدَّهْرِ حَبْلُ رَجَائِهِ
كَمْ ضَاحِكٍ أَكْفَانُهُ مَنشُورَةٌ وَمُؤَمِّلٍ وَالْمَوْتُ مِنْ تَلْقَائِهِ
ومنه:

أَيَّامُ عُمْرِكَ تَذْهَبُ وَجَمِيعُ سَعْيِكَ يُكْتَبُ
ثُمَّ الشُّهَيْدُ عَلَيْكَ مِنْ كَ فَأَيْنَ أَيْنَ الْمُهْرَبُ؟

وَمَنْ نَحَا هَذَا الْمُنْحَى أَحْمَدُ الْإِقْلِيشِي، وَكَانَ زَاهِداً عَازِفاً عَنِ الدُّنْيَا وَمِنْ شِعْرِهِ قَصِيدَةٌ يَتَوَجَّهُ فِيهَا بِالْحَدِيثِ إِلَى نَفْسِهِ فِي مَنَاجَاةٍ يَشُوبُهَا شَيْءٌ مِنَ التَّلَوُّمِ، عَلَى عَادَتِهِمْ فِي تَضَخِيمِ الذُّنُوبِ أَوْ اعْتِدَادِ الْهَفَوَاتِ، أَوْ تَسْجِيلِ التَّقْصِيرِ وَعَدَّةٍ مِنَ الذُّنُوبِ، وَمِنْهَا قَوْلُهُ:

ثَلَاثُونَ عَاماً قَدْ تَوَلَّيْتُ كَأَنَّهَا حُلُومٌ تَقْضَتْ أَوْ بِرُوقٌ خَوَاطِيفُ
وَجَاءَ الْمَشِيبُ الْمُنْذِرُ الْمَرءُ أَنَّهُ إِذَا رَحَلْتَ عَنْهُ الشَّبِيبَةُ تَالِفُ
فِي أَحْمَدُ الْخَوَّانُ قَدْ أَدْبَرَ الصَّبَا وَنَادَاكَ مِنْ سَنِّ الْكُهُولَةِ هَاتِفُ
فَهَلْ أَرَقَّ الطَّرْفُ الزَّمَانُ الَّذِي وَأَبْكَاهُ ذَنْبٌ قَدْ تَقَدَّمَ سَالِفُ؟
فَجُدْ بِالْدموعِ الْحُمُرُ حَزْناً وَحَسْرَةً فَدَمْعُكَ يُنْبِي أَنَّ قَلْبَكَ آسَفُ

(١) انظر كلاماً عنه في شعر (الغزل) من هذا الفصل (الثاني).

(٢) عصر الطوائف والمرابطين ١٣٢، وانظر مصادره ثمة.

ومن أصحاب هذا الاتجاه: علي بن إسماعيل الفهري القرشي، ويعرف بأبي الحسن الطيّل وكان أهل زمانه يشبهونه بأبي العتاهية في زمانه - كما نقل ابن بسّام -.

ومن شعره الزُّهدي:

يا غافلاً شأنه الرُّقَادُ كأنما غيّرَكَ المُمَرَّادُ
والموتُ يرعَاكَ كلَّ حينٍ فكيف لَمْ يَجفُكَ المِهَادُ؟

وفي هذه القصيدة:

ما حالُ سَفَرٍ بغيرِ زادٍ والأرضُ قَفَرٌ ولا مَزَادُ
ضَمَرُ جَوَادٍ لِيَوْمٍ سَبَقِ لمثلُـهُ يُرْفَعُ الجَوَادُ
أينَ فلانٌ وكمَ فلان قد غَيَّبُوا في الثرى فبادوا؟
لا تبغِ دُنْيَا فإنَّ عَنْهَا المؤمنُ التقى يُـذَادُ
فابنٍ بها بالتقى بُرُوجاً تَأْمَنُ إذا رُوِّعَ العَبَادُ
واعتبرِ الأرضَ كيفَ مَدَّتْ فهي لهذا الـورى مِهَادُ
ثمَّ السَّمَاءَ التي أَظَلَّتْ قد رَفَعَتْ ما لها عِمَادُ
كما بناها يني سِوَاهَا كما بدأنا كذا نُعَادُ

وهؤلاء الشعراء من رجال القرن الخامس. وقد جُلّي في هذه المدة شاعران آخران هما ابن العسال وأبو إسحاق الإليري، ونقف عند أبي إسحاق الإلبيري الذي ترك ديوان شعرٍ مهمّاً في هذا الموضوع^(١).

(١) طبع الديوان قديماً طبعة استشرافية، ثم حَقَّقَتْهُ، وطُبِعَ في مؤسَّسة الرِّسالة ثم في دارقُتبية، واستقرَّ في دار الفكر. انظر الطبعة الثالثة منه بدار الفكر.

الإلبيري^(*): هو أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود بن سعد التُّجِيبِي، الإلبيري. نسبة إلى مدينة إلبيرة في جنوب الأندلس. أحد العلماء الصُّلحاء الزُّهاد. ولد في أواخر القرن الهجري الخامس وأدرك مدّة منه، وعُمر إلى نحو سنة (٤٦٠هـ). ونعرف من أخباره أنه اشتغل بالكتابة مدة من الزمن، كتب لبعض القضاة.

وفي فتوته أو شبابه الأول، انتقل مركز المنطقة من مدينة إلبيرة إلى مدينة غرناطة، حين أدار شؤونها بنو زيري المتغلبون عليها في مدة الفتنة، وفي عصر الطوائف. فرثى مدينة إلبيرة بقصيدة مدونة في ديوانه.

وقد تنبه أبو إسحاق إلى الظروف السياسية والاجتماعية التي أظلت الأندلس في مدة الفتنة القرطبية، ومدة دول الطوائف. وسجل ملاحظاته وخطراته ومواقفه في ثنايا قصائده ومقطعاته.

ويغلب على شعره الزُّهد. وهو زهد العالم، الصالح، المتورّع. ولكنه لم يكن منقطعاً عما حوله، وإن كان زاهداً في المتع والمناصب وأعراض الدنيا جميعاً. ومن هنا نفهم هجومه على الإسراف والتبذير، والانغماس في الشهوة، والاسترسال في مطالب الحياة التي لا تنتهي: (مهاجمة المجتمع المستهلك المترف).

ونفهم موقفه الصُّلب من تسلط الوزير اليهودي ابن النغريلة وجماعته على دولة بني زيري، وعيّنهم في الأرض والناس فساداً.

ويشارك الإلبيري مع معاصره ابن العسّال - كما يقرر الدكتور إحسان عباس بحق - في الوعي السياسي، فقد قال فيهما^(١):

إنّ هذين الزّاهدين كانا أشدّ الناس إحساساً بسوء الأوضاع السياسيّة في وطنهما. فبكى ابنُ العسّال سقوط مدينة برّ بَشْتَر ثم سقوط طليطلة، وكان

(*) انظر مقدمة ديوان أبي إسحاق الإلبيري - الطبعة الثالثة - دار الفكر دمشق.

(١) عصر الطوائف والمرابطين ١٣٦.

الإلبيري صاحب الدعوة إلى ثورة صنهاجة ضد تسلط اليهود بعامه وابن النّغيلة
بخاصة في شؤون دولة بني زيري، وكانت قصيدته^(١):

أَلَا قُلْ لَصْنَهَا جَعْلٌ أَجْمَعِينَ بِذُورِ النَّدِيِّ وَأُسْدِ الْعَرِينِ

الشرارة التي أذكت نار الثورة يومئذ، وبسبب صراحتة ووقوفه وقفة صلبة،
نفاه باديس قبل تلك الحادثة من غرناطة إلى إلبيرة.

وتبقي لقصائد أبي إسحاق الإلبيري مزايا خاصة تلوّنه بلون شخصي متميّز،
وتظهر منها جوانب شخصية واضحة بارزة.

اتجاهات شعره: شعره يتناول في الغالب:

١- يغلب على الديوان غرض الزُّهد، فكأنّ الديوان مذكرات شخصية يتوجه
فيها الشاعر بالخطاب إلى نفسه أولاً، ويتحدث فيها عنها. ثم تكون الملاحظات
الأخرى التي تتناول أطراف الحياة، وجوانب المجتمع.

ويُعَدّ أبو إسحاق الإلبيري في الأندلس من أشهر شعراء الزُّهد، وهو أهم
شعراء الزهد في هذه المدة. وديوانه - وإن لم يصل إلينا كاملاً كما يبدو - يمثل
هذا السبق في غرض الزُّهد، ويصوّر شخصية الشاعر، وانعكاس أحداث عصره
في نفسه وشخصه أيضاً.

٢- وفي الديوان القصيدة المهمة التي أشرنا إليها قبل، والتي لام فيها باديس
حاكم غرناطة على تفريطه، وحرّض على المتسلط الظالم ابن النّغيلة، وكانت
شرارة ألهمت الثورة التي أدّت إلى مقتل الوزير المذكور، وغيّرت وجه تاريخ
المنطقة.

وهذا وجه ثوري في شخصية الإلبيري، وتقويم جديد لشاعر الزُّهد الذي
اشتهر في القرن الرابع وماوراءه.

(١) انظر القصيدة، وهي طويلة في ديوانه، وفي (المختار من الشعر الأندلسي) لمحمد رضوان الداية - الطبعة
الثالثة، دار الفكر - دمشق.

٣- وشعره معرض لتأملاته في الحياة من خلال أحداثها المعاصرة له. وهو - وإن لم يذكر حوادث كثيرة بأعيانها - فإنه كان يشير إشارات دالة كثيرة.

• وقد فاضل كثيراً بين العلم من جهة والمال والجاه من جهة ثانية. وفضل العلم باستمرار، وجعله المقدم في الدنيا والآخرة. ومن ذلك قوله^(١) مخاطب شخصاً يكنى أبا بكر:

أبا بكرٍ دعوتُك لو أجبتا إلى مافيهِ حظُّك إن عقلتُنا
إلى علمٍ تكونُ بِهِ إماماً مطاعاً إن نهيتَ وإن أمرتُنا
وتجلُّو ما بعينك من عشاها وتهديك السبيلَ إذا ضللتُنا
وتحملُ منه في ناديك تاجاً ويكسوكَ الجمالَ إذا اغتربتُنا
ينالك نفعُهُ مادتَ حياً ويبقى دُحرهُ لك إن ذهبتُنا
وفي شعره في هذا المنحى قوله^(٢):

لا شيءَ أخسرَ صفقةً من عالمٍ لعبتُ بِهِ الدُّنيا مع الجُهلِ
فغداً يفرِّقَ دينهُ أيدي سبأ ويُزيلهُ حرصاً لجمعِ المالِ

• وتغلغل في أعماق النفس - ضارباً المثل غالباً من نفسه - وسجّل آراءه ومطالباته الذاتية، ومن ذلك قوله^(٣):

ما أميلَ النفسَ إلى الباطلِ وأهونَ الدُّنيا على العاقلِ
تُرْضي الفتى في عاجلِ لذة لو خسرَ الجنةَ في الآجلِ
يبيع ما يبقى بما ينقضي فعل السفيه الأحمقِ الجاهلِ

(١) ديوان الإلبيري ٢٦.

(٢) الديوان ٤٠.

(٣) الديوان ٥٧: قالها يعرض برجل من الفقهاء.. (وهو يعني واحداً من فقهاء السوء كما دعاهم في الإحياء).

• وقد يدخلُ إلى مقاصده من باب مخاطبة العقل لا من باب ملامسة العواطف، كقوله:

أنتَ المخاطبُ أيها الإنسانُ فأصغُ إليَّ يُلحُ لك البرهانُ
أودِعتُ ما لو قلتُهُ لك قلتَ لي هذا لعمرِكَ كُلُّه هذيانُ!
فانظر بعقلِكَ من بنانِكَ واعتبر إتقانَ صنعتهِ فشمَّ الشَّانُ!

٤- وفي شعره ملامح نزعة إنسانية عميقة؛ ونجد أمثلة لذلك في رثاء مدينة البيرة، وفي أثناء رثائه لزوجته، وفي توجيهه الخطاب إلى الإنسان - أين كان وأياً كان - قال مثلاً في رثاء البيرة:

أَتَدْبُ أَطْلَالَ الْبِلَادِ وَلَا يُرَى لِالْبِيرَةِ مِنْهُمْ عَلَى الْأَرْضِ نَادِبُ
عَلَى أَنَّهَا شَمْسُ الْبِلَادِ وَأُنْسُهَا وَكُلُّ سَوَاهَا وَحْشَةٌ وَغِيَاهُ
وَكَمْ مِنْ مَجِيبٍ كَانَ مِنْهَا لَصَارِخٍ تُجَابُ إِلَى جَدْوَى يَدِيهِ السَّبَاسِبُ
وَكَمْ مِنْ نَجِيبٍ أُنْجِبَتْهُ وَعَالِمٍ بِأَبْوَابِهِمْ كَانَتْ تَنَاخُ الرِّكَائِبُ
وَكَمْ طَلَعَتْ مِنْهَا الشَّمُوسُ وَكَمْ مَشَتْ عَلَى الْأَرْضِ أَقْمَارٌ بِهَا وَكَوَاكِبُ
لَعَهْدِي بِهَا مَبِیْضَةُ اللَّيْلِ فَاغْتَدَتْ وَأَيَّامُهَا قَدْ سَوَّدَتْهَا النَّوَائِبُ

وفي أواخر القصيدة:

لسألتُ عنهم رَسْمَهَا فَأَجَابَنِي ((أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ ذَاهِبُ))

عناصر الزهد في شعره^(١):

يطول الحديث لو شئنا استقصاء عناصر الزهد في شعر أبي إسحاق الإلبيري والتدليل عليها، ولكننا نجمل تلك العناصر في أشياء رئيسية، فمن ذلك:

(١) انظر للتوسع: ((أبو إسحاق الإلبيري زاهد الأندلس الثائر)) سلسلة الروائع الجديدة، محمد رضوان الداية.

١- التنفير من الانغماس في الدنيا، والدنيا عنده: عدو شرس يتخايل للإنسان في صور مغرية مغوية، والذكي السعيد هو الذي لا يخضع لإغراء منها أو إغواء؛ فالدنيا لا يؤسف على شيء منها.

وما آسى على الدنيا ولكن على ما قد ركب من الذنوب

والدنيا تناديه فيعرض عنها:

نادت بي الدنيا فقلت لها أقصري مازلت خادعتي بسرق خلبي
ما عُدَّ في الأكياس من لباك ولو اهتديت لما انخدعت لذاك

وهي أم غير حانية تأكل أبناءها، قال:

لا كنت من أم لنا أكالة بعد الولادة، ما أقل حياك

وفي قصيدة أخرى:

لا شيء أخسر صفقة من عالم لعبت به الدنيا مع الجهال

٢- والتذكير بالموت، وأنه لا بد منه، والتذكير بالآخرة الآتية لا محالة، فالدنيا ممر وليست مقراً، ومن شعره في هذا المقصد:

تغازلني المنية من قريب وتنشر لي كتاباً فيه طيبي
وتلحظني ملاحظة الرقيب بخط الدهر أسطره مشيبي
كتاب في معانيه غموض يلوح لكل أوّاه منيب..

.... وسيستهلك الموت كل شيء، حتى هذه الدنيا المغرية المتسلطة:

مهلاً عليك فسوف يلحقك الفنا فترى بلا أرض ولا أفلاك!

ومثله قوله:

نحن في منزل الفناء ولكن هو باب إلى البقاء وسلم
ورحى الموت تستدير علينا أبداً تطحن الجميع وتهشم

٣- ويكثر في شعره التلوم النفسي، فقد جعل نفسه المثال الذي يعالج من خلاله مواقف من الدنيا والناس؛ ويتحسر على مافات من زمانه حين كانت الدنيا (تغازله) أو تشده إليها... وإن لم يستجب لها.

قال مثلاً: (الديوان ٣٤)

فيألهفي على طولِ اغتراري ويا ويحي من اليوم العَصِيبِ
إذا أنا لم أنح نفسي وأبكي على حُوبِسي بتهتانِ سَكُوبِ^(١)
فمن هذا الذي بعدي سيبي عليها من بعيدٍ أو قريبٍ!

وقال: (الديوان ٤٩)

قد بلغت الستين ويحك فاعلم أن مابعدهما عليك تلوم
فإذا ما انقضت سنوك وولت فصل الحاكم القضاء فأبرم
أنت مثل السجل يُنشرُ حيناً ثم يطوى من بعد ذاك ويُختم

وكثيراً ما أضاف إلى نفسه الذنوب والأخطاء وماشابه ذلك من العبارات المماثلة؛ ويعلل هذا، كما يظهر من حياته وشخصيته وسيرته بالتحرج الشديد؛ قال مثلاً (الديوان ٥٣):

ومما شجاني والشُّجون كثيرة ذنوبٍ عظامٍ أسبَلتُ عبراتي
وأقلقني أني أموتُ مُفَرَّطاً على أنني خَلَفْتُ بعض لداتي
وأغفلتُ أمري بعدهم متبَطِّطاً فيأعجباً مني ومن غفلاتي!

٤- الدعوة إلى الاكتفاء من عرض الحياة الدنيا بالضروري الكافي. والأخذ من الحلال وإن قلّ وجفاً، دون الحرام وإن كثر وحلاً؛ قال مثلاً (الديوان ٤٠):

فأخذ الكفافَ ولا تكن ذا فضلةٍ فالفضلُ تُسألُ عنه أيُّ سؤالٍ
ودع المطارفَ والمطَيَّ لأهلها واقنع بأطمارٍ ولبسٍ نعالٍ

(١) الحُوب: الإثم.

فَهُمْ وَأَنْتَ وَفَقَرْنَا وَغِنَاهُمْ لَا يَسْتَقِرُّ وَلَا يَدُومُ بِحَالٍ
وله قصيدة لطيفة في هذا المنحى، كتب بها إلى ابن أبي رجاء الكاتب؛
وكان هذا الكاتب قد زار الشاعر في مرضه فأنكر عليه بيته المتواضع، وعرض
عليه ما يليق به من المسكن، قال:

قَالُوا أَلَا تَسْتَجِدُّ بَيْتاً^(١) تَعْجَبُ مِنْ حُسْنِهِ الْبُيُوتُ؟
فَقُلْتُ: مَا ذَلِكُمْ صَوَابٌ حَفَشَ كَثِيرٌ لِمَنْ يَمُوتُ
لَوْلَا شِتَاءٌ وَلَفْحٌ قِيْظٌ وَخَوْفٌ لَصٌّ وَحَفْظٌ قَوْتُ
وَنَسْوَةٌ يَتَغَنَّى سَتْرًا بَنِيْتُ بَنِيَانٍ عَنكَ بَوْتُ!

نظرة في شعره

تعتمد صنعة أبي إسحاق الإلبيري الشعرية على إيراد المعاني واضحة جليلة،
مكشوفة، وهذا مفهوم - وهو أيضاً طبعي - من شاعر يدعو إلى فكرة، وينشر
رأياً، ويدافع عن موقف؛ ومن هنا اتسم شعره بالعمومية والتلقائية والمباشرة.

- وهو أيضاً يسترسل وراء الفكرة ويشقق الكلام فيها ويشبعها حديثاً. ولعله
كان يصنع ذلك - بعد استيفاء المعنى - لغرض المناقشة والإقناع أيضاً.

- وقارئ ديوان الإلبيري يجده منسجماً بعضه مع بعض، ويصدر عن منهج واحد.
ومن هنا - أيضاً - كان وضوح شخصيته، وتقارب ماأخذه، وانسياق عبارته على
وجه خاص: فيه من الخطابة شيء، والحوار شيء، وأسلوب الإقناع شيء آخر.

ونقول - بعد -: إن أسلوب أبي إسحاق الإلبيري الشعري يعتمد على
السهولة واليسر والوضوح، ويأخذ من الألفاظ أقربها وأيسرها، ويجري في
تراكيبه - عادة - على أساليب قريبة جداً من لغة الكلام اليومي العادي: بساطة
ووضوحاً وتسلسلاً وبعداً عن أيّ تكلف أو تعقيد.

(١) ويروى: تستجيد.

وقد يعتمدُ في أسلوبه وفي سبك معانيه على مُعطيات مختلفة؛ كأخذه من الصّور الحربية، والألفاظ المناسبة لها، ومن ذلك قوله:

لو كنتُ في ديني من الأبطالِ ما كنتُ بالواني ولا البطالِ
ولبستُ منه لأمةً فضفاضةً مسرودةً من صالح الأعمالِ
لكنني عطّلتُ أقواسَ التُّقى من نبلها فرمتُ بغير نبالِ
ورمى العدوُّ بسهمه فأصابني إذ لم أحصنُ جُنّةً لنضالِ
فأنا كمنْ يلقي الكتيبة أعزلاً في مأزقٍ متعرّضاً لنضالِ

ويكثر الإلبيري في شعره من استخدام أسلوب الحوار. وقد أعانه هذا الأسلوب على الاسترسال، وعلى بسط الرأي ومعالجة أفكاره معالجةً وافية. وكثيراً ما يكون الحوار (ذاتياً): مناجاةً. ولكن الأسلوب يبقى أسلوب حوار، قال مثلاً:

قد بلغتَ السّتين ويحك فاعلم أنّ ما بعدهما عليك تلوم
وفي شعره أيضاً، في هذا المقصد (الديوان ٥٩):

أنتَ المخاطبُ أيُّها الإنسانُ فأصيحُ إليّ يلحُ لك البرهانُ

- وقد خرج عن قواعد القافية المألوفة، حين كرّر في قصيدتين^(١) اثنتين كلمة واحدة في القافية، في كل قصيدة لم يغيّرهما، انتهى كل بيت في إحدهما بلفظ الجلالة: (الله) وانتهى كل بيت في القافية بكلمة: (النار): وأعطى هذا التجاوز^(٢) القصيدتين نغمةً خاصّةً مطربة، قال:

يا أيُّها المغترُّ بالله فرّ من الله إلى الله

(١) انظر هاتين القصيدتين في الديوان؛ وفي كتابنا: المختار من الشعر الأندلسي، الطبعة الثالثة، دار الفكر - دمشق.
(٢) سميناه ((تجاوزاً))؛ بحارةً للعروضيّين في ماشرطوه من علم القافية. انظر كتب العروض والقافية مثل: المعيار في أوزان الأشعار وذيله لابن السراج الأندلسي الششتري.
- ولنا كلمة مطوّلة في موضوع ((تكرار القافية)).

وَلَذُّ بِهِ وَاسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ نَجَّاهُ مَنْ لَازَ بِاللهِ
وَقُمْ لَهُ وَاللَّيْلُ فِي جَنَحِهِ فَجَبَّاهُ مَنْ قَامَ لِلَّهِ

وقال في الثانية: (الديوان ٨٥)

وَيْلٌ لِأَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ مَاذَا يُقَاسُونَ مِنَ النَّارِ
تَنْقَدُّ مِنْ غِيظٍ فَتَغْلِي بِهِمْ كَمِزْجَلٍ يَغْلِي عَلَى النَّارِ
فَيَسْتَغِيثُونَ لَكِي يُعْتَبَرُوا أَلَا لَعَاءُ مِنْ عَثْرَةِ النَّارِ!
وَكُلَّهُمْ مَعْتَرَفٌ نَادِمٌ لَوْ تَقَبَّلَ التَّوْبَةُ فِي النَّارِ!

- وأقدم قصيدتين من ديوان الإلبيري تمثلان موقفه من الدنيا، وتعبيران أيضاً عن شعره، وأسلوبه، وطريقة تناوله لموضوع من أهم موضوعاته؛ قال:

مَا أَمِيلَ النَّفْسَ إِلَى الْبَاطِلِ وَأَهْوَنَ الدُّنْيَا عَلَى الْعَاقِلِ^(١)
تُرْضِي الْفَتَى فِي عَاجِلِ شَهْوَةٍ لَوْ خَسِرَ الْجَنَّةَ فِي الْآجِلِ
يَبِيعُ مَا يَبْقَى بِمَا يَنْقُضِي فِعْلَ السَّفِيهِ الْأَحْمَقِ الْجَاهِلِ^(٢)
يَا مَنْ رَأَى لِي وَاصِلاً مُرْشِداً وَإِنِّي أَكْلَفُ بِالْوَاصِلِ^(٣)
يَا مَنْ رَأَى لِي عَالِماً عَامِلاً فَالْزَمَ الْخِدْمَةَ لِلْعَامِلِ

(١) في كتاب الأغاني (١١٦/٢٢): كان معاوية يتمثل كثيراً إذا اجتمع الناس في مجلسه بهذا الشعر:
إِنَّا إِذَا مَالَتْ دَوَاعِي الْهَوَى وَأَنْصَتِ السَّمْعُ لِلْقَسَائِلِ
... (الأبيات).

وكان عبد الملك بن مروان إذا جلس للقضاء بين الناس أقام وصيفاً على رأسه يُنشده:
إِنَّا إِذَا مَالَتْ دَوَاعِي الْهَوَى وَأَنْصَتِ السَّمْعُ لِلْقَسَائِلِ
وَاصْطَرَعِ الْقَوْمُ بِالْبَابِهِمْ نَقْضِي بِحُكْمٍ عَادِلٍ فَاَصِلِ
لَا نَجْعَلُ الْبَاطِلَ حَقّاً وَلَا نَلْطَطُ دُونَ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ
نُخَافُ أَنْ تَسْلِفَ أَحْلَامُنَا فَتَحْمِلَ الدَّهْرَ مَعَ الْخَامِلِ
ثم يجتهد عبد الملك في الحق بين الخصمين.

(٢) السَّفِيهِ: من يبذر أمواله فيما لا ينبغي.

(٣) كَلَّفَ بالشئ: أولع به ولهج.

أَمْ مَنْ رَأَى لِي عَالِماً سَاكِتاً
يَسْرَحُ فِي زَهْرٍ رِيَاضِ النُّهَى
يَارُبَّ قَلْبٍ كَجَنَاحِ هَفَّتْ
يُصَرِّفُ الْخَطَرَةَ مَدْعُورَةً
آهٍ لِسِرِّ صُنْتِهِ لَمْ أَجِدْ
هَلْ يَقْظُ يَسْأَلُنِي عَلَنِي
قَدْ يَرَحُلُ الْمَرْءُ لِمَطْلُوبِهِ
لَوْ شُغِلَ الْمَرْءُ بِتَرْكِيهِ
وَعَايَنَ الْحَكَمَةَ مَجْمُوعَةً
يَا أَيُّهَا الْغَافِلُ عَنْ نَفْسِهِ
وَانْظُرْ إِلَى الطَّاعَةِ مَشْهُورَةً
وَالْحَظْ بِعَيْنَيْكَ أَدِيمَ السَّمَاءِ
كُلُّ عَلَى مَسَلِكِهِ لَا يُرَى
لَوْ دَبَّرْتَ أَنْفُسَهَا لَمْ تَغِيبْ
وَانْظُرْ إِلَى الْمُزْنَةِ مَشْهُورَةً

وَعَقْلُهُ فِي عَالَمٍ جَائِلٍ
لَيْسَتْ كَرَوْضٍ مَاحِلٍ ذَابِلٍ
قَدْ غَابَ فِي بَحْرِ بِلَا سَاحِلٍ^(١)
مِمَّا يَرَى مِنْ مَنْظَرٍ هَائِلٍ
خَلْفاً لَهُ قَطُّ بِمُسْتَاهِلٍ^(٢)
أَكْشَفَهُ لِلْيَقْظِ السَّائِلِ^(٣)
وَالسَّبَبُ الْمَطْلُوبُ فِي الرَّاحِلِ
كَانَ بِهِ فِي شُغْلٍ شَاغِلٍ
مَائِلَةً فِي هَيْكَلٍ مَائِلِ^(٤)
وَيْكَ أَفْقُ مِنْ سِنَّةِ الْغَافِلِ
فِي الْفَلَكِ الصَّاعِدِ وَالنَّازِلِ
مِنْ طَالِعٍ فِيهَا وَمِنْ آفِلِ
عَنْ ذَلِكَ الْمَسَلِكِ بِالْمَائِلِ
وَاطَّلَعَ النَّاqِصُ كَالْكَامِلِ
مُثْقَلَةً الْكَاهِلِ كَالْبَازِلِ^(٥)

(١) هفا: أسرع: وهفا الطائر خفق بجناحيه. قال في اللسان: ((جَمَعَهُ أَجْنَحَةٌ وَأَجْنَحَ، حَكَى الْأَخِيرَةُ ابْنَ جَنِيٍّ وَقَالَ: كَسَّرُوا الْجَنَاحَ - وَهُوَ مَذْكَرٌ - عَلَى أَفْعُلٍ وَهُوَ مِنْ تَكْسِيرِ الْمُؤَنَّثِ لِأَنَّهُمْ ذَهَبُوا بِالتَّكْسِيرِ إِلَى الرَّيْشَةِ)). وقوله: ((كَسَّرُوا)) أي جَمَعُوا الْكَلِمَةَ جَمْعَ تَكْسِيرٍ.

(٢) آه أوها، وأوها تأويها: قالها: (كلمة آه).

(٣) يقال رجل يقظ، بضم القاف وكسرهما.

(٤) كذا رُتِبَتِ الْأَبْيَاتُ فِي الْأَصْلِ، وَفِي الرُّوضِ الْمُعْطَارِ، وَيَتَسَلَّلُ الشَّعْرُ مَنْسُوقاً لَوْ تَقَدَّمَ الْبَيْتُ الْخَامِسُ عَشَرَ عَلَى سَابِقِهِ. وَعِنْدَهَا يَكُونُ (عَايَنُ) فَعْلٌ أَمْرٌ.

(٥) المزنة: تجمع على المزن. وهو السحاب ذو الماء.

- والبازل: البعير الذي بلغ تسع سنين (وأصله من بزل البعير أي فطر نابه وطلع).

تَجِنُّ مِنْ شَوْقٍ إِلَى وَقْفَةٍ أَوْ خَطَرَةٍ بِالْبَلَدِ الْمَاحِلِ
يَا لَكَ بُسْتَانِ عُقُولٍ بَدَا لِعَيْنِ قَلْبِ الْمُؤْمِنِ الْعَاقِلِ
فَسِرُّ هَذَا الشَّأْنِ لَا يَنْجَلِي إِلَّا لِعَبْدٍ مُخْلِصٍ فَاضِلِ

- وقال، يذكر سُكْنَاهُ حَصْنِ الْعُقَابِ (قريباً من مدينة إلبيرة) معتزلاً النَّاسَ،
منقطعاً إلى العبادة:

أَلْفَتُ الْعُقَابَ حِذَارَ الْعِقَابِ وَعِفْتُ الْمَوَارِدَ خَوْفَ الذُّنَابِ
وَأَبْغَضْتُ نَفْسِي لِعِصْيَانِهَا وَعَاتَبْتُهَا بِأَشَدِّ الْعِتَابِ
وَقُلْتُ لَهَا بَانَ عَنْكَ الصَّبَا وَجَرَدَكَ الشَّيْبُ ثَوْبَ الشَّبَابِ
وَمَابَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا الْبَلَى وَسُكْنَى الْقُبُورِ وَهَوْلُ الْحِسَابِ
فَأَيَّقَظَهَا الْعُتْبُ مِنْ نَوْمِهَا وَلَكِنَّهَا جَمَّةٌ الْأَضْطِرَابِ
فَكَمْ أَنْشَأَتْ مُزْنَةً لِلتُّقَى وَعَادَتْ وَشَيْكاً كَلَمَعَ السَّرَابِ
وَكَمْ وَعَدْتَنِي بِتَوْبٍ وَكَمْ وَمَا أَنْجَزَتْ وَعْدَهَا فِي الْمَتَابِ
وَكَمْ خَدَعْتَنِي عَلَى أَنْنِي بَصِيرٌ وَبَطْرُقُ الْخَطَا وَالصَّوَابِ
فَلَسْتُ عَلَى الْأَمْنِ مِنْ غَدْرِهَا وَلَوْ حَلَفْتُ لِي بِآيِ الْكِتَابِ!

شعر التصوف

حين يذكر أعلام التصوف في الأندلس فإن أسماء كثيرة تُسرد؛ فقد عرفت
الأندلس الصُّوفية والمتصوفة، كما كان في هؤلاء نفر شعراء سَخَرُوا فنَّ الشعر
لهذه القضية، ونظموا مقاصدهم الصُّوفية في قصائد، وموشحات، وأزجال
أندلسية.

ومن الأسماء المشهورة في التصوف بالأندلس: محمد بن عبد الله بن مَسَرَّة
الذي يذكر اسمه أيضاً باعتباره من المتأثرين بالفلسفة، ومن أتباع المدرسة

الأفلاطونية الحديثة^(١)، وقد قال فيه بالنشأ: إنه أول مفكر أصيل، أطلعه الأندلس الإسلامي، وأنه كان يستر آراءه وراء نسكه وزهادته. وكانت لابن مسرة كتب ومؤلفات ولكنها ذهبت مع الزمن. وصار لابن مسرة - على الرغم من مطاردته وملاحقة أفكاره - أنصار يأخذون بآرائه، وقيل في مذهبه أو مدرسته إنها جمعت بين التصوف على طريقة ذي النون المصري وبين آراء المعتزلة، وظلت آراء مدرسة ابن مسرة مطاردة في سائر القرن الثالث، والرابع أيضاً.

- وفيهم أبو بكر محمد بن علي بن عربي المُرسي المعروف بالشيخ محيي الدين، وبالشيخ الأكبر^(٢). خرج من الأندلس بعد اكتمال علمه ومعارفه، وجال في بعض بلاد المشرق الإسلامي، واستقرّ في دمشق، واشتهرت مؤلفاته وأشعاره التي ينحو في كثير منها منحى صوفياً أو يمكن أن تؤوّل على توجيه صوفي: إلهي.

- وفيهم عبد الحق بن سبّعين^(٣)؛ وكان له طوافٌ في عدد من بلاد المغرب والمشرق، وكانت وفاته بمكة المكرمة سنة (٦٦٩هـ)، وله مؤلفات في الوجهة التي اختارها من النزعة الصوفية.

ومن شعراء التصوف الأوائل في الأندلس أبو عمر أحمد بن يحيى بن عيسى الإلبيري^(٤) ومن شعره:

شربتُ بكأس الحبّ من جوهر الحبّ	رحيقاً بكفّ العقل في روضة الحبّ
وخامر ماء الروح فاهتزت القوى	قوى النفس شوقاً وارتياحاً إلى الربّ
ونادى حثيثاً بالأنين حنينها	إلهي، إلهي مَنْ لعبدك بالقرب

(١) تاريخ الفكر الأندلسي ٣٢٦-٣٢٧.

(٢) التكملة، الترجمة ١٠٢٣، ميزان الاعتدال ١٠٨/٣، ونفح الطيب ١٦١/٢، والبداية والنهاية ٤٩/١٤، والعقد الثمين ١٦٠/٢.

(٣) فوات الوفيات ٥١٦/١، والبداية والنهاية ٢٦١/١٣، ولسان الميزان ٣٩٢/٣، ونفح الطيب ١٩٦/٢، والعقد الثمين ٣٢٦/٥، وشذرات الذهب ٣٢٩/٥.

(٤) تاريخ علماء الأندلس رقم ١٢٠٢، المقتبس (ط مدريد) ٢٠/٥.

والشاعر يقول: ((إنه شرب في روضة الحب الإلهي رحيقاً مصفى من جوهر الحب امتزج بروحه، فحنت قوى نفسه شوقاً إلى ربه..))^(١).

- وفي شعرائهم أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى الصنهاجي الأندلسي^(٢) (٤٥١-٥٣٦هـ) من أهل المرية. تنقل في الأندلس بين درس وتدريس وعمل، وانتسب إلى الصوفية حتى اشتهر فيهم، وألف في ذلك أيضاً.

ومن شعره الصوفي (الذي ظاهره غزل وحقيقته موجهة)^(٣):

لست أدري أطلال ليلي أم لا كيف يدري بذاك من يتقلّى
لو تفرغت لاستطالة ليلي ولرعي النجوم كنت مُجلاً
إن للعاشقين عن قصر الليلى لي وعن طوله من الفكر شُغلاً

فهو يقضي ليلاً مؤرقاً (كمن يتقلّى على جمر، أو على نار)، ويقول لو كان يفكر في طول الليل وفي قصره (فعل العاشقين أو المشغولين بأمور الدنيا) لكان محلاً، أي مقصراً، لاهياً عن الذكر. والعاشقون الحقيقيون (أهل المحبة لله) يشغلهم ذكر الله تعالى عن كل شيء آخر.

- وعبر ابن عربي بوضوح عن توجيهه ألفاظ شعر الغزل ومعانيه إلى الحب الإلهي، وأعلن أنها مجرد رموز ينفذ منها، قال:

كل ما أذكره من طلل أو ربوع أو مغان كل ما
أو نساء كاعبات نهّد طالعات كشموس أو دُمى
صفة قدسية علوية أعلمت أن لصدقي قدما
فاصرف خاطر عن ظاهرها واطلب الباطن حتى تعلمها

(١) الأندلس، ضيف، ٢٥٦-٢٥٧.

(٢) بغية الملتبس ١٥٤، المغرب ٢/٢١١، المطرب ٩٠، نفح الطيب ٣/٢٢٩، وفيات الأعيان ١/٩٣.

(٣) نفح الطيب ٥/٥٩٨، وهو في تاريخ الأدب العربي - فروخ ٥/٢٣١.

إِذْنُ كُلِّ ذَلِكَ الظَّاهِرِ: حَقِيقَتُهُ حُبُّ رَبَّانِيٍّ يَعْتَلِجُ فِي فُؤَادِهِ فَيُظْهِرُ عَلَى لِسَانِهِ.
- ومن شعراء الصُّوفِيَّةِ الأندلسيين ذُوِي الشَّهْرَةِ والأَثَرِ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيٌّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ النَّمْرِي الشَّشْتَرِي^(١)، وقد مرَّ ذِكْرُهُ فِي مَوْضُوعِ (الزَّجَلُ فِي الْأَنْدَلُسِ) وَهُوَ صَاحِبُ الزَّجَلِ الْمَشْهُورِ:

شَوَيْخٌ مِنْ أَرْضِ مَكْنَسَاسٍ وَسَطُ الْأَسْوَاقِ يَغْنِي
أَشْ عَلَيَّ مِنَ النَّاسِ وَأَشْ عَلَى النَّاسِ مَنِّي؟!
وقد أثبتنا الزَّجَلَ فِي مَكَانِهِ مِنْ فُقْرَةٍ: (الزَّجَلُ فِي الْأَنْدَلُسِ) مِنْ هَذَا الْكِتَابِ.
وعلى هذا النهج يقول من موشحه:

يَا حَبِيبِي بِحَيَاتِكَ بِحَيَاتِكَ يَا حَبِيبِي
رَقِّ لِي وَانْظُرْ لِحَالِي أَنْتَ أَذْرَى بِالَّذِي بِي
أَنْتَ دَائِي وَدَوَائِي فَتَلَطَّفْ يَا طَبِيبِي!
وهي كلمات - كما علق أستاذنا د. ضيف: ((تطير من الفم طيراناً خفَّتْهَا
وعذوبتها وسلاستها))^(٢).

- وفي أخبار زهده، وبعده عن أسباب الدنيا، وانقطاعه إلى حياة الفقر والفقراء (الصوفية) أنه نزل طرابلس^(٣) فأخذ عنه أهلها علوماً، فاستحسنوا علمه واستغزروا معارفه، فعرضوا عليه منصب القضاء، فأبى من قبوله. وعجبوا من رفضه المنصب بل استحمقوه ونسبوه للجنون فذهب إلى السوق يُنشد:

رَضِيَ الْمَتِّيمُ فِي الْهَوَى بِجُنُونِهِ خَلَّوْهُ يُغْنِي عَمْرَهُ بِفُنُونِهِ
لَا تَعْذِلُوهُ فَلَيْسَ يَنْفَعُ عَذْلَكُمْ لَيْسَ السُّلُوْ عَنْ الْهَوَى مِنْ دِينِهِ
قَسَمًا بِمَنْ ذَكَرَ الْعَقِيقَ مِنْ أَجْلِهِ قَسَمَ الْحَبِّ بِحَبِّهِ وَيَمِينِهِ

(١) له إشارة في هذا الكتاب.

(٢) الأندلس ٣٦٩.

(٣) الديوان ٧٧.

مالي سواكم غيرَ أني تائبٌ عن فائزاتِ الحبِّ أو تلوينه
مالي إذا هتف الحمامُ بأيكةٍ أبداً أحينُ لشجوه وشجونه
وإذا البكاءُ بغير دمعٍ دأبه والصبُّ يجري دمعهُ بعيونه!

فهو يرضي بصفة ((الجنون)) التي زعمها أهل طرابلس، أي مازعموه جنوناً، فقد جهلوا حقيقة حاله؛ وهو الذي باع زخرف الدنيا لحقيقة الآخرة، وجعل رضى الله غايةً عظمى، ولم يعط الدنيا أكثر من حقها بحسب اعتقاده.

ويُظهر الشاعر أشواقه ومواجهه ويقارن بين شجوه وشجر الحمام المشهور بالأنين والحنين، ويجد لنفسه مزية وفضلاً فنواح الحمام وإن ضرب به المثل في الشجن والحزن أقلّ من وجده وشوقه.. لأنه هو في شجن يدلّ عليه ذارفات الدّمع من العيون المشوقة.

وينزّه الدكتور ضيف الششتري وأشعاره عن دعوى من ادّعى عليه بوحدة الوجود المطلقة فهو منها براء، ويقول: إنّ تصوّفه سُنيّ ولا زيادة على ذلك^(١) وقد أثنى القدماء والمحدثون على رقة شعره وحسن نظم موشحاته وأزجاله.

المدائح النبوية:

١- بدأ الاحتفال بالمولد النبوي في المشرق أيام الدولة الفاطمية. وشجّع صلاح الدين الأيوبي هذا الاحتفال حين كان سلطان المسلمين لأغراض دفاعية كما وصفه الدكتور عمر فروخ؛ وهو نظر صحيح، قال: ودعا صلاح الدين إلى إقامة مواسم إسلامية في أيام المواسم النصرانية بأسماء مختلفة؛ واخترع عدداً من مثل تلك المواسم أيضاً، ثم جعل للموسم الواحد أسماء مختلفة في الأماكن المختلفة؛ وكانت هذه المواسم أو الأعياد الشعبية تحمل معنى دينياً وغاية سياسية حربية. وكانت غاية صلاح الدين أن يكون من المسلمين جماعات مجتمعة متأهبة في أيام اجتماع النصارى (في مواسمهم وأعيادهم) لئلاّ يهاجم الإفرنج الصليبيون بلدةً مسلمة، والمسلمون فيها غافلون عن ذلك. وانتشرت هذه المواسم في الشام ومصر والعراق، ثم عاش عددٌ منها بعد ذلك زماناً طويلاً^(١).

ومن الشام ومصر انتقل هذا الاحتفال بذكرى المولد إلى المغرب والأندلس ثم إلى الهند أيضاً.

ووضعت (موالد) لتُتلى^(٢) أو لتُنشد في هذه المناسبة الكريمة في كل عام في المشرق. وفي الأندلس والمغرب نظموا الشعر في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنشدوا المدائح النبوية في المناسبات، وفي أيام المولد النبوي خاصة^(٣).

(١) تاريخ الأدب العربي ١١١/٦.

(٢) وللعلماء كلام في قضية الاحتفال بذكرى المولد النبوي، تُنظر في مظانها. على أنّ أهل الأندلس التفوتوا إلى الشعر والأدب عامة لتسجيل الخطرات والمواجهات بهذه المناسبة؛ نظراً لأحوالهم وأحوال بلادهم على سبيل الاستئناس، وتوكيد الحميّة العربية الإسلامية في النفوس لمقاومة العدو وبث روح الشجاعة والإقدام إضافة إلى معاني توقيره، صلى الله عليه وسلم؛ وذكر فضائله وخصاله.

(٣) نفسه ١١٢/٦-١١٣.

٢- وكان الشعر والموشح - معاً - وسيلة الناظمين للتعبير عن محبة رسول الله ﷺ، والكلام على مولده، والثناء عليه ومدحه، وذكر خصائصه وشمائله. وترافق ذلك بالتفات عدد من المؤلفين والمؤرخين إلى كتابة السيرة النبوية وإعادة صياغتها، والتأليف في الخصائص والشمائل والمغازي.

وكانت ظروف الأندلس الجهادية المتواصلة تلفت الشعراء والأدباء إلى الديار المقدسة، وإلى المقام النبوي، وإلى سيرته، وخصائصه وشمائله استمداداً للصبر والثبات، والشجاعة، وطلباً لعون الله تعالى؛ يُضافُ إلى ذلك: بُعد المسافة بين الأندلسيين وبين الديار المقدسة وصعوبة السفر، وقلة الاستطاعة. وهكذا كثرت الدواعي التي حفزتهم على نظم الشعر في هذا المقصد.

- وفي شعر ابن السيد البطليوسي قصيدة يخاطب بها مكة المكرمة؛ أولها: (١)

أمّك تفديك النفوس الكرائم ولا برحت تنهل منك الغمام..

يقول فيها:

ومن أين تعدوك الفضائل كلها	وفيك مقامان: الهدى، والمعالم
وسبعث من ساد الورى وحوى العلا	بمولده عبد الإله وهاشم
نبي حوى فضل النبيين واغتدى	لهم أولاً في فضله وهو خاتم

- ونقرأ لابن العريف، من الأشعار النبوية:

وحقك يا محمد إن قلبي	يجبّك قربة نحو الإله
جرت أمواه حبك في فؤادي	فهام القلب في طيب المياه
فصرت أرى الأمور بعين حق	وكنت أرى الأمور بعين لاهي!
إذا شغف الفؤاد به وداداً	فهل ينهاه عن ذكره ناهي؟

(١) أزهار الرياض ٣/١٤٧-١٤٨.

وابن السيد هو أحد علماء الأندلس وأدبائها. له مصنفات كثيرة في الأدب والنحو واللغة والمنطق والفلسفة، وغيرها، وله شعر حسن أيضاً. وانظر مقدمة (الإنصاف) ط. دار الفكر.

- واشتهر بالمدائح النبوية ابن الجَنّان^(١)، وهو أبو عبد الله محمد بن محمد القيسي، المعروف بابن الجَنّان الأنصاري (ت نحو ٦٥٥ هـ).

وله المُحمّسة المشهورة التي منها:

اللَّهُ زَادَ مُحَمَّدًا تَكْرِيماً
وَحَبَّاهُ فَضْلاً مَنْ لَدُنْهُ عَظِيماً
وَاخْتَصَّاهُ فِي الْمُرْسَلِينَ كَرِيماً
ذَا رَأْفَةٍ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً
حَازَ الْحَمَامِدَ وَالْمَمَادِحَ أَحْمَداً
وَزَكَتْ مَنَاسِبُهُ وَطَابَ السَّمْحَتُ
وَتَأَثَّلَتْ عَلَيْهِ سَاوِدُهُ وَالسُّودُ
مَجْداً صَمِيماً حَادِثاً وَقَدِيماً
يَاسَامِعِي أَخْبَارَهُ وَمَفَاخِرَهُ
وَمُطَالَعِي آثَارِهِ وَمَوَاقِرَهُ
وَمُعْتَمِلِي وَافِي الثُّرُوبِ وَوَافِرَهُ
إِنْ شِئْتُمْ فَوِزاً بِذَلِكَ عَظِيماً
صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً

- ومن شعره في المديح النبوي أيضاً^(٢) :

يَا رَبِّ إِنْ شَفِيعِي مِنْ ذُنُوبِي فِي
يَوْمِ الْقِيَامَةِ خَيْرُ الْخَلْقِ وَالنَّسَمِ
مُحَمَّدٌ خَلَا الرِّسْلَ الْمَبْلُغَ لِلدِّ
يَنْ الْحَنِيفِيَّ وَالْإِسْلَامَ لِلْأُمَمِ

(١) عنوان الدّراية ٣٠٢، الإحاطة ٢/٢٥٦، نفح الطيب ٦/٤٠٦.

- وقد صدر ديوان ابن الجَنّان في بغداد بعنوان: ديوان ابن الجَنّان الأنصاري الأندلسي وهي طبعة تستأهل المراجعة وإعادة النظر لتحقيق دقيق، وضبط للنصوص (وهو من جمع وتحقيق ودراسة د. منجد مصطفى بهجة).

(٢) الديوان ١٥٦.

عليه مني صلاة كلما سجع الـ حمامٌ فوق غصون البان والسَّلمِ
وبعد ذلك أعداد الجبال ورَمَـ مل الأرض والطيـر والحيتان والنعمِ
كذاك أيضاً سلامي طيب عطرٌ عليه مادام عبد في دُجى الظلمِ
للـه وهو كئيبٌ خائفٌ وجَلُّ من الذنوب حزين القلب ذو ألمِ
- وقد دخل ابن جُبَيْر^(١) مكة المكرمة في ثاني عشر ربيع الآخر سنة
(٥٧٩هـ) فنظم قصيدة فيها قوله:

بلغت المُنَى وحللت الحَرَمَ فعاد شبابك بعد الحَرَمِ
فأهلاً بمكة أهلاً بها وشكراً لمن شكره يلتزمِ
نبي شفاعته عصمةٌ فيوم التنادي به يعتصم^(٢)
ويرعى لزواره في غَدِ ذماماً فما زال يرعى الذم^(٣)
عليه السَّلام وطوبى لمن ألم بترتبته فاستلم^(٤)

فقد سجل الشاعر عواطفه الجياشة وقت دخوله الديار المقدسة الكريمة، إنه بلغ أقصى الأمانى ونشطت نفسه فكأنه - لما غمرته النعمة بوصوله إلى تلك الديار - قد عاد شاباً. وغير المؤلف، فكان هو المؤهل والمرحب بمكة، وقدم الشكر الواجب لله تعالى: ثم التفت بعد مكة إلى المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام والتحية: وهو ملجأ الناس ومعتصمهم يوم يُشفع، وهو يرُدّ تحية المسلم ويرعى حقوق الزائر...

- وفي ترجمة مالك بن المرحّل (ت ٦٩٩هـ) موشحة في المديح النبوي يقول فيها^(٥):

(١) انظر كلاماً عنه في (أدب الرحلة) في الفصل الثالث من هذا الكتاب.

(٢) يوم التنادي من أسماء يوم القيامة.

(٣) الذمة والذمام: العهد، والأمان، وما يتكفل به.

(٤) استلم التربة قبلها.

(٥) نفح الطيب ٤٥٣/٧.

- يصح أن يكون النص خمسة، فهي تستوفي شروطها، ويصح أيضاً أن يكون موشحاً، وهو موشح أقرع.

ألف: أجَلّ الأنبياء نبيُّ
 بضائيه شمس النهار تضيءُ
 وبه يؤمّل محسن ومسيءُ
 فضلاً من الله العظيم عظيماً صلوا عليه وسلّموا تسليماً
 باء: بدا في أفق مكة كوكبا
 ثم اعتلى فجلا سناها الغيها
 حتى أنار الدهر منه وأخصبها
 إذ كان فيض الخير منه عميماً صلوا عليه وسلّموا تسليماً
 وقد رتب الموشحة على حروف المعجم، كل دور يتناول حرفاً من الحروف
 الهجائية على تسلسلها.

ويلاحظ بعض الدارسين^(١) في القصائد النبوية والمخمسات ومايلحق بها
 تفرعاً وتفصيلاً، فهناك:

١- قصيدة المدح النبوي التي تذكر من سيرة رسول الله ﷺ، وشمائله
 وفضائله وأحواله، وكلّ شاعر يختار المواقف والمشاهد والخصائص التي يُدير
 قصيدته عليها. وتمتاز هذه القصائد عادة بالطول. وبعض الشعراء يضع لقصيدته
 اسماً، وقد سَمّى أحمد بن محمد بن ميمون الأشعري قصيدة نبوية له باسم:
 (خلاصة الصفا من خصائص المصطفى)، وأولها:

لأحمد خير الخلق أهدى تحيتي محمد الأمي بحكم وحكمة

٢- قصيدة التبرك بالأثر النبوي كالقصائد والمخمسات والمقطعات التي
 نظمت في مثال النعل الشريف كقول ابن الأبار:

(١) د. محمد مجيد السعيد: الشعر في عصر المرابطين والموحدين بالأندلس ٢٦٩.

إن شاقني ذاك المثال فطالما شاق المحب الطيف يطرق في الكرى
لي أسوة في العاشقين وقصدهم لئلم الطلول لأهلهم تذكرا
٣- قصيدة التشوق؛ وهو شوق إلى زيارة النبي، ﷺ، والمدينة المشرفة،
والأماكن التي عرفت يوماً النبي الكريم في مكة والمدينة. ومن هذا النوع قول
علي بن محمد بن حسن الأنصاري الإشبيلي (ت ٦٦٣هـ)

يا حداة العيس رفقاؤها شكت الجهد وبعد المرثى
طاويات لم يدع منها السرى ودخيل الشوق إلا الأعظم
جنبوها مورد الماء فقد حرمته أو تزور الحرم
يا خليلي رؤيئداً إنها لتعاني الشوق مثلي فاعلما

والأشعار النبوية بأقسامها المختلفة تدور حول محبة رسول الله، ﷺ، ونشر
نبد من خصائصه وشمائله ومعجزاته والتبرك بمحبته، وتمني لقاء روضته، وزيارة
مسجده، وتذكر سيرته؛ والالتفاف حول رسالته.

وفي هذه الأشعار:

- تكثر الإشارات التاريخية، وأسماء المواضع والمواقع ذات الصلة بالسيرة، وبيئاتها.
- ويميل الشعراء إلى البساطة، والسهولة، ورقة العبارة.
- ويغلب على الشعر: العنصر الوجداني، والعواطف المشبوبة، والأشواق الزائدة.
- ويكثر اعتذار الشعراء عن التقصير في أداء الواجب الكامل نحو محبة رسول الله، ﷺ.
- ونجد في بعض تلك الأشعار ميلاً إلى التفنن بنظم القصائد أو الخماسات على حروف المعجم (انظر مخمسة مالك بن المرحل مثلاً).
- وشاعت بين شعرائهم المعارضات، ومن ذلك معارضة مخمسة ابن الجنان: ((الله زاد محمداً عظيماً)).

الأدب والحكمة:

وصف ابن عبد ربه رجلاً بالأدب الجم والسلوك الحسن، فقال:
أدبٌ كمثل الماءِ لو أفرغْتُهُ يوماً لسال كما يسيلُ الماءُ^(١)
ولم تجر العادة بذكر موضوع الأدب ووصايا الأبناء، وملاحظات الحياة
الخاصة بين موضوعات الأدب الرئيسية؛ فكثيرٌ ممّا يقال في هذا الباب يجيء
جافاً، تعليمياً، بعيداً عن سمات الشعر الذي فيه حيوية الأدب وجماليات الفن.
على أنّ في شعراء الأندلس وأدبائه من ارتاد هذا الجانب فجاء بشعر رقيق
لطيف: أحسنَ الشاعر في الأفكار التي عرضها، وفي الأسلوب الذي انتهجه،
وجَمع بين الجانب الوعظي التعليمي وبين الأداء الشعري الجيد، الذي يحتفظ
بخصوصية الشعر، وشخصية الشاعر؛ أو بين الجانب الحكمي، وقدرة الشعر على
الأداء الحسن.

وأول من نقف عند أشعارهم، يحيى بن حكم الغزال: وله قصيدتان جديرتان
بالتنويه: يقول في مطلع الأولى^(٢)

لعمري ما ملكتُ مقودِي الصِّبا فأمطوْ للذَّاتِ في السَّهلِ والوعرِ
ولأنّا مَن يثرُ اللُّهْرَ قلبه فأُسي في سكرٍ وأصبحَ في سكر
إلى أن يقول:

كفاني من كُلِّ الذي أُعجبوا به قُلَيْلَةٌ ماءٍ تُسْتَقَى لي من النُّهرِ^(٣)

(١) يصفه بالركة واللطافة وسهولة العشرة.

(٢) الديوان، ط دار الفكر ٥٧-٥٨.

(٣) تصغير ((قلة)) من أوعية الماء.

ففيها شرابي إن عطِشْتُ وكلُّ ما يريد عيالي للعجّين وللقدّر
بخبز وبقل - ليس لحمًا - وإنني عليه كثير الحمد لله والشكر
ومن القصيدة:

أحي! عُدّ ما قاسَيْتُهُ وتقلّبتُ عليك به الدُّنيا من الخير والشرّ
فهل لك في الدُّنيا سوى السّاعة التي تكون بها السّراءُ أو حاضِرُ الضرّ؟

والقصيدة كله، تمرّ سهلة الألفاظ، واضحة المعاني، قريبة الأداء والتعبير من النصّ النثري القريب. وهي أشبه بخطة حياة بسيطة ليس فيها كلفة، ولا مُتطلبات كثيرة، ولا تعقيد.

- وكان الشاعر (الغزال) معروفًا بتنبيه المُسرفين، والمبذرين ومهاجمة الذين يغتنون غنى مشكوكًا في مصادره، والذين يزيدون في البذخ وألوان الترف.

- وللغزال قصيدة يخاطب بها إبراهيم ابن أخته، وكان إبراهيم قد أسرف في ممارسة لعبة الشطرنج، وكانت دارجةً جدًّا في أيامهم. وكان الشباب ينفقون في ذلك وقتًا طويلًا، يضيّعون به بعض الواجبات. يقول الشاعر فيها^(١):

غَمَّني عَشُّقُكَ لِلشَّطُّ رَنُج [هذا] يا اِبْرَهِيمُ^(٢)
هَبَّكَ فِيهَا أَلْعَبَ النَّا سِ فَمَـاذا يا حَكِيم؟!
لَعِبَ الشَّطْرَنجِ شَوْمٌ فَاجْتَنِبْهَا يا شَوْمُ!
فَلَيْقَلْ ما شاءَ مَنْ شا فَقَوِّلي مُسْتَقِيمٌ
إِنَّمَا هِيَ لِلْأَناسِ شَأْنُهُمْ شَأْنٌ عَظِيمٌ

ويقول لابن أخته إنها لعبة الأغنياء، وذوي الفضل الذين لا يؤثر في حياتهم ألا يخرجوا إلى العمل، فرزقهم جاهز موفور، أو تليد مكنوز.

(١) الديوان ٧٢.

(٢) وسيأتي في فقهاء الأندلس من يحرم الشطرنج، ولابن الفخار الحُدّامي رسالة في هذا المعنى؛ في: تحريم الشطرنج، انظر ترجمته في تاريخ الأدب العربي د. عمر فروخ (٦/٤٠٠).

٢- ولأبي مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري^(١) قصيدة نظمها في نصيحة أولاده، تعدّ من النصوص المهمة في هذا الباب؛ أولها:

ألوي بعزمٍ تجلّدي وتصبري نأي الأحبّة واعتياد تذكّري

يقول فيها:

واعلم بأن العلم أرفع رتبة فاسلك سبيل المُقتنين له تسد
وأجلُّ مكتسبٍ وأسنى مفخر إن السّيادة تقتنى بالدفر
وبضمّ الأعلام يبلغ أهلها مالم يُبلّغ بالجياد الضّمّر
والعلم ليس بنافع أبناءه مالم يُفدّ عملاً وحُسن تبصّر
فهي إذن دعوة قوية لطلب العلم، وإتقانه صنعة الكتابة، والجمع بين العلم والعمل؛ حتى لا يكون العلم نظرياً بعيداً عن التطبيق في وجوه الحياة.
ويدخل الشّاعر في مقاصد الحياة المختلفة، وهي كثيرة جداً ينتقي منها الشّاعر ما يرجّحه، أو يجده ذا شأن، أو يراه ضرورياً لأولاده:

فإذا دفعت إلى قرين فابله قبل التقارض والتشارك؛ واخبر

لاستفذك منظر حسن بدا حتى تقابله بحسن المخبر

واشرح لكل ملّة صدرًا وخد بالحزم في كل الأمور وثمر

واهتمّ نصيح البرّ التقيّ وشاور الـ فطن الذكيّ تكن ربيع المتجر

واخزن لسانك واحترس من نطقه واحذر بوادٍ غيّه ثم احذر

واصفح عن العوراء إن قلت وعُد بالحلم منك على السّفية المّعور

٣- وفي العلماء الأدباء أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوي المالقي الأندلسي المعروف بابن الشيخ^(١)، صاحب كتاب ألف باء^(٢) (٥٢٠-٦٠٤هـ) في أخباره

(١) تولّى الوزارة أكثر من مرة، ودخل السجن أيضاً أكثر من مرة أيام المنصور ابن أبي عامر، وأيام ابنه المظفر، ومات - قبل قتيلاً - في سجن المظفرسة ٣٩٤، (الجدوة ٦١، والبغية ٣٦٢، الذخيرة ٤٦/٤، الصلّة ٣٢٩، ونفح الطيب ٥٢٩/١).

التكملة ٧٣٧ (برقم ٢٠٨٩)، صلة الصلّة ٤١٧، ومقدمة ألف با.

(٢) طبع الكتاب في مجلدين كبيرين طبعة حسنة قديمة (نشر جمعية المعارف بمصر سنة ١٢٨٧هـ). ثم أعيد طبعه بطريقة التصوير في بيروت.

أنه رحل إلى المشرق ولقي العلماء، وجاهد ضد الصليبيين في المشرق أثناء رحلته، كما حارب ضد الحملة الصليبية التي قصدت إلى الأندلس.

وكان أبو الحجاج قد رُزق بابنٍ على كبير، فأراد أن يؤلف له كتاباً في مجموعة من الفوائد، فأصدر (ألف باء) الذي أشرتُ إليه. وهو كتاب نفيس في بابه.

ونقرأ من شعر المؤلف نفسه قوله في المقدمة (٣/١):

هذا كتابُ ألفٍ با	صَنَعْتُهُ يَا أَلْبَاءُ ^(١)
من أَجَلٍ نَجَلِي المُرَجَّى	إذا شَدَا أن يَلْبَأ ^(٢)
أدْعُو لعالمٍ ومِنْ حَقٍّ	مَنْ دَعَا أنْ يُلْبِي ^(٣)
وأنتَ عبدُ الرحيمِ الطَّ	فلُ الصَّغِيرُ المُرَبَّى
إذا عقلتَ فقل قد	رضيتُ بالله ربَّنا
ودين الإسلام ديناً	وبالنبي المُمْنِبِ ^(٤)
محمد، قل: رسولاً	وقل نبياً مُحَبَّبا ^(٥)
ثم استقم واتَّبِعْهُ	تزدَدْ من الله قُرْبَا

وقد نصح ابنه بطلب العلم وملازمة العلماء، واستشهد له بشيء من شعر أبي إسحاق الإلبيري من قصيدته التائية في أول الديوان:

(١) ألْبَا أي أَلْبَاء جمع لبيب.

(٢) يَلْب مضارع لَبَّ: صار ذا عقل وفهم، فهو لبيب

(٣) أي أن يُستجاب له. (والبيت مدوّر: موصول شطره الأول بشرطه الثاني في كلمة حَقّ).

(٤) أي المبعوث نبياً مؤيداً من الله تعالى.

(٥) محبوباً.

لئن رفع الغنيَّ لواءَ مالٍ لأنتَ لواءَ علمك قد رفعتنا
وإن جلس الغنيُّ على الحشايا لأنت على الكواكب قد جلستنا!
واسترسل في فضل العلم، وطلبه، وضرورة الأخذ بأسبابه، ثم أنشد من شعره:

اعلم بأن العلمَ ذو همّةٍ وهو عزيزُ النفسِ ذو غيرَةٍ! ^(١)
يُنيلُكَ البعضَ من أنواره إن لم تكن مصطحباً غيره ^(٢)
وإن تكن مُشتغلاً مقبلاً على سواه لم تنلْ خيرَه
فاطرح الأشغال واعكف على تحصيلِ ما يُعطي وسِرْ سِيرَه!

ومن شعراء المرحلة الأندلسية الأخيرة (عصر دولة غرناطة) أبو عثمان سعد بن أحمد بن ليون التجيبي (٦٨١-٧٥٠هـ) وهو كاتب، شاعر، مصنف. ترك أكثر من مئة كتاب في فنون شتى.

وهو شاعر مكثّر، وفي شعره ميل إلى شعر الأدب والحكمة، ويغلب أن يجيء هذا الشعر في مقطعات، من بيتين أو ثلاثة أبيات. قال:

- تغافل في الأمور ولا تناقش
مناقشةُ الفتى تحني عليه
- أرح النفسَ تنتفع بحياتك
واعتبر بالذين بادوا وبادر
- واطرح عيبَ من سواك وسالم
إذا كانت عيوبُك عند نقدٍ
فيقطعك القريبُ وذو المودّة
وتبدله من الراحة شدة!
واغنم العيش قبل يوم وفاتك
ما يدانيك في سبيل نجاتك
جملة الناس يغفلوا عن أذاتك
تعدّ فأنْتَ أجدرُ بالكمال

(١) ذو الغيرة: من غار يغار. يقول: العلم لا يحب الشريك لأنه يستغرق وقت الإنسان.

(٢) غيره: أي سواه. وهذا البيت يؤكد فكرة البيت السابق.

متى سلمت من النقد البرايا؟ وحسبك ماتشاهد في الهلال!
وأكثر مانقرأ لابن ليون من شعر الأدب والحكمة هو من المعاني المعروفة،
والحكم المألوفة؛ لكنه أعاد صياغتها، ولونها بشيء من رؤيته الشخصية^(١).

(١) الكتيبة الكامنة ٨٦، نيل الابتهاج ١٢٣، درة الحجال ٤٦٧/٢، نفح الطيب ٥٤٣/٥.

شعر الطبيعة:

شعر الطبيعة في الأدب العربي قديم أصيل. وقد ألقى الشعر الجاهلي بظلاله على وصف الطبيعة في الأزمان التالية، غير أن البيئات الجديدة (كالشّام والعراق) قد ظهرت تباعاً، ومع التطور الزمني والفني. فذكر بعض شعراء العصر الأموي دمشق والغوطة، ومناطق أخرى تتميز بالحسن والجمال. وتابع العباسيون الاهتمام بالطبيعة في ظلال الحضارة النامية زماناً بعد زمان: فكان فيهم أبو نواس، وأبو تمام، والبحرّي، وابن الرومي، وابن المعتز، وغيرهم.

وصف الطبيعة^(*)

من الشعر الأندلسي الذائع في وصف أرض الأندلس، وطبيعتها ونظر أهلها إليها، وعيشهم في ظلالها، قول محمد بن سفيان أحد شعراء القرن السادس الهجري:

في أرض أندلسٍ تَلَدُ نَعْمَاءُ	ولا تفارقُ فيها القلبَ سرّاً
وكيف لا تُبْهِجُ الأبصارَ رُؤْيُهَا	وكل روضٍ بها في الوشي صَنَعاً ^(١)
أنهارُها فضّةٌ والمِسْكُ تُرْبَتُهَا	والخَزُّ رَوْضَتُهَا والدرُّ حَصْبَاءُ ^(٢)

(*) راجع كتاب: شعر الطبيعة في الأدب العربي د. سيّد نوفل، والطبيعة في الشعر الأندلسي د. جودة الركابي.

- وفي كتب تاريخ الأدب العربي فصول عن شعر الطبيعة الأندلسية مثل ما في (الأندلس) د. شوقي ضيف، وتاريخ الأدب العربي د. عمير فروخ.

(١) العرب تضرب المثل بالبرود (الثياب) اليمانية، والوشي الصنعاني.

(٢) الخَزُّ من الثياب: ما يُنسج من صوف، وحرير خالص، والحصباء: صغار الحصى.

وهو شعر رقيق، ينضح بمحبة الأندلس، والأنس بما فيها من جمال الطبيعة ويستطرد إلى ذكر محاسنها، من وراء نظرة الإعجاب بالأرض، والتمسك بالوطن؛ وإلف كل ما فيه من بر وبحر، وأرض وسماء، وجبال وأنهار، والمبالغة في وصف المحاسن، والاستغراق في مجالي الجمال.

ونجد مثل هذه النظرة المُفعمة بالإعجاب بالطبيعة الأندلسية في أشعار كثيرة تشمل عصور الأدب الأندلسي من بداياته إلى خواتيمه. ويندر أن يخلو ديوان شعر أندلسي من وقفات عند الطبيعة، واستحسانها، والعيش في ظلالها، ووصف ما يروق للشاعر منها، في انفعال ومحبة وارتباط.

بل إن الشعر الأندلسي سجل مزية وخصوصية في هذا الغرض، ولفت أنظار الدارسين إلى التجديد فيه كالذي نجده عند أتباع المذهب الحفاجي الذي سنشير إليه في هذا الكتاب.

وقد تابع المُحدثون من الكتاب والمؤلفين من سبقهم من القدماء فأثنوا على جمال الطبيعة الأندلسية، ووجدوا في هذه الطبيعة ما يُعزي الشعراء، ويحفزهم على النظم في وصفها: استئناساً بها، واسترسالاً في التمتع بظلالها، والتغني بجمالها.

فالأندلس تتميز بطبيعة فاتنة في سهولها، ووديانها، وأنهارها وجبالها، وغاباتها وأشجارها، وأزهارها، وبساتينها، ومنتزهاتها. وهي طبيعة خلبت ألباب الشعراء هناك فتغنوا بمفاتنها ومشاهدها، دائماً باثين فيها عواطفهم ومشاعرهم. وكان مازادهم شغفاً بها اختلافهم إلى المنتزهات والحدائق المحيطة ببلدانهم^(١)... وقد كثر عند شعراء الأندلس المزج بين الطبيعة والغزل، والمزج بين الطبيعة ومحال الشراب. وفي أوائل الشعر الذي سجله الأدب الأندلسي

(١) الأندلس د. شوقي ضيف ٢٩٣.

قطعة لعبد الرحمن الداخل^(١) يذكر فيها النخلة، في نوع مع التعاطف والتحالف، يقول فيها:

تبدّت لنا وسط الرُّصافة نخلة تتأوت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى وطول التناهي عن بني وعن أهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبة فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي!

وقد ألحت عليه صورة النخلة، التي تربطه بها ذكريات الزمان أيام الشام والمكان بلاد المشرق حيث يكثر النخيل في العراق وأطراف دجلة والفرات. وكان عبد الرحمن قد جلب نبتة النخيل، وزرعها، وأشاع زراعتها في الأندلس، وملاً بها جنبات منية الرُّصافة التي عمرها عند قرطبة. وصارت النخلة التي تردّد اسمها في شعره: رمزاً للوطن الذي تركه، وتذكّاراً للماضي بكل ما فيه، كما صارت - في أرض الأندلس - همزة وصل بين الأرض القديمة والأرض الجديدة في أوربة الإسلامية.

- ويصف عباس ناصح الجزيري مفازة قطعها ليلاً، فيقول:

ومخوفة تنفسي مخافتها نوم الفتى ذي المرّة النّذب^(٢)
للجنّ في أجوازها لغط بالليل مثل تنازع الشّرب
وترى بها جئون النّعام إذا أشرفن كالمهنوءة الجُرب

وموضوع القطعة، والمفردات التي استخدمها الشاعر، والصّور التي استحضرها تذكّر بالبادية، وتوحي إلينا بالمشرق وصحاراه، ورؤى شعرائه. فهي فلاة، أو صحراء ممتدة يخاف من يجتازها مخاطرهما، ويحرمه هذا الخوف

(١) هو صقر قريش. وله ترجمة في الحلة السراء ١/ ٣٥-٣٦ (وله أشعار مختارة)، وحنوة المقتبس ٩-١٠،

وانظر المختار من الشعر الأندلسي ١٣-١٦.

(٢) المرّة: قوّة الخلق وشِدّته. وذو المرّة: القوي الشجاع. والنّذب: الخفيف (السريع) في الحاجة. والجون:

السود. المهنوءة: المطلية بالقطران (الهناء) يعني الجمال.

- وعباس بن ناصح منسوب إلى الجزيرة الخضراء، ووفاته نحو ٢٣٨هـ.

منامه، ويتخيل عزيف الجنّ (لكثرته وتداخله) كأنه أصوات الشاربين يلغظون في حانة من الحانات، ويشبه النعام - وهو من طيور البوادي عادة - بالجمال المطلية بالقار أو القطران (بجامع السّواد).

وقد ألّفت في الأندلس كتب، وصنّفت مؤلفات: جمعت فيها أشعار الأندلسيين في وصف الرياض والأزهار والبساتين، أو عرّج فيها موضوع وصف الطبيعة جملةً، أو جوانب منها:

ومن الكتب الباقية من هذه المؤلفات كتاب (البديع في وصف الربيع)^(١) لأبي الوليد الحميري، وكتاب (التشبيهات من أشعار أهل الأندلس) لابن الكتاني الطيب^(٢).

وكتاب (البديع في وصف الربيع) ((وضع ليجمع فيه المؤلف قدراً من شعر معاصريه، وبعض النثر أيضاً، مما يتعلّق بوصف الزهور والرياحين، وتفضيل بعضها على بعض))^(٣). وقصره المؤلف على ما وجدته لمعاصريه من الأندلسيين (في القرن الخامس الهجري).

ومما اختاره أبو الوليد قطعة للحاجب أبي الحسن جعفر بن عثمان المصحفي يصف فيها عدداً من النّواوير والأزاهير، قال فيها:

انظر إلى الروض الأريض تحالّه	كالوشي نَمَقَ أحسن التّمنيق ^(٤)
وكأنّما السوسان صبّ مُدَنَفٌ	لعبت يدها بجيبه المشقوق
يوم الوداع ومزّقت أثوابه	جزعاً عليه أيّما تمزيق
والنرجس الغضُّ الذكيُّ محاجرٌ	تعبت من التسهيد والتأريق

(١) طبع أولاً بعناية هنري بيريس (الرباط ١٩٤٠) ثم طبع في المملكة السعودية بالعنوان نفسه، وطبع في دمشق: بعنوان البديع في فصل الربيع.

(٢) حققه د. إحسان عباس (دار الثقافة - بيروت).

(٣) تاريخ النقد الأدبي في الأندلس ط ٢، ٢٨٨.

(٤) يقال: أرضت الأرض أي كثر نبتها وحسُنَ مرآها، فهي أريض.

يحكي لنا لون الحبّ بلونه وإذا تنسّم نكهة المعشوقِ
وكانّ دائرة الحديقة عندما جاء الغمام لها برشف الريقِ
فلكّ من الياقوتِ يسطعُ نوره فيه كواكبُ جواهرٍ وعقيقِ
قال أبو الوليد: شبه أوراق السوسن في افتراقها بجيب مشقوق، وهو معنى دقيق أنيق. وقد تداوله جماعة، وأظنه من اختراعه.

-ومن طرائف شعر الطبيعة في الأندلس كثرة الردود على ابن الرُّومي الذي فضّل النرجس على الورد، كقول سعيد بن فرج:
أزعمت أن الوردَ من تفضيله خجلٌ وناحله الفضيلة عاندُ
إن كان يستحي لفضل جماله فحيأؤه فيه جمال زائدُ
وهذا يدخل في حُسن التعليل، واحمرار الورد دليل على خجله؛ وهذا في الورد - كما هو في الإنسان - يزيده جمالاً!

-ومزج الأندلسيون كثيراً بين وصف الطبيعة وبين الوجدانيّات كالحنين إلى الوطن، والغزل.

- وفي شعر يوسف بن هارون الرّماذي قطعة غريبة، فقد كان يوماً عند بعض أصحابه في بلدة وادي آشي شتاءً فقدموا له - من باب الاحتفاء به - طاقةً من الورد اجتلبوها من بلدة بجانة، فأخذها، وحدث فيها ملياً، ولثمها، ثم قال^(١):

ياخذودَ الحور في إخراجها قد علّتها حمرةً مكتسبةً
اغتربنا أنت من بجانةٍ وأنا مغترّبٌ من قرطبة
واجتمعنا عند إخوان صفّا بالندى أموالهم منتهبه
إنّ لثمي لك قدّامهم ليس فيه فعلةٌ مُستغربة
لاجتماع في اغتراب بيننا قبلُ المغترّب المغترّبة

(١) البديع في وصف الربيع (بيريس) ١٢٢.

فقد وصف الشاعر الورد وشبّهه بخدود الفتيات الحور وقد أدركهنّ الخجل (الذي يورّد الخدود)، والتقيا على مائدة الاغتراب، عند أصحاب له كرام، وعللّ الشاعرُ تقبيلَ الورد في ذلك المجلس تعليلاً فيه طرافة وظرف، فإن بينهما صلة ونسباً من البعد عن الوطن والاغتراب!

-ومن الشعر المشهور الذي التقى فيه وصف الطبيعة بغرض الغزل قصيدة قصيرة لابن زيدون، وصل فيها بين وصف جانبٍ من حدائق الزّهراء^(١) الممتدة الأرجاء، الظليلة الأفياء، البديعة الحسن، الحافلة بكل لون من ألوان النبات والزهر والورد والزنبق، وسائر ماتضمنه تلك الحدائق الفائقة، وبين ذكريات أيام خالية، جمعت بينه وبين أحبّته. لقد جعل الشاعر الطبيعة مهاداً لحديث الغزل، ونسج من الغرضين الاثنين قصيدة مُحكمة، حيّة، شديدة الأناقة والظرف، بالغة العذوبة والرقّة.

وفي هذه القصيدة يظهر الأثر الأندلسي، فهي منظومة في بساتين الزّهراء، وامتداد مزروعاتها، وتحت نظر مصانعها وعمائرها البديعة الهندسية والتنسيق؛ وهي لشاعرٍ استغرقه حبُّ مدينته قرطبة، واسترسل في ذكر معالمها الجميلة التي يحتفظ منها بأعذب الذكريات.

أمّا الزهراء التي اتخذها الشاعرُ مهاداً لقصيدته، ومجالاً لذكرياته فقد كانت مدينة ذات حدائق بديعة، بناها عبد الرحمن الناصر، وكان بينها وبين قرطبة خمسة أميال. ووصفها الحميري في الروض المعطار^(٢) فقال: ((إنها قائمة الذات (مستقلّة) بأسوارها ورسوم قصورها، وكان فيها قوم سكانٌ بأهاليهم وذرائعهم (مقيمون دائمون) وكانت في ذاتها عظيمة. وهي مدينة فوق مدينة سطح الثلث الأعلى على الحدّ الأوسط، وحدّ الثلث الأوسط على الثلث الأسفل وكل ثلث

(١) انظر دراستنا عن ابن زيدون (ابن زيدون قراءة في الشخصية ورؤية في الفن).

(٢) الروض المعطار في خبر الأقطار ٢٩٥.

منها له سور؛ فكان الحد الأعلى قصوراً يعجز الواصفون عن وصفها، والحد الأوسط بساتين وروضات، والحد الأسفل فيه الديار والجامع...)).

وظاهر أن نطاق قصيدة ابن زيدون بساتين الزهراء وروضاتها النضرة.. يرجح أن تكون القصيدة في ذكرى ولادة، وأن يكون تاريخها المدة التي أعقبت انعزال ولادة عن الحياة الاجتماعية وعن لقاء الأدباء والشعراء كما كانت تفعل في (صالونها الأدبي):

إنني ذكرتُك بالزهراء مُشتاقاً	والأفق طَلَقُ ووجهُ الأرض قد راقاً ^(١)
وللنسيم اعتلال في أصائله	كأنه رقّ لي فاعتلّ إشفاقاً
والروض عن مائه الفضي مبتسم	كما شقت عن اللبات أطواقاً ^(٢)
نلهو بما يستميل العين من زهر	جال الندى فيه حتى مال أعناقاً
كأن أعينه إذ عاينت أرقى	بكت لما بي فجال الدمع رقراقاً
ورد تآلق في ضاحي منابته	فازداد منه الضحى في العين إشراقاً ^(٣)
سرى ينافحه نيلوفر عبق	وسنان نبه منه الصبح أحداقاً ^(٤)
كل يهيج لنا ذكرى تشوقنا	إليك لم يعد عنها الصدر أن ضاقاً
لا سكن الله قلباً عن ذكركم	فلم يطر بجناح الشوق خفاقاً
لو شاء حملي نسيم الصبح حين سرى	وافاكم بفتى أضناه ما لاقى
يوم كأيام لذات لنا انصرفت	بتنا لها حين نام الدهر سراقاً
لو كان وفي المنى في جمعنا بكم	لكان من أكرم الأيام أخلاقاً

(١) الطلق من الأيام والليالي: المشرق الخالي من الحرّ والبرد والمطر والريح وكل أذى.

(٢) اللبات جمع اللبة، وهي موضع القلادة من الصدر.

(٣) المنبت الضاحي: البارز للشمس.

(٤) النيلوفر (والنيوفر) جنس نباتات مائية من الفصيلة النيلوفرية فيه أنواع تنبت في الأنهار والمناقع (المياه الرائدة)، وأنواع تزرع في الأحواض لورقها وزهرها.

و: ينافحه: يسابقه أيهما أظهر نفوحاً، من نفح الطيب: انتشرت رائحته.

ياعلقي الأخطرَ الأسنى الحبيبَ إلى نفسي إذا ما اقتنى الأحبابُ أعلاماً^(١)
كان التجازي بمحض الودّ مذ زمن ميدان أنسٍ جرينا فيه أطلاقاً^(٢)
فالآن أحمد ما كنّا لعهدكم نسيتم وبقينا نحنُ عشاقاً!

لقد استطاع الشاعر أن يجمع بين غرضي الغزل والوصف، ويمتزج أحدهما بالآخر بلباقة، وإتقان صنعة، وأن يبرز كلا جانبي النصّ إبرازاً مُعجباً: من غزل رقيق تعاطفت معه الطّبيعة كلها، ومن وصفٍ دقيق نقل قارئه وسامعه إلى حيث كان، ودعاه إلى التعاطف معه أيضاً!

وفي معاصري ابن زيدون علي بن حصن الإشبيلي^(٣) أحد شعراء وقته، ومن شعره في صفة هديل:

وما حاجني إلا ابنُ ورقاء هاتفٌ على فن بين الجزيرة والنهر^(٤)
مفستق طوقٍ لازوردي كلكلٍ مورشي الطلّي أحوى القوادم والظهر^(٥)
أدارَ على الياقوت أجفان طوقاً من التبر^(٦) وصاغ على الأجفان طوقاً من التبر^(٦)
حديد شبا المنتار داج كأنه شبا قلم من فضة مُدّ في حبر^(٧)
توسّد من فرع الأراك أريكةً ومال على طيّ الجناح مع النحر^(٨)
ولما رأى دمعي مُراقاً أرابه بكائي فاستولى على الغصن النضر
وحثّ جناحيه وصفق طائراً وطار بقلبي حيث طارَ ولا أدري!

(١) العلق الغائي النفيس من كل شيء، والأخطر من الخطر وهو الشأن ذو الأهمية، الرفيع، والأسنى من السناء، وهو الضياء.

(٢) الأطلاق جمع الطلق وهو الشوط. يقال: عداً طلقاً واحداً أو طلقين. والتجازي: التقاضي. يريد: المعاملة والعلاقة. وأحض: الخالص.

(٣) ترجمته في الذخيرة ١٥٨/٢، وجزوة المقتبس ٢٩٦، وبغية الوعاة ١٤٣، والمغرب ١/٢٥٠.

(٤) الورقاء نوع من الحمام. والهديل ذكر الحمام.

(٥) مفستق: أحضر بلون الفستق. واللازوردي أزرق أو أحضر. الكلكل في الصدر: الطلّي: أصل العنق. أحوى: أسود ضارب إلى الحمرة. القوادم (ج قادمة) ريش الجناح الطويل.

(٦) التبر: الذهب الخالص.

(٧) الشبا: الحد، السن.

(٨) الأراك: نوع من الشجر. والأريكة: المنصة.

يقول الشاعر: إنه تمّ تجاوبٌ، وانسجامٌ بي الشاعر الذي شجاه صوت الهديل أو نداؤه، فانساب دمعُ عينه تأثراً. فلما رأى الهديل دمع عيني الشاعر داخله الرّيب من ذلك البكاء فصفق بجناحيه، وطار، ولم يدّر أنه حين طار، أخذ بقلبه، وتركه محبباً والهأ.

واستطرد الشاعر في أثناء ذلك إلى وصف لطيف متقن بالغ التصوير لذلك الهديل الحسن الصوت، الجميل الشكل.

- ونجد في الشعر الأندلسي أوصافاً تقليدية شائعة في الأشعار المشرقية من وصف الخيل والنخيل والحمام، والبوادي، والمفاوز، والسيوف وسائر آلات الحرب والقتال، ووصف الحداثق والرياض، والبرك والأنهار والأزهار والأنوار. كما نجد التفاتاً إلى البيئة الأندلسية بما حُببت به من خصائص وملامح جمال. وهكذا شغلت تلك البيئة بما فيها الشعراء، والكتّاب، ولفتت أنظارهم إلى موجوداتها، ومجالي محاسنها، واستفرقت كثيراً من أنظارهم واستحوذت على عواطفهم، في تناغم بين ماتدركه الحواس المختلفة وبين ما تميل إليه النوازع المختلفة، والعواطف المضطربة.

وغاص الشاعر الأندلسي في ما يرى ويسمع ويلمح في البساتين والرياض والغياض، والأنهار، والجداول، والينابيع، وفي الجبال، والسهول الفيحاء، وأعجبه ماتنبت الأرض من الشجر والنبات، وخصوصاً تلك الأزاهير والزنابق وألوان الورد البديع الحسن الرائق المنظر؛ ورصدوا ملامح الجمال في كل شيء حولهم ممّا أخرجته الطبيعة دون أن تمتد إليه يد الإنسان، ومما تدخلت فيه الصناعة والبراعة ومهارات الفلاحة والزراعة.

ووقف الشعراء عند معاهدهم ودورهم، وعند زوارقهم وسفنهم وسجلّوا أعيادهم وأفراحهم ومواسمهم.

وأفاضوا من عواطفهم على ما كانوا يصفونه ممّا حولهم في تناسق وانسجام، واستغراق في حُبّ الطبيعة والائتلاف مع معطياتها في كل مكان. وظهرت الملامح الأندلسية في وصف الطبيعة خاصة، وفي سائر أوصافهم:

- من ذكر خصوصيات بلدانهم في شجرها وثمرها ونباتاتها العطريّة وخصائصها الجغرافيّة؛

- وذكر خصوصيّات أشكالهم، وأحوالهم، فقد صار الأندلسيون خليطاً من الأجناس والشعوب، صهرت في بوتقة أندلسية؛

- وذكر ملابسهم وماكلهم ومشاربهم.

- وذكر أيامهم ومناسباتهم وعاداتهم في فصول السنة ومواسم الزرع والجنى والقطاف..

ونقرأ لابن حزم، في قطعة غزلية^(١):

يعيونها عندي بشُقْرَة شعرها فقلت لهم هذا الذي زانها عندي
بعيون لون الدّر والتّبر ضلّةً لرأي جهول في الغواية متمدّد
وهل عاب لون النّرجس الغضّ عائبٌ ولون النّجوم الزّاهرات على البُعد؟..

— ويعد ابن خفاجة^(٢) أشهر شعراء الأندلس في موضوع وصف الطبيعة، ولعل شعره يفيض بالمزايا التي تجعله في مقدمة شعراء العرب القدامى في هذا الغرض فقد أكثر من وصف الطبيعة الأندلسيّة، ووصل بين الطبيعة وبين معظم أغراض الشعر الأخرى، وجعل مفردات الطبيعة على اختلاف أنواعها معجماً لغوياً وفنياً يرجع إليه في صناعته الشعرية؛ وربط بين الطبيعة وبين رؤيته الخاصة للحياة بما فيها من عظاتٍ وعبر.

(١) طوق الحمامة ٤٦. وانظر المختار من الشعر الأندلسي ٦٧-٦٨.

(٢) له ترجمة في هذا الكتاب.

ويكون الشاعر بهذه الخصائص والمزايا:

- شخصية متميِّزة بين الشعراء.

- ومدرسة لها مذهبها الفني، الذي عبّر عنه بعضُ النقاد القدماء بعبارة:
(الزعة الخفاجية)

- وخصوصية أندلسية تضاف إلى المزايا الخاصة بالأندلس في ماقدّمته من خلال الحركة الأدبية عامة، وحركة الشعر خاصة. وهذا توضيح وتفصيل:

١- قدّم ابن خفاجة في ديوانه، تعليلاً مفصّلاً لاستغراقه في وصف الطبيعة وائتلاف نفسه مع هذا الغرض، فقال: ((إكثارُ هذا الرجل من وصف زهرة، ونعت شجرة، وجرية ماء، ورنّة طائر ماهر إلا لأنه كان جانحاً إلى هذه الموصوفات:

- لطبيعة فطر عليها وجبلة؛

- وإمّا لأنّ الجزيرة^(١) كانت داره ومنشأه وقراره؛ وحسبك من ماء سائح، وطير صادح، وبطاح^(٢) عريضة، وأرض أريضة؛ فلم يعد هنالك من ذلك ما يبعث مع الساعات أنسه، ويحرّك إلى القول نفسه، حتى غلب عليه حب ذلك الأمر؛ فصار قوله فيه عن كلّ لا تكلف، مع اقتناع^(٣) قام مقام اتساع؛ فأغنائه عن تبذل وانتجاع)).

وقد عمّر الشاعر طويلاً، وأتيح له أن يحقق هوايته كما نقول اليوم من الالتفات إلى الطبيعة، وصرف الشعر والشاعرية إليها، والإكثار من ذلك إكثاراً يلفت النظر، ويستحق التعليل الذي ذكره.

(١) هي (جزيرة شُقر) ببلدته، انظر ترجمة ابن خفاجة في هذا الكتاب.

(٢) بطاح جمع بطحاء: المكان المتسع يمرّ به السيل فيترك فيه الرمل والحصى الصغار. وهو يريد معنى السهول.

(٣) يشير إلى اكتفائه برزق يسير كانت تدرّه عليه مزرعة صغيرة له. ويقول إن هذا الاكتفاء صرفه عن انتجاع المسدوحين واستفاد الشعر في المدح والتكسب، ولفته إلى الطبيعة الجميلة..

٢- استغنى الشاعر عن ذكر الأطلال الذي لازم القصيدة العربية طويلاً، وعوض عن ذلك بذكر الطبيعة في مجلى - أو أكثر - من بحاليها؛ كقوله من قصيدة في المدح:

ألا هل أطلَّ الأميرُ الأجلَّ أم الشمسُ حلَّت برأس الحَمَلِ
فما شئت من زهرةٍ نضرةٍ تردَّى القُضيبُ بها واشتَمَلُ
إلى أن يقول:

فلم أدِرِ والحسنُ صنوُّ له أبداً بالمدح أم بالغزل!
وكقوله في مطلع قصيدة إخوانية بعث بها إلى صديقه أبي عبد الله بن أبي
الحصل الغافقي^(١):

أَمَقَامٌ وَصَلِ أَم مَقَامٌ فِرَاقُ فَالْقُضْبُ بَيْنَ تَصَافُحٍ وَعِنَاقِ^(٢)
خَفَاقَةٌ مَا بَيْنَ نَوحِ حَمَامَةٍ هَتَفَتْ، وَدَمَعُ غَمَامَةٍ مُهَرَّاقِ
عَبَثَتْ بَهَنَ يَدِ النَّعَامِ سُحْرَةٌ فَوَضَعْنَ أَعْنَاقاً عَلَى أَعْنَاقِ^(٣)
أَنَسِينِي خَلَقَ الْوَقَارَ وَرَبَّمَا أَذْكَرَنِي مَوَاقِفَ الْعَشَّاقِ..

٣- انتبه ابن خفاجة إلى الألوان بعين واعية وحسّ مرهف، ووصف الطبيعة يفيد أنه يكون الشاعر ماهراً في استخدام الألوان، بارعاً في الانتباه إلى ائتلافها واختلافها، ودورها في التشكيل اللوني، والأثر الجمالي:

مَتَنَفِّساً عَنْ مِثْلِ نَفْحَةِ مَسْكَةٍ مَتَبَسِّمًا عَنْ مِثْلِ سَمَطِي جَوْهَرِ
لَوْ كُنْتُ حَيْثُ تَرَى الْهَلَالَ وَوَجْهَهُ لَوَقَفْتُ شَكًّا وَقَفَةَ الْمُتَحَيِّرِ

(١) أديب ووزير، له ترجمة في هذا الكتاب.

(٢) القُضْب جمع القُضيب، يريد أغصان الأشجار المتشابكة.

(٣) النعامى: ريح الجنوب، أو بينها وبين الصُّبَا، وهي من الرياح المستحسنة.

فالوجه الموصوف هو وجه مشرق كأنه الصُّباح المشرق، والقوام كأنه غصن معتدل الطول، وصاحبتة في نضرة الشَّباب (ورق الشباب الأخضر)، وهي تنفح عن طيب كأنه نفحة المسك، وتبتسم عن مثل سمطين من اللؤلؤ. هذا الجمال الباهر يجعل من ينظر إليه وإلى القمر المُنير لا يكاد يميّز أحدهما من الآخر لتقارب التشابه بينهما وارتقاء درجة الجمال فيهما.

٤- في شعر الطبيعة عند ابن خفاجة اتصالٌ بين تلك الموصوفات وبين نفس الشاعر، وعاطفته، وتمازجٌ بين كثير منها وبين رؤيته في الكون، وموقفه من الحياة.

فالشاعر يتعاطف مع ما يصف، وكثيراً ما ينقل إلى القارئ أحاسيسه بجزئياتها ووقائعها، ويجعل بعض معطيات الطبيعة سبيلاً إلى مشاركة وجدانه، وتصوّر ذاته.

ومن ذلك قصيدته التي اشتهرت بعنوان وصف الجبل، وقصيدته في صفة القمر^(١)؛ فقد قال في القصيدة الأولى، يذكر الجبل:

أَصَحْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ أَخْرَسٌ صَامِتٌ فَحَدَّثَنِي لَيْلَ السُّرَى بِالْعَجَائِبِ
وَقَالَ أَلَا كَمْ كُنْتُ مُلْجَأً فَاتِكِ وَمَوْطِنَ أَوَاهٍ تَبْتَلِ تَائِبِ
وَكَمْ مَرَّ بِي مِنْ مَوْجٍ وَمُؤَدَّبٍ وَقَالَ بَظْلِي مِنْ مَطْيٍ وَرَاكِبٍ...

والشاعر حين وصف أحسن المزج بين مختلف الألوان، وجمع بين الملح الذكي، والحسّ المُرْهَف، والمُلاحظة الدَّقيقة، إضافةً إلى ذوق الحضارة الذي يُحسنُ الملاءمة بين الألوان، ويفرّق بينها، ويُحسن انتقاءها، كقوله في صفة فتاة بيضاء في حُلّة صفراء زكية الرائحة طيبة النفس:

وَبِيضَاءَ فِي صَفْرَاءَ تَحْمِلُ نَفْحَةً تَنْفَسُ عَنْهَا الْمَنْدَلُ الرَّطْبُ وَالْجَمْرُ^(٢)

(١) انظر القصيدتين في ترجمة ابن خفاجة في هذا الكتاب.

(٢) المَنْدَل: عود طيب الرائحة.

وقوله في صفة نار وأشياء تتعلق بها^(١)

وموقد نار طابَ حتى كأنما يشبّ الندى فيه لساري الدُّجَا ندًّا^(٢)
فأطلعَ من داجي دُخانٍ بنفسجاً جَنِيًّا، ومن قاني شُواظٍ له وَرْدًا^(٣)
وضاحك غرّاً من وجوه وضيّة فلم أدّر: أيُّ كان أذكاهُما وَقْدًا
فقد عبّر عن الألوان بما يماثلها من الزهر والورد، فجعل النار اختلطت نارها
بدخانها كالبنفسج، وحين صفت من دخانها كالورد.

٥- وصف ابن خفاجة الطّبيعة، فأخلص قطعاً وقصائد لوصفها استغراقاً
لجزئياتها، ودخولاً في تفصيلاتها؛ كما مزج وصف الطبيعة بغرض الغزل
وبوصف المجالس أيضاً. وقد أكثر الشاعر من هذه الأمور في ديوانه فصار ملمحاً
من ملامح وصفه للطبيعة.

ومن شعره في هذا المقصد:

حَدَرَ القَنَاعَ عَنِ الصَّبَاحِ المُسْفِرِ وَلَوَى القُضِيبَ مِنَ الكَثِيبِ الأَعْفَرِ
وَتَمَلَّكَتْهُ هِزَّةٌ فِي عِزَّةٍ فَارْتَجَّ فِي وَرْقِ الشَّبَابِ الأَخْضَرِ

- وقال في الثانية:

لَقَدْ أَصْنَحْتُ إِلَى نَجْوَاكَ مِنْ قَمَرٍ وَبَتَّ أَدْلُجُ بَيْنَ الرُّوعِيِّ والنَّظَرِ
لَأَجْتَلِي لُمَحاً حَتَّى أَعِي مُلْحاً عَدَلًا مِنَ الحَكَمِ بَيْنَ السَّمْعِ والبَصَرِ

فقد وَجد الشّاعر في الجبل إنساناً ذا تجارب يتحدث بما جرى له، وكان معه
من أحداث الزمان، ووجد في القمر عبيراً كثيرةً إن لم ينطق بها بلسان المقال
فقد عرضها على الراعين من الناس بلسان الحال.

(١) الديوان ١٣٣.

(٢) الندّ: نوع من النبات يُتَبَخَّرُ بعوده.

(٣) الشواظ: اللهب لا دخان له.

والاعتبار مقصد مهمّ للشاعر، نبّه عليه بهذه الكلمة عينها، وبألفاظٍ أخرى مُشابهة. لقد صار لوصف الطبيعة غاية. وهي غاية فكريّة منهجيّة، ولكنها لم تؤثر سلباً في جمالية الشعر ولاصنعة الفن، بل نقول إن هذه الغائيّة أضفت على شعر ابن خفاجة مزيّةً وخصوصيّة.

٦- في خصائص شعر ابن خفاجة كثرة الصور فيه. فالشاعر يتقن صنّعه ويميل إلى استنباط المعاني، والتجديد في الأداء، واستفراغ الطاقة في جعل النصّ كلاً متكاملاً من اللفظة المختارة إلى العبارة المحكّمة، والمعاني الجديدة، أو المجدّدة، والصورة المُتقنة. وكان ابن خفاجة يعدّ نفسه حلقة في سلسلة شعراء الفكرة والصورة؛ والصنّعة المُتقنة، والتلقائيّة الواعية. ومن هنا نفهم عبارة ابن خلدون: ((كان شيوخنا رحمهم الله يعيّنون شعر ابن خفاجة لكثرة معانيه، وازدحامها في البيت الواحد)). ويُفهم من ازدحام المعاني كثرة الصور والأخيلة.

ومن ذلك قوله يصف مفازةً:

ومفازةٍ لانجم في ظلماتها	يسري ولا فلك بها دَوَّارُ
تلهّبُ الشّعري بها وكأنّها	في كفّ زنجيّ الدُّجى دينارُ
ترمي بها الغيْطانُ فيها والرُّبا	دوراً كما يتمسّج التّيارُ
والقطب معتزّم لمركزه بها	فكأنّه في ساحةٍ مسمارُ!

٧- امتزجت الطبيعة بكل معطياتها بشعر ابن خفاجة، ولازمت ألفاظها أسلوبه في مقاصده الشعرية المختلفة، فصار يعبر عن موضوعاته بالاستناد على مفردات، وعبارات موصولة بالطبيعة، ولم يعد ذلك مقصوراً على فنّ الوصف وحده.

لقد صار ابنُ خفاجة يبني معانيه، وأفكاره، ويصوغ صوره من تشبيهات واستعارات وغيرها بالاستفادة من مفردات الطبيعة ومن متعلّقاتها أيضاً.

ونضرب مثلاً من قوله في الغزل:

غازلته من حبيب وجهه فلقُ فما عدا أن بدا في وجهه شفقُ
وارتجّ يعثرُ في أذيال خجلته غصنٌ بعطفه من إستبرقٍ ورقُ!
فالوجه الأبيض المشرق (فلق)، ولما خجلت المحبوبة صار الوجه محمراً (شفق)
والقامة مديدة (غصن)، والثياب من استبرق (كورك الشجرة المذكورة).

وقوله في مدح الأمير أبي بكر بن تيفلويت:

وبلاً الإمارة في رفيف نضارة جلت الدُّجا في حُلّة الأنوارِ
متقَسِّم ما بين شمس دُجْنَةٍ طلعت وبين غمامة مِذْرارِ
أرجَ النديُّ بذكره فكأنَّه متنفّسٌ عن روضةٍ معطارِ!

ومذ عصر ابن خفاجة، وفي حياته التفّ حوله عدد من المحبّين والمريدين، ونظر إلى منهجه وأسلوبه من أهل الأندلس في بلدانها المختلفة، تتلمذوا على مذهبه الشعري، وواصلوا خطّه الفني منهم ابن أُخته: ابن الزّقان البنّسي، والرّصافي البنّسي، وابن عميرة المخزومي، ومحمّد بن عائشة، والكتندي، وابن مَرَج الكُحل.

وظهر في دولة بني نصر: أبو البقاء الرُّندي، وابن الجيّاب، ولسان الدين بن الخطيب، وابن خاتمة الأنصاري، وابن زَمْرَك (الذي تزَيّن أشعاره جُدران قاعات قصر الحمراء بغرناطة)، وغيرهم وقد أكبّوا على طبيعة بلدانهم الجميلة، وجعلوا وصفها جزءاً من اهتمامهم، على درجات متفاوتة من ذلك الاهتمام، لكن الشعر والموشح أتمّ مهمة شعراء الفترات السابقة من وصف الأندلس والاستظلال بظلالها.

وفي شعراء المذهب الخفاجي ابن مَرَج الكُحل^(١) أبو عبد الله محمد بن إدريس (٥٥٤-٦٣٤هـ) وهو من جزيرة شقر (بلدة ابن خفاجة ولد فيها، وبها كانت وفاته).

(١) له ترجمة في الإحاطة ٣٤٣/٢، والمغرب ٣٧٣/٢، والتكلمة ٦٣٦/٢، والبواقي ١٨١/٢، ووفيات الأعيان ٣٩٦/٢. وانظر المختار من الشعر الأندلسي ١٤٢.

ومن قصيدة له يصف فيها روضةً قوله:

والورق تشدو والأراكة تنثني والشمس ترفل في قميصٍ أصفر
والروض بين مفضض ومُعسجدٍ والزهر بين مُدرهمٍ ومُدنرٍ
والنهر مرقوم الأباطح والرُّبا بمصنلٍ من زهره ومعصفر
وكأنه وكأنَّ خُصرة شطّه سيفٌ يُسلُّ على بساطٍ أخضر

وفي الشعراء الذين نهجوا نهج ابن خفاجة ومالوا إلى النزعة الخفاجية أبو بكر محمد بن عبد الله الكتندي^(١) (٥٠٦-٥٨٣ أو ٥٨٤هـ) وهو لغوي وأديب وشاعر مُكثر مجيد.

وله قطعة يمزج فيها الغزل بالطبيعة الأندلسية، يقول فيها:

هذا لسان الدمع يُملّي الغرام في صفحةٍ أثرٍ فيها السَّقام^(٢)
عهد لهندٍ لم يكن بالذي تقدح فيه نفثاتُ الملام^(٣)
يانهرَ شَنِيلَ ألا عودهُ لذلك العهد ولو في المنام؟!^(٤)
ماكان إلا بارقٍ خاطفًا مازلتُ مذ فارقتني في ظلام
لله يومٌ منه لم أنسه وذُكرُ ما أولاه أولى ذِمَام^(٥)
إذ هندُ غصنٌ بين أغصانها كالذَّوح يثنيه هديلُ الحمام

فالطبيعة الجميلة في غرناطة ماتزال في باله، وملامح الجمال متداخلة بين البيئة التي يخترقها هذا النهر الفياض، وبين هند التي حَسُنَتْ وفاقت، وهي من جمالها كأنها غصن من أغصان أشجار ذلك المكان الجميل.

(١) انظر ترجمته في زاد المسافر ٩٥، وبرنامج شيوخ الرعييني ٦٦، والمغرب ٢/٢٦٤-٢٦٥، والذيل والتكملة ٣٤٩/٦-٣٥٠.

(٢) الصفحة: الحد.

(٣) القدح فيه: تعيبه.

(٤) نهر شَنِيل هو النهر الذي كان يشق غرناطة.

(٥) الذمام: العهد.

ومما يشابه منهج ابن خفاجة أيضاً قوله في شجرة قديمة ثابتة في جانب من الحيّ تذكره بطفولته وصباه وذكرياته قوله:

يَا سَرْحَةَ الْحَيِّ يَا مَطُولُ شَرَحُ الَّذِي يَتَنَّا يَطُولُ..^(١)
عندي مقالٌ فهل مقامٌ تُصغين فيه لما أقول؟
ولي ديون عليك حلّلت لو أنه ينفع الحُلُولُ^(٢)
ماضٍ من العيش كان فيه منزلنا ظلك الظليلُ
زال وماذا عليه، ماذا ياسرح لو لم يكن يزولُ
حياً عن المدنف المَعْنَى منبتك القطرُ والقَبُولُ^(٣)

واستمر شعراء الأندلس الباقية على صلة بطبيعة بلادهم، وعلى الاستغلال بظلالها الجميلة، ورفع الإشادة بتلك البلاد بما فيها من الخير والجمال.

ولا يخلو ديوان شاعر من شعراء عصر غرناطة من وقفات عند وصف الطبيعة كالذي نجده في شعر ابن الجيّاب، ولسان الدين، وابن خاتمة الأنصاري، وابن زمرك، وابن فركون، وغيرهم.

ومن يتابع المذهب الخفاجي في هذه المدّة يجد التفاتاً من بعض الشعراء إلى طريقة ابن خفاجة، وانسجاماً معها.

ومن الشعر الذي نلمح فيه أسلوب ابن خفاجة (الذي يوظف فيه مُعطيات الطبيعة لأغراض أُخرى) قول ابن زمرك^(٤):

(١) المَطُول: كثرة المماثلة. والسرحة: كل شجرة طالت؛ والدوحة العظيمة المحلال التي يحلّ تحتها الناس في الصيف، وبينون البيوت تحتها، وظلها صالح (جيد).

(٢) الحُلُول من حلول وقت الدّين، أو وقت الوعد.

(٣) المَدْنَف: أصله في المريض، والمراد: الحبّ. والمعنى: المعذب. والقطر: المطر. والقَبُول: ريح الصّبا، وهي ريح خفيفة طيبة.

(٤) أزهار الرياض ٢/٤٠-٤١.

عذيري من لحظٍ ضعيفٍ وقد غدا
وروضٍ شبابٍ ماسٍ غصنٌ قوامه
وما زالَ وردُ الخدِّ وهو مضعّف
وكم جال طِرفُ الطرفِ في روضٍ حُسْنِه
أما وليالي الوصل في روضة الصِّبا
لئن نسيتُ تلكَ العهودَ أحبّتي
يُحكّمُ منّا في جُسومٍ وأنفُسٍ
وفتحٌ فيه اللَّحظُ أزهارَ نرجسٍ
يعيرُ أقاحَ الثَّغرِ طيّبَ تنفّسٍ
يقيدهُ فيه العِذارُ بسِنْدِسٍ
ومألفٍ أحبابي وعهدُ تأنّسي
فقلبي عهدَ العامريّةِ ما نسي!

* * *

الحنين إلى الوطن:

١- لا يخلو أدبُ أمةٍ من الأمم من شعر (أو نثر) يعبر فيه المبدع عن أشواقه إلى الوطن، وحنينه إليه، وارتباطه به ويتمن فيه، كلما اضطرت الظروف إلى مغادرة الوطن مغادرة مؤقتة، أو طويلة، أو دائمة، ولكل شاعر أفقه في هذه القضايا، وتلوين أفكاره وأسلوبه، وطريقة تناوله. ولكن هذا الأدب جميعاً هو أدبٌ يَنْضَحُ بالروح الوثابة، والعاطفة المشوبة، التي لا تخلو - غالباً - من ميل إلى الحُزْن، والتأمل. ولا يخلو هذا الشعر من نسائم الأمل بالعودة، أو تسجيل خطرات النفس في هواجسها، ودمعات المقل في انسيابها، وزفرات الشوق في تصعيدها.

ولشعراء الأندلس شعرٌ كثيرٌ في هذا الغرض. وقد زادوا على كثير من شعراء الأقطار الأخرى من حيث الوفرة، أو قوّة العاطفة، أو رنة الأسى، أو لهفة اللقاء، نظراً لظروف الأندلس التي كانت في حال استنفار متواصل، وكانت ثغراً من ثغور المسلمين تحتاج إلى يقظة دائمة؛ وكان أهلها من الشيوخ والشبان والفتيان في حال استعداد دائم، ومشاركة مستمرة في حركات الجهاد في أرض العدو، أو في الدفاع عن الوطن.

يضاف إلى ذلك:

- بُعد القطر الأندلسي عن بلاد المشرق، فهم أقصى بلد في غرب الدولة العربية الإسلامية. وسفرُ المسافر لأيّ غرض يعني غيبةً طويلة وأوبةً مرجوةً مخوفةً بالمخاطر؛

- وقصْدُ ديار الله المَكْرَمَةِ في مَكَّةَ والمدينة والقدس للحجِّ والعُمْرَةِ؛ وزيارةُ الرسول، ﷺ، والتَّقدِّيس إلى المسجد الأقصى.

- وسَفَرُ العلماء للاستزادة من الرواية والدراية في المشرق، وسفر طلبة العلم.

- ورحلات التجارة، وطلب المعاش؛

- ورحلات الرِّحالة المستكشفين، وكان هؤلاء يبدؤون بالحج والعمرة والزيارة والتقدِّيس.

- ورحلات أهل الفضول الذي يضربون في آفاق الأرض شجاعةً منهم، وتحرياً للجديد.

وكثيراً ما كان المسافرُ لا يؤوب، فقد يطيبُ له المقام في مكان من بلاد الإسلام الواسعة؛ وقد يبقى من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد تكون رحلته أصلاً قصْدَ الاغتراب والسُّكنى في الشَّرق.. وكان هؤلاء المغتربون (الذي ينوون العَوْدَةَ منهم، والذين أقاموا لسببٍ من الأسباب) يُطلقون قصائدهم ومقطوعاتهم التي يذكرون فيها الأندلس، ويحنّون إليها وإلى أهل فيها؛ ويقدمون آثاراً طافحةً بالعاطفة الغامرة، والإحساس الرقيق، غنيّةً بكل مقومات النصّ الأدبي المؤثّر، القادر على البقاء والخلود.

٢- والأندلس - عند أهلها - جنة الله في أرضه، وهم - حيثما ذهبوا - لا تغادرهم صورة بلادهم، ولا يملّون من ذكرها والتشوّق إليها. وهذا التصوّر من الشعراء لبلادهم قديمٌ، يرجع إلى الوافدين الأوائل؛ موصول إلى آخر زمان المسلمين في الأندلس. بل إنّ ذكرى الأندلس ماتزال ماثلة في نفوس حَمَلَةِ مفاتيح الدُّور والبُيوت الأندلسية التي يتوارثها الأبناء عن الآباء والأجداد لممتلكاتهم هناك، وهي ذكرى دخلت في نفوس العرب والمسلمين، ولو لم يدخل أحدٌ من أجدادهم تلك الديار. ومن يرجع إلى دواوين شعراء العرب في

العصر الحديث^(١) يجد (الوجود الأندلسي) ماثلاً، وكأنّ العرب مايزالون يحرّكون حيوية الحياة في ذلك الفردوس العزيز.

ويكفي أن نتمثّل بقطعةٍ لأبي عبد الله محمد بن سفر المريني^(٢) (نسبةً إلى مدينة المريّة) من رجال القرن السابع الهجري، وكان (شاعر المريّة في عصره) قال فيها:

في أرض أندلسٍ تَلْتَذُّ نَعْمَاءُ	ولا يُفارق فيها القلبُ سَرَاءُ
وليسَ في غيرها في الأُنسِ مُتَفَعٌ	ولا تقومُ بحقّ الأُنسِ صَهْبَاءُ
وأين يَعْدِلُ عن أرضٍ تحضُّ بها	على المداممة أمّوأة وأفياءُ
وكيف لا يُيْهِجُ الأبصارَ رؤيتها	وكلّ رَوْضٍ بها في الوشي صنعاءُ
أنهارها فضةٌ والمِسْكُ تربتها	والخزُّ رَوْضَتُها والدرُّ حصباءُ

يقدم الشاعر صفاتٍ حسنة أخرى من صفات الأندلس، وهي صفاتٌ وخصائص كافية لتجعل كل من يعرفها يتعلق بها، فكيف بأبنائها والمستظليين من أجيال عتيقة بظللها؟.. إلى أن يقول في ختامها:

فيها خلعتُ عذاري مابه عِوَضُ فُهي الرّياضُ، وكلّ الأرض صَحْرَاءُ!
فهذا شعور عارم من ممثّل فنّان، ينوب عن أهل الأندلس جملةً في التعبير عن التعلّق بالأندلس، وفي النظر إلى بلادهم على أنها جنة الأرض بلا منازع.

٣- ويقتربُ جانباً شعر الحنين من خصائص مشتركة، أعني حنين الأندلسيّ، وهو في ديار الأندلس، إلى بلده أو وطنه الصغير، وحنينه أيضاً وهو خارج الأندلس إلى وطنه الكبير، ووطنه الصّغير في الوقت نفسه. ومن هنا نفهم رقة

(١) انظر مثلاً دواوين أحمد شوقي، وعمر أبو ريشة ونزار قباني...

(٢) ترجم له في المغرب ٢/٢١٢، ونفح الطيب ١/١٥٧، و٢٠٩، والمريني نسبة إلى المريّة. ويقال: المريني والمريني، كما قالوا في النسبة إلى إشتراكية: إشتراكوبي وإشتراكوني. (انظر بحث المقامات في هذا الكتاب)، وزيادة النون في النسبة معروفة كقولهم داراني في النسبة إلى داريّا (بلدة قرب دمشق) ودوماني ودومي نسبة إلى دوما (أو دومة) مدينة قرب دمشق.

الشعر، وقوة الحنين في قصائد ابن زيدون التي ذكر فيها مدينة (قرطبة) وهو بعيدٌ عنها.

يقول ابن زيدون من قصيدة مخمسة:

أقرطبة الغرّاء هل فيك مطمَعُ؟
 وهل كِبْدٌ حَرَّى لِبَيْنِكَ تُنْقَعُ؟
 وهل لِيَالِيكَ الحميْدَةُ مَرْجَعُ؟
 إذ الحُسْنُ مرأى فيك واللّهُو مسْمَعُ وإذ كنفُ الدُّنيا لديك مُوطَأُ
 ويضم (الزّهراء) إلى قرطبة فهما أمُّ و بنتٌ، أو هما أختان جميلتان؛ فيقول من
 الخمسة نفسها:

ويا حبّذا الزهراءُ بهجّة منظرِ
 ورقّة أنفاسٍ وصحّة جوهرِ
 وناهيك من مَبْدَا جَمالٍ ومَحْضَرِ
 وجنّة عدن تطيبك وكوثر بحرأى يزيدُ العُمَر طيباً وينسأ^(١)

ويذكر الشاعر مواضع أخرى في قرطبة، وحولها..

- واضطر ابن خفاجة إلى الخروج عن بلده شقراً، وعن شرق الأندلس جُملةً
 (حين سَطَا القمبيطور الإسباني على تلك المنطقة وجعل بلنسية مركزاً له)^(٢)
 وقد لجأ ابن خفاجة إلى المغرب، ومما قاله هناك:

فقلتُ ولي دمعٌ ترقرقَ فانهمي يسيلُ وصبرٌ قد وهى فتضعضعا:
 ((ألا هل إلى أرض الجزيرة أوبة فأسكن أنفاساً وأهدأ مضجعا؟))

(١) تطيبك: تدعوك، وينسأ: يزيد في العمر؛ يُطيله.

(٢) انظر في تاريخ هذا المرتزق الإسباني الأفاق: دولة الإسلام في الأندلس - عصر المرابطين والموحدين، الجزء الأول.

وعبارة الجزيرة محيرة، فالأندلس جميعاً يطلق عليها اسم الجزيرة، ومدينته هي: جزيرة شُقر!..

- وله الأبيات الذائعة:

إنَّ للجنَّةِ بالأندلسِ مُجْتَلَى مَرَأًى وَرَّيًّا نَفْسِ
فَسَنَا صُحْبَتَهَا مِنْ شَنْبِ وَدُجَا لَيْلَتِهَا مِنْ لَعَسِ
فَإِذَا مَا هَبَّتِ الرِّيحُ صَبَا صِيحْتُ: وَاشْوَقي إِلَى الأندلسِ!

وكانَّ الشاعر اختصرَ أحاسيسَهُ، وعواطفَهُ، واندفاعَ قلبه ووُجْدانه بهذه العبارة القريبة من العبارات الشعبية الدارجة: ((وَاشْوَقي إِلَى الأندلسِ!))..

- وله القصيدة البارعة التي يصحَّ أن تكون عنواناً على جانبٍ مهمٍّ من شخصيَّة الشاعر^(١)، وأن تكون نموذجاً لشعر الحنين في الأندلس، قال يتشوقُّ إلى معاهده بجزيرة شُقر، ويندب ماضي زمانه:

بين (شُقر) ومُلْتَقَى نهرِها حَيْثُ أَلْقَتْ بِنَا الأمانِي عَصَاهَا^(٢)
وَيَغْنِي المَكَّاءُ فِي شَاطِئِهَا يَسْتَحْفُ النُّهْيُ فَحَلَّتْ حُبَاهَا^(٣)
عَيْشَةً أَقْبَلْتُ يُشَهِّي جَنَاهَا وَارْفُ ظِلُّهَا لَذِيذُ كَرَاهَا
لَعِبْتُ بِالْعُقُولِ إِلَّا قَلِيلاً بَيْنَ تَأْوِيهِهَا وَبَيْنَ سُورَاهَا^(٤)
فَانْتَبَهْنَا مَعَ الغُصُونِ غُصُوناً مَرَحاً فِي بَطَاحِهَا وَرُبَاهَا
ثُمَّ وَلَّتْ كَأَنَّهَا لَمْ تَكُ تَلْبِثُ ..إِلَّا عَشِيرَةً أَوْ ضُحَاهَا
فَانْدُبِ المَرَجَ فَالْكَنِيسَةَ فَالشَّطَّ.. ..وَقُلْ آهٍ يَامُعِيدَ هَوَاهَا^(٥)

(١) انظر دراستنا عن ابن خفاجة.

(٢) شُقر اسم مدينة الشاعر. وتدعى جزيرة شُقر أيضاً؛ لأن نهر شُقر ينقسم قبلها فرعين ثم يلتقيان بعدها.

(٣) المَكَّاء: طائر مائي. الحُبَا جمع الحبوة: جلسة يشد فيها الجالس يديه ويشبكها معاً ويضم إليهما رجليه. وفي (حلت حباه) استعارة، وفي الكلام كناية أيضاً.

(٤) التأويب: سير النهار، والسرى: سير الليل.

(٥) هذه أسماء مواضع في شُقر. يذكرها الشاعر بتداعي ذكرياتها

آه من غربية ترقرقُ بثاً
آه من فرقةٍ لغير تلاقٍ
لست أدري ومدمُعُ المُنزِنِ رطبٌ
فتعالِ يا عَيْنُ نَبكِ عليها
وشبابٍ قد فاتَ إلا تناسيه..
ما لِعَيْنِي تبكي عليها وقلبي
وكان الرصافي البُلنسي^(١) قد خرج من بلدته صغيراً ثمّا حفزه على ذكرها في شعره، والحنين إليها، كقوله: ^(٢)

خليلي ما للبيد قد عبقت نَشْراً
هل المسك مفتوقاً بمذرجة الصَّبَا
خليلي عُرْجاً بي عليها فإنه
بلادي التي ريشت قويدمتي بها
مبادئ لُين العيش في ريق الصَّبَا
لبسنا بها ثوبَ الشَّبَابِ لباسها
أمنزلنا عَصَرَ الشَّيْبَةِ ما الذي
وما لرؤوس الركب قد رُنّحت سكرًا
أم القوم أجروا مِن بلنسية ذكراً؟
حديث كبرد الماء في الكبد الحرَّى
فُرَيْخاً وآوتني قرارُتها وَكُراً^(٣)
أبى الله أن أنسى لها أبداً ذكراً
ولكن عَرِينا من حُلاه ولم تَعْرِى
طوى دوننا تلك الشَّيْبَةِ والعطرا؟..

وابن سعيد^(٤) (أبو الحسن علي بن موسى) (٦١٠-٦٨٥هـ) أحد أدباء الأندلس الذين خرجوا منها ولم يتح لهم العودة إلى الديار؛ وفي شعره حنينٌ إلى الوطن، ولهفة إلى لقائه، ومن ذلك قوله وهو في مصر:

(١) مرّ ذكره في شعر المديح.

(٢) الديوان ٦٧-٦٨.

- والرصافة: ضاحية، ومنتزهات بين بلنسية والبحر.

(٣) قويدمة تصغير قادمة، وهي إحدى القوادم (٤ ريشات في مقدّم الجناح).

(٤) أديب ومؤرخ وجغرافي، وشاعر، ومؤلف، وناقد. وهو صاحب (المغرب في حُلَى المغرب) طبع، في جزأين، وكتب أخرى أندلسية، وعامة.

- وانظر الذيل والتكملة ٤١١/٥، والدياج المذهب ٢٠٨، ونفح الطيب ٢٦٢/٢، وفوات الوفيات ١١٢/٢.

هذه مصرُ فأينَ المغربُ مذ نأى عني دموعي تسكبُ
فارقتهُ النفسُ جهلاً إنَّما يُعرف الشيء إذا ما يذهبُ
أينَ حمصٌ؟ أينَ أيّامي بها بعدها لم ألقَ شيئاً يُعجبُ!

فهو في شوق دائم، ودموع غالبة، ويتذكر الشاعر مدينة إشبيلية الجميلة (حمص الأندلس)، ويقرر أنه لم يرَ بلداً في البلاد التي زارها يعجبه أن يقيم فيه، أو يعوّضه عن ذلك الوطن الحبيب!..

- وخرج أبو البقاء الرندي من الأندلس إلى المغرب في غرض لم يذكره الشاعر، لكنه سجّل في قصيدة نظمها بمدينة مرّاكش بعده عن الأندلس جملةً، وعن مدينة رُنْدَة خاصّة، فقال: (١)

بحياة ما ضمّت عُرى الأزرار بذمام ما في الحبّ من أسرارٍ
بالحجر بالحجر المكرّم بالصفا بالبيت بالأركان، بالأسطارِ
بالله إلا ما قضيت لبانةً تقضي بها وطراً من الأوطارِ
وتكف من أشجان صبّ يشتكي جور الزمان وقلّة الأنصارِ
بلّغ لأندلس الزمان وصف لها مابي من اشواقٍ وبُعْدِ مزارِ
وإذا مررت برُنْدَة ذات المُنَى والراح والزيتون والأزهارِ
سَلِّم على تلك الديار وأهلها فالقوم قومي والديار ديارِ

وقد أخرج الشاعر قطعته مخرجاً عاطفياً عميقاً؛ ودخل إلى موضوع الحنين من باب استحلاف السامع - الذي يصل إليه نداء الشاعر - بأمور كثيرة تصلح

(١) النص من مخطوطة الوافي في نظم القوافي (نسخة الرباط، الصفحة ٣٩).

لذلك، وتلفت نظره ليحمل عنه رسالة شوق ومحبة وحنين إلى بلدته رُندة، التي تستأهل منه تلك اللفتة واللهفة في آن معاً، وكيف لا وهي مدينته، وملعب صباه، وهي المدينة ذات المزايا التي تُحبَّبُ بها النَّاسُ جميعاً، فما بالك بابنها، ومواطنها الغائب البعيد الغريب؟

وهذا ابن فَرْكُون^(١) يحنّ إلى بلده الصغير غرناطة، وهو بجبل الفتح (مدينة أنشئت زمن الموحدين عند جبل طارق)، ويودع في قصيدته كثيراً من الأفكار التي تقال في شعر الحنين إلى الوطن، فهو يشكو من البُعد، ويتشوق إلى الأرض ومن عليها من الأهل والأحبة والأصحاب، ويعلن أن بلاد الله الواسعة جميعاً لاتنوب مناب الوطن:

هل بعد طولِ تغرُّبي وفراقي	أرجو اللقاءَ ولاتَ حين تلاقِ
لَمَّا رحلتُ عن المنازل لم يزلْ	سُكنى الغرام بقلبي الخفاقِ
يا حادي الأظعانِ مالكِ والسُّرى	الله في الرَّمق الذي هو باقِ!
هي دارُ أحبابي وموضع صَبّوتي	ومحلّ جيرانِي ورَبْعُ رفاقي
جارَ الزمانُ بعدهم ولعلَّه	يوماً يجودُ بعبادة الإشفاقِ

وتكثر قصائد الحنين في ديوانه، وهي قصائد مدونة في أوائل القرن التاسع والدنيا تضيق على العرب والمسلمين في الأندلس، والأندلسيون في حالة استنفار قُصوى - كما يقول العسكريون اليوم - فالعدو محيِّطٌ بهم، وهو يتحين الفرص

(١) أبو الحسين بن أحمد بن سليمان... بن هشام القرشي. والده أحمد كان من تلاميذ لسان الدين بن الخطيب (انظر ترجمته في هذا الكتاب) واشتغل أحمد المذكور بالكتابة السلطانية في ديوان مملكة غرناطة ثم تحوّل إلى القضاء. وكان جدّه سليمان من أهل العلم أيضاً. ولد نحو سنة (٧٨١هـ)، وتدرّج في العلوم والأدب حتى صار كاتباً في الديوان (كأبيه)، وخدم السلطان النصري يوسف الثالث (وكان شاعراً له ديوان مطبوع) ومدحه كثيراً.

- ولابن فركون ديوان حققه د. محمد بن شريفة وصدر في مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ويعدّ ديوانه وديوان البسطي في أواخر ماوصل إلينا من دواوين شعراء الأندلس. - وعلى ديوان ابن فركون مقدمة مهمّة عن الشاعر وعن ممدوحه الملك يوسف الثالث سلطان غرناطة.

لاقتناص ما يستطيع من الرّجال، واقتطاع ما يستطيع من الأرض، وغصب ما يمكنه من غنائم وسرقات. ومن هنا ارتفع صوت الارتباط بالأرض، والشعور بقيمة الوطن، إضافة على المعاني التي تثور في نفس المغترب وإن كانت البلاد في أحسن أحوالها.

الرثاء

١ - رثاء الأفراد:

غرض الرثاء^(١) من الأغراض التي يقترب فيها الشعراء بعضهم من بعض في أعيان الأشخاص المرثيين، وفي اتجاهات الرثاء (بصفة عامة)، وفي كثير من المعاني التي ترد على ألسنة الشعراء.

ويكثرُ رثاء أهل الأقربين كالوالدين، والزوجة، والأولاد، ورثاء الأصحاب ذوي العلاقة الحميمة، ورثاء ذوي المكانة السياسية والاجتماعية (كالممدوحين سابقاً)، ورثاء أهل العلم والفضل كالقضاة والأساتذة الكبار...

ورثاء الأفراد من قديم يتخذ ألواناً ثلاثة:

- الندب، (أو البكاء على الميت ذي الرحم والقربة)؛

- والتأين بذكر فضائل الميت تبياناً لخسارة المجتمع بوفاته؛

- والعزاء بتصوير الموت على أنه سنة من سنن الكون، لا مفرّ منه.

١ - ونقرأ في ديوان ابن عبد ربه شعراً فيه خطراتٌ عن الموت، فالموت قضاء

لازم:

ذاك القضاء الذي لا شيء يصرفه حتى يفرّق بين الروح والجسد

وفي ديوانه أكثر من قطعة أو قصيدة في رثاء بعض ولده، وفي إحداها

يقول:

(١) الأندلس ٣٢٣؛ وانظر (الرثاء) من سلسلة: فنون الأدب العربي - دار المعارف -.

قصَدَ المنونُ له فماتَ فقيداً ومضى على صَرْفِ الخطوبِ حميدا
بأبي وأمي هالكاً أفرَدَتْهُ قد كانَ في كُلِّ العلومِ فريدا

ومنها:

تأبى القلوبُ المستكينةُ للأسى من أن تكونَ حجارةً وحديدا
إنَّ الذي بادَ السُّرورُ بموتِهِ ما كانَ حُزني بعدهُ ليبيدا

ويختتم القصيدة بهذين البيتين:

لولا الحياءُ وأنَّ أزنَّ ببدعةٍ ممَّا يعدّده الورى تعديدا
لجعلتُ يومَكَ في المنائحِ مأتماً وجعلتُ يومَكَ في الموالِدِ عيداً

وقد عدّد الشاعر مزايا ذلك الولد الفقيد، وذكر الملامح التي رآها الناس فيه، وهي تبشّر بعالم واسع المعارف متعدّد المواهب، وكأنه يجمع صفات القاسم بن محمد والأسود بن يزيد والأخفش وابن المبارك وابن المسيّب. بل إن فيه مبشرات بشاعر متميّز... إلخ^(١).

ورثى أبو إسحاق الإلبيري زوجته رثاءً رقيقاً: ذكر فيه شمائلها من التقوى والورع والأدب الجمّ وحيّ ذكرها، وبكاها، وأسف على فراقها، ودعا لها، وتفجع عليها، وقال: إنها تستحق أن يقضى أسفاً عليها...

عُجْ بالمطيّ على اليّابِ الغامرِ^(٢) واربعْ على قَبْرِ تَضَمَّنِ ناظري^(٣)
فستستبينُ مكانَهُ بضجيعه وينمُّ منه إليك عَرَفَ العاطرِ
فلکم تَضَمَّنِ من تقىً وتعفُّفٍ وكريمِ أعراقٍ وعرضِ طاهرِ

(١) الديوان الطبعة الثالثة ٧١-٧٢.

(٢) القصيدة في الديوان ٩٠.

(٣) اليّاب والغامر: الخراب. ومعنى اربعْ على نفسك: انتظر.

واقْرَ السَّلامَ عليه من ذي لوعةٍ صدعته صدعاً ماله من جابرٍ

وفي القصيدة:

إنْ كان يدثرُ جسمه في رَمْسِهِ فهَوَايَ فيه الدَّهْرُ ليس بدائرٍ^(١)
قطعَ الزمانَ معي بأكرمِ عشرةٍ لهفي عليه من أبرِّ مُعَاشِرٍ...
ولو أنني أنصفتُهُ في ودِّهِ لقضيتُ يومَ قضى ولم أَسْتَخِرِ

وتمضي القصيدة على هذا النمط من رقة المشاعر، وحسن الوفاء، وذكر المآثر، وتبيان المواجهد، وإظهار التأثير، ويستفيد الشاعر من ذكر الموت ليعود إلى نهجه في أطراح الدُّنيا، واستفادة الموعظة.

والقصيدة واحدة في قصائد رثاء الشعراء لزوجاتهم. وهذا النوع من الشعر قليل؛ - أو هو على الأقل - قليل الوجود، فلعل بعضهم ينظم في ذلك شعراً، ويرغب في عدم نشره؛ كما قال جرير:

لولا الحياءُ لهاجني استعبارُ ولزرتُ قبرك والحبيبُ يُزارُ
وعبرَ الأعمى التَّطيلي^(٢) عن حزنه لفقد زوجته (آمنة) وولمه إثر فقدوها، وكان للصنعة الفنية المتقنة في القصيدة أثر واضح مما زاد في إيصال فكرة الشاعر، وفي إبراز عنصر العاطفة المشبوبة عنده:

أَمِنْ إنْ أَجَزَعُ عَلَيْكَ فَإِنِّي رُزِئْتُكَ أَحلى من شبابي ومن وفري
برغمي خُلِّي بين جسمك والثرى وإن كنتُ لا أخشى الترابَ على التبرِ
هنيئاً لقبر ضمِّ جسمك إنَّه مقرّ الحيا أو هالة القمر البدرِ
إذا جئتِ عدناً فاطلبينا فقلّما تقدّمتني إلا مشيتُ على الأثرِ
ولا تعذليني إنْ أقمتُ فربّما تأخر بي سَعْيي وأثقلني وزري!

(١) الرّمس: القبر. ودثر: بلي.

(٢) ديوان الأعمى التَّطيلي ٧٠.

فقد أثنى عليها في شخصها، وفي حُسن عَشْرَتِها له، وفي عَظِيم رعايتها،
فقد كان كَفيْفَ البصر وكانت هي عينه، ومرشده، ودليله إضافة إلى المودّة
والرَّحمة. ودعا لها بالبركة، ورجا أن تكون بحسب أعمالها الصالحة - في جنة
النعيم.

- وقال أبو عامر بن الحمّارة^(١) في رثاء زوجته زينب:

ولَمَّا أَنْ حَلَلْتُ التُّرْبَ قَلْبَا: ((لقد ضَلَّتْ مَوَاقِعُهَا النُّجُومُ))!
أَلَا يَا زَهْرَةَ ذَبُلْتُ سَرِيعاً أَضَنَّ الْمَزْنَ أَمْ رَكَدَ النَّسِيمُ؟

فقد بنى البيت الأول على مفارقة طريفة وإيهام بديع: فإن المتوفاة في منزله
النجوم (عالية رفيعة) فكيف يصح أن تنزل النجوم لتكون في التراب؟ واستغرب
ذبول زَهْرَتِها السَّريع (الموت)، ولا تذبل الزهرة في إبانها إلا لأمرٍ عظيم
كأنحباس المطر (القحط) وسكون النسيم الذي معه حركة الحياة!

- ورثى أبو البقاء الرندي زوجته بقصيدة يقول فيها^(٢):

مضت مُضِيَّ الصَّبَا عَنِّي وَلَا عِوَضٌ ومن يقوم مقام الشمس والقمر؟...
يا ليتني عندما حُمَّ الحِمَامُ، كما قاسمتُها كبدي قاسمتُها عمُري
فإن تكن زهرة من روضها قُطِفَتْ فقلَّما تُمْتِغُ الأَيَّامُ بِالزَّهْرِ
وإن تكن دُرَّةً من سلكها خُطِفَتْ والدهر أدرى بما يَسْبِي من الدُّرر

ويميل في جانب من القصيدة إلى التجلّد:

يا قلبُ صَبْرًا عَلَى مَا قَدْ فَجَعَتْ بِهِ فليست في دفعٍ مقدورٍ مُقْتَدِرِ
لَا تَبْكُ فَقَدْ حَبِيبٌ أَنْتَ تَابِعُهُ إذا مضى البعضُ فالباقي على الأثر

(١) أصله من المهدية بتونس، وتلمذ على ابن باجة بالأندلس. ويُعدّ في فلاسفة الأندلس (فروخ ٥/٤١٦)
عاش أبو عامر بين (٥٠٠ و ٥٧٠ هـ).

(٢) النصّ من دراستنا ((أبو البقاء الرندي: شاعر رثاء الأندلس)) الطبعة الثانية ٧٧.

ونلاحظ في الأبيات التي اخترناها من القصيدة مع اللوعة والأسى لمسة الوفاء، واستمرار الذكرى الطيبة؛ ونلمح أيضاً تصريحه بمشاعره الفياضة التي تدلّ على المحبة القديمة، والمودة التي ربطت بينه وبين الفقيدة. لقد كان الشاعر فقيهاً، زاهداً، على سمت خاص من الحياة ولكن هذا لم يمنعه من التعبير الإنساني عن الوفاء والذكرى، ومن التعبير الإسلامي عن إظهار حُسن العشرة والدعاء للفقيدة بالرحمة.

- ورثي أبو الوليد الباجي^(١) ابنين اثنين ماتا مغتربين، فمما قال فيهما:

رعى الله قبرين استكانا ببلدة	هما أسكنها في السّواد من القلب
يقرُّ بعيني أن أزور ثراهُما	وألصق مكنون التّرائب في التّرب ^(٢)
وأبكي، وأبكي ساكنيها لعلني	سأنجّد من صحبٍ وأسعدّ من سحِب ^(٣)
وما ساعدت ورقّ الحمام أخوا أسى	ولا روّحت ريح الصّبا عن أخي كرب
ولا استعذبت عيناى بعدهما كرى	ولا ظمئت نفسي إلى البارد العذب

لقد جمّع الشاعر في ما أثبتلي به، بين ثكل الولدين معاً، وبين وفاتهما في اغترابهما. ومن هنا كانت أمنية الشاعر - لو تحققت له - أن يجد القبرين، وأن يلصق صدره، وفي الصّدر قلبه، فوق ذلك الثرى الذي ضم فلذتي الكبد، وحبّتي القلب.

- وقريب من هذا الموقف رثاء ابن خفاجة لابن أخت له بلغته وفاته بأغلمات (من بلدان المغرب)؛ قال من أول القصيدة:

(١) أبو الوليد الباجي (سليمان بن خلف ٤٠٣-٤٧٤هـ) من أئمة الفقه المالكي بالأندلس، وكان إلى علمه بالفقه محدثاً متكلماً وأديباً شاعراً.

(٢) الترائب: عظام الصّدر. الثرى: التراب. ويريد القبر.

(٣) عسى أن ينجده الصّحب ببكاء يشفي غليله ووجده، أو يُسّعده وابلّ من السحب ينضمّ إلى وافد دموعه. والإسعاد عند العرب في الجاهلية مسaire الثكلى في البكاء على فقيدتها. وقد ورد النهي عن الإسعاد كما في الحديث. والشاعر يورد العبارة على سبيل المحارة الشعرية.

أرقتُ أكفُ الدمعَ طوراً وأسفحُ وأنضحُ خدَيَّ تارةً ثم أمسحُ
ودونك طمّاحٌ من الماء باردٌ يعبُّ، ومُغبرٌّ من اليد أفيحُ
وإني إذا ما الليل جاء بفحمةٍ لأوري زنادَ الهَمِّ فيها فأقدحُ
وأُتبعُ طيبَ الذكر أنةً مُوجعٍ فينفخُ هذا حيث هاتيك تلفحُ
وألقى بياضَ الصُّبحِ يسودُّ وحشةً فأحسبني أمسي على حين أُصبحُ
ويوحشني ناعٍ من الليل ناعبٌ فأزجرُ منه بارحاً ليس يبرحُ...

وقد أَدْخَلَ ابنُ خفاجة غرضَ الرثاءِ في حَوْمةِ عنايته بالطبيعة، وهما هي ذي الطبيعة تساعدُه فهي تحزن لحزنه؛ فالبحر هائج، والبيد مغبرة والليل حالك الظلمة، والصباح مسودّ الوحشة، والليل الذي كان هادئاً صار مقطع الأوقات بالناعي والناعب... الخ^(١).

٢ - وتزخر دواوين معظم شعراء الأندلس بقصائد الرثاء. وقد أكثر شعراء المديح من الرثاء، فكأن أحد الموضوعين يكمل الآخر، أو يتصل به. والرثاء أوسع دائرة من المديح، فإن الممدوحين أشخاص يتوجه الشعراء إليهم بالرثاء أيضاً؛ ولكن الشاعر يرثي الفقهاء والعلماء وغيرهم.

ورثاء هؤلاء: يكثر فيه ذكر الخصال الحميدة والمناقب الكريمة، والأفعال المشكورة من الناس، والأعمال الصالحة.

ومن المؤلف أن تكون هناك معانٍ عامة يوردها الشعراء إضافة إلى أمور فيها خصوصية كالشجاعة والإقدام للقادة العسكريين، وحسن التدبير والسياسة للحكام والوزراء؛ وإصابة الفهم، وصدق العدالة للقضاة... وهكذا.

(١) انظر دراستنا عن ابن خفاجة ط ٢: ٥٥-٥٨.

- ومن الرثاء الذي له مغزى كبير قطعة بقيت من شعر مقدم بن معافى القَبْرِي^(١) في رثاء سعيد بن جُودي السعدي^(٢). كان سعيد^(٣) قد أدب مقدم بن معافى أو (ضربه) كما في الخبر. ولكن الشاعر رثى أمير العرب في منطقته، فلما فعل ذلك قيل له: أترثيه وقد ضربك؟ فقال: والله إنه نفعتني حتى بذنوبه، ولقد نهاني ذلك الأدب (التأديب) عن مضارّ جمّة كنت أقع فيها على رأسي، أفلا أرثي له ذلك؟ والله ما ضربني إلا وأنا ظالم له، أفأبقى على ظلمي له بعد موته؟ - وهذه القطعة هي قوله:

من ذا الذي يُطعم أو يكسو وقد حوى حلفَ الندى رمسُ
لا اخضرت الأرض ولا أورك... عُودُ ولا أشرقت الشمسُ!
بعد ابن جُوديّ الذي لم ترَ أكرمَ منه الجنّ والإنسُ^(٤)
دموعُ عيني في سبيل الأذى على سعيدٍ أبداً حُبسُ

ونفهم لجوء الشاعر إلى المبالغات، فهو يصف زعيماً عظيماً ويرثي رجلاً كبيراً؛ وهو من جهةٍ أخرى يتحدث عن المتوفى بلسان الوفاء، وصدق التعبير، والإحساس بالفجيعة فقد مات سعيد غيلةً وغدراً.

- ويرثي ابن زيدون صديقه القاضي أبا بكر بن ذكوان، ويقول في أثناء القصيدة^(٥):

يا قَبْرَهُ العَطِرَ الَّذِي لَا يَتَعَدَّنْ حُلُوٌّ مِنَ الْفَتَيَانِ فِيكَ حَالُ
ما أَنْتَ إِلَّا الْجَفْنُ أَصْبَحَ طِيَّهُ نَصْلٌ عَلَيْهِ مِنَ الشَّبَابِ صِقَالُ

(١) ورد ذكره في هذا الكتاب في موضوع (الموشحات).

(٢) له ترجمة مفردة في هذا الكتاب.

(٣) سعيد بن جودي - محمد رضوان الداية ١٠٣-١٠٤ ونشر الكتاب بالتعاون بين مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث وبين دار الفكر بدمشق.

(٤) أَلِف ((لم ترى)) لإطلاق الشعر؛ وإلا فالفعل مجزوم.

(٥) ديوان ابن زيدون - علي عبد العظيم ٥٣٢-٥٣٣.

فهناك نفّاحُ الشّماثل مثلما طرقت بأنفاسِ الرياض شَمالُ
دانٍ من الخلقِ المزيّن نازح عن كل ما فيه عليه مقالُ
شيمٌ ينافسُ حُسْنَهَا إحسانُها كالراحِ نَافسٍ طعمها الجريالُ

٣ - وفي مقاصد شعر الرثاء: العزاء، وهو في أصله: ((الصّبر على الموت في الأقرباء وغير الأقرباء))^(١) وهذا مقصد قديم، فالموت سنة من سنن الله تعالى في خلقه. ولا بد من الموت لكل حيٍّ؛

ونقرأ لابن عبد ربّه^(٢) في معنى حتميّة الموت:

أَتَفْرَحُ وَالْمَنِيَّةُ كُلَّ يَوْمٍ تُرِيكَ مَكَانَ قَبْرِكَ فِي الْقُبُورِ؟
ومن العزاء قول جعفر بن محمد بن مكي بن أبي طالب في رثاء أحد العلماء وهو عبد الملك بن سراج^(٣):

انظر إلى الأطوادِ كيف تزولُ والحالة العلياء كيف تحُولُ!
الموت حتمٌ والنفوسُ ودائعُ والعيشُ نومٌ والمنى تضليلُ
لا يعصمُ العصماءُ منه شاهقُ صعبٌ ولا الورْدُ السَّبتى غيلُ
يهوى الفتى طولَ البقاءِ مؤملاً وله رحيلٌ ليس عنه قفولُ
يلهو ويلعبُ مطمئناً ذاهلاً وله رسيمٌ نحوه وذميلُ

والشعر تعبير أدبيٌّ عن حتميّة الموت، وتشبّث الإنسان بالحياة، يقول الشاعر: إن الإنسان يأملُ، وتستغرقه الدنيا بما فيها، ويلهو ويلعب، ولكن المآل واحد لا محالة.

(١) الأندلس د. ضيف ٣٣١.

(٢) ديوان ابن عبد ربّه ٩٤.

(٣) الذخيرة ٨١٤/١، وكان أبو عبد الله جعفر المذكور عالماً باللغات والآداب، جماعة الكتب، وهو شيخ ابن بشكوال أحد علماء الأندلس (ت جعفر سنة ٥٣٥هـ) انظر (الذخيرة ٨١٤/١ والصلة ١٢٩، والمغرب ١٠٨/١، وإنباه الرواة ٢٦٧/١، وبغية الملتبس ٢٤٣ (رقم ٦١٧).

ومثله قول ابن زَمْرَك^(١) في رثاء السلطان يوسف، وعزاء أخيه ووارث الملك بعده محمد الغني بالله:

عزاء أمير المسلمين فإنّها مقادير ربّ الخلق في الخلق يُجْريها
هو الموتُ ورْدٌ للخليقة كلّها أواخرها تقفّو سبيل أواليها

وشعر الرثاء عند الأندلسيين - كحال المشاركة - كثير، وهو موزّع على اتجاهات الرثاء المختلفة.

٢ - رثاء الدّول والممالك الزائلة:

كانت مدّة دول الطوائف بالأندلس (ومجالها القرن الخامس تقريباً) مدّة قاسية على الأندلس من الناحية السياسية والعسكرية؛

فقد انفرط عقد الأندلس الموحّدة التي ضمّتها الدولة الأموية وصارت أندلسات كثيرة؛ وصار في كل بقعةٍ دويلةٌ صغيرة لا تقوى على التماسك ولا حماية نفسها: لا من دويلة أخرى أندلسية، ولا من دول الشمال المتربّصة، والتي تنتهز الفرص لتنهش من جسم الأرض الأندلسية.

- ودخل كثير من هذه الدّويلات في خصومات في ما بينهم وكانت أحياناً خصومات عنيفة، اشتبكت فيها الأسلحة، وأريق دماء.

- وعاش ملوك الطوائف حياة ترف وسرف. وضعوا رسم الجهاد، وأسرفوا على الناس في أخذ الضرائب.

- ونشد ملوك الطّوائف السّلامة مع الدول الشمالية (قشتالة خاصة)، وأدّوا أموالاً طائلة أخذوها من جيوب الناس ومن خزينة الحكم لإرضاء ألفونسو السادس ملك قشتالة وغيره.

(١) أزهار الرياض ١٥٥/٢.

ولا شكّ في أنّ هذه الحال أضعفت المسلمين في الأندلس، وأتاحت للعدوّ احتلال بُرْبُشْتَر، وطُلَيْطَلَة، وغيرهما من النّواحي. وقد سجّل الشعر هذه الكوارث، وقَدّم الشعراء رؤيتهم، واستنهضوا الحمم، ورفعوا صوت الاستغاثة. وأسهم نفرٌ من العلماء وأهل الحَلّ والعقد في الأندلس في التوجه إلى دولة المرابطين الناشئة في المغرب لطلب المساعدة والعون، وأقنعوا المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية من كبريات دول الطوائف للاستنجاد بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين.

وقد أثر هذا التعاون الأندلسي - المغربي نصراً عظيماً في موقعة الزلاقة سنة (٤٧٩هـ).

- ورجع ابن تاشفين ثانية سنة (٤٨١هـ) برسم الجهاد

- وعاد ثالثة، ((وكان مجيئه هذه المرة: برغبة الفقهاء الأندلسيين وأهل الحل والعقد لا رغبة الأمراء والحكام، وكان يهدف بوضوح إلى إزالة دول الطوائف، والجهاد، للحفاظ على الأندلس))^(١).

وتساقطت دويلات الطوائف في أيدي المرابطين طوعاً أو كرهاً. وتوحدت الأندلس تحت نظام واحد، في دولة تجمع الأندلس والمغرب.

وقد سجّل الأدب هذا الموقف التاريخي. فكان في الأدباء والشعراء من نظر من زاوية مصلحة الأمة في الوحدة، والقوّة، وإبقاء رسم الجهاد. وكان فيهم من نظر من زاوية أخرى إلى زوال تلك الدول التي كان أكثرها يرعى الأدب والأدباء ويشجع الشعراء على المدح والثناء ويغدق عليهم العطايا، فنظم شعراً في زوال تلك الدول وراثتها، أو في مصائر أولئك الأمراء، والبكاء على ما مضى من زمانهم.

(١) ابن خفاجة محمد رضوان الداية ط ٢، ص ١٥.

- وانظر للتفصيل التاريخي محمد عبد الله عنان في الجزء الخاص بعصر الطوائف من تاريخه.

١ - وممن أثنى على صنيع المرابطين بإزالة تلك الدّول المفرّطة، التي عرّضت الأندلس كلها للخطر، وضيّعت من الأراضي والبلدان ورسوم الحكم ما لم يعوّض: أبو الحسن بن الجَدّ الذي قال في قصيدة مدح بها ابن تاشفين وعرض بملوك الطوائف:

أرى الملوك أصابتهم بأندلس	دوائرُ السُّوءِ لا تُبقي ولا تذرُ
ناموا وأسرى لهم تحت الدّجى قدرُ	هوى بأنجمهم خسفاً وما شعروا
وكيف يشعُر مَنْ في كفه قدحُ	يحدُّو به مُلهياه: الناي والوتر؟
فقل لمن نام أصبحْتَ! انتبه! فلقد	مضى بك الليل نحباً وانقضى السّحرُ
وانظرُ إلى الصّبح سيفاً في يدي ملكٍ	في الله من جنده التأييدُ والظفر
يرعى الرعايا بطرفٍ ساهرٍ ينظُرُ	كما رعاها بطرفٍ ساهرٍ عمُرُ

فهذه الأبيات تجمع بين ذمّ حكم دول الطوائف وبين مدح أمير المسلمين يوسف بن تاشفين. والشاعر يسوّغ ما جرى للملوك تلك الدويلات وحكامها ويصفهم بصفاتٍ سلبيةٍ يُثبت التاريخ أنّها ثابتة على كثير منهم. وقد أثنى الشاعر على ابن تاشفين بصفاتٍ دينية ودينية، وقد أثنى المؤرخون بمثلها عليه. على أنّ الشاعر أظهر صفات أولئك القوم الفاسدة ووضعها إلى جانب مزايا ذلك القائد المظفر، فجاءت المفارقة واضحة صارخة.

وقد أدار الشاعر كلامه بأسلوبٍ رقيقٍ دقيق، جمع فيه بين التعبير المباشر حين يكون الوصف التقريري مناسباً، وبين التعبير الفني القائم على التصوير حين تكون الصورة أداةً للإبانة وتوكيد الفكرة.

- وفي الشعر المشهور بيتان يُنسبان إلى ابن رشيق، أنشدهما في وصف حال دول الطوائف بالأندلس، وهو وصف انتقادي لاذع يمثّل رؤية أهل الفكر والرأي إلى تلك الأحوال الصعبة!.

مما يزهدني في أرض أندلسٍ	ألقابُ معتمدٍ فيها ومُعتمد
ألقابُ مملكةٍ في غير موضعٍها	كالهرّ يحكي اختيلاً صولة الأسد!

٢ - ونظم عدد من شعراء هذه المدّة قصائد ومقطوعات تذكر ما أصاب دول الطوائف من الإزالة، أو الانهيار، أو الاضطراب إلى التسليم للسلطة الجديدة:

- في تصوير تاريخي - أدبي لما أصاب تلك الدّول من الزوال والانهيار،

- وما أصاب الملوك والحكام، وأولادهم؛

- ووصف للتغيير الجذري الذي طرأ على تلك المدن، والدّول ومن وجهة نظر خاصّة ضيقة؛ وإن تغلفت أحياناً بلمسات إنسانية.

وأول ما نذكر من هؤلاء الشعراء أميراً سقطت دولته، وقُتل بعض أبنائه، ودخل في أسر المرابطين - حلفاء الأُمس - ونفي عن إشبيلية إلى أغمات (مدينة بالمغرب) وعاش بقية عمره أسيراً سجيناً، وعانى أهله معه معاناة شديدة: هو المعتمد بن عبّاد^(١).

كان المعتضد - والد المعتمد - قد أنشأ لنفسه دويلة في إشبيلية، وأصل أسرته عربي لخمّي. وقد تربى المعتمد (محمّد) في رعاية أبيه، وعلى يد أشهر العلماء والفقهاء والأدباء، حتى تخرّج فارساً، وإدارياً، وشاعراً، وحمل أعباء الحكم بعد وفاة والده.

وكان من الشعراء في بلاطه: وزير دولة بني عبّاد أبو الوليد بن زيدون، وأبو بكر بن عمّار، وابن اللبّانة، وابن حمديس الصقلي، وغيرهم كثير.

وحين عزم يوسف بن تاشفين على دخول الأندلس سنة (٤٨٣هـ) كان في نيّته القضاء على دول الطوائف نظراً لتهاونها في شؤون البلاد، واستمرار

(١) ترجم له في الذخيرة ٤١/٢، والحلة السيرة ٥٢/٢، والخريدة (قسم الأندلس) ٢٥/٢ والمعجب ١٥٨، والمنظوم ١٤، والإحاطة ١٠٨/٢، وأعمال الأعلام ١٥٧ والبيان المغرب ٢٥٧/٣، والروابي بالوفيات ١٨٣/٣، ووفيات الأعيان ٢١/٥.

- وقد جمع شعره ونثره في مصر، وتونس.

الخلافات في ما بين حكامها، وتعاونهم مع عدوّ البلاد ألفونسو، وغيره؛ وعدم انضباط أكثرهم في حياتهم الخاصّة والعامة مما يؤثر في مجريات الأحداث الداخلية والخارجية.

وقد ثبت لابن تاشفين ((رجوع بعض رؤساء الطوائف إلى مصادقة ألفونسو ملك قشتالة وممالأته، بل واستعدائه على محاربة يوسف نفسه وإمداده لذلك بالأموال والهدايا. وكان هذا بالذات موقف عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة، ثم كان في ما بعد موقف المعتمد بن عباد. وقد عمد كلاهما في الواقع إلى تحصين بلاده والاستعداد للدفاع عنها))^(١).

وقد تمكّن يوسف بن تاشفين من التغلب على المعتمد، فخلعه عن ملكه وحمله أسيراً إلى أغمات، ومعه مَنْ كان في القصر بإشبيلية من أسرته وفيهم زوجته اعتماد الرميكية، وعددٌ من أولاده. واشتغلن بالحياكة (بعد ذلك العزّ) للحصول على لقمة العيش!!

ولما ثار أحد أبناء المعتمد على المرابطين - واسمه عبد الجبار - قُيّد المعتمد في سجنه بقيود إمعاناً في التشديد عليه، فزاد ذلك من آلامه. وقد قُتِلَ عبد الجبار، وماتت الرميكية؛ ثم توفي هو أيضاً (سنة ٤٨٨ هـ).

- ومن شعر المعتمد في أسره، يشكو حاله، وقد حلّ عيد الفطر سنة (٤٨٥ هـ) قوله يخاطب نفسه في حوار داخليّ يملؤه اليأس والحسرة، وهو يرى زوجته وبناته في تلك الحال البائسة:

في ما مضى كنتَ بالأعياد مسرورا فجاءك العيدُ في أغمات مأسورا
تري بناتك في الأطمار جائعةً يغزلن للناس ما يملكن قطميرا^(٢)

(١) عصر الطوائف محمد عبد الله عنان ٣٣٨.

(٢) الأطمار جمع الطمر: الثوب البالي. والقَطْمِير الغشاء الرقيق الذي يُغلف نواة الشمرة ويضرب به المثل في الشيء النزر الذي لا قيمة له.

برزن نحوك للتسليم خاشعةً أبصارهنّ، حسيّاتٍ مكاسيرا^(١)
 يطآن في الطين والأقدام حافيةً كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا^(٢)
 أفطرت في العيد لا عادت إساءته وكان فطرك للأكباد تفتيرا^(٣)
 قد كان دهرُك إن تَأْمُرُهُ ممتثلاً فردّك الدهرُ منهياً ومأمورا
 من بات بعدك في مُلكٍ يُسرُّ بهِ فإنما بات بالأحلام مغرورا

والقطعة تنضح أسى وحسرة؛ والشاعر، وإن ذكر مأساة نفسه، فقد اهتم قلبه لمأساة بناته وزوجته. أمّا هو فقد كان الأمر الناهي فصار المأمور المنهيّ، وها هو ذا يلاقي العيد في أسوأ حال. وأمّا بناته فقد قاسين العوز، ومشين حافيات، في حال ضعف وانكسار. ويجيء البيت ممزوجاً بالحكمة التي علّمته إياها تجربة الحياة المريرة.

- ومن شعره يذكرُ حاله وغربته، ويتذكر قصوره، وصولته في ملكه الذي ذهب عنه قوله^(٤) :

غريبٌ بأرض المغربين أسيرُ سيكي عليه منبرٌ وسريرُ
 وتندُّبه البيضُ الصّوارمُ والقنا وينهلّ دمعٌ بينهُنَّ غزيرُ
 فيا ليت شعري هل أبيتُ ليلةً أمامي وخلفي روضةٌ وغديرُ؟
 بمُنْبَتَةِ^(٥) الزيتونِ مُورثةُ العُلا تغنى قيانٌ أو ترنُّ طيورُ؟
 بزاهرها السامي الذُّرا جادهُ الحيا تشير الثريا نحونا ونشير^(٦) ؟

(١) الحسيّ: الحزين.

(٢) يشير إلى قصّة جرت في إشبيلية بينه وبين زوجته اعتماد صنع لها فيها طيناً من المسك والكافور. (انظر دراستنا عن المعتمد بن عباد في سلسلة الروائع الجديدة).

(٣) تفتير: تقطيع.

(٤) ديوانه: ١٧١-١٧٢.

(٥) مُنبَتَةُ الزيتون كناية عن مدينة إشبيلية الشهيرة بزيتونها وزيتها ذي السمعة الجيدة إلى اليوم.

(٦) يذكر أسماء بعض قصوره في إشبيلية الزاهر، والثريا.

والنصرُ ينضح بالحسرة على ما فات من الزمان حين كان المعتمد في أوج عزّه وسلطانه، ويفيض بالألم الظاهر حيناً، المكتوم حيناً آخر على ما آلت إليه حاله وحال أهله؛ ولا ينسى الشاعر الأمير أن يتذكّر ما مضى، كما كان يقف الشعراء القدامى على أطلال الديار...

- وفي شعراء المعتمد الذين مدحوه وقت سلطته وعزّه أبو بكر بن اللبّانة^(١) (محمد بن عيسى) الداني (ت ٥٠٧ هـ). وكان ابن اللبّانة مُمّن وفَوْراً للمعتمد، يزوره بين الفينة والفينة ويمدحه. وله قصائد في التفجّع على مصير آل عباد، ورثاء أيّامهم منها:

تبكي السَّماءُ بمزِنٍ رائحٍ غادٍ	على البهاليل من أبناء عبّادٍ ^(٢)
على الجبال التي هُدّت قواعدها	وكانت الأرض منهم ذات أوتادٍ
وكعبةٍ كانت الآمال تخدمها	فاليوم لا عاكفٌ فيها ولا بادٍ ^(٣)
يا ضيفُ أقفر بيت المكرّمات فخذُ	في ضمِّ رحلك واجمع فضلة الزادِ
ويا مؤمِّل واديهم ليسكنه	خفّ القطينُ وجفّ الزرعُ بالوادي ^(٤)
وأنت يا فارس الخيل التي جعلتُ	تحتالُ في عُددٍ منهم وأعدادٍ ^(٥)
ألقي السّلاحَ وحلّ المشرفي فقد	أصبحت في لهوات الضيّغم العادي ^(٦)
لما دنا الوقت لم تخلف له عِدّة	وكلّ شيءٍ لميقاتٍ وميعادٍ
كم من دراريٍّ سعدٍ قد هوت ووهتُ	هناك من دُررٍ للمجدِّ أفرادٍ ^(٧)

(١) ترجم له في القلائد ٢٨٣، والمغرب ٢/٤٠٩، والمطرب ١٧٨، والمعجب ١٤٧ وفوات الوفيات ٣٢٤/٢، والوافي ٤/٢٩٧، والشذرات ٤/٢٠.

- ولقب بابن اللبّانة، لأن أمّه كانت تتبع اللبن. وهو من شعراء عصر الطوائف المحسنين الجيدين.

(٢) البهلول السيد الجامع لصفات الخير.

(٣) العاكف: المقيم (في البلد) والبادي: الطارئ (الزائر، النازل). وفي البيت اقتباس من معنى ولفظ قرآني [الحج: ٢٢/٢٥].

(٤) القطين: الساكن. وخفّ: رحل.

(٥) العِدّة ج عُدد الآلات. والأعداد ج عُدّة الأفراد (الناس).

(٦) المشرفي: السيف (صفة غالبية) واللهوات ج لهاء وهي النجمة المشرفة على الخلق في أقصى سقف الفم. والضيغم: الأسد. العادي: الهاجم الفاتك الثواب. وفي البيت كناية عن المصير المقضي به.

(٧) الدّراري: النجوم يقول غابت نجوم السعد. والدّرر جمع درّة. وهي: ضعف، هوى سقط ووقع.

إن يُخْلَعُوا فبنو العباسِ قد خُلِعُوا وقد خلتُ قبلَ حمصٍ أرضُ بغدادٍ^(١)
 حمَوا حريمَهُمْ حتى إذا غلبُوا سيقوا على نسَقٍ في جبلٍ مُقتاد
 حانَ الوداعُ فضجَّت كل صارخةٍ وصارخ من مفدّاة ومن فادٍ^(٢)
 سارت سفائنُهُم والنّوح يصحبُها كأنّها إبلٌ يحدو بها الحادي^(٣)
 كم سال في الماء من دَمْعٍ وكم حملت تلك القطائعُ من قطعَاتِ أكبادٍ^(٤)
 من لي بكم يا بني ماء السماء إذا ماء السماء أبي سقيا حشا الصادي^(٥) ؟

وتدور هذه الأبيات على عدد من المحاور التي يتجاوب بعضها مع بعضها الآخر من:

- التفجّع على ما أصاب بني عبّاد جملةً، والثناء عليهم كلّهم فقد كانوا سادة كراماً؛

- ووصف خلوّ إشبيلية والأندلس منهم، وضياع ما كانوا يكرمون به الناس، ويواسونهم به، ويؤدونه إليهم؛

- والإشادة بالمعتمد بن عباد الذي قضى عليه بأن يتخلّى عن سيفه وأن يترجل عن جواده.

- ووصف لحظات هزيمة المعتمد، وصيرورته مع أهله أسرى ونقلهم...

- والتأسّي بما أصاب العباسيّين من مأسٍ ونكبات.

- والاستطراد ثانية إلى الوداع بين آل المعتمد ودورهم وقصورهم، وتوديع الناس لهم بالدموع والزفرات.

(١) حمص: اسمُ مدينة مشهورة بالشام أطلق في الأندلس على إشبيلية وهي المقصودة.

(٢) المفدّاة: التي يفديها الناس (كقول القائل فداك أبي وأمي!)، والفادي هو قائل تلك العبارات.

(٣) الحادي: الذي يحدو الإبل (يسوقها وينشد رجزاً وشعراً تأنيساً لها).

(٤) القطائع هنا أطلقت على السفن.

(٥) في إشارة إلى أصل بني عباد (عرب جنوبيون من لحم) وعرفوا باسم أمّ لهم تدعى ماء السّماء أم المنذر بن امرئ القيس ملك الحيرة المتوفى نحو سنة ٦٠ قبل الهجرة - وماء السماء الثانية المطر - والصادي العطشان.

- يقول من يفعل مثل فعالكم ويجود مثل جودكم إذا انقطع جُود الأمطار؟

وقد أوصل الشاعر رسالة إلى القارئ والسامع من خلال المعاني المؤثرة والألفاظ الدالة والعاطفة القوية.

- ولابن اللبانة أيضاً من قصيدة أولها:

لكل شيء من الأشياء ميقاتٌ وللمُنَى في منايهاهنّ غياتٌ
يقول فيها:

فانفضْ يدِيكَ من الدُّنيا وساكنها فالأَرْضُ قد أَقْفَرَتْ والناسُ قد ماتوا^(١)
وقلْ لعالمها السَّفلي قد كُتِمَتْ سريرةَ العالمِ العُلويِّ أَغْمَاتُ!^(٢)
طَوْتُ مَظَلَّتْهَا لا بَلْ مَذَلَّتْهَا من لَمْ تَزَلْ فوقه للعِزِّ رايَاتُ
من كَانَ بين النَّدَى والبأسِ أَنْصَلُهُ هندیَّةٌ وَعَطَايَاهُ هُنَيْدَاتُ^(٣)
رَمَاهُ - من حيثُ لَمْ تَسْتُرْهُ سَابِغَةٌ - دهرٌ مَصِيبَاتُهُ نَبْلٌ مَصِيبَاتُ^(٤)
وكان ملءَ عِيَانِ العَيْنِ تبصرُهُ وللأُمانيِّ في مَرَعَاهُ مرَعَاهُ^(٥)
أُنْكَرْتُ إِلَّا التَّوَاءِمَاتِ القِيُودِ به وكيف تُنْكَرُ في الرُّوضَاتِ حَيَّاتُ؟^(٦)
حَسِبْتُهَا من قَنَاهُ أو أَعْنَتِيه إذا بها لثقافِ المَجدِ آلاتُ^(٧)
دَرَوُهُ ليشاً فخافوا منه عاديَّةً عَذَرْتُهُمْ! فلعدوى الليثِ عاداتُ^(٨)

(١) المغنى قريب من قول الشاعر العباسي:

فإذا وَلَّى أبُو دُلْفٍ وَلَّتِ الدُّنيا على أُنْثَرَةٍ!

(٢) سريرة العالم العلوي: المعتمد، وشرحها د. فروخ بقوله: خلاصة الوجود الإنساني.

(٣) الهندي: السيف (صفة غالبية) هنيدات جمع هنيذة: المثة من الإبل.

(٤) السابغة: الدرع (صفة غالبية). مصيبات: الأولى مصائب، والثانية جمع مصيبة اسم فاعل من أصاب السَّهْم (وغيره).

(٥) مرعاة: أي مَرَعَى. يقول كان يحقق الآمال.

(٦) يقول كان المعتمد في سجنه على حال الإباء والعزة قبل ذلك، وما أنكرت إلا تلك القيود التي قيد بها (أي ما استغربت).

(٧) القنا جمع قناة (جسم الرمح، أو الرمح كله. والأعنة جمع عنان: لجام. والثقاف: القيد.

(٨) درَوُهُ: عرفوه. العادية: الوثبة.

- يقول من عادة الأسد: الهجوم (والانتقام).

- ومن شعراء هذا الاتجاه: عبد المجيد بن عبدون الفهري^(١) اليابري (نسبة إلى يابرة: بلدة تبعد عن بَطْلَيْوُس نحو مئة كيلومتر) وهو أديب كاتب شاعر من العلماء. واشتهرت قصيدته التي رثى بها بني الأفطس حكام بَطْلَيْوُس، ودولتهم. وكان ابن عبدون مقرباً منهم ثم صار كاتباً ووزيراً لديهم. وقد ضم المرابطون دويلة بني الأفطس إلى الأندلس الموحدة تحت رايتهم وقتلوا حاكمها عمر (المظفر) وولديه فرثاهم ابن عبدون. ثم صار كاتباً عند المرابطين.

- وتبدأ قصيدته الشهيرة بقوله:

الدهر يفجعُ بعدَ العَيْنِ بالأثر فما البكاءُ على الأشباح والصُّور؟
أنهاكَ أنهاكَ لا أنهاكَ واحدةً عن نومةٍ بين ناب الليث والظفرِ
فالدهر حربٌ وإن أبدى مسالمةً فالبيض والسمر مثل البيض والسمرِ
وبعد عدة أبيات يبدأ الشاعر بضرب الأمثال من الدول والأمم والملوك الذين دالوا وذهب زمانهم (ونسب ذلك إلى الليالي):

ما ليلي أقال الله عثرتنا من الليالي وخانتها يدُ الغيرِ
ومنها:

وأوثقت في عُراها كل معتمدٍ وأشرقت بقذاها كل مُقتدرِ
وروّعت كل مأمون ومؤتمنٍ وأسلمت كل منصور ومنتصر!

ومنها في الكلام على بني الأفطس، وحاكم بَطْلَيْوُس (المظفر):

بني المظفر والأيام ما برحتُ مراحلاً والورى منها على سفرِ
سحقاً ليومكم يوماً ولا حملتُ بمثله ليلةً في مقبل العمرِ
من للأسيرة أو من للأعنة أو من للأسنة يهديها إلى الثغر؟

(١) ترجم له في قلائد العقيان ١٦٤، والصلة برقم ٨٢١، والذخيرة ٦٦٨/٢، والمغرب ٣٧٤/١، والبعية ٥٢٣، والمطرب ١٨٠، وصلة الصلة ٤٢، وفوات الوفيات ١١/٢.

من للبراعة أو من للبراعة أو
 من للسماحة أو للنفع والضرر؟
 أو دفع كارثة أو ردع آفة
 أو قمع حادثة تعيا على القدر؟
 ويح السماح ويح البأس لو سلما
 وحسرة الدين والدنيا على عُمر!
 سقت ثرى الفضل والعباس هامية
 تُعزى إليهم سماحاً لا إلى المطر
 ثلاثة ما رأى العصران مثلهم
 فضلاً ولو عُزّزا بالشمس والقمر!

- وفي رثاء المُدن أو تصوير أحوالها البائسة وظروفها السيئة ما أنشده ابن
 حزم في تصوير حال قرطبة بعد الفتنة وما أصابها من التدمير والخراب، وقصيدة
 أبي إسحاق الإلبيري في البكاء على مدينة البيرة.

- وقد تناول الكلام على ما أصاب قرطبة عدد من شعرائها مثل ابن دراج
 القسطلي، وابن شهيد؛ وابن حزم؛ الذي يقول:

بَكَ عَلَى قُرْطُبةَ الزَّيْنِ فَقَدْ دَهَتْهَا نَظْرَةُ الْعَيْنِ
 أَنْظَرَهَا الدَّهْرُ بِاسْلَافِهِ ثُمَّ تَقَاضَى جُمْلَةُ الدَّيْنِ
 كَانَتْ عَلَى الْغَايَةِ مِنْ حُسْنِهَا وَعَيْشِهَا الْمُسْتَعَذِبِ اللَّيْنِ
 فَانْعَكَسَ الْأَمْرُ فَمَا إِنْ تَرَى بِهَا سُرُوراً بَيْنَ اثْنَيْنِ
 فَاغْدُ وَودَّعْهَا وَسِرُّ سَالِماً إِنْ كُنْتَ أَزْمَعْتَ عَلَى الْبَيْنِ

فمصاب قرطبة عظيم، ولا يعلل - لضخامته - إلا بالإصابة بالعين، وكأن
 الدهر سكت عنها مدة طويلة ومنع عليها الرزايا والمصائب، ثم استرد ما أسلفها
 إياه من الأمان والسلامة والدعة والرخاء! ولا ينسى الشاعر أن ينصح محبها
 بمغادرتها - إن شاء - فلم تعد قرطبة التي يصفها على حالها التي كان يعرفها...
 لقد صارت شبحاً ماثلاً بدلاً من قرطبة العظيمة.

- ويدخل في هذا الباب قصيدة فريدة في ديوان أبي إسحاق الإلبيري يذكر فيها مدينته إلبيرة^(١) التي كانت حاضرة المنطقة كلّها، وكانت عروس تلك المدائن، النابضة بالحياة بكل ما في العبارة من معان...

وكان حكام إلبيرة من بني زيري قد تركوا إلبيرة أيام الفتنة ونقلوا حاضرتهم إلى غرناطة (القائمة في لحف جبل والدفاع عنها أسهل) فخربت إلبيرة، وهجرها أهلها إلى غرناطة وغيرها.

والقصيدة في ٢٣ بيتاً، مطلعها:

يُضَيِّعُ مَفْرُوضٌ وَيُغْفَلُ وَاجِبُ	وإني على أهل الزمان لعاتبُ
أتندب أطلال البلاد ولا يُرى	لإلبيرة منهم على الأرض نادب؟
على أنها شمسُ البلاد وأنسها	وكل سواها وحشة وغيابُ

يقول فيها:

لعهدي بها مُبَيَّضَةُ اللَّيْلِ فاغتدتْ	وأيامها قد سَوَّدَتْهَا النَّوَائِبُ
وما كان فيها غَيْرُ بُشْرَى وَأَنعمُ	فلم يَبْقَ منها الآنَ إِلَّا المَصَائِبُ
فأهِ الْوَفَاً تَقْتَضِي عِدْدَ الحَصَا	على عهدها ما عاهدتها السَّحَائِبُ!

وهذا نوع من الوفاء للمكان قلّ أن نجد مثله في الشعر أو في الآثار الأدبية؛ وهو يذكر بوقوف الشعراء القدامى على أطلال الديار بعد هجر أهلها خُصاً، وعيثر الرياح والرّمال والأمطار فيها!...

(١) قال في الروض المعطار: ٢٨ وكانت حاضرة إلبيرة من قواعد الأندلس الجلييلة والأمصار النبيلة فخربت في الفتنة، وانفصل أهلها إلى مدينة غرناطة، فهي اليوم قاعدة كورها...

شعر الاستنجد واستنهاض الهمم:

وَيُعْنَوْنَ لَهُ بَعْنَاوِينَ مُتَعَدِّدَةً مِثْلَ: الاستنفار، والاستصراخ، ويراد به الشعر الذي نظمته شعراء الأندلس؛ وهو دعوةٌ إلى الجهاد والدِّفاع.

- وسجّلوا فيه الأحداث التاريخية التي جرت بين أهل الأندلس وبين الدّول المُعادية، التي كانت تهاجم البلاد الأندلسية منفردةً أو مجتمعةً أو متحالفة مع بعض الجهات الأوربية، أو البابوية (في حملة صليبيّة مشابهة للحملة التي شنت على البلاد المشرقية).

- ووصفوا النكبات التي أصابت الأندلسيين من ويلات، فقد كانت الحملات على الأندلس أشبه بحملات الإبادة، تستأصل كل شيء، ولم يكن العدوّ يقيم وزناً للمعاهدات والمواثيق وشروط التسليم التي تبرم، أو يُستدرج أصحابها في المدن والقرى والقلاع والمعارك. وكان النّساء يتعرضن للسنّي والأطفال للبيع والشّيوخ للقتل. ومن هنا كان وصف المآسي في هذا الشعر جزءاً متمماً لدعوات الشعراء المنادية بالإغاثة والعون واستدراك حال العرب والمسلمين.

- واستنّهضُوا الهمم، وتوسّلوا إلى ذلك بالقيم التي لا يجوز أن تُهدّر بين أبناء الأُمّة الواحدة. وظلت أعيُنُ الأدباء والشعراء موجهة إلى العدوّة، إلى أهل المغرب الكبير، وسائر البلاد العربية والإسلامية التي تستطيع الإنجاد والإغاثة.

- وقد سجّلت أشعار قليلة أثر هجمات النورمانديين على الأندلس في القرن الثالث خاصّة، وهي الهجمات التي نُبّهت الأندلسيين إلى ضرورة إنشاء أسطول بحري ضخم رادع.

- وظهر هذا النوع من الشعر ظهوراً واضحاً في عصر دول الطوائف حيث فقد أهل الأندلس مدناً ومواقع: استرد المرابطون بعضها وضاع بعضها الآخر نهائياً (كضياح طليطلة سنة ٤٧٦هـ).

- واشتدّ ظهور هذا النوع من الشعر في العهد الموحد في أواخره حين ضعفت تلك الدولة، وتوالت هزائمها وحصل ما يُعرف بالانهيار الكبير الذي فقد فيه الأندلسيون معظم البلاد عدا مملكة غرناطة التي قاومت إلى سنة (٨٩٧هـ). واستمرّ هذا النوع من الشعر إلى آخر الزمان العربي في الأندلس.

- وكان صوت الشعراء في هذا الموضوع صوتاً يصدر في معظمه عن وجدان الأمة، وظروفها القاسية. ويصل بين أجزاء الأمة ويستنهض الهمم، ويدعو إلى الجهاد حتى لا يضيع رسمه، لقد أدّى الشاعر في هذا المقصد واجبه في التنبيه والنداء، ودقّ ناقوس الخطر، وتغطية الجانب الإعلامي في هذه القضية الخطيرة.

- تلوّنت أشعارهم: بحسب المواقف وخطورتها، وبحسب طبيعة الشاعر، وحماسه، وأسلوبه الشخصي، ولكنها جميعاً:

- كانت مؤثرة، معبرة عن وجدان الأمة

- صادقة في توصيل الفكرة، وبلوغ المقصد

- على جانب من الحماسة والانفعال.

- وقد وصف عبد الله بن محمد الموروري هجوم النورمانديين بغتة على إشبيلية وبعض أطراف الأندلس الجنوبية والجنوبية الغربية. وكان ذلك سنة ٢٣٠ فقد هجم النورمانديون (ويسمّيهم المسلمون مجوساً لكونهم وثنيين) بأسطول قوامه ثمانون مركباً، ودخلوا إشبيلية من جهة البحر وعاثوا فساداً، وعسكروا عند طلياطة (غربي إشبيلية) حتى جهّز عبد الرحمن (الأوسط) بن الحكم جيشاً هزم النورمانديين بعد مناوشات ولقاءات صعبة^(١).

(١) ينظر تفصيل هذه الحوادث في دولة الإسلام في الأندلس ١-١/٢٦١-٢٦٥.

قال عبد الله المُرُوري يذكر ما أصاب قومه في الجزيرة الخضراء جنوب الأندلس في هذه الغزوة:

لَتَبَكِّ لِقَتْلَاهَا الْعَيُونَ السَّوَاغِمُ	فقد عَظَّم الخطبَ الخطوبُ العِظائمُ
أَلَا إِنَّ فَيْضَ الدَّمْعِ هَاجَ هَمُولُهُ	رجال ثروا في الحرب صَيْدٌ أَكَارُمُ
إِلَى اللَّهِ أَشْكُو - لَا إِلَى غَيْرِهِ - الَّذِي	دُهِنَا بِهِ، وَاللَّهُ حَنَّانٌ رَاحِمُ
أُمِّتَ بِأَنْبَاءِ الْجَزِيرَةِ أُمَّةٌ	مَجْرَسِيَّةُ الْأَنْسَابِ مُغَرٌّ أَشَائِمُ
فَصَدَّعَتِ الشَّمْلَ الْجَمِيعَ بِفَرْقَةٍ	إِلَى يَوْمِ بَعَثَ الْحِشْرَ لَا يَتَلَاءَمُ
فِيَا لَصُرُوفِ الدَّهْرِ كَيْفَ تَصَرَّفَتِ	بِقَاصِمَةٍ تَنْقُدُ مِنْهَا الْحَيَازِمُ

وظاهر أن هذه الأبيات الباقية هي من أول قصيدة، ويتوقع القارئ أن يكون لها تنمة تخاطب الأمير في قرطبة وتستنجد به؛ لردّ غائلة أولئك المهاجمين. وقد أرسل الأمير قوَّاتٍ كبيرة برسم الجهاد، واستطاع قادتُها إجلَاء النورماندين وهزيمتهم، وقتل قائدهم.

- وسجّل الشعراء سقوط مدينة بُرْبِشْتَر^(١) الذي كان سنة (٤٥٦هـ). وتقع المدينة على أحد فُروع نهر إيبرو بين مدينتي لاردة ووشقة في الشمال الشرقي لسرقسطة. وقد حاصرها النورمان ثم فتكوا بأهلها فتكاً ذريعاً فقتلوا وسبّوا ونهبوا. وكانت المدينة تحت نظر يوسف بن هود الملقب (المظفر!!) ولم يسارع أخوه أحمد الملقب بالمقتدر إلى إنجاد المدينة لخلاف مستمرٍّ مع أخيه. على أن المقتدر - وهول الكارثة وشدّتها - هياً حملة أنقذت بريشتر بعد تسعة أشهر، لكن سقوط المدينة المروع وأحداثه الدّامية وفضائع النورمان الرهيبة حركت أقلام الشعراء تسجيلاً، واعتباراً، وحثاً على استدراك الأحوال العصيبة^(٢).

(١) ترجم لها في الرّوض المِعْطَار في خبر الأقطار ٩٠.

(٢) انظر تفاصيل هذه الحادثة الرهيبة في دولة الإسلام في الأندلس - دول الطوائف ٢٧٧ وما بعدها.

وفي هذه الكائنة يقول الفقيه الزاهد ابن العسال^(١) :

ولقد رمانا المشركون بأسهم
لم تُخطِ لكن شأنها الإصماء^(٢)
هتكوا بخيلهم قصور حريمها
لم يبق لا جبل ولا بطحاء
جاسوا خلال ديارهم فلهم بها
في كل يوم غارة شعواء
ماتت قلوب المسلمين برعبهم
فحماتنا في حربهم جبناء
كم موضع غنموه لم يُرحم به
طفل ولا شيخ ولا عذراء
ولكم رضيع فرقوا من أمه
فله إليها ضجّة وبكاء
ولرب مولود أبوه مجدل
فوق التراب وفرشه البيداء
ومصونة في صدرها محجوبة
قد أبرزوها ما لها استخفاء
وعزيز قوم صار في أيديهم
فعليه بعد العزة استخذاء
لولا ذنوب المسلمين وأنهم
ركبوا الكبائر ما هنّ خفاء
ما كان يُنصر للنصارى فارس
أبداً عليهم فالذنوب الداء
فشرارها لا يختفون بشرهم
وصلاح مُنتحلي الصلاح رياء!

والشعر يردّد أصداء قليلة من النكبة الرهيبة التي أصابت بربرشتر وأهلها من دخول العدو المدينة، ومن القتل، والسبي، وهتك العرض، والتخريب، وحمل الأسرى، والسبايا.

وقد علّل الشاعر، وهو فقيه واعظ، ما أصاب المسلمين في هذه الحادثة بد:
- جبن المسلمين قادة وجنوداً ورجالاً، والإشارة واضحة إلى تقاعس حكام المنطقة من بني هود.

(١) هو أبو محمد عبد الله بن فرج الأنصاري البحصي عُرف بابن العسال (ت ٤٨٧هـ) وهو فقيه زاهد، وكاتب شاعر. وله ترجمة في الصلّة ٢٧٦ والمغرب ٢١/٢ وبغية الرعاة ٢٨٦.

(٢) أصمى الفريسة وغيرها: قتلها في مكانها.

- وذنوب المسلمين التي تحجبهم عن طرق الخير، والاستعداد للعدو المتربص.
- ورياء مُدَّعي الصّلاح من أشباه العلماء والفقهاء الذين لا يؤدّون واجب الدّعوة، ولا يخرجون من القول إلى العمل.

- وفي سنة (٤٧٨هـ) سقطت مدينة طليطلة، وما يتبعها في يد ألفونسو ملك قشتالة. وكان ملوك الطوائف ينافس بعضهم بعضاً، ويحارب بعضهم بعضاً، وكثير منهم كان ينظر إلى ما بين يدي الآخر عسى أن يقتنصها منه؛ وكانوا يستنيمون إلى تحالفات مع قشتالة وغيرها من دول الشمال، ويدفعون الإتاوات، ويستنصرون ببعض تلك الدّول المعادية ضد أقرانهم من حكام المقاطعات والدويلات الأندلسية^(١).

وضاعت طليطلة من يد بني ذي النون المتهاونين في حق البلاد، المضيعين لحقوق الوطن. قال في دول الطوائف (ص ١١٤): (واستتبع استيلاء ألفونسو على طليطلة استيلاؤه على سائر أراضي مملكة طليطلة) وصارت هذه المدينة حاضرة دولة قشتالة ومركز ملكهم.

- وقد نظم شاعر أندلسي نسي التاريخ اسمّه، أو أغفل هو اسمه من نصوص القصيدة حين أذاعها في الناس؛ رثى فيها المدينة، ونعى على الحكام تقصيرهم في الدفاع عنها، وحرّض على استردادها، ومطلع القصيدة:

لشكلك كيف تبتسمُ الثغور سروراً بعدما سُبيت ثغور؟

يقول فيها:

لقد خضعت رقابٌ كنَّ غُلباً وزال عتوّها ومضى النفورُ
وهان على عزيز القوم ذلُّ وسامح في الحريم فتى غيورُ
طليطلةُ أباحَ الكفر منها حماها إنَّ ذا نبأ كبير

(١) ينظر عصر الطوائف، محمد عبد الله عنان (صفحات مختلفة منه). وينظر لسقوط طليطلة الكتاب

وفيها:

كفى حزناً بأنّ الناس قالوا: إلى أين التَّحَوُّلُ والمَسِيرُ؟
أَنَتْرُكْ دُورَنَا ونَفِرْ عَنْهَا وليسَ لنا وراءَ البَحْرِ دُورٌ؟!
مضى الإسلامُ فابك دماً عليه فما ينفي الجوى الدمعُ الغزيرُ
ونُحْ وانْدَبْ رفاقاً في فلاةٍ حيارى لا تحطّ ولا تسيرُ
ولا تجنحْ إلى سَلَمٍ وحاربُ عسى أن يُجبرَ العظمُ الكسيرُ!
وفيها أيضاً:

خُذُوا ثَأرَ الديانةِ وأنصُرُوها فقد حامت على القتلى النُّسُورُ
ولا تَهِنُوا وسُلُّوا كلَّ عَضْبٍ تهابُ مضارباً منه النُحُورُ
وموتوا كلُّكم فالموتُ أولى بكم من أن تُجارُوا أو تُخُورُوا
ونرجو أن يُتيحَ اللهُ نصراً عليهم إنَّه نَعَمَ النَّصِيرُ

وهي أشعار حماسية: فيها وَصَفُ الحالِ الرَّاهنةِ بكل ما فيها من ظلالٍ مأساوية، وفيها اندفاعُ العربي المسلم وقد استَبِيحَ حِمَاهُ، وفيها الموقفُ الطَّارِقِيُّ^(١) - إن صَحَّتِ العبارة - فإنهم أمامَ حَلين لا ثالثَ لهما فإما الثباتُ والجهادُ والمقاومةُ والنصر، وإما الحلُّ الآخر الذي لا مندوحة عنه وهو الموت، أو ما هو أشدُّ منه وهو الذلُّ والمهانةُ والصغار، وذلك يؤدي حتماً إلى الموت.

- وفي الشعراء الذين شاركوا في شعر الاستنجد أبو جعفر الوقشي^(٢) الذي كان كاتباً لابن هُمُشك الذي سيطر على منطقة جَيَّان بالأندلس أيام دولة

(١) كما تقول الرواية القديمة، وهي أنّ طارق بن زياد أحرق المراكب التي أفلت جنوده حين صاروا في أرض الأندلس وخطب فيهم وقال لهم إنهم أمام أمرين، لا ثالثَ لهما: إما لقاء العدو والنصر وإما الهزيمة - لا سمح الله - والموت.

(٢) نسبة إلى وقَّش من نواحي طليخيرة. والشاعر هو الوزير الكاتب أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن بن أحمد الوقشي (ت ٥٧٤هـ). ترجم له في المحلة السيرة ٢٥٧/٢ والذيل والتكملة ١٩٧/١ ونفح الطيب ٤٧٧/٤.

الموحّدين، ثم أقنع الوقشي ابن همشك بالانضواء تحت لواء دولة الموحّدين، وتم له ذلك ولقي أمير الموحّدين يوسف بن عبد المؤمن لهذا الأمر. وقد مدح الوقشي (يوسف) واستنصروه لنجدة الأندلس وردّ كيد الدول الشمالية التي تعيثُ فساداً وتأسر وتسبي وتنكّل؛ ومن ذلك قوله من قصيدة:

فأبصر شمل المشركين طريداً؟	ألا ليت شعري هل يُمدُّ لي المدي
يعيد عميد المشركين عميداً؟	ويغزو أبو يعقوب في شنت ياقب
فيتركهم فوق الصّعيد هجوداً؟	ويلقي على إفرنجهم عبء ككل
تبدّلن من نظم الحجول قيوداً	ويفتك من أيدي الطغاة نواعماً
سحبن من الوشي الرقيق بُروداً	وأقبلن في حشن المُسروح وطالما
وحدّد منهن الهجير حدوداً؟...	وغبرّ منهم التراب ترائباً

فالشاعر يأمل - ويحرّض الخليفة الموحدي - عسى أن يجيء يوم قريب تعاد فيه أرض الأندلس التي ضاعت في الشمال والشرق والغرب، ويصل جيش الخليفة شنت ياقب (سنتياغو) في أقصى الشمال الغربي (كناية عن استرداد الأندلس كلها) ويستثير الشاعر حمية الخليفة بذكر ما أصاب نساء المسلمين في حملات العدو التي لا ترى حرمة للنساء والأطفال والشيوخ...

- وفيهم ابن الأبار^(١) (محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي) المتوفى سنة (٦٥٨هـ) في تونس عند أمير دولة الحفصيين.

وكان ابن الأبار كاتباً لعدد من الأمراء والحكام. ولما استولى أبو جميل زيّان ابن مردنيش على مدينة بلنسية اتخذ ابن الأبار كاتباً له. وسرعان ما حاصر صاحب برشلونة هذه المدينة، فأرسل زيّان كاتبه إلى صاحب تونس الحفصي

(١) ترجم له في عنوان الدراية ١٨٣، واختصار القدح المعلنى ١٩١، والمغرب ٣٠٩/٢ وبقية السفر الرابع من الذيل والتكملة ٩٠، وفوات الوفيات ٤٥٠/٢، ونفع الطيب ٤٥٧/٤.
- ولابن الأبار ديوان مطبوع.

أبي زكريا يحيى بن أبي حفص، يستنجد به، فذهب إليه واستصرخه وألقى بين يديه قصيدة مؤثرة. وجهز أبو زكريا أسطولاً، ولكنّ بلنسية كانت قد استسلمت قبل وصول ذلك الأسطول، وسقطت تلك البلدة وما حولها نهائياً. ومن قصيدة ابن الأتبار:

أدركُ بخيلك خيل الله أندلساً	إن السَّبيل إلى منجاتها درساً ^(١)
يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً	للحادثات وأمسى جدّها تعساً ^(٢)
وفي بلنسيةٍ منها قرطبةٍ	ما ينسف النفس أو ما ينزف النفساً ^(٣)
يا للمساجد عادت للعدا بيعاً	وللنداء غداً أثناءها جرساً ^(٤)
طهر بلادك منهم إنهم نجسٌ	ولا طهارة ما لم تغسل النجسا
واملاً - هنئاً لك التأييد - ساحتها	جرّداً سلاهباً أو خطيةً دُعساً ^(٥)

فالشاعر يحث الممدوح الحفصي على إنقاذ بلنسية، ويخبره أنّها وما يتبعها صارت في بيعته وذمته، فليدافع عنها، ولينقذ بلدةً مسلمة وأهلها الذين سيتعرّضون إلى ما عهده الأندلسيون من أعدائهم قتلاً وسبياً وتشريداً وإحراقاً، ويصوّر له الغد بكلّ بشاعته إذا لم يستدرك البلاد والناس معاً:

- وفي القرن السابع حين ضاقت الأرض على الأندلسيين وانحصرت في حدود مملكة غرناطة، وسقطت العشرات من المدن والقرى والقلاع والمساحات

(١) درس: أخلّق. يقول: إن لم تدرك الأندلس بخيلك وجندك فلا أمل في بقائها.

(٢) جزراً: قطعاً أي قتلى وصرعى. والجدّ (بفتح الجيم) الحظ.

(٣) ما حلّ بهذه المدن وما يحلّ بها مؤثراً جداً فهو يذهب بالروح ويودي بالحياة هماً وكمداً.

(٤) أي بُدّل الأذان في المساجد عادت النواقيس تدقّ. والنداء: الأذان.

(٥) الجرّد: الخيل السابقة. والسلاهب: العادية، والخطية: الرماح، ودُعساً أي تؤدّي مهامها من الطعن النافذ، (المسهّم في غلبة العدو).

الواسعة من الأراضي ارتفع صوت أبي البقاء الرندي^(١) عالياً: يصف المشهد المأساوي بعد ذلك الانهيار الرهيب، والتضييع الذي وقع من أهل الأندلس والمغرب ومن كل قادر على استدراك الأحوال، ويحث على النهضة، وبعث الهمة لإنقاذ الأندلس، وتجهيز الجيش القوي، ونبد التدابر والتقاطع الذي يزيد الموقف سوءاً، ويحمس السامع والقارئ لشعره بذكر بعض المآسي التي عانى منها الأندلسيون ويعانون، ومن قصيدته المشهورة يخاطب أهل العدو (من المغرب وما وراءه)^(٢) :

يا راكبين عتاق الخيل ضامرة	كأنها في مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة	كأنها في ظلام النقع نيران ^(٣)
ورأتعين وراء البحر في دعة	لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأ من أهل أندلس؟	فقد سرى بحديث القوم ركبان
ماذا التقاطع في الإسلام بينكم	وأنتم يا عباد الله إخوان؟

والشعر دعوة عالية الصوت، واستنجاؤ من الجوارح، وهو موجه إلى بني مرين الذين صاروا سادة المغرب ومن وراءهم، مثل بني زيان أصحاب الجزائر، وبني حفص في المغرب، والدعوة تصل إلى كل عربي ومسلم في كل مكان وراء العدو للنجدة والإنقاذ.

والشاعر يرقق قلوب أولئك الذين يستنجد بهم، بكل وسيلة ممكنة، كقوله في بعض أبيات القصيدة:

(١) ترجم له في بقية السفر الرابع من الذيل والتكملة ١٣٦، والإحاطة ٣٦٠/٣ ونفح الطيب ٤٨٦/٤، وأزهار الرياض ٤٧/١.

- وانظر دراسة مستقلة بعنوان (أبو البقاء الرندي) لمحمد رضوان الداية وتاريخ النقد الأدبي في الأندلس له أيضاً: ٤٣٣.

(٢) انظر القصيدة كاملة في ترجمة أبي البقاء من هذا الكتاب (الفصل الرابع).

(٣) النقع: الغبار الساطع (يريد الغبار الذي يثار في أرض المعركة).

ولو رأيتُ بكاهم عند بيعهم لهالك الأمر واستهوتك أحزانُ
يا رب أم وطفلٍ حيلَ بينهما كما تُفرِّقُ أرواحُ وأبدانُ
وطفلةٍ مثل حسن الشمسِ إذ طلعت كأنما هي ياقوتٌ ومرجانُ
يقودها العُلجُ للمكروه مكرهه والعينُ باكيةٌ والقلبُ حيرانُ

- وفي ديوان لسان الدين بن الخطيب^(١) أكثر من قصيدة تصل ما بين الأندلس والمغرب، وتستنهض الهمم لنجدة الأندلس، وإبقاء العلاقة الوثيقة بين البلدين اللذين كتب لهما، وعليهما أن يكونا متفقين متحدين لتسلم الأندلس، وتبقى عليها راية العروبة والإسلام.

- قال لسان الدين في مقدمة إحدى قصائده^(٢) : ((ومما صدرتُ به رسالة لكافة المسلمين بالمغرب في معنى الاستنفار للجهاد)):

أإخواننا لا تنسُوا الفضلَ والعطفا فقد كادَ نورُ الله بالكُفر أن يُطفأ
وإذ بلغ الماءُ الرُّبى فتداركُوا فقد بسط الدينُ الحنيفُ لكم كفا
تحكّم في سَكّانِ أندلسِ العدا فلهفًا على الإسلام ما بينَهُم لهفا
وقد مُزجت أمواهُها بدمائِها فإن ظمئت لا رِيَّ إلا الردى صِرفا
وجاست جيوش الكفر بين خلاها فلا حافراً أبقتَ عليها ولا ظلفا
أنوماً وإغفاءً على سِنَةِ الكرى وما نام طَرْفٌ في حماها ولا أغفى!
أحاطَ بنا الأعداءُ من كلِّ جانبٍ فلا وزراً عنهم وجدنا ولا كهفا

فهو نداءُ الأخ لأخيه، والجار لجاره، فإن الأحوال صعبة، والعدو محيط بالأندلس، وهو كالذئب الشرس يقتنص من القطيع الأطراف ويهجم على وسطه أيضاً!

(١) تنظر ترجمة لسان الدين في هذا الكتاب.

(٢) ديوان لسان الدين بن الخطيب (ط المغرب) ٦٧٧.

وقد استرسل لسان الدين في قصيدته يذكر همجية العدو وشراسته ويحمّس المخاطب وقومه بكلّ ألوان الحماسة، ويذكّر بمن يبيع نفسه وماله ويشترى الجنة، ورضوان الله:

وهل بائعٌ فينا من الله نفسه فلا مُشترٍ أولى من الله أو أوفى
وكيف يعيُّثُ الكفر فينا ودوننا قبائلُ منكم تُعجزُ الحصر والوصفا؟

وكان من سوء حال الأندلس والمغرب معاً في القرن التاسع أنّ العلاقات بينهما لم تكن على ما يرام في أغلب الأوقات، بل إن المنافسة بينهما كانت علنية، وربما تصدى أحدهما للآخر.

ونقرأ ديوان ابن فركون، وما عرفنا من شعر البسطي فلا نجد دلالة على التعاون بين القطرين، كالذي كان في القرن الثامن وفي القرن السابع قبله.

وتركت بلاد الأندلس لمصيرها المحتوم الذي جاء سنة (٨٩٧هـ)^(١) بسقوط غرناطة: درّة الأندلس الأخيرة!

الطوابع العامة في شعر الاستنجد واستنهاض الهمم

٩ - الحماسة:

نعني بالحماسة تلك الحرارة وذلك العنف الذي نحسّه في ثنايا شعر الشاعر، وفي خلال أبياته. ونجد الحماسة بادية في الدعوة إلى الجهاد وإنقاذ الأندلس، وفي وصف ما كان يجري من سقوط المدن وضياع الديار، وفي تصوير المآسي من قتل وسبي وتشريد. وأبرز ما تبدو هذه الحماسة في الفقرات التي تصادفها في القصائد التي يستنهض الشاعر فيها الهمم ويدعو لاسترداد ما ذهب. ومثال ذلك ما نجده في قصيدة ابن الأبار:

(١) انظر كتاب (آخر أيام غرناطة) وهو كتاب: نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر لمؤلف أندلسي من القرن التاسع، حققه محمد رضوان الداية. (انظر الطبعة الثانية منه بدار الفكر).

أدرك بخيلك خيل الله أندلساً إنَّ السبيلَ إلى منجاتها درسا
أو في قصيدة أبي البقاء الرندي:

ألا نفوسُ أيَّاتُ لها همٌّ أما على الخير أنصارٌ وأعوان؟

ونقرأ لعبد الكريم القيسي الأندلسي^(١) يحث أهل الأندلس على المقاومة واليقظة للعدو، واتخاذ الأهبة الدائمة للمفاجآت المتوالية:

أفيقُوا أفيقُوا واهجروا النومَ إنَّه حديثٌ صحيحٌ ما أقولُ وما أحكي
ومن كان في ما قد مضى الدمعُ باكياً ففرضٌ عليه قاني الدَّم أن يبكي!

٢ - تردد الشعراء بين اليأس والأمل:

تردّد الشعراء في هذا الشعر بين اليأس والأمل. ونجد أن الشاعر في القصيدة الواحدة يغرّق في اليأس وتسوّد أمامه أيام المستقبل، ثم نجده يندفع مع الأمل ثانية؛ ولكن هذا الأمل لم يكن ليعدو الأمانى؛ لأنه حينما يتحدث عن المأساة يتحدث عن شيء وقع وحدث. وحينما يصدر شعره عن الأمل فإنما يصدر عن شيء يتمنى أن يكون؛ ولهذا نجد الشاعر يغلب عليه اليأس وإن لم يغادر الأمل.

وكان الشعراء يحفزون الهمم ويدعون للاسترداد ما فات، وهم بين حالي اليأس والأمل. ذلك أن انقطاع الأندلسيين في جوار من الحرب الطاحنة دون مساعد ولا معين كان يبعث في بعض النفوس اليأس المُشرب بالمرارة. وكان واضحاً أن الأندلسيين ما كانوا يستطيعون صدّ هجمات أعدائهم الكبيرة. فمن

(١) من شعراء القرن التاسع الهجري وكانت وفاته في أواخر القرن ولعله أدرك سقوط غرناطة؟ (انظر مقدمة الديوان) وهو فقيه أديب شاعر، تولّى التدريس والقضاء، ونصّب والياً مدة من الزمن على بعض الجهات (لم تُسم في المصادر). وقد أسير الشاعر، وبقي في أسر العدو مدة غير قصيرة كما يفهم من ديوان شعره إلى أن افتدي.

— وصدر ديوانه في تونس (بيت الحكمة - قرطاج) بتحقيق د. جمعة شيخة ود. محمد الهادي الطرابلسي.

أصوات اليأس - أو هي تقتربُ منه - أبياتُ ابن العَسَّال التي قالها بعد سقوط طليطلة:

يا أهلَ أندلسٍ حُثُوا مطيُكُم فما المُقامُ بها إلا من الغَلَطِ
الثوبُ ينسَلُ من أطرافه وأرى ثوبَ الجزيرة منسولاً من الوسطِ
ونحنُ بينَ عَدُوٍّ لا يفارقنا كيفَ الحياةُ مع الحياتِ في سَفَطِ^(١)

ولهذا ربط أحد الشعراء مصير الأندلس بنجدة أهل المغرب وخصوصاً صاحب إفريقية، وكان أبو زكريّا الحفصي صاحبها في زمن شاعرنا هذا. ويقول بعد ذلك مصرّحاً بالخطر الداهم:

أولّوا الجزيرة نصرةً إنَّ العدا تبغي على أقطارها استيلاءها
دارُ الجهادِ فلا تفتكُم ساحة سادتُ بها أحياءُها شهداءها

ويطلب النجدة من صاحب إفريقية:

تلك الجزيرة لا بقاء لها إذا لم يضمنِ الفتحُ القريبُ بقاءها
أشفى على طرفِ الحياة ذمّؤها فاستبقِ للدينِ الحنيفِ ذمّاءها

ويقول الشاعر الآخر الذي رثى طليطلة^(٢):

تنغصت الحياةُ فلا حياةً وودّعَ جزيرةً إذ لا مجيرُ
فليلٌ فيه همٌّ مستكنٌ ويومٌ فيه شرٌّ مستطيرُ
ونرجو أن يُتيحَ الله نصراً عليهم، إنه نِعَمَ النصيرُ

ومثل هذه الأبيات في المواجهة بين حالي الأمل واليأس أبياتُ أبي إسحاق الإشبيلي التي قالها في هزيمة العقاب التي جرت فيها هزيمة الموحدين:

وقائلةً أراك تُطيلُ فكراً كأنك قد وقفتَ لدى الحسابِ

(١) يروى (في السفط) و (في سَفَط). ونلاحظ أن ابن العَسَّال كان من أهل مدينة طليطلة.

(٢) مرّ قبل قليل

فقلت لها: أفكر في عقابٍ غداً سيباً لموقعة العقابِ
فما في أرضِ أندلسٍ مقامٌ وقد دخلَ البلاءُ من كلِّ باب!

٣ - جرأة النقد الاجتماعي:

ونعني بذلك محاولة الأديب أن يضع يده على ما يظنه هو موضع الداء؛ في محاولة منه لوصف الدواء. وفي ظني أن الأديب أو الشاعر هو إنسان في الدرجة الأولى ويعبر عن إحساسه تجاه هذا الموضوع الخطير. ولكنه من ناحية أخرى أديبٌ ورجل ذو أثر توجيهي اجتماعي. فمهمته تنحصر في قيامه بدور الخطيب المحذر الذي تنبه للأمور الخطيرة فأسرع ليتفادى الأمر. وبذلك لم يعد الشعر مجرد تعبير عن الشعور الذاتي، بل أصبح ذا أثر توجيهي نقدي يهدف إلى تحقيق الغرض المقصود؛ ولم يكتف الشاعر بمهمة الموجه بل قام بوظيفة الإشارة إلى مواطن الفساد في المجتمع، وراح يرمز إليها برمزٍ واضح. فتعال إذن إلى سماع رثاء طليطلة:

نَحُورُ إِذَا دُهِنَا بِالرَّزَايَا وليسَ بمعجبٍ بقَرٍّ يَخُورُ
لقد ساءت بنا الأخبار حتى أماتَ المخبرين بها الخبيرُ!
ويقول الشاعر في القصيدة ذاتها:

لقد ذهبَ اليقينُ فلا يقينٌ وغرَّ القومَ بالله الغرورُ
رَضُوا بِالرَّقِّ يَا اللَّهَ مَاذَا رآه وما أشارَ به المشيرُ!

ولنستمع إلى أبي الطيب الرندي في عتابه الغافل:

يا غافلاً وله في الدهرِ موعظةٌ إن كنتَ في سِنَةٍ فَالدَّهْرُ يَقْطَانُ

ويقول آخر معاتباً أهلَ الأندلس عامة، وأهل بلنسية خاصة في تقاعُسهم وتخاذلهم:

لبسوا الحديدَ إلى الوغى ولبستمُ حُلَّ الحريِرِ عليكم ألوانا

ونقرأ في شعر عبد الكريم القيسي^(١)، تعليقاً منه على ضياع حصن اللقون من حصون مدينة وادي آش في (٢٣ ذي القعدة ٨٣٦هـ)، ولوماً لأهل وادي آش على تقصيرهم في الدفاع عن الحصن وتقصيرهم في أخذه واسترداده!

يا أهل وادي الأشي لا درّ درّكم ولا برحتم لقي للكرب والكمد^(٢)
ضيّعتم سفهاً وادي اللقون ولم تراقبوا فيه حق الواحد الأحد
حتى حواه العدا غدرًا وصار لهم لغزوكم عمدة من أفضل العمد
فاستشعروا إذ أضعتم فيه حزمكم والجدّ قرب انقضاء الوقت والأمد
فهو لومٌ وتقرّيعٌ على التقصير والتضييع.

٤ - الميل إلى الحكمة:

نلاحظ في هذا الغرض ميلاً شديداً عند الشعراء والكتاب إلى شيء من الحكمة نلمح محاولاتهم البسيطة الساذجة للدخول فيما يمكن أن نسميه تفلسفاً. ونعني بذلك تلك الحكم والآراء التي تهدف كلها إلى الحديث عن حتمية التاريخ، وأنّ العظيم وإن تعاضم سيأتي عليه يوم تزول فيه عظمته، وكأنهم يأخذون فكرة المثل العربي: ((توقع زوالاً إذا قيل تم)).

ونجد الشعراء يفرعون في هذا المجال إلى ضرب الأمثال، والاحتجاج بالأمم السالفة، والأيام السابقة. كما نجد في مطلع قصيدة الرندي بعض هذه الحكم:

لكلّ شيء إذا ماتم نقصان فلا يُغرّ بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول من سرّه زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقى على أحدٍ ولا يدوم على حال لها شان

(١) ديوان عبد الكريم القيسي ٣٤٧.

(٢) وادي آش أو وادي إيش (Guadix) وترد في النصوص الأدبية أيضاً باسم: وادي الأشاة، ووادي الأشي، وهي مدينة قريية من غرناطة (على نحو خمسين كيلومتراً شمال شرق غرناطة) وتقع على نهر فردس.

ونرى ابن عبدون يقول مستنكراً البكاء على الأشباح والصور^(١).
 الدهرُ يفجعُ بعد العينِ بالآثرِ فما البُكاءُ على الأشباحِ والصورِ؟
 وهكذا كان الشعراء والأدباء يميلون إلى هذه الفلسفة (الرأي) بل إلى هذا
 الموقف الذي فيه من التسليم بالأقدار أكثر مما فيه من الحكمة.

٥ - ضراعة الشعراء:

ومما يشيع في هذا الضرب من الأدب ضراعة الشعراء إلى الله تعالى ولجؤوهم
 إلى المقدسات. ولم يجدوا في تلك الأوقات العصبية التي عانوا منها الويلات مفرّاً
 إلا إلى الدعاء وطلب الصبر والسلوان، وأن يكون الله عوناً لهم على أعدائهم.
 وهذا يتصل بالرغبة لإنقاذ ما تبقى، ونجد التعليل بالقضاء الحق في قول أبي
 عبد الله العقيلي:

حُكِّمَ من الله حُتْمٌ لا مردَّ لَهُ وهل مردُّ لحكمٍ منه مُنَحِّمٌ

ومن أمثال ذلك أيضاً قول بعض الشعراء في حصار غرناطة:

بِالطَّبْلِ فِي كُلِّ يَوْمٍ	وَبِالنَّفْسِ نُورًا
وَلَيْسَ مِنْ بَعْدِ هَذَا	وَذَاكَ إِلَّا الْقِرَارُ
يَا رَبَّ جَبْرِكَ يَرْجُو	مَنْ هِيْضَ مِنْهُ الذَّرَاعُ
لَا تَسْلُبْنِي صَبْرًا	مَنْ لِقَلْبِي ادْرَاعُ

نلاحظ لجوء الشاعر إلى الله تعالى يستمد من العون، ويسأله الصبر عسى أن
 يفيد ذلك في الدفاع عن مدينته المحاصرة.

٦ - العاطفة الحزينة في الشاعر:

يشعر دارس أدب رثاء الممالك أن أولئك الشعراء يصدرون عن عاطفة أسى
 عميق ويظهر لنا الحزن في ثنايا القصائد، ويلف الأبيات جو قاتم من الجزع.

(١) يعني لا جدوى من ذلك.

ويبدو الخوف واضحاً، ويصاحب ذلك كله حنين جارف إلى تلك الديار مختلطاً بالبكاء وبالأمل في العودة إليها، ولكن اليأس أغلب. ولأبي المطرف بن عميرة قصيدة يرثي فيها بلنسية بعد سقوطها، ويذكر أيضاً جزيرة شُقر وهي موطنه، ولنسمعه يقول واصفاً حنينه إلى شُقر. وأبياته تشف عن أسى عميق وشوق قاتل:

يحنّ وما يُجدي عليه حنينه إلى أرْبَعٍ معروفها متنكّرُ
ويندبُ عهداً بالمشقر فاللوى وأين اللوى منه وأين المشقرُ؟
تغيرَ ذاك العهدُ بعدي وأهله ومن ذا على الأيام لا يتغيرُ!
وأقفرَ رسمُ الدار إلا بقية نُسائلها عن مثلِ حالي تخبرُ
فلم تبق إلا زفرةٌ إثرَ زفرةٍ ضلوعي لها تنقُدُّ أو تتفطرُ...

- ويقول الرُّندي في هذا الباب من قصيدته الطويلة في آخر أبياتها:

لمثلِ هذا يذوب القلبُ من كمدٍ إن كانَ في القلبِ إسلامٌ وإيمانُ

هذه العاطفة من الحزن العميق تلف معظم الآثار الأندلسية.

- وقال عبد الكريم القيسي عند ضياع مدينة جبل الفتح سنة (٨٣٦هـ) من

قصيدة:

وقائلةٍ مالي أراك مقطباً كأنك للتقطيب هُدِّدتَ بالذَّبْحِ؟
وعهدي - ولا أخفي صفاتٍ عرَفْتُها - تُسرُّ بما تُبدي من البشرِ والسَّمَحِ
فقلتُ دعيني! الحزنُ فرضٌ على الورى أما قد حوى أعداؤنا جبلَ الفتحِ؟
حرامٌ علينا البشرُ والسَّمَحُ بعده وفي القلب من آلامه أعظمُ الجرحِ!

ويخرج الشاعر في آخر أبيات القصيدة إلى الرجاء والأمل والضراعة إلى الله

تعالى:

عسى من قضى فيه بأخذٍ يُعيده ويُذهب ما أشكوه من شدةِ القَرْحِ
فمنه تعالى نرتجي الخيرَ كلّهُ وما زال أهلُ الفضلِ والمنِّ والمنحِ

ملاحظات فنية وأسلوبية

نجد هذا الشعر متوزعاً في اتجاهين:

١ - نقع في بعضه على أدب مدرّوس، أي صادر عن رويّة وفكر وتأنٍّ، ونراه مَصُوغاً بصياغة ملائمة لأدب العصر وفيه خصائص العصر أيضاً.

٢ - وبعضه الآخر متأثر بحماسة؛ فنجد أن الشاعر في هذا النوع قد انفعل انفعالاً شديداً لحادثة ما، فإذا به يُسرّع إلى تسجيل انطباعه. أو أن تكون عاطفة الشاعر أشد من أن يستعمل فكره. وَخِذْه فإذا به يُصدر شعراً تغلبُ عليه العاطفة دون الرويّة. ولهذا السبب نجد عدداً من القصائد التي يبرز فيها بوضوح عنصر الحماسة من غضبة لسقوط مدينة أو رغبة في استردادها.

ويتميز هذا النوع من الشعر بالبساطة والسهولة في معانيه، وتتلاحق جُمَلُه وعباراته مسرعةً لتقترب في كثير من الأحيان من المُنشور. ونلاحظ ظهور الأفكار بشكل واضح دون عناء أو غوص بعيد وراء الفكرة، أو طلب للصّور البعيدة الغريبة؛ لأنّ هذا الشعر أصلاً هو وليد الانفعال والأحاسيس العارمة التي تحتاج شعراءنا. وفي مثل هذه الحال تغلبُ العاطفة، وتكون العنصر السائد سواء كان الشعر وليد الارتجال والبدیهة أم كان بعدّ الأناة والرويّة.

ويتبع البساطة في الصياغة قربُ المعاني، وتنوّع الأساليب التي تميل إلى شيء من الأناقة والجمال وعرض القضايا عرضاً يتناسب والقضية المتداولة. ويميل معظم هذا الشعر إلى الابتعاد عن التّصوير والصنعة اللفظية إلا في القليل النادر. ونلاحظ غالباً سيادة عنصر العاطفة الجياشة، والانفعال الصادق، وعدم ضعف هذا العنصر النفسي من أوّل القصيدة إلى آخرها. ولا نبالغ إذا قلنا إنّ أبرز العناصر في الموضوع المذكور هو العاطفة، أو تلك الحماسة التي تغلبُ على الشاعر فتجعله أكثر صدقاً وأقرب معاني وأسهل ألفاظاً.

الموشحات الأندلسية

يقترن اسم الموشح^(١) حيثما ذكر باسم الأندلس، باعتبار ظهور الموشح ونشأته وتطوره، واكتماله في الأندلس، ولأن المشرق استقبل هذا الفن الوافد بعد ظهوره في الأندلس بمدة طويلة، كما استقبل فنّ الزّجل أيضاً. والموشح، والزّجل أخوان؛ وإن كان للزجل سمات خاصة به تميّزه عن الموشح.

واسم الموشح، هذا اللون الخاصّ من النّظم أخذ من الوشاح. والوشاح نوع من الزينة كانت المرأة تتزيّن به.

ونقرأ في لسان العرب (وشح): أن الوشاح من حلّي النساء، وأنه: خيّطان ينظم فيهما اللؤلؤ والجوهر، يخالف بينهما، ويعطف أحدهما على الآخر.

والموشح - هذا النظم المخصوص - مقاربٌ لذلك الوشاح في الشكل كما شابهه في التسمية. فهو يتألف من قُفل (تتعدّد أجزاؤه) ومن غصن يليه (تتعدّد أجزاؤه أيضاً)، وتكرّر الأقفال والأغصان. وبينما تتحدّ أجزاء الأقفال التالية مع الأجزاء المقابلة لها في القفل الأول وزناً، وقافيةً؛ تختلف أجزاء الأغصان التالية مع أجزاء الغصن الأوّل في قافيته. فلكل غصن قافية تتحدّ في أجزائه؛ على أنها تتحدّ في الوزن.

(١) ينظر الزّجل في الأندلس د. عبد العزيز الأهواني. وفنّ التوشيح د. مصطفى عوض الكريم، وفي

أصول التوشيح د. سيدي غازي؛

- وفي المصادر القديمة دار الطّراز لابن سناء الملك؛ والمقتطف من أزاهر الطرف لابن سعيد؛ وجيش التوشيح للسان الدّين بن الخطيب.

فالموشحة إذن: تتوالى فيها الأقفال: المتحدة وزناً، وقوافي؛ وتتوالى بين كل قفلين الأغصان التي تتحد في الوزن، ويكون لكل غصن قوافيه الداخلية الخاصة به.

متى ظهر الموشح؟

تتفق المصادر الأندلسية والمشرقية على أنّ الموشح:

- فنّ أندلسي ظهر في تلك البلاد، ونشأ، واكتمل؛

- وأنّ مخترعه أندلسي؛

- وأنه نشأ برعاية الموسيقى، أو في جوٍّ من الموسيقى والغناء؛ ولعل مجيء زرياب (ت: ٢٣٨هـ) وإنشاءه مدرسة موسيقية مهمة كان ذا أثر في تهيئة الجوِّ لظهور الموشح في فترة لاحقة من القرن الثالث.

ويذكر اسم: مقدّم بن معافى القبريّ الأندلسي^(١) باعتباره الوشاح الأول الذي قفز بالنظم تلك القفزة النوعية الخاصة، فنتج عن مبادرته وتحديدده هذا اللون من النظم الذي سُمّي بـ (الموشح).

ولم يذكر أحد من مؤرّخي الأدب الوشاح أو الناقد الذي سُمّي هذا النظم بـ (الموشح). ويبدو أن الاسم وضع مع اختراع الفنّ أو في وقت قريب جداً منه.

ووفاة مقدّم بن معافى كانت سنة (٢٩٩هـ) تقديراً، أي في أواخر القرن الثالث، وقدّر د. فروخ ولادته بنحو (٢٢٥هـ) تقريباً. ونفهم من هذا أن الموشح ظهر في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري في مدينة قبرة، أو مدينة قرطبة.

(١) نسبته إلى قبرة مدينة بينها وبين قرطبة ثلاثون ميلاً (الروض المعطار: ٤٥٣) ومقدّم شاعر اشتهر بالمدح، وكان ممن مدحهم الأمير عبد الله والقائد سعيد بن جودي (له ترجمة في هذا الكتاب) ولم يبق من شعره إلا التثنية اليسيرة. ولم يبق شيء من موشحاته المنسوبة إليه.

أصل الموشح:

اختلف مؤرّخو الأدب اختلافاً كبيراً في هذا العنوان: أصل الموشح. وحشد كل ذي رأي منهم حججاً وبراهين أو ما يُشبه الحجج والأدلة؛ والاختلاف بينهم واسع. (١) فريق منهم يقول: إن الموشح هو تطوّر لأنواع من النظم معروفة في الأدب العربيّ قبل ظهور الموشح. ودور الأندلسيين، عند هذا الفريق ليس أكثر من التنظيم والترتيب، أو إعادة التنظيم بما يعطي هذا الشكل الجديد. وأصحاب هذا الرأي لا يتفقون على مُعطيات واحدة، وحجج معيّنة، وهم يقاربون، ويحاولون.

وأقف عند قطعةٍ لديك الجن الحمصي أوردها د. الشكعة^(١) في دلائله على مشرقية الموشح. يقول لديك الجن:

قولي لطيفك يثني عن مضجعي عند المنام^(٢)
(عند الرقاد. الهجوع. الهجوذ. الوسن)
فعمسى أنام فتنتظفي ناراً تأجج في العظام
(في الفؤاد. الضلوع. الكبوذ. البدن)
جسد تقلّبه الأكف..... على فراشٍ من سقام
(من قتاد. دموع. وقوذ. حزن)
أمّا أنا فكمّا علمت فهل لوصلك من دوام
(من معاد. رجوع. وجوذ. ثمن)

قال د. الشكعة: ((إن تعديلات طفيفة يمكن إجراؤها في هذه المنظومة بحيث تُصبح موشحة أندلسية بمسميات أجزائها من أقفال وأغصان وأسماط وأدوار

(١) الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ٣٩٤-٣٩٥.

(٢) المراد أنك تستطيع تبديل كلمة القافية فتصبح القطعة دالية أو عينية أو نونية.. وهذا تفنن من الشاعر في تبديل كلمة القافية (حرف الروي) من باب الاتساع اللغوي.

وإنهاؤها بخرجة مُعربة). وهذا الرأي لا يتفق مع الموشح؛ وهذا الشعر لا يقترب منه ولا علاقة له به كما هو ظاهر!

ورأي هذا الفريق يغفل عن حقائق وثوابت في نسيج الموشحة وموضوعها مثل الخَرْجَة؛ وبناء الموشحة من أقفال (ومطلع) و (خرجة) وأغصان: تتوالى على نظام معين؛ وتطور الموشحة - مع الزمن - من الالتصاق بالموسيقى والغناء والطبيعة وذكر المجالس إلى أغراض أخرى كالمديح، بل الوصول بأغراض الموشحة إلى الرثاء والهجاء! وشيء آخر مهم أيضاً هو انتقال الموشح من موشح غير شعري كما نشأ إلى موشح شعري.

(٢) وفريق قال: إن الموشحات بُنيت على أغان جيلقية (إسبانية) كانت النساء الجيلقيات في البيوت العربية يغنينها (وقد اختلطت الأجناس بالزواج). وإن هؤلاء الجيلقيات كنّ يغنين بلغتهن في الحفلات، ويهددن الأطفال، ويُسرّين عن أنفسهن في ساعات العمل. وهي النظرية التي عرفت باسم المستشرق ريبيرا.

ويدخل في هذا آراء أخرى أرجعت الموشح إلى غير العرب، ووجد من يقول: إن الموشح مأخوذ عن التروبادور والجونكلير اللذين كانا شائعين في منطقة البروفانس. والصواب أن هؤلاء أخذوا عن أصحاب الموشحات العربية؛ لأن الموشح أسبق من ظهور أولئك الجوالين من الإسبان والفرنسيين بأكثر من قرنين من الزمان.

(٣) وقدم الدكتور عبد العزيز الأهواني^(١) نظرية اطمأن إليها، وقدم عليها الأدلة والبراهين من أخبار الموشحات والأزجال، ومن معالجة خرجات عدد كبير من الموشحات والأزجال الأندلسية.

وهذا الرأي يقول: إن الموشح نشأ في الأندلس استجابة لدواعٍ موسيقية غنائية، وبالاحتكاك مع الأغاني الشعبية الأندلسية^(٢).

(١) الزجل في الأندلس - عبد العزيز الأهواني - معهد الدراسات العربية، القاهرة، ١٩٥٧.

(٢) تم أخذ بهذه النظرية الدكتور أحمد هيكمل في كتابه الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة.

ونظرية الدكتور الأهواني تجمع بين الموشح والزجل في صعيد واحد؛ فقد قال^(١) : ((إنه يميلُ إلى القول بوجود أصل مشترك ظهر في البيئة الأندلسية منذ عهودها القديمة كان له الفضل في ظهور التوشيح، وكان له أثر في استقلال الزجل وتطوره، ذلك الأصل هو الأغنية الشعبية... وهي أغنية مصوغة في لغة عامية عربية، وفي لغة رومية كان يتحدث بها كثير من المسلمين في تلك البلاد منذ دخل الإسلام إليها... فالوشاح ثم الزجال استفاد من هذا الغناء الشعبي، واستغله ليخرج فناً جديداً يغزو البيئات المثقفة، ويوفق بين ما ألفته هذه البيئات من شعر عربي قديم، ومن تقاليد أدبية، وبين ما عرفتته البيئة الشعبية من فنّ كان له سلطان في الحياة الخاصة لهؤلاء المثقفين))^(٢).

تطور الموشح:

١ - يذكر مؤرخو الأدب الأندلسي من قديم ثلاثة أسماء أسهمت في نشأة الموشح، وتطويره من جهة أقفاله، ثم تطويره في أغصانه. أما النشأة فكانت على يد مقدم من معافى القبري: وكان يجعل اللفظ العامي أو العجمي مَرَكِزاً (والمركز صار يُسمّى القفل). فالوشاح الأول إذن كان يصنعُ الخرجة بالعامية أو العجمية الأندلسية ويؤسس عليها سائر الموشحة باللغة الفصحى. وكانت

(١) الرجل في الأندلس ٣.

(٢) في كتاب الخواص والبدع للطرطوشي ١٤٠، إشارات إلى اختلاط عادات الناس، وحضور العرب والمسلمين احتفالات شعبية بمناسبات مختلفة، قال: ((من البدع اجتماع الناس بأرض الأندلس على ابتياع الحلوى ليلة سبع وعشرين من رمضان وكذلك على إقامة ينيّر (رأس السنة الميلادية/والاحتفال بسنة جديدة) بابتياع الفواكه كالعجم، وإقامة العنصرة، وخميس إبريل بشراء المجنّات والإسفنجة (أنواع من الحلوى) وهي من الأطعمة المبتدعة. وخروج الرجال جميعاً أو أشتاتاً مع النساء مختلطين للتفرّج، وكذلك يفعلون في أيام العيد، ويخرجون للمصلى ويقمن فيه الخيم للتفرّج لا للصلاة...)). فهذه احتفالات مشتركة...

- وسجل ابن حزم تبديل العامة للألفاظ العربية، وظهور اللهجات الأندلسية وضرب أمثلة من تبديل الأندلسيين العنب إلى العنب، والسوط إلى أسطوط، وثلاثة دنانير إلى ثلثدا، وهكذا (الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم) ٣١/١-٣٢/دار الآفاق بيروت (١٩٨٣).

إذن ظهرت عامية أندلسية لها خصائصها، بل هي لهجات متعدّدة بحسب المناطق، وتوزّع الأقاليم.

الموشّحات الأولى بسيطة. وكان أكثرها - كما قال ابن بسام في (الذخيرة) - يُبنى على الأعاريض المهملة غير المُستعملة^(١)، وهي الأعاريض التي أشار إليها الخليل في الدوائر العروضية الخمس.

وكما كان الشاعر يفكر في وزنه وقافيته، أو يتحسّس ذلك بريضة الذهن، ومقاربة المناسب، كان الوشاح يبحث عن الخرجة المناسبة لموشّحته، لتكون الأساس الذي يبنى عليه موشّحته. وهذا يعني انطلاق الوشاح من منطقة أخرى غير التي كان الشاعر ينطلق منها. ولنقل - إذن - إنها خصوصية الموشّح، واستقلاليتها الفنية.

- وليس بين أيدينا موشّحات من هذه الفترة.

٢ - وبعد مقدّم بن معافى القبري ومن سار على خطاه في صناعة الموشحة جاء يوسف بن هارون الرّمادي المتوفى ٤٠٣ هـ وهو شاعر ووشّاح فكان ((أوّل مَنْ أَكْثَرَ فِي الموشّحة من التّضمين في المراكز)) أي هو أوّل من أحدث في الموشحة تعدّد الأجزاء أو الأشطار في الأفعال.

ويقوم عبادة بن ماء السماء (ت ٤١٩ هـ) بمهمّة أخرى في تطوير صناعة الموشح، وذلك بالإكثار من التّضمين في الأغصان، أو: ((دقة التجزئة في أشكال الأغصان)) وبذلك تمّت للموشّحة صورتها التي حملتها العصور التالية^(٢).

وقد استغنى الوشاح الأندلسي عن استعمال الأعاريض المهملة، وانتقل إلى الإبداع الخاص، وفق ذوقه، وما يختاره من (إيقاع). ومن هنا يصعب أن نحصر

(١) مثلاً بحر الطويل من دائرة المختلف ووزنه فعولن مفاعيلن أربع مرّات على شطرين. ويُستخرج من هذه بحر مهمل، تفعيلاته عكس تفعيلات الطويل، وينجيء على هذه الصورة:

مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن فعولن
ونظم بعضهم على هذا الوزن المهمل فقال:

لقد أبدت سليمى غداة الجذع وجهاً كبدت التّم حُسناً وضوء الشمس نورا

(٢) عصر الدول والإمارات الأندلس - د. شوقي ضيف ١٥٠.

الأوزان، أو الإيقاعات التي يستطيع الوشّاح أن يخترعها لكل موشحة من موشحاته. ولم يعد مُجدياً أن نبحت عن الوزن الذي يستعمله الوشّاح إلا أن يكون المراد التنبيه إلى ما اختار، والانسجام مع نغماته التي اختارها وإيقاعاته التي صنعها لنفسه بنفسه، أو اختارها واقتبسها من وشاح آخر.

- ونضرب مثلاً من موشحة الأعمى التّطيلي^(١) :

ضاحكٌ عن جُمان	سافرٌ عن بذر
ضاق عنه الزمان	وحواه صـدري

مطلع/قفـل أوّل.

آه ممـا أجـد	شـفني ما أجـد
قام بي وقعد	باطش متـد
كلما قلت قد	قال لي: أين قد؟!

غصن أوّل.

فوزن القفل: فاعلن فاعلان فاعلن مفعولن

ووزن الغصن: فاعلن فاعلن فاعلن مستعلن

ولا تدخل هذه الأوزان في الأعاريض المهملة، ولكنها تشكيل خاص من الوشّاح اختاره، وصنع عليه موشحته.

ولا ننسى أن ابن بسام أشار إلى هذا حين قال: إن أكثر الموشحات على غير أعاريض العرب. أي على غير الأوزان والبحور الخليلية.

(١) انظر إشارة إليه في (شعر المديح) من هذا الكتاب. وهذه الموشحة في (جيش التوشيح) للسان الدين ابن الخطيب ١٦-١٨.

وقد تُبنى الموشحة على بحر من بحور الخليل المعروفة، ثم يأتي الوشاح فيضيف كلمة أو أكثر في بعض الأجزاء أو الأقطار، فيخرج الموشح عن كونه موشحاً شعرياً، ليقال فيه: إنه موشح غير شعري.

ومثال ذلك قول ابن بقي:

صبرت والصبر شيمة العاني. ولم أقل للمطيل هجراني. مُعَذِّبِي كَفَانِي!
فقول الوشاح: (مُعَذِّبِي كَفَانِي) خرج بالموشحة عن كونها شعريّة. فالبهر دون تلك الإضافة هو المنسرح.

- وقد يزاوج الوشاح بين الوزن الشعري في جانب والوزن غير الشعري في جانب آخر من الموشح، مثاله موشحة لابن خاتمة الأنصاري^(١) جاءت الأقفال غير شعريّة بينما جاءت الأغصان على وزن بحر المجتث: وتبدأ الموشحة هكذا:

هَبَّتْ مِنَ النَّوْمِ عَيْنٌ تومِي بِلِحْظِ رَقِيعٍ إِلَى اقْتِبَالِ الرَّبِيعِ
رَقَّتْ حَوَاشِي الزَّمانِ وَالْفَصْلُ يَا صَاحِ ثَانٍ
فَالْقُفْلُ لَا يَتَسَقُّ وَزَنَهُ مَعَ أَيِّ بَحْرِ مَعْرُوفٍ. وَالْغُصْنُ مِنْ وَزْنِ بَحْرِ الْمُجْتَثِّ.

ولعبادة الموشحة المشهورة^(٢)؛ ومطلعها (القفل الأول: الرأس: المطلع):

مَنْ وَلِي فِي أُمَّةٍ أَمْرًا وَلَمْ يَعْدِلِ
يُعْزِلِ إِلَّا لِحَاطِ الرِّشَاءِ الْأَكْحَلِ

ويأتي الغصن الأول على هذه الصورة:

جُرْتُ فِي حَكْمِكَ فِي قَتْلِي يَا مَسْرُفُ
فَانْصَفِ فَوَاجِبٌ أَنْ يُنْصَفَ الْمَنْصَفُ
وَأَرْأفِ فَإِنَّ هَذَا الشُّوقَ لَا يَرَأْفُ

(١) ديوان ابن خاتمة (ط دار الفكر) ١٩٤.

(٢) الموشحة تامة في فوات الوفيات لابن شاکر ١٥٦/٢

ويتكرّر في القفل الثاني كل شيء: عدد الأَشْطَار، وأوزانها، والقوافي كلّها. ثم يجيء الغصن الثاني فيتكرر عدد الأَشْطَار وأوزانها، أمّا القوافي فتختلف من غصن إلى آخر برغبة الوشاح واقتراحه وذوقه. وهذا هو ذا القفل الثاني، يردفه الغصن الثاني:

عَلَّـلِ	قلبي بـبـذاك البـبارد السُّـلـلِ
ينجلـلي	ما بفـؤادي مـن جـوئى مُشـلـلِ
إنـمـا	تـبرزُ كـي تـوقـد نـارَ الفـتـنِ
صنـمـا	مـصـوراً في كـل شـيءٍ حـسـن ^(١)
إن رـمـى	لـم يُخـطِ مـن دـون القـلوب الجـنـن ^(٢) !

في نظام الموشحة

أكثر الموشحات تجيء في خمسة أغصان يكتنفها ويتخللها ستة أقفال. ولكن الوشّاحين لا يلتزمون بهذا دائماً فقد تنقص فتجئ أربعة أغصان لخمس أقفال، أو أربعة وقد تزيد إلى ستة أغصان، وسبعة بل ربما طالت الموشحة كالذي نجده في موشحة لسان الدين بن الخطيب^(٣):

جـادَكَ الغـيْثُ إذا الغـيْثُ هـمى يا زـمانَ الوصل بـالأندلسِ
لـم يـكـن وـصلـك إلا حُلـمـا في الكـرى أو خـلـسة المـختـلـسِ

أما عدد الأجزاء أو الأَشْطَار في كل قفل، وكل غصن، وترتيبها، وتنويع القوافي فيها، فموقوفٌ على الوشّاح نفسه فقد يجيء القفل من شطر واحد أو اثنين أو أكثر من ذلك بكثير. ويقال مثل هذا في الأغصان.

(١) قوله ((صنما)) يريد أن المحبوبة كالمثال، أو الصورة، وعبر عن ذلك بكلمة الصنم ملائمة للقافية. والعرب تشبه المرأة الجميلة بالدمية. قال في اللسان: الدمية: الصنم... ويقال للمرأة الدمية، يكتنى بها عن المرأة.

(٢) الجن جمع جنة، وهو ما يستتر به الإنسان من السلاح.

(٣) سنورها كاملة في هذا الكتاب.

وليس هناك نظام يحكم العلاقة في عدد هذه الأشرطة بين الأقفال والأغصان. فلا ضرورة للتساوي أو الانسجام الخارجي. ودائماً يبقى ذوق الوشّاح هو الحكم والفيصل.

ولا يُستنكر على الوشّاح أن يستعير نظامَ موشحةٍ سبقه إليه وشّاح آخر. ولا بأس عندهم في أن يستعير الوشّاح خرجته من موشحةٍ وشّاح آخر سبقه كالذي صنعه لسان الدين حين استعار خرجته من مطلع موشحة ابن سهل الإشبيلي^(١).

مصطلحات في الموشح

- ١ - يقال في الواحدة: موشحة، ويقال موشح. والجمع موشحات.
- ٢ - لفظ المراكز عند ابن بسام يقابله الأقفال عند ابن سناء الملك، وهو اللفظ الذي شاع في الأندلس بعد اسم المراكز، وثبت في المغرب والمشرق بعد ذلك.
- ٣ - المركز العامي أو العجمي عند ابن بسام هو الخرجة. وقد ثبت هذا الاسم في كتب الأدب الأندلسية والمشرقية معاً.
- ٤ - الموشحات (وكذلك الأزجال)^(٢) تتألف من مقطوعات^(٣)، وكل مقطوعة تتألف من وحدتين تختلف تسميتها عند القدماء. وقد اختار الدكتور الأهواني كلمتي غصن، وقفل.
- ٥ - إذا ابتدأ الموشح بالقفل فهو موشح تام أو: ذو رأس، أو كامل، أو مُرأس. واخترت كلمة: تام.

(١) يقول مطلع موشحة ابن سهل (الذي صار خرجة في موشحة لسان الدين):

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى قلب صب حله عن مكنس
فهو في حرّ وخفق مثلما لعبت ريح الصبا بالقبس!

(٢) ستحدث عن الأزجال بعد استيفاء الكلام على الموشحات.

(٣) كما سماها د. الأهواني في (الزجل في الأندلس): ص ٥

- ويسمى القفل الأول في هذه الحال: المطلع. ويقال فيه المذهب. وقد اخترت كلمة (المطلع).

٦ - ويسمى القفل الأخير باسم الخُرْجة.

- والخُرْجة المُعَرَّبة: هي التي جاءت بلغة عربية فصيحة

- والخُرْجة العامية: هي التي جاءت بلهجة عربية محليّة

والخُرْجة الأعجمية: هي التي جاءت بلغة رومانيّة^(١). على أن وشّاحي المشرق في ما بعد استعملوا في الخُرْجة لغات أخرى كالفارسيّة والتركيّة.

٧ - وإذا ابتدأ الموشّح بالغُصْن الأوّل (وحُذِف القفل الأوّل) سُمّي الموشّح: أَقْرَع.

٨ - الغُصْن الأوّل من الموشّحة مع القفل الذي يليه يسمّيان معاً باسم الدُّور (هذا ما اخترته، وهناك من يسمّيهما باسم آخر).

خصوصيّة الخُرْجة

- الخُرْجة عند الوشّاحين أهم جزء في الموشّحة. ومقامها عندهم مقام المطلع في القصيدة عند الشعراء. ((يخصّونها بعناية فائقة ويحسبون لها حساباً كبيراً))^(٢)، وعبارة ابن سناء الملك في دار الطراز ((الخُرْجة أُنْزار الموشّح وملْحُه، وسكْرُه ومسكُه وعنبره. وهي العاقبة وينبغي أن تكون حميدة، والخاتمة - بل السّابقة - وإن كانت الأخيرة...)).

- والخُرْجة تكون فصيحة، وعامية، وأجنبية، كما سبق القول.

- والخُرْجة تمتاز بالبساطة، والخفة، كقول أحد الوشّاحين في الخُرْجة:

(١) قال الدكتور الأهواني: اللغة الأعجميّة هي غير اللاتينية التي في الأديرة والكنائس. والخُرْجات الأعجمية تساوي في الدلالة الخُرْجات العامية حين يتصل الأمر بالتوشّيح.

(٢) الرجل في الأندلس: ٦

أَنْزَلُوا قَلْبِي الشَّحِي رَاكِباً لَمْ يَعْرِجْ!

وقول الآخر (وقد أوردتُ هنا الغصنَ الأخيرَ فالخرجة):

نَأَى بِفؤَادِي وَصَيَّرَنِي حَادِي فَظَلْتُ أُنَادِي:

مَحْبُوبِي مَسَافِرٍ صَبَّرُونِي!

- تُسَبِّقُ الخرجة عادةً بكلمة مثل غَنَى، وَأَنْشَدَ، وَنَادَى، وما يشبهها (مما يدل على أثر الموسيقى في نشأة الموشحة واستمرارها مدة طويلة). ولاحظ المثال السابق فقد ورد في الغصن الأخير السابق للخرجة كلمة (أُنَادِي).

وأورد هنا الغصن الأخير، والخرجة من موشحة لابن لبون^(١) يقول فيها:
يَا طِيبَ وَقْتٍ وَطِيبَ زَمَانٍ قَطَعْتُهُ بِطِيبِ الْأَمَانِي وَالْبَمِّ مَنْشَدُ الْمَثَانِي:
وَدَعَيْتُ وَقَالَتُ بَتَحْنَيْنٍ اللَّهُ لَكَ يَا غَرِيبَ يَامَسْكِينِ!
- قد تكون الخرجة مشتركة بين الموشح والزَّجَل.

- يظهر أثر البيئة الأندلسية في الخُرُجَات مثل: السَّفَر، وَالْإِغْتِرَاب، وَالْخُرُوج إلى الغزو، وَحَرْبُ الْعَدُوِّ.

ويرد في الموشحات عامة، والخرجات خاصة، ذكر بعض نباتات البيئة الأندلسية مثل الحَبَق^(٢)، وَالْحَنَاء، وَالرَّيْحَان (وهذا يرد كثيراً في الخرجة).

- ويكثر أن تجيء الخرجات على لسان فتاة.

- في موشحات المديح، المؤلف أن تكون الخرجة مُعَرَّبَةً.

(١) جيش التوشيح: ١٦٠

(٢) الحَبَق: نبات طيب الرائحة منه سهلي ومنه جبلي، ويكثر على الماء. ويقال له نعناع الماء، وحب الماء، ولأهل الشام أيضاً رغبة فيه: يأكلونه مع الطعام، ويذكرونه في أغانيهم كما يذكرون الرِّيحَان. وهذا مُشْتَرَكٌ بينهم وبين أهل الأندلس.

ومن الخرجات المستحسنة التي أعلن الوشّاحون الأندلسيون المعاصرون لصاحبها إعجابهم بها، وسبق الوشّاح دونهم إلى مثلها، قول الأعمى التطيلي:

أما ترى أحمد في مجده العالي لا يُلْحَقُ!
أطلعه المغرب فأرنا مثله يا مشرق!

أغراض الموشحات:

ارتبطت الموشحات في نشأتها بالموضوعات المناسبة لتلك النشأة الفنية الموسيقية الشعبية: من:

- الغزل، والنسيب، والتشبيب؛

- ووصف الطبيعة، ومجالسها؛

وسرعان ما وجد الوشّاح هذا النمط الجديد من النظم ملائماً لغرض المديح؛ الذي يبقى الغزل، ووصف الطبيعة ملازماً له غالباً. ووجد الممدوحون في الموشحات شيئاً جديداً، يلفت إليهم الأنظار، ويحقق لهم نشوة المدح في إطار مفعم بالنغم والموسيقا وحسن الإيقاع^(١).

وصار الموشح شيئاً فشيئاً يُستخدم في سائر أغراض الشعر كالرثاء والهجاء (وهذا غريب جداً)؛ وفي العتاب والشكوى والحنين، وغير ذلك من الموضوعات والأغراض. ووجد أهل الزهد والتّصوّف في الموشح، (وفي الزّجل أيضاً) وعاءً طريفاً لآرائهم وأفكارهم وقضاياهم.

وقد اشتهر من الوشّاحين الذين وظّفوا الموشح للأغراض الصوفية ابن عربي (الشيخ محيي الدين) وأبو الحسن الششتري؛ وزخر ديوان الششتري بالأزجال الصوفية.

(١) وكانت الألحان توضع لموشحات المديح، وتغنى في حضرة الممدوح أحياناً مما يعطي الموشحة ملمحاً اجتماعياً إضافة إلى الملمح الأدبي والفني.

في فنية التوشيح

١ - إذا نظرنا إلى أصل الموشح ونشأته عرفنا أنه نشأ تلبيةً لحاجة فنية تتعلق بالموسيقى والغناء وخصوصاً الغناء الشعبي، وما يقترب منه. والنظم لهذه الحاجة الفنية لا يقتضي الجزالة في الألفاظ، ولا القوة في التراكيب، ولا العمق في المعاني، ولا البعد في الأخيلة. فالموشحة تميل إلى التخفيف من ذلك كله، في غالب الأحوال ومعظمها، إلا في القليل النادر (كالذي نجده في بعض الموشحات الصوفية عند ابن عربي مثلاً).

فالنظم الرقيق، والمعنى اللطيف، والألفاظ العذبة ذات الجرس الموسيقي، والأداء المباشر أو السهل الواضح يسيطر على الموشح ويطبعه بطابعه.

٢ - والموشح غير الشعري خاصة يقترب من النثر كثيراً: من حيث لغته وأدائه، وانسياب مقاصده، ووضوح مرماه.

والموشح بصفة غالبية يميل إلى السهولة، والعفوية، والتلقائية.

٣ - يراوح الوشاح بين القوافي المطلقة والقوافي المقيدة في أجزاء الموشحة وأشطارها. وكثيراً ما يكون تقييد القافية (محيئها ساكنة) فرصة للوشاح للتخلص من الحدود النحوية والقيود الإعرابية. ولو أطلقت القوافي لظهر شيء من الخلل.

٤ - يلاحظ الوشاح في موشحاته أن تكون الألفاظ، والعبارات متلائمة مع الموضوع المطروح ومنسجمة معه. وتسعفه الحافظة اللغوية في هذا التلاؤم، والانسجام، وتتداخل مع البراعة في الصناعة لتشكّل أسلوب الوشاح وطريقته في النظم.

٥ - البحور الشعرية التي لجؤوا إليها حين انتقلوا بالموشح من غير الشعري إلى الشعري هي بحور قليلة مثل: الرمل، والهزج، ومخلّع البسيط، والخفيف، والمتقارب، والمنسرح.

٦ - اعتمد الموشح على التنويع في النغم، وهذا يتعلّق بالمعرفة الموسيقية في تغيير الأوزان وتنويع القوافي. وتقاس مقدرة الوشّاح ببراعته في صياغة العبارة، وأداء المعنى الطريف الجديد، أو المولّد من العتيق في لبوس حسن من الشّكل المعجب والنغم البارع.

٧ - قد تبدو العلاقة غير وثيقة بين فقرة وأخرى داخل الموشحة الواحدة إذ يكفي الوشّاح بالإطار العام للموشحة وفكرتها العامة - ولا يجدون في هذا بأساً، فقد تُغريهم العبارة الرقيقة والفكرة العارضة في غلاف شفاف مرهف.

أشهر الوشّاحين:

في الوشّاحين ذوي الأثر في صناعة الموشح: يوسف بن هارون الرّمادي (ت ٤٠٣ هـ)، وعبادة بن ماء السّماء (ت ٤١٩ هـ)، وهما شاعران مشهوران أيضاً. ومحمد بن عبادة القزّاز (ت ٤٨٨ هـ) شاعر المعتصم بن صّماح صاحب المريّة، وقد ترجم له ابن بسام واستحسن موشحاته في حين لم يستحسن شعره؛ وأبو بكر محمد بن أحمد الأنصاري الملقّب بالأبيض (ت نحو ٥٢٥ هـ)، وأبو بكر بن اللّبّانة (ت ٥٠٧ هـ)، والأعمى التّطيلي، أحمد بن عبد الله بن هريرة القيسي (ت ٥٢٥ هـ)، وهو شاعر مشهور في زمانه وله ديوان شعر مطبوع (مذيل بعدد من الموشحات)، وأبو القاسم المنيشي (ت نحو ٥٥٧ هـ)، وأبو عامر بن ينق (ت: ٥٤٧ هـ)، وأبو بكر محمد بن عبد الله بن زُهر، الحفيد (ت ٥٢٥ هـ).

- ومن موشحات المديح واحدة للأعمى التّطيلي، اشتهرت بعذوبتها ورقّتها، وفاقّت بخرجتها الرشيقة لفظاً البارعة فكرةً ومعنى، قال:

أغى على العودُ	رهين بلبال	مُورقُ
أذله الحبُّ	لا ينكر الذّله	من يعشقُ
من لي به يرنو	بمقلتي ساجرُ	إلى العبادُ

ينأى به الحسنُ	فيتثنى نـسافرُ	صعب القيـادُ
وتسارَةً يدنسو	كما احتسى الطائرُ	ماء الثمـادُ
فجيدُهُ أَغْيَدُ	والخسدُ بالخـال	مُنَمَّـقُ
تكنفه الحجبُ	فلي إلى الكـأسه	تَشَـرُّقُ
عطفا بليتيه	ومرَّ كالنظي	ليـده
فدلَّ عليه	تكسُّر الحـلي	بجيـده
تفتيرُ عينيه	يُسْرِع في بـري	عميـده
فإن أكنُ أقصِدُ	منه فأولى لي	إذ يَرُمُـقُ
هل يسلُم القلبُ	وأسهم المقلـه	لا ترفـقُ؟!
وددتُ من خـلي	ومثلُ نشر الكاسُ	في شـعره
لو جادَ بالوصلِ	جودَ أبي العباسُ	بوفـره
في الجود والنبلِ	وقل: أجلُّ الناسُ	في قـدره
يا كعبة السؤددُ	حتى على المالِ	لا تُشـفِقُ!
فمثلك النـدبُ	يسابقُ الجـله	فيسـبقُ!
يا أيها الحائمُ	هل لك في عذبِ	ملء الدلا
يَمُّ بني القاسمِ	واقصِد من الغربِ	إلى سـلا
واستمط رواسمُ	تخالُ بالركبِ	وسط الفـلا
سفائناً تجهـدُ	في أبـحـرِ الآلِ	ما تغـرقُ
يستبشر الركبُ	وتشتكي الرحـله	الأينـقُ!
أدعوه بالقاضي	وأمره يقضي	عليَّ لي
أنا به راضٍ	لأنه يُرضي	لأملـي

قل غير معتاضٍ بمن على الأرض منه، قل
أما ترى أحمداً في مجده العالي لا يلحقك؟
أطلعته الغربُ فأرنا مثله يا مشرق!!
وقال الأعمى التطيلي^(١):

كيف السبيل إلى صبري وفي العالم أشجان
والركب وسط الفلا بالخرَدِ النواعم قد بانوا!
أقبلن يوم الحمى في سندسيات الحُلل
يُبضُ كمثُل الدُمى سُود الفروع والمُقَل
فيا مُعْنى بما لو ناله نال الأمل
دون ذوات الحلى للسيف والصوارم حرمسان
ابغ النجاة ولا يغرك بالضراغم غزلان
لم يدّر شيئاً سوى تعذيبه لصَبَّه
وما شكوتُ الهوى إليه خوف عتبه
وكنت قبل النوى مكتتماً لحبّه
فعندما رحلا فاضت بدمعٍ ساجم أجفان
أطلعن مني على سري وهل للهائم كتمان؟
أهدى إليّ السرور بحرّ يفيضُ باليمن
إن حاربتني الدهور فهو حسامي والمجنّ
فقل لكلّ فخور مثل أبي يعقوب كُن!

(١) الموشح في ديوان الأعمى: ٢٧٢، وفي جيش التوشيح: ٣٣

- وهو موشح غير شعري. والخرجة فصيحة.

- وموضوع الموشح: المدح، وتقدم المدح غزل رقيق. والممدوح هو أبو يعقوب يوسف بن القاسم.

جَادَكَ الْغَيْثُ إِذَا الْغَيْثُ هَمَى
لَمْ يَكُنْ وَصْلُكَ إِلَّا حُلُمًا
إِذْ يَقُودُ الدَّهْرُ أَشْتَاتَ الْمَنَى
زُمَرًا بَيْنَ فُرَادَى وَثُنَا
وَالْحَيَا قَدْ جَلَّلَ الرَّوْضَ سَنَا
وَرَوَى النُّعْمَانُ عَنْ مَاءِ السَّمَا

يَا زَمَانَ الْوَصْلُ بِالْأَنْدَلُسِ
فِي الْكُرَى أَوْ خَلْسَةِ الْمُخْتَلِسِ
نَنْقُلُ الْخَطُورَ عَلَى مَا تَرُسُّمُ
مِثْلَمَا يَدْعُو الْحَجِيجَ الْمَوْسِمُ
فَتُغَوِّرُ الزَّهْرَ مِنْهُ تَبَسُّمُ^(١)
كَيْفَ يَرَوِي مَالِكٌ عَنْ أَنَسٍ^(٢)

(١) الحيا: المطر.

(٢) النعمان: شقائق النعمان (وتُسَمَّىه العربُ الشَّقِيرُ): نوع من الزهر معروف. وماء السماء: المطر (وفي البيت تورية). وقوله (روى) يكون من الرواية ويكون من الارتواء.

فَكَسَاهُ الْحُسْنُ ثَوْباً مُعْلِماً
 فِي لَيْالٍ كَتَمْتُ سِرَّ الْهَوَى
 مَا لَ نَجْمُ الْكَأْسِ فِيهَا وَهَوَى
 وَطَرُّ مَا فِيهِ مِنْ عَيْبٍ سَوَى
 حِينَ لَذَّ النَّوْمُ شَيْئاً أَوْ كَمَا
 غَارَتْ الشُّهْبُ بِنَا أَوْ رَبَّما
 أَيَّ شَيْءٍ لَامَرِيٍّ قَدْ خُلِّصَا
 تَنْهَبُ الْأَزْهَارُ فِيهِ الْفُرْصَا
 فَإِذَا الْمَاءُ تَنَاجَى وَالْحَصَا
 تُبْصِرُ الْوَرْدَ غَيُوراً بَرِّمَا
 وَتَرَى الْآسَ لَبِيّاً فَهَمَّماً
 يَا أَهْلَ الْحَيِّ مِنْ وَادِي الْغَضَا
 ضَاقَ عَنْ وَجْدِي بَكُمْ رَحْبُ الْفَضَا
 فَأَعِيدُوا عَهْدَ أَنْسٍ قَدْ مَضَى
 وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَحْيُوا مُغْرَمَماً
 حَبَسَ الْقَلْبَ عَلَيْكُمْ كَرَمَماً
 وَبَقْلِي مِنْكُمْ مَقْتَرَبُ
 قَمَرٌ أَطْلَعَ مِنْهُ الْمَغْرَبُ
 يَزْدَهِي مِنْهُ بِأَبْهَى مَلْبَسٍ
 بِالذُّجَى لَوْلَا شُمُوسُ الْغُرَرِ^(١)
 مَسْتَقِيمَ السَّيْرِ سَعْدَ الْأَثَرِ
 أَنَّهُ مَرَّ كَلِمَحِ الْبَصَرِ
 هَجَمَ الصُّبْحُ هُجُومَ الْحَرَسِ
 أَثَرَتْ فِينَا عَيُونُ النَّرْجَسِ
 فَيَكُونُ الرِّوْضُ قَدْ مُكِّنَ فِيهِ
 أَمِنْتُ مِنْ مَكْرِهِ مَا تَتَّقِيهِ
 وَخَلَا كُلُّ خَلِيلٍ بِأَخِيهِ
 يَكْتَسِي مِنْ غِيْظِهِ مَا يَكْتَسِي
 يَسْرِقُ السَّمْعَ بِأُذُنِي فَرَسٍ^(٢)
 وَبَقْلِي مَسْكَنُ أَنْتُمْ بِهِ
 لَا أَبَالِي شَرْقَهُ مِنْ غَرْبِهِ
 تُعْتَقُوا عَبْدَكُمْ مِنْ كَرْبِهِ
 يَتَلَشَّى نَفْساً فِي نَفْسٍ
 أَفَرَضُونَ عَفَاءَ الْحُبْسِ^(٣)
 بِأَحَادِيثِ الْمَنَى وَهُوَ يُعِيدُ
 شَقْوَةَ الْمُغْرَى بِهِ سَعِيدُ

(١) الغرر جمع الغرة: غرة الجبين.

(٢) الآس: نبات معروف له ثمر يؤكل، ويتخذ منه طيب حسن. ويضرب المثل بطول الوقت الذي يبقى

فيه الآس نظراً بعد قطافه. وشبه الشاعر ورقة الآس بأذن الفرس في شكلها وانتصابها.

(٣) أي جعله حبساً أو وقفاً.

قد تساوى مُحسنٌ أو مُذنبٌ
أحورُ المقلّة معسولُ اللَّمى
سَدَّدَ السَّهْمَ فأصمى إذ رمى
إن يكن جَارَ وخابَ الأملُ
فهو للنَّفْسِ حبيبٌ أوَّلُ
أمره مُعتمِلٌ مُمتثلُ
حَكَمَ اللَّحْظَ به فاحتكما
يُنصف المظلومَ مُمّن ظلما
ما لقلبي كلّما هبّت صبا
جلبَ الهَمَّ له مكتبنا
كان في اللّوح له مكتبنا
لاعجٌ في أضلعي قد أضرمنا
لم يدع في مهجتي إلا ذمّا
سَلّمي يا نفسُ في حكم القضا
ودعي ذكراً زمانٍ قد مضى
واصرفي القولَ إلى المولى الرضى
الكريمِ المنتهى والمنتضى
يَنزِلُ النّصرُ عليه مثلما
مصطفى الله سميُّ المصطفى

في هَواهُ بين وَعْدٍ ووعدٍ
جالَ في النَّفسِ مجالَ النَّفسِ
بفؤادي نبلة المُفترَسِ^(١)
ففؤادُ الصَّبِّ بالشُّوقِ يذوبُ
ليسَ في الحُبِّ محبوبٌ ذنوبُ
في قلوبٍ قد براها وقلوبُ
لم يُراقب لي ضعفِ الأنفَسِ
ويُجازي البرَّ منها والمُسي
عاده عيدٌ من الشُّوقِ جديد
فهو للأشجانِ في جهْدٍ جهيد
قوله: ((إِنَّ عذابِي لشديدٌ))
فهي نَارٌ في هشيمِ اليَيسِ
كبقاءِ الصبحِ بعد الغَلَسِ^(٢)
واعمّري الوقتَ برُجعى ومتاب
بين عُتبي قد تقضّت وعتاب
مُنهم التوفيقُ في أمّ الكتاب
أسدِ السَّرجِ وبدرِ المجلسِ
ينزل الوحيُّ بروحِ القُدُسِ
الغني بالله عن كلّ أحدٍ^(٣)

(١) يقال: أصماه إذا أصابه في مكانه (كالصائد بقتل صيده).

(٢) الدماء: بقية الروح.

(٣) الغني بالله لقب الممدوح.

مَنْ إِذَا مَاعَقَدَ الْعَهْدَ وَفِي
 مِنْ بَنِي قَيْسِ بْنِ سَعْدٍ وَكَفَى
 حَيْثُ بَيْتُ النَّصْرِ مُحَمِّيُ الْحُمَى
 وَالْهَوَى ظِلُّ ظَلِيلٍ خِيَمَا
 هَاكِيهَا يَاسِبُ أَنْصَارُ الْعُلَا
 غَادَةُ أَلْبَسَهَا الْحَسَنُ مُلَا
 عَارِضَتْ لَفْظًا وَمَعْنَى وَحَلَى
 ((هَلْ دَرَى ظَبْيُ الْحُمَى أَنْ قَدْ حَمَى
 فَهَوَى فِي حَرٍّ وَخَفَى مَثَلَمَا
 - وَقَالَ لِسَانُ الدِّينِ بْنِ الْخَطِيبِ:

يَا حَادِي الْجِمَالِ عَرَجَ عَلَى سَلَا
 قَدْ هَامَ بِالْجَمَالِ قَلْبِي وَمَا سَلَا
 عَرَجَ عَلَى الْخَلِيجِ
 فِي الْمَنْظَرِ الْبَهِيحِ
 وَالْأَبْطَحِ النَّسِيحِ
 لِلَّهِ مِنْ خِلَالِ تَخْتَالُ فِي حُلَى
 لَمْ تُفْرِغْ فِي اعْتِدَالِ عَنْهُنَّ مَعْدِلَا
 وَطُفَ مِنَ الرِّبَاطِ
 بِمَنْزِلِ اغْتِبَاطِ
 مُتَقَدِّسِ الْمَوَاطِي
 بِرُكْنِ طَائِفِ
 دَارِ الْخَلَائِفِ
 جَمِّ الْمَعَارِفِ
 كَمْ مِنْ سَنَا هِلَالٍ بِأُفْقِهِ انْجَلَى
 أَنْحَى عَلَى الضَّلَالِ فَاَنْجَابَ وَانْجَلَى

(١) تنتمي أسرة الممدوح إلى سعد بن عبادة الأنصاري، الصحابي الخليل.

(٢) دعيت أسرة الممدوح ببني الأحمر، وبني نصر أيضاً.

(٣) في وصف موشحته، والجلاء مصدر جلا العروس: أظهرها في أتم زينة لزوجها.

جَنَى النَّعِيمِ دَانَ وَالْبَحْرُ وَالْغَدِيرُ
 أَهْلَةُ الشَّوَانِي فِي أَفْقِهِ تَسِيرُ
 وَقَهْوَةُ الدَّانِ يَدِيرُهَا مُدِيرُ
 أَغْرُ كَالْغَزَالِ مُقَلَّدُ الطُّلَا
 أَوْلَى إِلَيْكَ أَوْلَى مِنْ ذِكْرِ مَعَهْدِ
 أَكْثَرَتْ فِيهِ قَوْلَا فِي كُلِّ مَشْهَدِ
 خَذُ فِي امْتِدَاحِ مَوْلَى نَدَبِ مُؤَيَّدِ
 مُسَجَّدِ الْجَلَالِ مَشْهَرُ الْعُلَا
 مُوَافِقُ الْخَلِيلِ فِي الْإِسْمِ وَالسَّمَاتِ
 ذِي الْمَنْظَرِ الْجَمِيلِ الرَّائِقِ الصِّفَاتِ
 مُكْرَمِ الدَّخِيلِ (١) وَمُجْزِلِ الْهَبَاتِ
 وَمُحْسِبِ (٢) النَّوَالِ لِمَنْ تَوَسَّلَا
 يَا مَنْ عُلَاهُ دَرَّتْ بِكُلِّ نَائِلِ
 خُذْهَا إِلَيْكَ جَرَّتْ ذَيْلَ الْخَمَائِلِ
 وَفِي حُلَاكَ أُرْزَتْ بِقَوْلِ قَائِلِ
 يَأْمَنْزِلَ الْغَزَالِ حَيْثُ مَنَزَلَا
 فَمَا أُرَى بِسَالٍ عَنْهُ وَإِنْ سَلَا
 ٩- وقال ابن خاتمة الأنصاري (٣):

(١) الدخيل: الضيف

(٢) الخسب: المكث.

(*) أبو جعفر أحمد بن علي بن خاتمة الأنصاري (٧٧٠هـ) من أهل المرية بالأندلس، كاتب، فقيه، أديب، شاعر طيب، كتب عن الولاة ببلده، وقعد للإقراء، واتصل بالسلطين، وتردد على غرناطة عاصمة الأندلس آنذاك، له (تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد)، يبحث فيه عن طاعون سنة (٧٤٩هـ)، طبع ديوانه (بتحقيق محمد رضوان الداية)، وطبع ثانياً بدار الحكمة - دمشق، وثالثة بدار الفكر، وجمع تلميذه ابن زرقا له مجموعة من أشعاره في غرض التورية، راجع كتاب: رائق التحلية في فائق التورية، طبع دار الحكمة - دمشق.

ما أحلاك يا قمرَ الأحلاك كم أهواك
 الحسنُ يحار في حَدِّكَ
 والذهبُ _____
 من حلاك بالحسن ما أحلاك
 هل سلوان لعاشقٍ هيمان
 يافتَّ _____
 قد جرّاك ظلماً على مضناك
 لاصارم كلحظك النائم

 ما أسباك للعقل ما أصباك
 ما عذر من ضلّ عن ودّه
 والضُّر _____
 إن رداك ثوب البلى أرداك
 رُحماكا يا فتنة الخلق
 بلواكا عمت ولم تُبقِ!
 قل من رآك وليس من أسراك
 وفي الحشا مشواك ولا تدري!
 والغصن يغار من قدك
 وقبف على ودك
 لأنساك يا فتنة النساك إلى الحشر
 عن عدوان ذا الشاثر الأجنان
 أسرفت في الهجران
 من أفتاك بالصدّ يفتاك وبالهجر
 يظالم أما ترى راحم
 أنت به عالم؟
 هل عيناك قد أسكرت مضناك
 وابدر باد على حدّه
 والنفع من جنده
 أو ولاك طيب الرضى أولاك جنى البشر
 لولاكا ما صرت في رق
 مرّ إياك ياناظر إياك أن اش تدري؟!

الزَّجَل في الأندلس^(١)

إن النظرية التي عَرَضَهَا الدكتور عبد العزيز الأهواني - رحمه الله - في نشأة الموشح، وارتباط ذلك بما قدّم من حجة ودليل؛ بالأغنية الشعبية تصلح أيضاً للكلام على نشأة فن الزَّجَل، وذيوع الأزجال الأندلسية في تلك البلاد، وهي فن أدبي باللهجة الأندلسية الدارجة انتقل أيضاً إلى المشرق؛ ونال استحسان الناس هناك، ونسخة ديوان ابن قُزَّمان أشهر زَجَّالي الأندلس كُتبت في صُفد بفلسطين في منتصف القرن السادس! (وهي النسخة الوحيدة الباقية).

قال الدكتور الأهواني^(٢) : ((قدَرنا أن الزجل ظهر في الوقت الذي أخذ فيه التوشيح يتجه إلى التعقيد ويتعد عن البساطة الأولى، ومعنى هذا أن الزجل يرجع إلى أواخر القرن الرابع الهجري حيث عاش عبادة بن ماء السماء ويوسف ابن هارون الرمادي؛ وهما اللذان أدخلا التغيير على التوشيح حسب نصّ ابن بسام)).

ونصوص الزجل الأندلسي التي قُلت في القرن الخامس ضائعة، وأشار ابن قُزَّمان^(٣) في مقدمة ديوان أزجاله إليها إشارات موجزة.

(١) ينظر كتاب: الزَّجَل في الأندلس، د. الأهواني.

- وقد مرّت كتب تاريخ الأدب الأندلسي بالموضوع كما في عصر الأندلس لشوقي ضيف ١٦٣.

(٢) الزجل: ٥٢.

(٣) سنقف عند ترجمته بعد يسير.

ومن المذكورين من زجّالي القرن الخامس أخطل بن نمارة، وابن راشد، وقد عاب ابن قزمان زجل ابن راشد لما فيه من صعوبة وخشونة فقال:

زجلك يا ابن راشد قوي متين وإن كان هو للقوة فالحمالين!

يقول: لو أن الأمر في الفن أمر قوة لكان الحمالون أولى به!

وعلل الدكتور الأهواني ضياع أزجال القرن الخامس، بأن هذا القرن كان عصر القصائد والموشحات وأن ملوك الطوائف: ((كانوا يتشبهون في حياتهم الأدبية بالعصور الذهبية للشعر العربي في بلاط العباسيين والحمدانيين، فلم يكن للأزجال - ولكل ماهو ملحون - مكان كبير عندهم)).

وقد تغير هذا مع زمان المرابطين (الذين لا يتقنون العربية) كما عبر الدكتور الأهواني... فازدهر حينذاك الرّجل، والتمس أصحابه لأنفسهم سوقاً ينفق فيه فنهم..

- وهناك زجل يُنسب إلى ابن راشد يبدأ بالغزل وينتهي بالشكوى من ضيق ذات اليد وقد اقترب موسم العيد، وأوّل الرّجل:

كل من يعيب حبي أيش يفيدو

ذاهم ليّش يـلوم؟ كذاك نريدو

يقول في آخره:

كل حدّ في ذا العيد شرّح ومّلح

وعمل على حبّـو مـبزور مملّح

وأنا فليس عندي كبش فينطـح

ولا مانجول السّـكين على ورّيدو

وهذا النمط يعد من أبسط أنواع الزجل، ولهذا النوع البسيط نظائر كثيرة في أزجال ابن قزمان، وليس له نظائر في الموشحات. والظاهر أن هذا النوع كان نوعاً شعبياً، ويُنشد على آلة موسيقية^(١).

والنوع الثاني من الأزجال هو الذي تكثر فيه الفقرات، وتتعدد القوافي وتزدحم، فيشبه من هذه الناحية موشحات القرن الخامس وما بعده. فالنوع الأول المتصل بالأصل الشعبي القديم (بالأغاني) ظل موجوداً بين العامة وفي البوادي (الأرياف) ينظمون فيه أشعارهم ويغنون على البوق. وهذا النوع من الزجل مارسه الزجالون المثقفون من رجال القرن الخامس على قلة، ولكنهم اتجهوا إلى محاكاة التوشيح. ومن محاكاتهم لفن التوشيح وقعوا في (الإعراب) أي مقارنة نظم الزجل في مقاطع منه للكلام الفصيح وهذا عيبٌ عند ابن قزمان، وسمي هذا التصرف من الزجال (التزيم) دلالةً على كونه عيباً في نظم الزجل.

الزّجل والهزل:

وجدت لفظة الزجل مع لفظة الهزل في وقت واحد، واستعملها ابن قزمان للدلالة على فن الزجل نفسه. وفرق د. الأهواني بينهما بأدلة أوردها وجعل الزجل للشعر الشعبي، والهزل لما شابه الموشحات. قال: ثم اختلط المصطلحان، ولكلام تفصيل لا مجال له هنا.

الزجالون في الأندلس

عُرف قبل ابن قزمان إذن عدد قليل: ابن راشد، وأخطل بن نمارة. وعُرف في عصره أبو عمرو بن الزاهد الإشبيلي، وعيسى البليد الإشبيلي، وأبو الحسن المقرئ الداني، وأبو بكر بن مرتين إضافة إلى ابن قزمان نفسه. والأسماء المذكورة لانعرف ترجمة لغير اثنين منهم هما ابن قزمان وابن الزاهد.

(١) الزجل: ٥٧

وظهر بعد ابن قزمان زجال آخر مشهور هو مَدْغَلِيس، وسنترجم لهما ونختار من أزجالهما، وابن الزيّات.

ومن الزجّالين المعدودين ابن غرلة، وكان ينظم الموشح والزّجل. وله من مطلع زجل:

مشى السهر حيرانٌ حتى رأى إنساناً^(١) عيني وقف!

وظهر عدد من الزجالين في القرن السّابع وماوراءه، ولكنهم لم يشتهروا شهرة ابن قزمان ومدغلّيس، ولم يبق من أزجالهم إلا القليل، أو التّف اليسيرة؛ ماعدا الزجل الصّوفي الذي برع فيه أبو الحسن الششتري خاصّة..

- ومن هؤلاء ابن جَحْدَر الإشبيلي الذي نظم زجلاً في فتح جزيرة ميورقة أوله:

من عاند التوحيد بالسيف يمحَق أنا بري ممّن يعاند الحقّ

ابن قُزْمان^(٢): هو أبو بكر محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قزمان ولد نحو (٤٨٠هـ) وتوفي سنة (٥٥٥هـ).. فأكثر حياته كان في عصر المرابطين، على أنه أدرك صَدْرَ دولة الموحّدين. وأسرّة ابن قزمان أسرة نبيلة كانت بين عالم ووزير ورئيس. نشأ في قرطبة نشأة علمية أدبيّة. وقد نظم الشعر والموشح والزّجل. ولكنه مال إلى الزجل لمّا رأى نفسه مجلّياً فيه مقصّراً في غيره، وصار - كما يقول ابن سعيد في (المُغرب) -: إمام أهل الزّجل المنظوم.

ويبدو أن ابن قزمان عاش حياته في هو وإسراف حتى ضيّع ماله وتكسّب بزجله، ويتمثل ابن قزمان في أزجاله ((مُكدياً^(٣)) دائم الإلحاف في طلب أنواع

(١) إنسان العين: البؤبؤ، وفي الزجل تورية لطيفة.

(٢) ترجم له ابن سعيد في المُغرب ١٠٠/١ و ١٦٧/١، وتحفة القادم (الترجمة رقم ٢٥)، والإحاطة في

أخبار غرناطة ٢٩٤/٢، والوافي بالوفيات ٣٠٠/٤.

(٣) انظر في الكُدَيّة والمكدين بحث المقامات من هذا الكتاب.

الملابس وفي تشهي خروف العيد وفي طلب القمح..))^(١) وفي أخباره أنه دخل السجن، وأنه توسل بالأمير محمد بن سير فأنقذه منه وهذه قطعة من زجل له يشكو فيها القاضي ويشكر الأمير:

لقد اشتدّ حلي	وانقطع بعد ما اشتدّ
وإنما نشكر الله	وابن سير محمد
للقتل كان رفعي	ولد ابن المناصف!
وعدّ منّي منافق	وحسبني مخالف
لس عندك مصيبة	لو خرج روح واقف
أو نرى السيف بعيني	لقطوع راسي يجبد!
لم يُرَ قطّ لعمري	قاضٍ يعمل ذا الأعمال
أن يسكنّ جواري	كل حوّاس وقتال
بالله ما أطول الليل	إذ نبيت مشغول البال
ليل أن آخر يزداد فيه	أو حبل صورته يمتد!

ولا يقلّ الجدّ وجوداً في زجله عن الهزل فلكلّ كلام مقامه ومناسبته، وهو ذا يمدح في أحد أزجاله، ويدخل في الموضوع دون مقدّمات غزلية:

مثل ابن تاشفين يقال أمير والخلافة من بعد عادت تسير

بـارك الله في هـاذا الأيـام
تجـي أعـوام إذا مضت أعـوام
ويجعلهم سـلاطين الإسـلام
ونصرهم كما هـو نغم النصير

(١) الزجل في الأندلس وعصر الطوائف والمرابطين ٢٦٨.

وقد اهتم المستشرقون بأزجال ابن قزمان، وقد عدوا اكتشاف ديوانه حدثاً مهماً في تاريخ الشعر الأندلسي بل الأوربي كله^(١) لأهميته في الدراسات العربية والرومانية في القرون الوسطى، وكثرت البحوث حوله من جوانب متعددة: الأدب واللغة والاجتماع وغير ذلك.

مُدْغَلِيس:

اتّصلت الأزجال منذ نشأتها إلى آخر عهد ابن قزمان بالتوشيح والغناء. فلما جاء مدغليس ظهر على يديه، أو اقترن باسمه نوع جديد من الزجل هو القصيدة الزجلية.

وكان أهل الأندلس يقولون: ابن قزمان في الزجالين بمنزلة المتنبي في الشعراء، ومدغليس بمنزلة أبي تمام، بالنظر إلى الانطباع والصناعة (يريد: الطبع والصناعة) فابن قزمان ملتفت إلى المعنى، ومدغليس ملتفت للفظ..^(٢)

وكان لمدغليس ديوان زجل نقل عنه صفى الدين الحلي في كتابه: (العاطل الحالي والمرخص الغالي)

- ومن زجله في حوار بينه وبين النسيم:

لقد أقبلت يانسيم السّحر بروائح قد بوّرت للمسوك
توقد أنفاسك الذكيّة شمع في قلوبنا متى مانستنشقوك!

- ومن زجله في المديح (مدح ابن صناديد):

أبو عبد الله الذي أسّس لُجاه بن صناديد تبنّى واحتفل
ولُ همة قد علت فوق الهمم فهو لا يرضى الثريّا عن نعل
الرفيع الماجد الحرّ الشريف الشجاع الفارس الليث البطل

(١) الزجل ٦٩.

(٢) من عبارة للمقري في نفع الطيب ٣٥٦/٤.

ويذهب الدكتور الأهواني إلى أن: الباقي من أزجال مدغليس محكوم بأذواق الأدباء الذين اختاروا. وهو على كل حال لا يرقى إلى مستوى أزجال ابن قزمان فكأنه هو أمير زجالي الأندلس بلا منازع.

أبو الحسن الشُّشْتَرِي^(١)

هو أبو الحسن عليّ بن عبد الله النميري الشُّشْتَرِي الأندلسي. نسبته إلى شُشْتَر إحدى قرى وادي آش في جنوب الأندلس، ولد سنة (٦١٠هـ) درس علوم عصره، وخصوصاً: علوم القرآن والحديث والفقه والأصول، وزاد دراسة الفلسفة، وعرف مسالك الصُّوفية ودار في فلّكهم، وكان يُعرف بلقب: عروس الفقهاء.

- نظم الشُّشْتَرِي القصيد، والموشح، والزَّجل. وذاع صيته شرقاً وغرباً.
- وبدأ حياته تاجراً جوّالاً في الأندلس والمغرب، ولقي أبا مدين شعيب التلمساني الصوفي المشهور في بجاية فتبعه، ثم تبع ابن سبعين (أحد كبار المتصوّفة ومشهورهم).
- أدّى فريضة الحجّ، وسكن القاهرة مدّة، ولقي أصحاب الشاذلي حتى عدّوه منهم، وزار الشام سنة (٦٥٠هـ)، ولقي نجم الدين بن إسرائيل الصوفي الشاعر.
- كان الشُّشْتَرِي يطوف في البلاد ويردّد أشعاره وموشحاته وأزجاله على أنغام آله الموسيقية التي عُرفت باسم (الشُّشْتَرِيّة) ويتبعه الأشياع والأصحاب ممّن تسمّيهم المصادر بـ(الفقراء).

- وفي أخباره أن أهل طرابلس عرضوا عليه — حين نزل عندهم — منصب القضاء فأبى فنسبوه إلى الجنون، فقال قطعة أولها:

(١) تنظر ترجمته في (عنوان الدراية ١٤٠ ونيل الابتهاج ٢٠٢)

— ولأبي الحسن ديوان مطبوع حققه الدكتور علي سامي النشار، وطبع في منشأة المعارف بالإسكندرية.

رضي المتيم في الهوى مجنونه
 خلّوه يُفني عُمره بفنونه
 في أزجال أبي الحسن الششتري^(١) زجل يجري على نسق الموشح من حيث
 شكله بترتيب الأقفال والأغصان، يبدأ بالمطلع وينتهي بالخرجة، ويلاحظ على
 الأقفال أنها تتألف من ثلاثة أجزاء يتجدد الأول في كل قفل ويتكرر الثاني
 والثالث؛ على نهج يساعد الزجال على تقريب مقصده إلى مَنْ حوله وتابعيه،
 ويساعده في التوكيد اللفظي والمعنوي، ويبدأ الزجل على هذه الصورة:

اسمع كلاماً ملتقط افهمني قَطَّ افهمني قَطَّ

إيش قال لي واحد عَلاه

ذا المعنى افهم شرّحه

إيش اسم حبّك قلت: هو

اسم المليح ما يختلط افهمني قَط افهمني قَطَّ

وقال أبو الحسن الششتري^(٢):

شُوِيخٌ مِنْ أَرْضٍ مِكناس	وسَطُ الأسواق يُغْنِي
أشْ عَلَيَّاهِ مِنَ النَّاسِ	وأشْ عَلَى النَّاسِ مَنِّي
أشْ عَلَيَّاهِ ياصباح	مِنْ جَمِيعِ الخَلِيقِ
إِفْعَلْ الخَيْرَ تَنْجُو	واتبِعْ أَهْلَ الحَقائِقِ
لَا تُقِلْ يابني كَلِمَةً	إِلَّا إِنْ كُنْتَ صَادِقَ
خُذْ كَلَامِي فِي قُرْطاس	واكْتُبُوا جِرْزَ عَنِّي
أشْ عَلَيَّاهِ مِنَ النَّاسِ	وأشْ عَلَى النَّاسِ مَنِّي
ثُمَّ قَوْلٌ مُبِينٌ	ولا يَحْتَاجُ عِبَارَةً

(١) ديوانه ١٧٧.

(٢) الديوان ٢٧٣-٢٧٥.

أشْ عَلَى حَدٍّ مِنْ حَدٍّ
وَانْظُرُوا كِبْرَ سِنِي
هَكَذَا عِشْتُ فِي فِاسٍ
أشْ عَلَيَّا مِنْ النَّاسِ
وَمَا أَحْسَنُ كَلَامُـو
وَتَرَى أَهْلَ الْخِرَانَتِ
بَغَرَارِهِ فِي عُنُقُـو
شُوَيْخٍ مَبْنِي عَلَى أُسَاسِ
أشْ عَلَيَّا مِنْ النَّاسِ
لَوْ تَرَى ذَا الشُّوَيْخِ
إِلْتَفَتَ لِي وَقَالَ لِي
أَنَا نَنْصِيبُ لِي زَنْبِيلَ
وَأَقَامُوا بَيْنَ أَجْنَاسِ
أشْ عَلَيَّا مِنْ النَّاسِ
مَنْ عَمِلَ يَابِنِي طَيْبُ
لِعُيُوبُـو سَايُنْظُرُ
وَالْمُقَارِبُ بِحَالِي
مَنْ مَعُوا طَيِّبَةَ أَنْفَاسِ
أشْ عَلَيَّا مِنْ النَّاسِ
وَكَذَاكَ إِشْتَغَالُـو
وَالرُّضَا عَنْ وَزِيرُـو

إِفْهَمُوا ذِي الْإِشَارَةِ
وَالْعَصَا وَالْغَرَارَهُ
وَكَذَاكَ هُونٌ هُونِي
وَأشْ عَلَى النَّاسِ مِنْ مَنِي
إِذْ يَخْطُرُ فِي الْأَسْوَاقِ
تَلْتَفِتْ لِرِّبِّ الْأَعْنَاقِ
وَعُكَيْكَ كَزْ وَأَقْـرَاقِ
كَمَا أَنْشَأَ اللَّهُ مَبْنِي
وَأشْ عَلَى النَّاسِ مِنْ مَنِي
مَا أَرْقُـو بِمَعْنَى
أشْ نَرَاكَ تَتَبَعُنَا
يَرْحَمُـو مِنْ رَحْمِنَا
وَيَقُولُ دَعْنِي دَعْنِي
وَأشْ عَلَى النَّاسِ مِنْ مَنِي
مَا يُصِيبُ إِلَّا طَيْبُ
وَفِعَالُـو يُعَيِّبُ
يَقْـى بِرًّا مُسَيِّبُ
يَذْـى عُنْذَرِ الْمَغْنَى
وَأشْ عَلَى النَّاسِ مِنْ مَنِي
بِالصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ
أَبِي بَكْرٍ الْمُـجَّـدُ

وَعُمَّرَ قَائِلَ الْحَقِّ وَشَهِدَ كُلَّ مَشْهَدٍ
وَعَلَى مُفْتَى الْأَرْجَاسِ إِذَا يَضْرِبُ مَسَائِثِي
أَشْ عَلَيَّا مِنْ النَّاسِ وَأَشْ عَلَى النَّاسِ مِنِّْي
يَا إِلَهِي رَجَوْتُكَ جُدْ عَلَيَّا بِتَوْبَتِهِ
بِالنَّبِيِّ قَدْ سَأَلْتُكَ وَالْكَرَامِ الْأَحْبَبِهِ
الرَّجِيمِ قَدْ شَغَلَنِي وَأَنَا مَعُورًا فِي نُشْبِهِ
قَدْ مَلَأَ قَلْبِي وَسُوءَاسِ مِمَّا هُوَ يَبْغِي مِنِّْي
أَشْ عَلَيَّا مِنْ النَّاسِ وَأَشْ عَلَى النَّاسِ مِنِّْي
ثُمَّ وَصَفُ الشُّوَيْخِ فِي مَعَانِي نَظَامِي
وَإِنِّي خَوَّاصٌ وَنُقَرِّي لِأَهْلِ فَنَى سَلَامِي
وَإِذَا جَوَّزُونِي نَقُلْ أَوَّلَ كَلَامِي
شُوَيْخٌ مِنْ أَرْضِ مِكنَاسِ وَسَطَ الْأَسْوَاقِ يُغْنِي
أَشْ عَلَيَّا مِنْ النَّاسِ وَأَشْ عَلَى النَّاسِ مِنِّْي

الفصل الثالث

النشر الفني في الأندلس

٢١٣	الكتابة الديوانية
٢٢٧	الرسائل الإخوانية
٢٣٤	الرسائل الأدبية
٢٥٦	المقامة في الأندلس
٢٦٧	أدب الرحلة

الكتابة الديوانية

بدأت النصوص النثرية في الأندلس - كما بدأ الشعر - بالقليل المروي عن شخصيات مشرقية دخلت الأندلس واستقرت هناك من الولاة، والقادة، وذوي المكانة الذين تحفظ عنهم الآثار والأخبار.

وهذا خبر رواه صاحب (البيان المغرب)^(١) عن عبيد الله بن الحبحاب الذي كان والياً على إفريقية والمغرب والأندلس، وكان رئيساً نبيلاً، وأميراً جليلاً بارعاً في الخطابة والفصاحة. واتفق أن ورد على عبيد الله بن الحبحاب عقبة بن الحجاج السلولي يهنئه بالولاية فأكرمه عبيد الله، وبالع في إكرامه فاغتاض أبناء عبيد الله لذلك، وعرف عبيد الله من أبنائه موقفهم؛ فجمع الناس، وقام فيهم خطيباً فقال:

((أيها الناس! إنَّ بَنِي هَؤُلَاءِ غَرَّتْهُمْ غِرَّةُ الشَّيْطَانِ لِعِزَّةِ السُّلْطَانِ^(٢) فَأَرَادُوا أَمْرًا أَخْرَجُ بِهِ عَنِ الْحَقِّ، وَأَنْكَرُوا مَا رَأَوْا مِنْ بَرٍّ لِهَذَا الرَّجُلِ. وَإِنَّمَا أَخْبَرَكُمْ أَنَّهُ مَوْلَايَ (مَنْ مَعْنَى الْمَوْلَى: السَّيِّدُ) وَأَنْ أَبَاهُ أَعْتَقَ أَبِي! وَأَنَا أَكْرَهُ كَيْتَمَانَ أَمْرٍ، اللَّهُ سُبْحَانَهُ شَهِيدٌ عَلَيَّ بِهِ))!

وهذا القدر من الكلام يدل على الإيجاز والاختصار، والقصد إلى إبلاغ الأفهام مجرداً عن زينة وزخرف؛ وهو كلام مباشر: أدّى الغرض، وأبلغ المقصود.

وفي رسالة من عبد العزيز بن موسى بن نصير، وهي نصّ معاهدة مبرمة مع تدمير آخر ولاية القوط على منطقة فتحها عبد العزيز أو أعاد فتحها:

(١) البيان المغرب لابن عذاري ٥٠/١ - ٥١

(٢) يقول: إنهم داخلهم الغرور بوسوسة من الشيطان، وهي غرّة الشيطان وغروره بما ناهم، ونال أباهم من السلطان من عزّة السلطان وهي قوة الحكم وسطوته.

((من عبد العزيز إلى تدمير: أنه نزل على الصلح، وأن له عهد الله وذمته: ألا يُنزع عن ملكه، ولا أحد من النصارى عن أملاكه، وأنهم لا يُقتلون ولا يُسبّون: أولادهم ونسائهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا تُحرقُ كنائسهم ما تعبّد ونصح، وأنه لا يؤوي لنا عدوّاً، ولا يخون لنا أماناً، ولا يكتم خبراً علمه)).
والنصّ يذكرنا بالنصوص المشابهة في صدر الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، والدولة الأموية.

٢ - استقرت أحوال الأندلس من الناحية الإدارية، في عصر الإمارة الأموية، وتبع ذلك كثرة الكتاب الذين كانت تناط بهم المهام الإدارية في دائرة الدولة المختلفة. وكان لا بدّ للكاتب - لكي يصل إلى رتبة الكتابة - من أن ينال حظاً من الثقافة والمعرفة والمعلومات العامة من جهة، ومن المعلومات الخاصة التي تؤهله للعمل في الكتابة الديوانية، وتسيير الشؤون المناسبة.

وكانت رتبة الكاتب، رتبة رفيعة في الأندلس. وكانت لفظة الكاتب تُطلق^(١) على: كتاب الرسائل، وكتاب الزّمام. أما كتابة الرسائل فمعروفة، وأما كتابة الزّمام فينخفض بها المسؤول عن شؤون الخراج. ويضاف إلى هذين النوعين من الكتاب، الكاتب الخاص، وكان لدى كلّ أمير كاتب خاص. وكانوا يُطلقون عبارة (الكتابة العليا) على الهيئة العامة للكتابة في الدولة أو الإمارة.

والنصوص في صدر الدولة الأموية قليلة لا تقدّم القدر الوافي من أنواع التّسلُّ لإقامة دراسة موسّعة، تُطلق فيها الأحكام عن استقراء كاف. وعلى ذلك يستظهر الدارسون من خلال النصوص اليسيرة المفرّقة في الأصول والمصادر سمات عامّة للكتابة في هذه المدّة. من ذلك قول بعض الدارسين المعاصرين^(٢): إن الكتابة الرسمية تدلّ - في هذه المرحلة - ((على تفضيل الإيجاز والقصد في التعبير وإيثار المعنى)). ومن هنا فضّلوا الرسائل القصار، والأجوبة القريبة من شكل التوقيعات^(٣).

(١) تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة - د. إحسان عباس: ٣٢٥.

(٢) المصدر نفسه: ٣٢٦. وهذا مطابق لموقف عبد الرحمن الداخل في أساليب الكتابة.

(٣) راجع إحصاء صنعة الكلام لمحمد بن عبد الغفور الكلاعي: باب التوقيعات.

ومن النصوص في هذا العصر ما أورده ابن عذاري في تاريخه^(١) قال:

((كان الإمام عبد الرحمن (أي ابن معاوية الداخل) فصيحاً بليغاً، حسن التوقيع، جيد الفصول، مطبوع الشعر. ومما أملاه على كاتبه إلى سليمان بن الأعرابي:

أما بعد^(٢): فدعني من معاريض المعاذير، والتعسف عن حادة الطريق. لتمدد يداً إلى الطاعة، والاعتصام بحبل الجماعة، أو لألقين بنانها على رصف المعصية، نكالا بما قدمت يداك، وما الله بظلام للعبيد)).

والمعاريض ما عُرض به ووُري. والرصف: الحجارة المحمّاة.

- ونقل ابن عذاري أيضاً قال: كتب أمية بن زيد كاتب عبد الرحمن الداخل إلى بعض عمّاله يستقصره فيما فرط من عمله. فأكثر وأطال الكتاب. فلما لحظه عبد الرحمن بن معاوية، أمر بقطعه؛ لطوله، وكتب بخط يده: ((أما بعد، فإن يكن التّقصير لك مقدّماً فعسى الاكتفاء أن يكون لك مؤخراً. وقد علمت بما تقدّمت، فاعتمد على أيّهما أحببت)).

وهذا كتاب قريب من كتاب بعث به الخليفة الأموي يزيد على الوليد كما رواه الجاحظ^(٣):

((بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله أمير المؤمنين يزيد بن الوليد إلى مروان بن محمد: أمّا بعد فإنني أراك تُقدّم رجلاً وتؤخّر أخرى، فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيّهما شئت والسلام)).

- وكان مروان بن محمد قد تلى في المبايعة ليزيد بن الوليد.

(١) البيان المغرب ٥٨/٢

(٢) البيان والتبيين: ٣٠٢/٢

(٣) البيان والتبيين ٣٠٢/٢

ومن توقيعات الأمير عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) ما كتبه على رُقعة أحد رجاله، وذلك أن عبد الرحمن أعطى المغني زرياب ثلاثة آلاف دينار، ولحقه أولاده وحشمه يطلبون منه شيئاً منها؛ فنثرها عليهم جميعاً، فكتب ذلك الرجل بخبر زرياب بصيغة السَّعاية، فعَلَّقَ على ذلك ووقَّع بما نصّه:

((نَبَّهْتَ عَلَى شَيْءٍ كُنَّا نَحْتَاجُ التَّنْبِيهَ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا رِزْقُهُ نَطَقَ عَلَى لِسَانِكَ، وَقَدْ رَأَيْنَا أَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ إِلَّا لِيَحْبِبَنَا لِأَهْلِ دَارِهِ، وَيَغْمِرَهُمْ بِنِعْمِنَا، وَقَدْ شَكَرْنَاهُ، وَأَمَرْنَا لَهُ بِالْمَالِ الْمُتَقَدِّمِ لِيُمْسِكَه لِنَفْسِهِ. فَإِنْ كَانَ عِنْدَكَ فِي حَقِّهِ مُضِرَّةٌ أُخْرَى فَارْفَعَهَا إِلَيْنَا))^(١).

والنصُّ، رسالة قصيرة، من نوع التوقيعات. ويظهر فيها الأسلوب المرسل القاصد، الذي يكتفي بعرض المعنى المقصود في أقرب الألفاظ، وألصقها بالعرض.

- وعُرف الأمير عبد الله بن محمد بأنه كان متفنناً في ضروب العلوم، فصيح اللسان، حسن البيان، بصيراً باللغات، (وفي رواية للنص: بصيراً بلغات العرب، وهذا هو المقصود)، حافظاً لأشعار العرب، وأيامها وسير الخلفاء... إلخ.. وأملى كتاباً إلى بعض عماله^(٢) فيه:

((أما بعد. فلو كان نظرك فيما خَصَصْنَاكَ بِهِ، وَاهْتَبَأُكَ بِهِ عَلَى حَسَبِ مُوَاتَرَتِكَ بِالْكَتَبِ وَاشْتَغَالَكَ بِذَلِكَ عَنْ مُهِمِّ أَمْرِكَ، لَكُنْتَ مِنْ أَحْسَنِ رِجَالِنَا غِنَاءً، وَأَتَمِّهِمْ نَظْرًا، وَأَفْضَلِهِمْ حَزْمًا. فَأَقْلِلِ الْكُتُبَ (الكتابة) فِيمَا لَا وَجْهَ لَهُ وَلَا نَفْعَ فِيهِ. وَاصْرِفْ هِمَّتَكَ وَفِكَرَكَ وَعِنَايَتَكَ إِلَى مَا يَبْدُو فِيهِ اكْتِفَاؤُكَ، وَيُظْهِرُ فِيهِ غِنَاؤُكَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ)).

- وبعث وليد بن عبد الرحمن بن غانم رسالة إلى الأمير محمد يسأله فيها، بأسلوب لطيف أن يقرّبه ويسند إليه بعض المناصب الكبيرة:

(١) البيان المغرب ١٥٢/٢

(٢) البيان المغرب ١٥٤/٢

((عَظُمَتْ نِعْمَةُ الْأَمِيرِ - أَبْقَاهُ اللَّهُ - عَنِ الشُّكْرِ، وَجَلَّتْ أَيْادِيهِ عَنِ النُّشْرِ. فَمَتَى رُمْتُ شُكْرَ أَدْنَى مَا غَمَرَنِي، وَحَمْدَ أَيْسَرِ مَا اشْتَمَلَ عَلَيَّ تَكَاءُ دُنِي الشُّكْرِ^(١)، وَعَجَزَ بِي الْجَهْدُ، وَلَسْتُ بِمُؤَمِّلٍ مَعَ ذَلِكَ عَنِ الْإِسْتِفْرَاغِ فِي الْقَوْلِ، وَالْإِجْتِهَادِ فِي الْعَمَلِ؛ إِذْ لَمْ أُرْهِمَا يَدَوْرَانِ إِلَّا عَلَى نِعْمَةٍ أَزْلَفْتُ، وَيَقْتَصِرَانِ إِلَّا عَلَى زِيَادَةٍ انْتُظِرْتُ، وَأَنَا بِهِمَا مُخَيَّمٌ، وَعَلَيْهِمَا مَعْوَلٌ، وَاللَّهُ النَّاقلُ لِعِبَادِهِ بِطَاعَتِهِمْ لَهُ، وَشُكْرِهِمْ أَيْادِيهِ، مِنْ دَارِ الشَّقْوَةِ إِلَى دَارِ السَّعَادَةِ، وَمَنْ نَصَبَ الْعَاجِلَةَ إِلَى رَاحَةِ الْآجِلَةِ)).

وَرَدَّ عَلَيْهِ الْأَمِيرُ مُحَمَّدٌ:

((إِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ يُحِبُّ الشَّاكِرِينَ، وَقَدْ نَادَيْتَ فَأَسْمَعْتُ، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ)).

- وتظهر على الرسالة بوضوح آثار الأسلوب المرسل المجوّد، الذي يعتني بالعبارة الواضحة، والفكرة الجلية، في ثوبٍ من الألفاظ المعبرة الدالة، المنتقاة لملاءمة المعنى من جهة، وإيقاع الصدى في النفس من جهة أخرى. وفي الرسالة من الأسلوب الذي انتهى إليه الجاحظ ملامح واضحة.

وتدور النصوص الباقية من فترة الإمارة المروانية حول: المراسلات السياسية، والمراسلات الإدارية، وكتب المبايعة والتولية وعقود الأمان والتوقيعات.

وفي الأصول الأندلسية والمغربية تُنفّس سيرة في النثر التأليفي المتبقي من هذه المدة.

ونشير هنا إلى رأي الدكتور إحسان عباس الذي أورده، وهو يناقش النصوص النثرية الأندلسية إلى أواسط القرن الهجري الرابع فقد قال:

((وظل أمر الكتابة بسيطاً، لا تحلية فيه، حتى أواخر أيام المستنصر، وكان السجع يجيء في الرسائل عفواً دون تعمّد، حتى مقدّمات الكتب، كمقدمة كتاب (قضاء قرطبة) للخشني. طلّت عارية من السجع إلا فيما ندر.

(١) تكاءدني الشكر: صعب وشق.

وجعل الدكتور عباس الكتابة الفنية في الأندلس منذ البداية إلى أواسط القرن الخامس في مرحلتين.

المرحلة الأولى: وقد بينا رأيه فيها من خلال النصوص القليلة الموثقة.

والمرحلة الثانية: التي تبدأ في أواسط القرن الرابع، وتمتد إلى ما بعد منتصف القرن الخامس. وفيها من الكتاب: ابن بُرد الأكبر، وعبد الملك بن إدريس الجزيري، وابن دراج القسطلي، وابن شُهيد، وابن حزم (أبو محمد، وأبو المغيرة) والحنّاط، وابن حيّان المؤرخ وابن زيدون وغيرهم.

وهي قسمة مقبولة. وسيظهر فيما وراء المرحلة الأولى من هؤلاء الكتاب من يرسّخ قواعد الكتابة وأصولها ويترك آثاراً كتابية واضحة الخصائص، ومن تميّز بطريقة في الكتابة لا تعدّ محاكاة خالصة لأدباء المشرق. وفي أخبارهم أن الأندلسيين كانوا يتناقلون رسائل ابن درّاج القسطلي ويُعجبون بها. وكان رؤوس الكتاب يطلبون ممن يزاول هذا العمل الإتقان والتجويد كالذي نجده في أخبار والد الفقيه أبي محمد بن حزم، وكان كاتباً مشهوراً في الدولة العامرية: ((إني لأعجبُ ممن يلحنُ في مخاطبة أو يجيءُ بلفظة قلقة في مكاتبة؛ لأنه ينبغي أنه إذا شكَّ في شيء أن يتركه ويطلب غيره، فالكلام أوسع من هذا)).

وألّف ابنُ شُهيد كتاباً في البلاغة، تحدث فيها عن أساليب الكتابة وأصولها. ومما بقي من آثاره، وقد أورده عَرَضاً في (رسالة التوابع والزوابع)^(١)، تقسيمه لمراحل تطوّر الأساليب النثرية؛ وجعلها أربعة أنواع:

أ - طريقة الكتاب الأوائل الذين كانوا في صدر الإسلام.

ب - ثم طريقة عبد الحميد، وابن المقفع، والجاحظ وسهل بن هارون.

ج - ثم طريقة بديع الزّمان الهمداني، وشمس المعالي قابوس بن وشمكير وغيرها. وتبرز في هذه المدة أنماطٌ آخر من الكتابة الرسمية (الديوانية) في

(١) راجع رسالة التوابع والزوابع لابن شُهيد في الجزء الأول من القسم الأول من الذخيرة.

موضوعات كانت من مجال القضايا الشعرية، التي تعتمد الخيال، ونجد أمثلة لذلك في رسائل ابن شُهَيْد، وأبي حفص بن بُرد الأصغر: كرسالة المفاخرة بين السيف والقلم.

وقد ظهر عددٌ من الكتاب والخطباء في مدّة خلافة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) وهياً استقرار الدولة للتبحّر في الأمور الثقافية والعمرانية والحياتية. ومن الرسائل الباقية من مدّة عبد الرحمن الناصر، رسالة سلطانية (منشور) وجهه إلى حكام الأقاليم ليخبرهم باتخاذ لقب (ال خليفة)، قال فيه:

((بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد! فإننا أحقُّ من استوفى حقه، وأجدر من استكمل حظه، ولَبِس من كرامة الله ما ألبسه، للذي فضّلنا به، وأظهر أثرنا فيه، ورفع سلطاننا إليه، ويسرّ على أيدينا دركه، وسهّل بدولتنا. والحمد لله وليّ الإنعام بما أنعم به، وأهل الفضل بما تفضّل علينا فيه.

وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمر المؤمنين، وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك، إذ كلُّ مدعوٍّ بهذا الاسم غيرنا منتحلٍّ له، ودخيلٌ فيه، ومتسمٌّ بما لا يستحقّه. وعلمنا أنّ التّماذي على ترك الواجب لنا من ذلك حقٌّ أضعناه، واسمٌ ثابتٌ أسقطناه، فأمر الخطيب أن يقولَ به، وأجر مخاطبتك لنا عليه، إن شاء الله. والله المستعان))^(١).

ولا يختلف الأسلوب في هذا المنشور (الرسالة / الكتاب) عن أساليب المرحلة الأولى من الاعتدال والقصد والجلاء، وطلب الفكرة، وإيضاحها بعبارة بسيطة دالة. ولا نلمح أثراً للسّجع والتكلّف، ولا أثراً لصنعة زائدة، سوى هذه القسمة في العبارات، والتوازن - أحياناً - مع دقة في اجتلاب الكلمة المناسبة، وبراعة في اختيار المعاني، في تلوين صوتي مُعجب.

(١) النص في البيان المغرب لابن عذاري ١٩٨/٢ - ١٩٩، وتاريخ هذا المنشور هو سنة ٣١٦ هـ.

وهكذا: جرت أحوال الكتابة الديوانية على الأحوال المألوفة منذ عهد عبد الرحمن الداخل إلى عهد عبد الرحمن الأوسط الذي يُعدُّ ((مؤسس الحضارة الأندلسية ونظمها الإدارية))^(١)، فقد اتخذ ما يماثل مجلس الوزراء، وقسم شؤون الدولة في القضاء والمال والحرب وغير ذلك إلى خطط، واقتضى ذلك تعدد الكتاب مع الوزراء وأصحاب الخطط، مما كان له أثره في نهضة الكتابة الديوانية.

ويحفظ التاريخ أسماء عدد كبير من كتّاب الدولة الأموية الذين ساروا على الأسلوب المرسل في الكتابة حتى كان زمان هشام بن الحكم؛ ومدبر دولته الحاجب المنصور، وولديه المظفر والناصر فظهرت الرسائل الديوانية المسجوعة كما في كتابة ابن بُرد الأكبر (ت ٤١٨ هـ).

٣ - فلما أظلت الأندلس دول الطوائف كثر كتاب الدواوين كثرة بالغة؛ فقد صار كل بلاطٍ أو قصرٍ أو دار حكمٍ في مدينةٍ أو مقاطعةٍ في حاجة إلى رسوم السُّلطة وأُبَّهة المُلْك. وكان الكاتب (الوزير في الوقت نفسه غالباً) أُنْزَرَ تلك الرسوم وملحها الأساسي، وأصبح السَّجع في رسائل الكتاب: ((أشبه بقانونٍ عامٍ في جميع الرِّسائل الديوانية))^(٢).

ومن هؤلاء الكتّاب في هذه المدة ابن بُرد الأصغر كاتب معن بن صُماح أمير المَرِيَّة، وأبو محمد بن عبد البرّ كاتبٌ مُجاهد العامريّ وابنه عليّ، وكانوا في دانية بشرق الأندلس، وأبو المطرّف بن مثنى كاتب المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة، ومحمد بن أيمن كاتب المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس.

ولابن أيمن رسالة كتبها عن المتوكل المذكور إلى يوسف بن تاشفين أمير المغرب يستنجد به باسمه وباسم الأندلس كلها ضد ألفونس (يسميه العرب أذفونش) ملك قشتالة وغيره من ملوك نصارى الشمال الطامعين، الذين أنهكوا البلاد والعباد، قال:

(١) الأندلس. د. شوقي ضيف: ٣٩٢

(٢) المصدر نفسه: ٣٩٤.

((... لما كان نور الهدى دليلك، وسبيل الخير سبيلك؛ ووضحت في الصّلاح معاليك، ووقفت على الجهاد عزائمك؛ وصحّ العلم بأنك لدعوة الإسلام أعزّ ناصر، وعلى غزوك الشّرك أقدر قادر؛ وجب أن تُستدعى لِمَا أعضل من الدّاء، وتُستغاث لما أحاط بالجزيرة من البلاء. فقد كانت طوائف العدو المُطيفة، بها - أهلكهم الله - عند إفراطٍ تسلّطها واعتدائها، وشدة كَلْبها واستشرائها، تلاطف بالاحتيال، وتُستنزل بالأموال...)).

وتستمرّ الرسالة على هذا النمط من الأسلوب المسجوع، على أنه أسلوب مقبول، وسجّعه غير ثقیل؛ ومقدرة الكاتب اللغوية أتاحت له اختيار المناسب من الألفاظ فجاءت مناسبة، حسنة القبول.

والموضوع كان ابن الساعة آنذاك. لقد انضمّ ابن الأفطس إلى الجمهرة الأندلسية، وهي تدعو ابن تاشفين لدخول الأندلس وردّ عادية غزاة الشمال.

٤ - وعصر الطوائف أفضى بكثير من كتابه وأدبائه إلى عصر المرابطين^(١)، وبرز من كتاب أمراء المرابطين وحكّام المناطق أبو القاسم بن الجَدّ، وأبو عبد الله بن أبي الخصال (وهما من كتاب أمير المسلمين عليّ بن يوسف بن تاشفين، وسنقف وقفة خاصّة عند ابن أبي الخصال) وفيهم عبد المجيد بن عبدون وكان شاعراً وكاتباً، وأبو الحسن عليّ بن الإمام.

- وبرز من كتاب دولة الموحّدين ابن عيّاش (أبو عبد الله محمد ٥٠٠ هـ - ٥٨٦ هـ) وأبو عبد الله محمد بن يخلّفن الفازاري القرطبي، وابن جُبَيْر صاحب الرحلة ولنا معه وقفة خاصّة، وابن هرودس (وكان شاعراً ووشاحاً أيضاً).

- وأعقب دولة الموحّدين، وكان في أثناء أيامها الأخيرة، مجموعة من المتغلبين على بعض مناطق الأندلس في ما عُرف في التاريخ أحياناً باسم عصر الطوائف الثاني. وأثر هذا في ظهور مهمّة الكاتب (والكاتب شخصية ملازمة لكل أمير

(١) يدرس عصر المرابطين من الناحية الأدبية - عادة - مع مدّة الطوائف.

أو حاكم أو متنفذ يحاول سلطة أو حكماً) إلى أن استقرت أحوال الأندلس الباقية في يد محمد بن الأحمر (مؤسس دولة بني الأحمر، أو بني نصر) في مملكة غرناطة.

وفي كتاب هذه المدة: أبو يحيى بن هشام القرطبي، وأبو جعفر بن طلحة، وابن الجنان، وأبو المطرف بن عميرة المخزومي (وكان شاعراً مشهوراً وكاتباً بارعاً) وابن الأبار (وكان شاعراً أيضاً وله ديوان مطبوع).

- وأبو المطرف هو أحمد بن عبد الله المخزومي^(١) (٥٨٢ - ٦٥٨ هـ) من أهل جزيرة شقر (مدينة ابن خفاجة) طلب العلم في مدن كثيرة، واشتغل بالكتابة في بلنسية ومرسية وإشبيلية عند عدد من الأمراء والحكام. وعبر البحر إلى سبتة في مدة اضطراب الأندلس، عند واليها ابن خلاص، ودخل مراکش مع الخليفة الموحدي الرشيد، وخدم غيره من خلفائهم، ثم دخل تونس. وجال في عدد من مدن المغرب الأدنى والأوسط. وخدم بعض خلفاء الحفصيين في تونس إلى وفاته غريباً عن وطنه سنة (٦٥٨ هـ).

ولأبي المطرف رسائل مجموعة^(٢). ومنها رسالة كتب بها عن ابن هود، فيها عقد ابن هود على أهل شاطبة الولاء للخليفة العباسي ببغداد المستنصر، وفيها البيعة لنفسه، ولابنه ولياً للعهد من بعده، جاء في ذلك العقد:

((الحمد لله الذي جعل الأرض قراراً، وأرسل السماء مدراراً، وسخر ليلاً ونهاراً، وقدر آجالاً وأعماراً، وخلق الخلق أطواراً، وجعل لهم إرادة واختياراً، وأوجد لهم تفكيراً واعتباراً، وتعاهدهم برحمته صغاراً وكباراً.

(١) ترجم له في معجم أصحاب الصّدي ١٦٣، وتحفة القادم الترجمة ٩٢، واختصار القدح العلّٰى ٤٢، والمغرب ٣٦٣/٢، وجذوة الاقتباس ٧٢، وعنوان الدراية ١٧٨، والإحاطة ١٧٣/١.

- وللدكتور محمد بن شريفة دراسة عن أبي المطرف (ط الرباط) نشر المركز الجامعي للبحث العلمي.

(٢) لأبي المطرف رسائل مجموعة في كتاب (في الرباط - بالخزانة العامة مخطوطتان منه).

نحمده حمداً من يرجو له وقاراً، ونبرأ ممن عانده استكباراً، وألحد في آياته سفاهةً واغتراراً.

وصلى الله على سيدنا محمد الشريف نجاراً، السامي فخاراً، رفع الله من شريعته للأمة مناراً، وأطفأ برسالته للشرك ناراً، حتى علا الإسلام مقداراً، وعزّ جاراً وداراً، وأذعن له الكفر اضطراراً، واستسلم ذلةً وصغاراً، فمضى وقد ملأ البسيطة أنواراً، وعمّها بدعوته أنجاداً وأغواراً، وأوجب لولاة العهد بعده طاعةً وائتماراً...)).

ويستمرّ العقد على هذه الصورة من العناية، والأناقة، والصنعة الفنية. ويلاحظ القارئ التطويل، واستعراض المقدرة البيانية، ولجوء الكاتب للأسلوب المسجوع. وزيادة: لزوم ما لا يلزم، ذلك بأنه التزم حرف الراء في السجع.

وعلى الرغم من إحكام الصنعة ولزوم ما لا يلزم جاء النصّ منسباً في أفكاره، ومقاصده، وساعد الكاتب على هذا مقدرته اللغوية، وسعة معجمه اللغوي، وإتقانه صنعة الكتابة.

٥- الكتابة في عصر غرناطة

معروفٌ من المقدمات التاريخية أن الأندلس صغرت في المكان والسيطرة على البلاد، وانحازت إلى قطاع من الجزيرة الكبيرة في الجنوب والجنوب الشرقي الذي شكّل دولة غرناطة (دولة بني نصر - بني الأحمر).

ولكن الأندلس بقيت على المتابعة الحضارية التي عرفتْها أيام العزّ القديم، مع الامتثال للظروف الجديدة، والمُعْطيات الحاضرة.

أما الشعر والكتابة فاستمرت الحال معهما على النشاط، بل عادت إلى بعض الأغراض الأدبية صَحْوَتُها في ظلال دولة غرناطة. وقد نبغ في الكتابة أدباء كانوا هم أيضاً البارعين في الشعر، على نمطٍ يقلُّ وجودُهُ مثل ابن الحكيم الرندي، وأبي الحسن بن الجيّاب، ولسان الدين بن الخطيب، وابن زمرك...

وظهرت أُسرٌ اشتهر أفراد كثيرون منها بالإبداع الأدبي، ونذكر من الكتاب أسرة بني الخطيب وفيهم لسان الدين، وأبوه، وابنه، وأسرة بني جُزَيّ، وهم جمهرة، فيهم ابن جزيّ الذي دوّن رحلة ابن بطوطة، وأسرة بني الحكيم وأصلهم من مدينة رُنْدَة^(١).

وفي (نفح الطيب) و (أزهار الرياض) وغيرهما نماذج من الرسائل الأدبية من هذا العصر تشير إلى استمرار نهضة الأدب، وظهور الكتاب البارعين الذين تخرّجوا في دواوين الدّولة الرسمية من جهة وتحت نظر العلماء والأدباء في محالس الدرس والبحث والعلم من جهة ثانية.

والأدب في هذه المدّة، والنشر الفني خاصّة، يتجاوز مرحلة نهضة النشر إلى مرحلة تالية لها، كما يقدر الدكتور ضيف.

فبعد نهضة النّشر الفنّي في الأندلس، وبروز أعلامه الكبار، ظهرت عليه علامات المراوحة في المكان، وعدم التّجديد المؤدي إلى حيوية الكتابة أو ما سمّاه د. ضيف: جمود النّشر الفنّي^(٢)، فالأدب الذي يظهر — كما يقول — هو أدب مكرّر مُعاد: كرّرت أساليبه، وأُعيدت عباراته مئات المرّات بل آلاف المرّات، ولا جديد فيه إلّا ما يتصنّع له الكاتب من مصطلح علمي أو لون بديعي أو إشارة إلى مثل، أو استخدام لغريب؛ أو نحو ذلك مما كان يُعدّ آيةً في هذه العصور على بلاغة الكاتب ومهارته الفنية.

ولقد نبغ لسانُ الدّين بن الخطيب في القرن الثامن الهجري وكان أعجوبة عصره في الجمع بين السياسة والأدب، وفي الجمع بين الشعر والنّثر، وفي تنوّع الاهتمام بفنون شتى مختلفات، وهو — كما يصفه في الفنّ ومذاهبه — أبرع كاتب

(١) للتفصيل: انظر الدراسة المفصلة عن (ابن الأحمر) وكتابه نشر فرائد الجمال في كتابنا: نشر فرائد الجمال في نظم فحول الزمان، لأبي الوليد بن الأحمر - طبع دار الثقافة - بيروت - ١٩٦٧ - وتحقيق محمد رضوان الداية.

(٢) الفنّ ومذاهبه في النّشر العربي (ط ٩): ٣٣٢

أخرجته الأندلس في عُصورها الأخيرة وهو لم يقف في كتابته عند الرسائل الديوانية أو الشخصية بل كتب كتباً كبيرة في التاريخ والتصوف والموسيقى والفقه والطب، ونهج لسان الدين في كتبه نهج السجع وإن لم يلتزمه دائماً. وكان له نفس طویل يظهر في رسائله المُسهبَة. وقد تنبّه المقرّي إلى الكثرة والطول في رسائله فقال فيه:

((إنه كاتب مترسل بليغ لولا ما في إنشائه من الإكثار الذي لا يخلو من عثار؛ والإطناب الذي يُفضي إلى الاجتناب، والإسهاب الذي يُقدّ الإهاب)).

وقد نبّه لسان الدين على غلبة السجع على ذوق العصر، وهو يخرج عن ذلك الذوق؛ عودةً إلى الأصل وهو الكلام المرسل؛ قال في مقدمة رسالة من رسائله الديوانية - السلطانية^(١): ((ولما وصل السلطان أيده الله من غزاة أطريسة بعد استفتاح حصن أشر المتقدم الذكر^(٢))، صدر عني في التعريف بذلك سلطان المغرب ((وهو من الكلام المرسل الذي قلّما ألوى على سجع، ولا وقف على قافية))؛ لشغوف هذا الغرض في هذه الأقطار.

فالناس آنذاك يسجلون رسائلهم بالأسلوب المسجوع، ولكن بعضهم يكتب بالأسلوب المرسل، كما أن الذين يتخذون أسلوب السجع يخرجون عنه إلى المرسل أيضاً.

ويلاحظ أن بعض المؤلفات كانت تدوّن بالأسلوب المسجوع كالذي نراه في (الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من أهل المئة الثامنة) لسان الدين وفي (نثر الجمان في من جمعي وإياه الزمان) لأبي الوليد بن الأحمر.

وتفنن لسان الدين في السجع، وخرج أحياناً إلى ما سمّاه د. ضيف السجع المركّب (في مقابلة السجع البسيط). ففي القطعة التالية من إحدى رسائله بنى

(١) ربحانة الكتاب ١٥٢/١ وهي رسالة من سلطان الأندلس إلى سلطان المغرب.

(٢) في رسالة سابقة.

الكلام على سجعة الفاء، ثم داخل بين أجزاء الجملة بحرف آخر، حتى يكون في كل فقرة سجعة الفاء في آخرها إلى جانب سجعة أو أكثر بحرف آخر، قال مثلاً:

((الخلافةُ التي ارتفع عن عقائد فضلها الأصل قواعد الخلاف؛ واستقلت مباني فخرها الشائع، وعزّها الذائع، على ما أسّسه الأسلاف؛ ووجب لحقها الجازم وفرضها اللازم، الاعتراف؛ ووسعت الآملين لها الجوانب الرحيمة والأكناف؛ فامتزاجنا بعلائها المنيف، وولائها الشريف كما امتزج الماء والسلاف؛ وثناؤنا على مجدها الكريم، وفضلها العميم، كما تأرّجت الرياض الأفواف...)).

فلاحظ العين سجعة مستقلة داخل الفقرة الأولى، والميم في الفقرة الثانية، والفاء في الثالثة، والميم في الرابعة، مع بقاء السجعة الأصلية: الفاء المسبوقة بألف ممدودة.

وكان (البديع) بفنونه المختلفة بين يدي الكاتب ليختار منه ما يزين به كتابته، ويرصّع أسلوبه، كاللجوء إلى الجنس بأنواعه.

الرسائل الإخوانية

ويقال فيها: الرسائل الشخصية؛ لإظهار اختلافها عن الرسائل السلطانية أو الديوانية. وهي رسائل يعبر فيها الكاتب عن قضايا خاصة وأمور شخصية، أو تتعلق بشأن من شؤونه في علاقاته مع الأهل والأصدقاء ممن قُرب مكانه أو بُعد مزاره، ويدخل في ذلك التهاني، والعتاب، والاستعطاف، والاعتذار، والتعازي، والثناء والشكر، وما شابه ذلك من الموضوعات والأغراض.

ومن المؤلف أن يكون كتاب الدواوين المشهورون هم كتاب الرسائل الإخوانية والشخصية في أغلب الأحوال.

١ - ومن أوائل من بقي شيء من رسائلهم ابن درّاج القسطلي الذي اشتهر شاعراً كبيراً أيام الحاجب المنصور، وفي أوائل القرن الخامس. وقد أثنى ابن شهيد وابن حزم على رسائله؛ وهي مفقودة إلا التفت اليسيرة في كتاب الذخيرة^(١).

ومن نثره قطعة يُثنى فيها على منذر بن يحيى، فيها:

((حَيَّاكَ بِتَحِيَّةِ الْمَلِكِ مَنْ أَحْيَا بِكَ دَعْوَةَ الْحَقِّ، وَرَدَّكَ رِذَاءَ الْإِعْظَامِ مَنْ أَعْلَى بِكَ لَوَاءَ الْإِسْلَامِ: مُجْرِي الْأَقْدَارِ بِإِعْلَاءِ قَدْرِكَ، وَمُصَرِّفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بِإِعْزَازِ نَصْرِكَ، وَمُظْهِرِ مَنْ أَطَاعَكَ عَلَى مَنْ عَصَاكَ، وَمُدْمِرِ مَنْ عَادَاكَ بِسَيْوْفٍ مِنْ وَالَاكَ. قَدْ جَعَلَ اللَّهُ أَوَّلَ أَسْمَائِكَ أَوَّلَى بِأَعْدَائِكَ، وَأَقْرَبَ اعْتِرَائِكَ صَفْواً

لأوليائك. ثم سَمَا بك حاجب الشمس، نوراً وأنساً لهذا الإنس، ونفس حياة لكل نفس:

ثم أحييتَ فجرَهُم يا ابن يحيى بسراجين: نور دين ودُنْيَا
وخلفت السحاب ظلاً وجُوداً فوسعت الإسلام سَقِيّاً ورَعِيّاً
وتحلّيت من ((تجيب)) سناء كنتَ فيه للدين والمُلك مَحِيّاً!
ونلاحظ في الرّسالة بواكير إحكام السّجع في الرّسائل، ومحاولة الكاتب تركيب السّجع (اعتماد سجعة إضافية مع السّجعة الأصلية في العبارة) ثمّ سنراقب التوسّع فيه، مع الأعْصُرِ التّالية.

٢ - وكثُر الكُتّاب في عصر دُول الطّوائف كثرةً واضحة. ومعلومٌ أنّ هذا العصر (القرن الخامس) شهدَ ظهورَ دُوِيَلاتٍ وإماراتٍ ورثت الدّولة الواحدة (دولة بني أمّية) وهي إماراتٌ حرصت على اتّخاذ أبهة المُلُك والسّلطان ومتمّمات رسوم الدّولة!

وعكست رسائلُ الأدباء الإخوانية (أو الشخصية) في هذا العصر ظروفه الاجتماعيّة، وحياة الأديب في ظلال ذلك الزمان المضطرب سياسياً، والمضطرب اجتماعياً أيضاً - بصفة عامّة - . ومثلما نجدُ رسائل الشكوى وقسوة الحياة من جهة نجدُ رسائل التّهنّاء، واللقاء على مجالس الأنس وحفلات الناس من جهة ثانية.

ونقرأ رسالة شكر للوزير الكاتب أبي عُمر بن الباجي^(١) وهو من بلغاء الكُتّاب بالأندلس، كتبها عن المُقتدر بن هود ملك سَرَقُسطة إلى ابن ذي النُّون ملك طُلُيطة يشكره فيها على إطلاق أبي مروان بن غُصن الحجاري من السّجن^(٢). قال فيه:

((كتابي - أيّذك الله - كتابٌ أعرّيته من ذكر الوداد، وعدلتُ فيه عن وصف

(١) والكاتب هو يوسف بن جعفر الباجي كان فقيهاً جليل القدر. رحل إلى المشرق وحجّ. وولي قضاء حلب. وعاد إلى الأندلس، فجلّ قدره عند المقتدر بن هود ملك سرقسطة.

(٢) النصّ في الذخيرة ١٩٣/٢

الاعتقاد، خرقاً لعادة المتودّدين، وصفحاً عن طريق المتصنّعين. على أني - علم الله - في الصدر المُقدّم ممّن يُواليك، والرعيّل الأوّل ممّن يتشيع فيك. وأفردته بشكر يدك البَيضاء، وحميد صنيعتك الغراء، التي طوّقت بها جيد الأدب طوقاً يبقى على الحَقْب؛ ووضعت على نار الذكاء وقوداً يسطع بطيب الثناء. مزاحماً بهمتك كلّكل الزّمان، وقد أناخ على الفهم بجران^(١)، ومحافظاً على حرمة الكرم وقد أعرض عن ثقلها الثّقلان، أنفةً من أن يضيع حذاء نظرك حقّ أديب، وتقطع بمرأى عينك نفس لبيب. وأنت عينُ الآداب، وعمدة ذوي الألباب؛ فيعود عليك من أهلها ملام، ويقول قائلها: ضاع عند أوفى البرية ذمام. فله همتك التي أبت إلا الحفاظ السّليم، وشيمتك التي لم ترض إلا المقام الكريم، ويدك التي انتعشت بها الأديب أبا مروان بن غصن من هوة العثار، وفككته من قبضة الإِسار، فأحييته وهو مُشفٍ على البوار^(٢) (...)).

فقد دخل الكاتب - دون مقدمات - في الموضوع، وأطال الثناء على ابن ذي النون لإطلاقه سراح الأديب ابن غصن. بلغة حسنة، وعبارة قريبة، وحماسة قويّة لذلك الصنيع الكريم. وكأنّ الكاتب يجد في الدفاع عن ابن غصن دفاعاً عن (الأديب) عامّة. والأسلوب مسجوع، لكنه سجع بسيط، لم يؤثر في وضوح المعاني، ولم يقلل من حرارة الموقف وانفعال الكاتب.

٣ - وأدخل مؤرّخو الأدب في الرسائل الإخوانية رسائل متبادلة بين الأدباء في ما بينهم، وبينهم وبين غيرهم أيضاً، لها علاقة بالأزهار والأنوار سمّاها بعضهم: ((الرسائل الزّهريّة))^(٣). ونجد منها في كتاب (الذخيرة) لابن بسّام، وفي كتاب (البديع في وصف الرّبيع) لأبي الوليد الحميري^(٤).

(١) الكلّكل: الصّدر. والجران: مقدّم عنق البعير من مذبحه إلى منخره. ويتّال: ألقى فلان جرانه، وضرب بجرانه أي ثبت واستقرّ.

(٢) البوار: الهلاك.

(٣) الذخيرة ٢/١٩٤ الحاشية: ٢

(٤) ويقال فيه: البديع في فصل الرّبيع. وله - إلى الآن - ثلاث طبعات بدأها المستشرق هنري بيريس

ومن هذا المقصد رسالة للوزير الكاتب أبي مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري^(١) رفعها إلى المنصور (الحاجب) محمد بن أبي عامر عن بنفسج العامرية؛ والرسالة ثناء وشكر ومديح من جهة، وكلام في (الزهریات) بمناسبة الربيع وزهر البنفسج من جهة أخرى. قال^(٢):

((... إذا ترافعت الخصوم وتنافرت في مفاخرها فإليك مَفزَعُهَا وأنت المقنع في فصل القضية بينها، لاستيلائك على المفاخر بأسرها، وعلمك بسرّها وجهرها. وقد ذهب البهار، والنرجس في وصف محاسنهما، والفخر بمشابهتهما كلّ مذهب؛ وما منهما إلا ذو فضيلة غير أنّ فضلي عليهما أوضح من الشمس التي تعلونا، وأعرّف من الغمام الذي يسقينا...)).

وكتب الجزيري أيضاً إلى المنصور عن بهار العامرية في كانون الأوّل سنة (٣٨٣ هـ)؛ وجعل الكلام على لسان تلك الزهرة مباشرة على سبيل التخييل والتشخيص^(٣):

((... إني - أيد الله المنصور - لما استقلّت بزهرتها مائلة قضي، وتنبّهت من سنّتها نائمة جفوني، ونمت بعطرها ساطعة روائحي، وافترشت دياج حديقة بكرّ وسميها، وتتابع وليها. فالتقى ثرياها، وأخذت الأرض زحرفها وأزّنت، وطار صعيدها حتى كأنّ ترابها فتيت المسك، أو سحيق الكافور عنّ لي زهو بحسني، وارتياح لحالي، وإعجاب بمكاني. وشاركت ذلك دواعي هزة الشوق إليك، وشواجي لوعة البعد عنك حين فارقت محلي، وآثرت بالزيارة غيري، فحرّكن مني ساكناً، وبعثن لي على مناجاة الشعر خاطراً...)).

ويورد الكاتب الشاعر بعد سطور قطعة من الشعر يقول في أولها:

(١) من وزراء الدولة العامرية وكتّابها. انظر ترجمة له في الذخيرة ٤/٤٦، وجذوة المقتبس ٢٨٠ برقم ٦٢٤).

(٢) البديع في وصف الربيع: ٨٠

(٣) البديع: ١٠٢ - ١٠٣

حَدَقُ الحِسانُ تُقَرِّ لي وتغارُ وتضلُّ في صفة النُّهى وتَحارُ
طلعت على قُضبي عيون كمائمي مثل العيون تحفُّها الأشْفارُ
وأحصُ شَيْءَ بي إذا شَبَّهتني درر تنطَّق سلكها دينارُ
أهدتُ له قُضب الزمرد ساقه وجباه أنْفَسَ عطره العطَّارُ
أنا نرجسٌ حقاً بهرتُ عقولهم بيديع تركيبي فقيـل بهارُ
إلى أن يقول الكاتب الشاعر ذاكراً صفة الجود عند المنصور ملمحاً بقصده
من طلب العطاء بصورة غير مباشرة:

((وأقلُّ جودِ العامريِّ محمَّدٍ أَلْفٌ حَكَتْ حَدَقِي وتلك نُضارُ
عشرٌ تُعَدُّ من المثين لأنْمُلِ عشرٌ يصرّفُها وهُنَّ بحارُ!))
فالنصّ هو رسالة، قطعة نثرية موصولة بقطعة شعرية. وقد أضاف الكاتب
أبيات الشعر استكمالاً لقضيّته في الرسالة.

- والرسالة واحدة في (الزهريات) التي فشا نهجُها، وكثُر استخدامها
لأغراض شتى. والكاتب الشاعر الجزيري أراد أن يؤكد الصّلة بينه وبين
الحاجب المنصور، فاستفاد من نرجسة مبكرة ظهرت زهرتها في كانون الأول
(ديسمبر) في عزّ البرد، وجعلها جديرة بأن تكون للممدّوح، وأن تمثل بين يديه.

- وأنطق الكاتب النرجسة على سبيل الاستعارة فتحدّثت عن خصائصها
الزهرية شكلاً وعطراً، وألواناً زاهية.

- وأجرى العتاب على لسان الزهرة المذكورة حين غادر المنصور ديارها وآثر
بوجوده غيرها.

- وجعل فكرة المعاتبة وسيلة للانتقال من النثر إلى الشعر، ولتكون الزهرة
نثرها وشعرها هدية للمنصور عسى أن تحظى هي، ويحظى الكاتب - بالمناسبة -
برضى المنصور، وأريحته أيضاً.

- وقد استفاد الكاتب من اسم التّرجس كما يقوله الأندلسيون وهو البّهّار، وحرك المقاصد المعنوية في إطار المقاصد اللغوية بشيء حسن من المهارة وحسن التصرف، فالترّجس لم يُسمّ بهاراً إلا لأنه يغلب ويهّز!

٤ - وكتب ابن أبي الخصال^(١) إلى أحد القضاة من أصحابه، وكان قد نُحّي عن خطة القضاء ثم أعيد إليها^(٢)،

((... وما زالت خُطّة القضاء تضيق عليها بعدك سعة الفضاء، وتقلّب وجهها في السّماء لتؤكّل قبلة ترضاها، وتُحلّي عصمة ماجد يجمع فوضاها؛ وتنوح على ذلك النّصاب الرفيع أحد نوح، وتبكي ممّن تقلدها بكاء الخزّ من روح، وتستوحش - وحقّ لها - من جفّة أجلاف، وتنكر بعد محاسن الجياد مساوي أظلاف، وتتلّف نخوك تلّت الصّمة إلى الحيّ، وتندم ندامة من ترك الرّأي بالرّأي، وتحنّ إليك حين من طرحه اغترابه، وبان عنه ترابه، وفارقه ألافه وأترابه...)).

فهو يُثني على صاحبه، ويذكر مكانته، ويرفع شأنه عن طريق تصوير شوق منصب القضاء إليه، وتوق تلك الخطة نحوه.. واعتمد الكاتب على أسلوب السّجع، والتزم زيادة على ذلك لزوم مالا يلزم، وأكثر الكاتب من الإشارات التاريخية واللمحات الأدبية.

- وقول الكاتب: ((... بكاء الخزّ من روح)) فيه إشارة إلى قول حميدة بنت النعمان بن بشير الأنصاري في زوجها روح بن زنباع:

بكى الخزّ من روح وأنكر جلدّه وعجّت عجيجاً من جذام المطارف

- وقوله: ((تلّت الصّمة إلى الحيّ)) فيه إشارة إلى شعر للصّمة القشيري أحد شعراء الغزل العذري في العصر الأموي قال فيه^(٣):

(١) له ترجمة في الفصل الرابع من هذا الكتاب، وانظر: الرسائل الديوانية.

(٢) رسائل الكاتب الفقيه: ٣٩٨ - ٣٩٩.

(٣) الحماسة بشرح المرزوقي (رقم ٤٥٤، ص: ١٢١٨).

تَلَفْتُ نَحْوَ الْحَيِّ حَتَّى وَجَدْتُني وَجَعْتُ مِنَ الْإِصْغَاءِ لَيْتاً وَأَخْدَعَا!

وتقترب خصائص الرسائل الإخوانية من خصائص الرسائل الديوانية، غير أن الديوانية أطول، وتلتزم فيها عادةً أصول الكتابة، ورسوم المخاطبات الملوكية والسُّلطانية...

الرسائل الأدبية

كثرت الرسائل الأدبية في التراث الأندلسي، وتعددت أغراضها؛ وأظهر الأديب الأندلسي براعةً في تناول موضوعاته، وتلوينها، وصدرت رسائل أدبية تعالج جوانب ذات علاقة بالخصوصية الأندلسية مثل الرسائل التي: ((تتخذ الجهاد والاستنفار للحرب، وتصوير معاركها العنيفة موضوعات لها))^(١)، والرسائل التي تقال على لسان الأزهار والأنوار وما يخص الطبيعة، والرسائل التي يعتمد كاتبها فيها على عنصر الفكاهة والدُّعابة.

ونذكر من أسماء الكتاب المشهورين: ابن شهيد ورسالة (التوابع والزوابع) وابن زيدون و (الرسالة الهزلية) وأبا الحسين سراج بن عبد الملك، وابن أبي الخصال في الرسائل الزرزورية، وابن خفاجة في وصف الطبيعة، وابن حزم في (طوق الحمامة) والكلام على الحب والمحبين.

١ - ومحمد بن مسعود رسائل وقصائد هزلية:

أورد ابن بسام منها نتفاً تدل على اكتمال شخصية الرجل وأسلوبه الهزلي، ولو بقيت آثاره لكان له ذكرٌ خاصٌّ ومكانة مهمة في الأدب: شعره ونثره.

وله رسالة اقتطف منها في الذخيرة مقتطفات بعث بها إلى ابن له كان قد توجه إلى غرب الأندلس، ثم بلغه عنه انهماكه مع أهل البطالة وتضييعه ما يلزم من الرزانة؛ وجعل الكاتب رسالته الهزلية نوعاً من التوبيخ التهكمي. ومما جاء فيها:

(١) الأندلس. د. ضيف: ٤٤٧

((.. فأخبرني يا تاجر البحرين، وسمسار العراقيين، ودليل الحجازيين، وخبريت الفلاتين، وابن عظيم القريتين: أتعس بك من خراج ولاج، ماض على السرى والإدلاج، جريء على الليل الداج، كالسراج الوهاج، والعارض الشجاج، وصيف لي موقع الشمس في العين الحمئة، وكيف كان مخلصك من تلك البلاد الوبعة، وكيف رأيت مدينة يونس، وجنة إرم، والبركان المؤنس، وجزيرة الغنم، والزاوية، وصخرة العقاب، وبئر الهاوية...)).

وفي جزء آخر منها؛ وفيه تعريض وتهكم:

((صحّ عندي أن العسل^(١) في تلك الجهة ممكن غير غال، ومنحطّ غير عال، فتناول إقامته وتركيبه، وأتقن صناعته وتربيته، لقد نسيت يا بُنيّ أن أبعث إليك بنسخة في تريب العسل المشروب، مطابقة للمرغوب، التقطتها مغتماً عن (فلان) اليهودي كان انتخبها للمنصور بن أبي عامر وأصحابه كعيسى بن سعيد وعبد الله بن مسلمة. ولست - بحمد الله - دونهم، فنجأبتك قد ظهرت والدرة قد ندرت؛ ومخايل السعود طالعة، وآيات الفلاح ساطعة، كما سمي اللديغ سليماً، وسمع عن طهر الإوز قديماً...)).

٢ - الزرزوريات:

رسائل (الزرزوريات) فيها من الطرافة، والتنويع ما يقتضي الإشارة إليها، ولو كانت الإشارة سريعة.

أول ما وردت عبارة الزرزور كانت في رسالة كتبها أبو الحسين بن سراج إلى أحد رجال عصره يشفع فيها لرجل يعرف بالزريزر (مصغر زرزور). وقد استشار الكاتب اهتمام المرسل إليه، فاستفاد من لقب الرجل الذي يتوسط من أجله (وهو الزريزر) ورجع إلى الطائر المعروف باسم الزرزور، وأضفى على

(١) يُلْتَمَح الكاتب إلى الاستفادة من العسل في صنع بعض أنواع الشراب.

الرسالة نوعاً من الدُّعابة الطريفة، فقال في دَرَج الرسالة إن كتابه هذا - أي رسالته - يحمله زرّزور^(١) أو:

((يصل به - وصل الله علوك، وكتب عدوك شخص من الطيور يعرف بالزرّيزير، أقام لدينا أيام التحسير^(٢)، وزمان التبّلع بالشّكير^(٣). فلما وافى ريشه، ونبت بأفراجه عشوشه أزمع عنا قُطوعاً، وعلى ذلك الأفق اللون تدلياً ووقوعاً، رجاء أن يلقي في تلك البساتين معمرًا، وعلى تلك الغصون حباً وثمرًا)).

فقد أعجب ابن السّراج أن يجعل الرجل الذي يحمل رسالته ((زرّزوراً)) ومن هنا استطرد الحديث إلى ما يُشاكل الطائر من ريش وفرخ وعش وتحسير...

وفتحت هذه الرسالة باب الكتابة في هذا الموضوع بطرافتها، وأسلوب كاتبها، والجدة الجديدة فيها، فممن كتب في هذا الموضوع أبو القاسم بن الجدد، ومن ذلك قوله في رسالة:

((لئن سُمّي زُرّيزير، لقد صغر للتكبير... ومعلوم أنّ هذا الطائر الصافر يفوق جميع الطيور في فهم التلقين، وحسن اليقين؛ فإذا علم الكلام لهج بالتسبيح، ولم ينطق لسانه بالقبيح، ثم تراه يقوم كالنصيح، ويدعو إلى الخير بلسان فصيح فمن أحبّ الاتعاظ لقي منه قسّ إيادٍ بعكاظ، أو مال إلى سماع البسيط والشديد، وجدّ عنده نخب الموصلي للرّشيد...)).

وشارك ابن أبي الخصال^(٤) في الكتابة عن الزرّزور، ونقل الموضوع من الرسالة إلى الخطبة، وتحوّل به فأصبح المتحدّث فيه هو الزرّزور نفسه^(٥) وليس شخصاً يحتاج إلى شفاعاة وتوصية، وإذا هذا المتحدّث حين يكلم الناس عن توبته أو يستشيرهم إلى السخاء من أجله وينال نقودهم عن طريق الوعظ صورة لبطل المقامة..

(١) وُصِفَ الزرّزور بأنه عصفور كالقُبّر، ولكنه أملس الرأس. ويقال في اسمه: الزرّزُرُ، والزرّزور.

(٢) يقال حَسَرَ الطائر أي خرج من ريشه العتيق إلى ريشه الجديد.

(٣) الشّكير: أول النبت على أثر النبت الهائج المغبر، وما ينبت حول الشجرة من أصلها.

(٤) لابن أبي الخصال ترجمة في هذا الكتاب، وانظر: الرسائل الديوانية، والمقامات.

(٥) انظر: تاريخ الأدب الأندلسي - الدكتور إحسان عباس ٢/٢٩٩

- وهذه إحدى رسائله الزرورية^(١) :

أيها الساطعُ نشراً وأرجُ كيفَ يَسْتَأْذِنُنا من قَد وَلَجْ؟
 كيفَ يَسْتَأْذِنُ من مَسْكَنِهِ في عِيونِ ونُفوسِ ومُهَجْ؟
 ما على المسكِ ولا البدرِ ولا الصِّ بَح من إِذْنِ إِذا الصُّبْحُ انبَلَجْ!
 إِنَّمَا أَنْتَ مَتى تُهْدِي شَدَى في سَنى بالقلبِ والروحِ امترَجْ
 وافتني لِسَيِّدي وظَهيري - لا زالت هِمَّتُهُ تَعْلُو الهَمَمَ وتَفُوتُهَا، ونَفَاسَتُهُ تَغْذُو
 النُّفوسَ وتَقُوتُهَا - رُقْعَةٌ خَلَعَ عَلَيْهَا سَنَاهُ، وَعُغْنِيَتْ بِحَرَكَهَا يُمْنَاهُ، فَجَاءَتْ كَالْحُلَّةِ
 يُضَاحِكُ الشَّمْسَ إِبْرِيْزُهَا^(٢)، وَيُحَاسِنُ الرُّوضَ تَفْوِيْفُهَا وتَطْرِيْزُهَا^(٣)؛ بدائع
 يَنْحَطُّ عَنْ ذُرُوتِهَا الْبَدِيعُ^(٤)، وَيَقْتَبِسُ مِنْ جُذُوتِهَا الْأَشْقَرُ الصَّدِيعُ^(٥). سَامَرَهَا
 الْأَدَبُ مُعِيناً، وَخَامَرَهَا الطَّبْعُ مَعِيناً، فَجَلَّاهَا حُوراً عَيْناً؛ فَلِلَّهِ طَرْسُكَ وَمَا نَسَقُ،
 وَبِرُّكَ لَقَدْ عَلَا وَبَسَقُ!

وأهلاً بك من عريق سَيِّق، وسَلِيلِ خَطِّي صَدَق. لَشَدَّ مَا اسْتَوَلَيْتَ عَلَى
 مَدَاكَ، وَاسْتَوَيْتَ إِلَى سَمَاءِ مُنْتَدَاكَ، وَتَقَيَّلْتَ أَبَاكَ^(٦)، وَطَعَنْتَ فِي ثَغْرِ النُّحُورِ
 عِدَاكَ، وَلَعَا لَكَ مِنْ مُنْتَمٍ إِلَى سَابِقٍ لَمْ يَلْحَقْهُ عِثَارٌ، وَلَا شَقَّ لَهُ غُبَارٌ. لَا تُرْعَ!
 فَمِنْ الشَّعَابِ تَحْتَفِلُ فَتَزْخُرُ الْأَنْهَارُ، وَأَوَّلُ قُرْحِ الْخَيْلِ الْمِهَارُ^(٧)
 وَحَبَّذَا مُنْتَمَاكَ! لَقَدْ ذَكَرَ جَوَاراً، وَحَرَكَ مِنْ عَهْدِنَا الْمَاضِي حُوراً^(٨). لَا
 جَرَمَ! إِنْ عَهْدِي لَكَ نَاضِرٌ، وَإِنَّهُ بِكَ عَلَى الْغَيْبَةِ الْقَصِيَّةِ حَاضِرٌ، وَيَا مَاءَ مَنْ
 أَنْبَأَكَ أَنِّي صَادٍ^(٩)، وَيَا صَبْحُ قَدْ كَانَتْ عَيْنِي لَكَ بِمِرْصَادٍ. وَمُحَالٌّ أَنْ يَسْتَأْذِنَ

(١) البوار: الهلاك.

(٢) الإبريز من الذهب: الخالص.

(٣) المفوف من الثياب: الرقيق أو ما فيه خيوط بيض.

(٤) يعني أبا الفضل بديع الزمان الهمداني. وسيرد عنه خبر في القطعة [بعد التالية].

(٥) الصديع: الفجر.

(٦) تقيل أباه: أشبهه وعمل عمله.

(٧) القرَح جمع القارح وهو من الخيل ما بلغ خمس سنوات. والمِهَارُ جمع الكثرة للمهر.

(٨) في أمثال العرب: ((حرك لها حوارها نحين)) (أمثال العسكري ١/١٠٠).

(٩) صاد اسم فاعل من صدي: عطش.

على النفس منهاها، وعلى الكبد الحرى ريّها وبُشراها، وعلى العين السّاهرة
كراها وسّناها:

أنت الكرى مؤنساً عيني وبعضهم مثل القذى مانعاً عيني من الوسن!
ورعى الله داعياً إلى البرّ دعا، ورحم من نبت على دمنته^(١) المرعى.
وأقرأ عليك سلاماً هو المسك فتيتاً^(٢)، والدّرّ نظيماً وشّتيتاً. يواليك مقيلاً
ومبّيتاً، ويطاوئك العمر كريتاً^(٣)؛ إن شاء الله عزّ وجلّ.

٣ - الرسائل النبوية:

كثّر من أدباء الأندلس: شعرائهم وكتّابهم مدح رسول الله ﷺ، والتشوق
إلى زيارة المدينة والصلاة في مسجدها النبوي وزيارة رسول الله ﷺ والاكتحال
برؤية الروضة الشريفة والديار التي سكنها أو مرّ بها أو كانت له فيها ذكريات
حفظها المسلمون جيلاً عن جيل.

ومن نشاطهم الأدبي في هذا المجال رسائل سَطّروها، وحملوها إلى الحجاج
القاصدين إلى الديار المكرّمة معنونة باسم النبيّ المعظم المكرّم، وكثرت هذه
الرسائل من أواخر عصر الطوائف وهلم جرّاً إلى آخر عصور الأندلس العربيّة.

١ - فالأندلس بعيدة عن الحرمين الشريفين: فلا استطاعة - بالمقياس الشرعي -
أقلّ وجوداً من هذا الجانب. ومع البعد عوامل أخرى معتبرة عند الفقهاء.

٢ - وكان خروج ركب الحاج من كل مدينة أو قرية يثير في النفوس المعاني
الإسلامية مع الوجد والشوق واللهفة ﴿وَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾
[إبراهيم: ٣٧/١٤].

٣ - وأثّرت الحوادث السياسية (السلبية) والعسكرية في هذا الجانب من الفتن
والكوارث، أو من هجمة العدو من الدّول الشمالية التي كثيراً ما تحالفت مع
أوربة في حرب صليبية قاسية: كان العدو ينتهك المعايير الدّولية والإنسانية.

(١) الدمنة: آثار الدار، والناس. وتستخدم الكلمة لمعنى القبر.

(٢) الفتيت: وزن فعيل من: فتّ الشيء إذا كسره ودقّه.

(٣) الكريت من السنين والشهور والآيام: التام.

٤ - وكان الذين يؤدّون فريضة الحج مرة يتوقّون إلى العودة ثانية إلى تلك الدّيار، وكانت قلوبهم تقفز من الشّوق، وكانت ألسنتهم تنطلق - حين القدرة على ذلك - فتسطر تلك المشاعر شعراً أو نثراً فنياً جميلاً. وقد خرج ابن جبير^(١) بعد أداء الفريضة في رحلتين آخرين.

٥ - ورافقت هذه الظّاهرة الإسلامية - الأدبية أيضاً نشاط الأندلسيين في كتابة السيرة النبوية وما يتفرع عنها من قضايا كثيرة جداً من خصائص النبي، ﷺ، وشماله وخصاله ودلائل نبوته... وقد أسهم الموحّدون في هذا الجانب فشجّعوا عليه؛ وأشهر كتاب في الخصائص والشمال صدر عن هذه المدّة، وهو كتاب (الشفاء في التعريف بحقوق المصطفى) للقاضي عياض، رحمه الله^(٢).

هذه رسالة كتبها أبو القاسم بن الجذّ (ت: ٥١٥ هـ) على لسان صديق له كان قد حجّ وزار، وتاقت نفسه إلى العودة:

((ولما صدرت يا رسول الله عن زيارتك الكريمة، وقد ملأت هيبتك ومحبتك أرجاء فكري، وفضاء صدري، وغشيتني من نور برهانك ما بهر لبي، وعمر قلبي، لحقني من الأسف لبعد مزارك، والحنين إلى شرف جوارك، ما أودع جوانحي التهاباً، وأوسع جوارحي اضطراباً، وأشعر أُملي عوداً إلى محلّك المعظم وإياباً، وكيف لا أحنّ إلى قربك، وأتهالك في حبّك، وأعفر خدي في مقدّس تربك، وبك اقتديت فاهتديت، ولولاك ما صُمت ولا صليت، ولا سعيت ولا طفت، بل كيف لا يتحرّك نحوك نزاعي، ويتأكّد انقطاعي، وبك استشفاعي، وإليك مفزعي يوم الدّاعي. فلا تنس لي يا رسول الله عيادي بك ولياذي، وإسراعي إلى زيارتك وإغذاذي، واذكرني في اليوم العظيم المشهود، عند حوضك المورود، وظلّك الممدود، ومقامك المحمود))^(٣).

(١) تحدّثنا عنه في (أدب الرحلة) من هذا الكتاب.

(٢) انظر بحثنا عن (السيرة النبوية في التراث الأندلسي) في كتاب (أندلسيات شامية) صدر عن دار الفكر بدمشق.

(٣) النص في الذخيرة ٢/٢٨٦ - ٢٨٧.

واختارنا رسالة نبوية لابن أبي الخصال تجدها في ترجمته من هذا الكتاب في الباب الرابع.

٤ - رسائل ابن بُرد الأصغر:

عُرِف من آل بُرد في الأدب والكتابة والخدمة والسلطانية اثنان هما أبو حفص أحمد بن برد (الأكبر) وحفيده أبو حفص أحمد (الذي عرف بابن بُرد الأصغر). وكان معاصراً لابن زيدون، وهو الذي خاطبه بقصيدته^(١):

ما على ظنّي بأسٌ يجرّحُ الدهرُ ويأسو

وهو أحمد بن محمد بن أحمد بن بُرد^(٢) (توفي نحو سنة ٤٥٠ هـ) تعرّض أهله مدّة الفتنة بقرطبة إلى اضطهاد ابن حَمُود المتغلب عليها، فتنقل في البلاد. واستقر كما يبدو بعد تطواف في المريّة عند بني صُمادح. وآخر أخباره أنّه كتب لمعن بن صُمادح ووزر له أيضاً، ودام حكم معن هذا ما بين (٤٣٢ و ٤٣٣) وهو مفقود. ولا يُدري إن كان ابنُ برد أدرك عهد المعتصم بن معن بن صُمادح الذي خلف أباه. فإن تاريخ وفاته مجهول.

- اشتهرت رسائل ابن برد الأصغر، السياسية الإدارية والرسائل الأدبية، والرسائل الإخوانيّة. وفي رسائله الأدبية: رسالة عقدها للمفاضلة بين السّيف والقلم، ورسالة النخلة، ورسالة أهب الشاء.

- وقد كتب ابن برد رسالته في السيف والقلم إلى الموفق أبي الجيش مجاهد العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية (تسمّى الآن جزر البليار).

تدور الرسالة حول منافسة، ومفاخرة بين السيف والقلم، واسترسل الكاتب مع كلّ منهما: يضع من عباراته، وحججه على لسان القلم تارة، وعلى لسان

(١) أوردنا القصيدة في هذا الكتاب.

(٢) ترجم له في الذخيرة ١/١: ٤٨٦، وجذوة المقتبس (المصرية) ١١٥، وبغية الملتبس ١٥٣، ومعجم

الأدباء ٤١/٥، والروافي بالوفيات ٣٥/٧، والمطرب ١٢٧، والمغرب ٨٦/١، ونفع الطيب ٥٤٥/٥.

السيف تارة أخرى. ولما كثر تقديم الحجج، ودحض أقوال الطرف الآخر، ولم يتقاعس أي منهما عن المبادرة إلى الإجابة وتحديد الفخر بادرا معاً إلى التفاهم والمصالحة قائلين: إن من القبيح أن تتشتت أهواؤنا، وتتفرق آراؤنا، وقد جمعنا الله في المؤلف الكريم...

- وهي رسالة أظهر فيها الكاتب براعته في فنّ الترسّل؛ واستعرض معارفه اللغوية، ومقدرته البيانية، وساق فيها الحجج على لسان كل من السيف والقلم باستنباطٍ دقيق، وخيالٍ محلّق، واستطرادٍ طَلَق. ويشعرُ القارئُ أنّ الكاتب يَعْرِف من بحر، ويتصرّف بالكلام عن مقدرة، ويطيّل الحديث عن وفرة.

فالرسالة - شأن رسائله الأخرى - تعلّل المكانة الأدبية العالية التي وصل إليها ابن بُرد الأصغر عند أمراء الطوائف، وعند أقرانه من كتّاب العصر. وهذه مقتطفات من رسالة في السيف والقلم^(١):

((... أمّا بعد حمد الله بجميع محامده وآلائه، والصلاة على خاتم أنبيائه، فإن التسابق من جوادين سبقا في حلبة، وقضيين نسقا في تربة، والتحاسد من نجمين أنارا في أفق، وسهمين صارا على نسق؛ والتفاخر من زهرتين تفتحتا من كمامة، وبارقتين توضحتا من غمامة لأحمد وجوه الحسد - وإن كان مذموماً مع الأبد^(٢) -، وربما امتدّ أحد الجوادين بخطوة، أو خصّ أحد القضيبين بربوة، أو كان أحد السهمين أنفذ مصيراً، أو راح أحد النجمين أضواً تنويراً، أو غدت إحدى الزهرتين أندى غضارة، أو أمست إحدى البارقتين أسنى إنارة. فالمقصر يرتقب تقدماً، وتقارب الحالتين في المجانسة يشبّ نار المنافسة، وإن حال بينهما قدح النقاد، وقُبْح تحاسد الأضداد.

وإن السيف والقلم لما كانا مصباحين يهديان إلى القصد من بات يسري إلى المجد وسُلمين يلحقان بالكواكب من ارتقى لساميات المراتب، وطريقين يشرعان

(١) الذخيرة ٥٢٣/١. وكتب بها إلى الموفق أبي الجيش مجاهد.

(٢) أي وإن كان الحسد مذموماً...

نهج الشرف لمن تقرى إليه، ويجمعان شمل الفخر لمن تأشّب عليه، ووسيلتين يُرشفان العُلا فم عاشقها، ويبسطان في وصال المنى يدَ وامقها، وشفيعين لا يؤخر تشفيئتهما، ومُجمّعين لا يفرّق تجميعهما، جرّرا أذيال الخلاء تفاخرا، وأشما بأنف الكبرياء تنافرا، وادّعى كلّ واحدٍ منهما أنّ الفوزَ لِقُدْحِه، وأنّ الورى لِقُدْحِه، وأنّ الدرّ من أصدافه، وأنّ البكر من زفافه، وأنّ البناء من تشييده، وأنّ الملاء من تعضيده، وأنّ كباء الثناء موقوف على مجاميره، وأنّ خطيب الفخر محبوسٌ على منابره، وأنّ حلل المآثر من نسيجه، وأنّ أفراد المفاخر من تزويجه.

وحين كشف الجدال قناعه، ومدّ الخصام ذراعه، وهزّ الإباء من عطْفه، وأشمّ الأنف من أنفه، قاما يتباريان في المقال ويتساجلان في الخصال، ويصفّ كلّ واحدٍ منهما جلال نفسه، ويذكرُ فضلَ ما اجْتَنِي من غرْسِه، ويأى^(١) بمنقبةٍ نافرت السُّها^(٢)، ومرتبةٍ رِيضةٍ خيَّسها^(٣)، ورياسة من ذوائب الجوزاء^(٤) صادها، ونباهةٍ في صهوة العيوق^(٥) أفادها).

وتستمر الرسالة بعد ذلك طويلاً ليقدّم كل من القلم والسيف على التناوب حججه، وشواهده على السبق والتفوّق. وتنتهي الرسالة بقطعة شعرية يصل منها الكاتب إلى غايته العملية وغرضه الشخصي، وهو مدح أبي الجيش مجاهد، والثناء عليه بحيازته البراعة في السيف والقلم معاً. ويسوّي الكاتب بين السيف والقلم حسماً للمفاخرة التي طالت في رسالته والتي تردّدت في آثار الأدباء والكتاب منذ زمن بعيد في صدر الدولة العباسية. وفي ذلك الشعر - ونورد منه هنا على سبيل الاستئناس - :

(١) يأى من البأو: وهو الفخر والتكبر.

(٢) السُّها نجم شديد البعد في السماء، يضرب به المثل في العلو والبعد.

(٣) خيَّس: ذلّل، وطوّع.

(٤) الجوزاء: نجم، وبرج من الأبراج الاثني عشر.

(٥) العيوق: نجم أحمر مضيء في طرف المجرة الأيمن، يتلو الثريا. ويضرب به المثل في البعد.

قد آن للسيف ألا يفضّل القلماً مُد سُخراً لفتى حاز العُلاً بهما
 إن يُجتنى المجدُ غضّاً من كئامه فإنّما يُجتنى من بعض غرسهما
 ما جارياً أملاً فوافياً أمداً إلا وكانت خصال السُّبق بينهما
 - واشتهر من رسائل ابن بُرد أيضاً رسالته في النخلة، ورسالة أُهْب الشّاء،
 فضّل فيها أُهْب الشّاء على ما يُفترش من الوطاء.

٥ - ابن شُهَيْد^(١) ورسالة (التوابع والزوابع):

١ - في شعراء الأندلس في عصر الخلافة (في مدّة تسلط الدولة العامريّة) أبو
 المطرّف عبد الرحمن بن أبي الفهد الأشجعي؛ أصله من البيرة، وسكن مدينة
 قرطبة وقد وصفه ابن شُهَيْد - وهو أشجعي أيضاً - فقال فيه: كان من أشعر من
 أنبتته الأندلس ووطئ ترابها بعد أبي المخشي أولاً وابن دراج آخرًا؛ إلى أن قال:
 وهو غزير المادّة، واسع الصدر؛ حتى إنه لم يكن يقي شاعراً جاهلياً ولا
 إسلامياً إلا عارضه وناقضه، وفي كل ذلك تراه ((مثل الجواد إذا استولى على
 الأمد))، وقال أبو عامر ابن شُهَيْد: إن أبا المطرّف عمل بحضوره أربعين بيتاً
 على البديهة مهملة الحروف (ليس فيها حرف منقوط) أولها (حلمك ما حدّ
 حدّه أحد)، وإنه نقض كل شعر قاله يمانيّ في مفاخرة المضريّة^(٢)

وأبو المطرّف هذا الذي يمتُّ بقراءة إلى أبي عامر بن شُهَيْد صاحب رسالة
 (التوابع والزوابع)، المسمّاة أيضاً شجرة الفكاهة، قد يكون هو المثال أو
 النموذج الذي أعجب أبا عامر، وفتح له الباب لمعارضة عدد من الشعراء
 والكتاب ذوي الشأن والمكانة في تاريخ الأدب العربي في الجاهلية والإسلام.

(١) ترجم له الحميدي في جذوة المقتبس، والضبيّ في بغية الملتبس ٣٥٦ - ٣٥٧

(٢) في ترجمة أبي المطرّف أنه خرج عن الأندلس في العشر الأخير من القرن الرابع الهجري إلى المشرق ولم
 يعرف له خبر بعد ذلك.

٢ - وابن شُهَيْد^(١) هو أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شُهَيْد الأشجعي، القرطبي (٣٨٢ - ٤٢٦ هـ)، وكان أبوه أديباً، وزيراً من المقرّبين إلى الدولة العامرية. نال ابن شُهَيْد قسطاً وافراً من معارف زمانه، وبرع في الكتابة والشعر. ومدح بشعره عدداً من الخلفاء وذوي الشأن في مدة الفتنة التي ضربت بلاد الأندلس (٤٠٠ - ٤٢٢ هـ)، ووزر لعبد الرحمن المستظهر الأموي الذي لم يطل عهده أكثر من شهرين سنة (٤١٤ هـ).

كان ابن شُهَيْد يعاني من ضيق التنفّس (لعلّه الرّبو)، وألحّ عليه المرض حتى توفي عن سنٍّ مبكرة سنة (٤٢٦ هـ) بعد أن قضت الدولة الأموية نحبها أيضاً. والآثار الأدبيّة الباقية من تراث ابن شُهَيْد تدلُّ على شخصية أديب، كاتب، شاعر، ناقد، متعدّد المواهب^(٢).

والتّوابع والزّوابع هذه:

رسالةٌ خاطب بها صديقاً له اسمه أبو بكر بن حزم، وفيها رحلةٌ خياليةٌ إلى عالم الجنّ. وعناؤه من الجنّ شياطينُ الشعراء ومُلهِمُو الأدباء. وسمّى تابعه أو شيطان شعره: زهير بن نُمير، وجعله من (أشجع) غير أن ابن شُهَيْد أشجعيّ الإنس وذاك أشجعيّ الجنّ!! ولقي ابنُ شُهَيْد مع صاحبه شياطين بعض الأموات كما لقي شياطين بعض الأحياء (من الأدباء) ولقي من شياطين الكتاب تابعي: عبد الحميد الكاتب، وابن المقفع، والجاحظ، وبديع الزّمان.

والرسالة بحسب ما رواها ابن بسّام أو اقتبس منها في ثلاثة أقسام متوالية:

(١) ترجم له في جذوة المقتبس: ١٢٤ (الدار المصريّة)، وبغية الملتبس ١٧٧، ومطمح الأنفس ١٦، والذخيرة ١٩١/١، والمغرب ٧٧/١، والخريدة (قسم المغرب والأندلس) ٥٥٥، والمطرب: ١٥٨.

(٢) جُمع شعر ابن شُهَيْد وطبع في بيروت (بعناية شارل بلا) وفي مصر (صنعه يعقوب زكي) - واستخرج الباقي من (التّوابع والزّوابع) من الذخيرة، وطبع في كتيب مفرد في بيروت، عن أصل الذخيرة.

قسم أول: لقي فيه شياطين (مُلهمي) الشعراء والكتاب، وحاكاهم، وأظهر مقدرته على مجازاة أساليبهم، وأظهر شُفوفه وتميُّزه على أهل بلده (الأندلس).

وقسم ثان: فيه ملاحظات أدبية ونقدية، تدور حول مشكلة أخذ المعنى الواحد وتداوله بين الشعراء (قضية السرقات الأدبية).

وقسم ثالث: فيه مفاضلة بين شعرين لحيوانين من عُشاق الجنّ (حمار وبغل)، وفيه رسم لصورة إوزة سَمّاها (العاقلة). وغرضه من المشهدين التندر بأشخاصٍ لم يذكرهم في رسالته بأسمائهم.

- وجعل ابن شُهيد رسالته مَعْرِضاً لنماذج من شعره ونثره، ومجالاً لإظهار تقدُّمه وتفوّقه على أقرانه (في الأندلس)، ومعارضته المتكافئة لعدد من شعراء المشرق وكتّابهم المعروفين المتقدمين.

وهذه قطعة من التوابع والزوابع تبين نهجه في الرسالة وتكشف عن طرف من أسلوبه الغني^(١):

((... قال لي زُهَيْر بن نَمِر (وهو تابعه وشيطانُ شعره): وَمَنْ تُرِيدُ بَعْدَ؟ قلتُ له: خاتمة القوم، صاحب أبي الطيب! فقال: اشدُّدْ له حَيَازِيْمَكَ، وعطِّرْ له نَسِيْمَكَ، واثِرْ عليه نَجْمَكَ.

وأمالَ عَنانَ الأدهمِ (فرسه) إلى طَرِيقٍ، فجعل يركضُ بنا، وزهير يتأملُ آثارَ فرسٍ لمَحناها هناك. فقلتُ له: ما تَبُعُكَ لهذه الآثار؟ قال: هي آثارُ فرسٍ حارثة ابنِ المغلّس، صاحب أبي الطيب، وهو صاحب قنص. فلم يزل يَتَقَرَّأها (يتبع آثارها) حتى دَفَعْنَا إلى فارسٍ على فرسٍ بيضاء كأنه قُضِيبٌ على كَثِيب، وبِيدِهِ قناةٌ قد أسندها إلى عنقه، وعلى رأسه عمامةٌ حمراء، قد أرخى لها عَذْبَةً صَفراء^(٢). فحيَّاهُ زهير، فأحسنَ الردَّ ناظراً من مُقلّة شوساء، قد مُلئتَ تيهًا

(١) الذخيرة ٢٦٥/١

(٢) العذبة: طرف الشيء، ومن ذلك عَذْبَةُ السَّوطِ، وعَذْبَةُ العمامة.

وعُجِباً. فعرفّه زهير قصدي وألقى إليه رغبتي، فقال: بلغني أنه يتناول! قلت:
للضرورة الدافعة، وإلاّ فالقريحة غير صادعة، والشفرة غير قاطعة. قال:
فأنشدني، وأكبرته أن أستنشده، فأنشدته قصيدتي التي أوّلها:

(أبرق بدا أم لمع أبيض قاصل)

حتى انتهيت إلى قولي:

ترددَ فيها البرقُ حتى حسبته	يُشير إلى نجم العُلا بالأناملِ
رُبى نسجت أيدي الغمام للبسها	غلائل صُفراً فوق بيض غلائلِ
سهرتُ بها أرعى النجوم وأنجماً	طوالع للراعين غير أوافلِ
وقد فغرتُ فاهاً بها كلُّ زهرة	إلى كلِّ ضرع للغمامة حافلِ

إلخ...

فلما انتهيت، قال: أنشدني أشدّ من هذا، فأنشدته قصيدتي:

(هاتيك دارهم فقين بمعانيها)

فلما انتهيت، قال لزهير: إن امتدّ بد طلق العمر، فلا بد أن ينفث بدراً، وما
أراه إلا سيختصر بين قريحة كالجمر، وهمة تضع أخمسه على مفرق البدر.
فقلت: هلا وضعته على صلعة النسر؟ فاستضحك إليّ وقال: اذهب! فقد
أجزتك بهذه النكتة. فقبلت رأسه وانصرفنا!))

أقوال في رسالة التوابع والزوابع وآراء:

وقع بعض الباحثين في الوهم حين ظنّ أنّ أبا بكر بن حزم الذي خاطبه ابن
شُهَيْد في هذه الرسالة هو أخو أبي محمد بن حزم الفقيه المشهور. وترتب على هذا
الوهم تحديد وقت الرسالة بزمان سابق على زمان وضعها الحقيقي؛ وهذا أتاح
الفرصة للربط بين رسالة الغفران للمعري، ورسالة التوابع والزوابع لابن شُهَيْد.

وقد أشار الدكتور شوقي ضيف إلى هذا الوهم^(١)، ونبّه على أمور:

(١) الأندلس: ٤٥٧ - ٤٥٨. وقد وقع في الوهم د. زكي مبارك في (النثر الفني في القرن الرابع) وتابعه د.

عسر فروخ في تاريخ الأدب العربي ٤/٤٥٦

أحدهما: أنهما رحلتان وراء الواقع. لكنهما تختلفان، فرحلة أبي العلاء المعري تدور على عقيدة المعاد وما يتصل بها من أهوال الحشر، والصراط... ولقاء بعض مَنْ غُفِرَ لهم من الشعراء واللغويين في الفردوس، ورؤية إبليس وبشار وأمثاله من الزنادقة في الجحيم.

أما رحلة التوابع والزوابع فتدور على ما شاع في العصر الجاهلي (الوثني) من تصوّر شياطين للشعراء يلهمونهم أشعارهم.

والثاني: أنّ الذي أوحى إلى ابن شهيد بالرسالة هو بديع الزمان الهمداني في المقامة الإبلسية؛ فقد لقي (عيسى بن هشام) بطل المقامات عنده إبليس في وادٍ من أودية الجن، وجرى بينهما حوار.

وهذه الرسالة - كما أشار الدكتور إحسان عباس^(١) - كشف ابن شهيد عن كثير من آرائه في النقد، ومن صور الصراع بين الموهبة وسعة الاطلاع، وقدم خير ما يختاره من نظمه ونثره، مبيّناً على المعارضة، ومزج ذلك بشيء من التخيل، وقسط قليل من الفكاهة، وكمية أكبر من العُجب والعُنف!

٦ - طوق الحمامة لابن حزم:

١ - وابن حزم^(٢) يعرف أحياناً بابن حزم الكبير تمييزاً له عن عدد من العلماء والأدباء انتسبوا هذه النسبة. وهو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم

(١) عصر الطوائف والمرابطين: ٣٤٠

(٢) ترجم له في الذخيرة ١/١: ١٦٧، وجذوة المقتبس ٢٩٠ (المصرية)، وبغية المتلّس ٤٠٣، ومطمح الأنفس ٥٥، ومعجم الأدباء (دار المأمون) ٢٣٥/١٢، وسير أعلام النبلاء ١٨٤/١٨ وفي حواشيه مصادر وافية.

- وصدرت دراسات كثيرة عن ابن حزم منها: ابن حزم الكبير د. عمر فروخ، وابن حزم لمحمد أبو زهرة، وابن حزم (أعلام العرب) د. زكريا إبراهيم.

- وانظر تاريخ الأدب الأندلسي د. إحسان عباس، وتاريخ النقد الأدبي في الأندلس: محمد رضوان الداية.

- وانظر مقالة عن (طوق الحمامة) في كتابي (أندلسيات شامية) صدر عن دار الفكر بدمشق.

القرطبي. ولد سنة (٣٨٣ أو ٣٨٤ هـ) في بيت جاه وثروة وترف وسلطان وعلم. وزر أبوه للمنصور محمد بن أبي عامر حاجب الدولة الأموية المتغلب عليها. ونال آل حزم ملاحقة وحيف حين استرد هشام المؤيد الأموي بعض قوّته، وحين حكم قرطبة علي بن حمّود (الحسني). وعُيّن وزيراً لمدة قصيرة - مع صديقه ابن شهيد - في مدّة صديقه المستظهر الأموي، ولم تمتدّ هذه الوزارة أكثر من شهر وبعض شهر بسبب مقتل المستظهر. وسُجن ابن حزم الخليفة الجديد المستكفي ثم أطلق سراحه سريعاً.

ترك ابن حزم العمل السياسي نهائياً والتفت إلى العلم يلقيه على الطلبة والأشياء الذين يتابعونه، ويؤلف كتبه وينشرها في الناس.

وتنقل في أكثر من مدينة في الأندلس نظراً لملاحقة السلطة له أحياناً أو تحريض العلماء في زمانه ضده، لآرائه التي قد لا تعجبهم، أو اجتهاداته التي يخالفهم فيها.

وقد اختار ابن حزم - بعد دراسة وتوسّع - المذهب الظاهري. وكتبه الباقية هي المعتمدة في هذا المذهب الذي أسّسه في بغداد ابن داوود الظاهري.

وابن حزم من أشهر شخصيات العلم والفكر والثقافة العربية الإسلامية في الأندلس - ولابن حزم مؤلفات كثيرة في علوم شتى من الفقه، وأصوله؛ وتاريخ الأديان، والأنساب، والتواريخ، والتراجم، والأدب، والشعر.

وبقي من كتبه ما يكفي لجعله من أشهر رجال الفكر والفقه والثقافة العربية عامة.

٢ - اسم الكتاب (طوق الحمامة في الألفة والألف) واشتهر اختصاراً بـ (طوق الحمامة). ألفه ابن حزم سنة (٤١٨ أو ٤١٩ هـ) بمدينة شاطبة على الشاطئ الشرقي للأندلس، وموضوع الكتاب: دراسة الحب العذري.

والكتاب^(١) وإن كان يبدو - في ظاهره - أدباً خفيفاً يصف مظاهر الحياة الإنسانية في الألفة والألف (أي في الحب والمحبين) فإنه في حقيقته نظرة ثاقبة في أعماق النفس الإنسانية والحياة الاجتماعية. ويجد الدارس في (طوق الحمامة) ملامح كثيرة من شخصية ابن حزم وأحواله، وأخباراً يصح أن تكون جزءاً من ترجمته الذاتية (أو سيرته الذاتية) ولمحات في الحياة تعبر عن نظرات المؤلف الشخصية.

- أبواب الكتاب ثلاثون، مقسمة على هذا النحو:

- عشرة أبواب في أصول الحب؛

- واثنا عشر في أعراض الحب، وصفاته: محمودها ومذمومها؛

- وستة أبواب في الآفات الداخلة على الحب.

- وخاتمة في باين: أحدهما عن قبح المعصية والآخر في فضل التعفف.

وإنما أضاف هذين البابين ((لكي يقرن الحب بروح التدبّر، ويكون كلامه فيه داخلاً في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر))^(٢).

- وقد طرّز ابن حزم مواضع كثيرة من الكتاب بنماذج من أشعاره، في قطع ملائمة - من حيث معانيها ومقاصدها - للباب الذي يكتبه أو لجانب من جوانبه.

- واختار في (طوق الحمامة) الأسلوب المرسل الذي يجري هيناً سلساً دون تكلف، ودون سجع.

٣ - ومن باب الوفاء، وهو الباب الثاني والعشرون، قوله:

((ومن حميد الغرائز^(٣) وكريم الشّيم، وفاضل الأخلاق في الحب وغيره: الوفاء. وإنه لمن أقوى الدلائل، وأقوى البراهين على طيب الأصل وشرف

(١) تاريخ الأدب العربي د. عمر فروخ ٥٢٦/٤

(٢) تاريخ الأدب الأندلسي د. إحسان عباس ٣٤٢/١

(٣) الغرائز جمع الغريزة: الطبيعة.

العُنصر^(١). وهو يتفاضل بالتفاضل اللازم للمخلوقات، وفي ذلك أقول قطعة منها:

أفعال كل امرئ تنبي بعنصره والعَيْنُ يُغنيك عن أن تطلب الأثر^(٢)

ومنها:

وهل ترى قطّ دَفْلَى أنبتت عنباً أو تَذْخَرُ النَّحْلُ في أوكارها الصِّبْر^(٣) ؟
وأول مراتب الوفاء أن يفي الإنسان لمن يفي له، وهذا فرض لازم، وحق واجب
على الحبّ والمحجوب، لا يحول عنه إلا حيث المحتد، لا خلاق له، ولا خير عنده...)).

٧ - ابنُ زَيْدُون ورسالتاه:

بقي من آثار ابن زيدون النثرية: رسالتاه المشهورتان عُرفت إحداهما
بالرسالة الهزلية، والأخرى بالرسالة الجدّية^(٤).

أمّا الهزلية فأنشأها الكاتب على لسان ولادة يعث فيها بابن عبّدوس؛ على
سبيل التهكم به، والسخرية، و (تصفية الحسابات)، كما يقال الآن. والرسالة
قطعة أدبيّة معجبة من حيث أسلوبها، وصياغتها وتتابع الأفكار فيها. وظاهر أن
ابن زيدون استفاد من رسالة الجاحظ المسماة بـ (التزييع والتدوير) التي أدارها
على رجل اسمه محمد بن عبد الوهّاب.

وقد أحسن ابن زيدون التعبير والتصوير، وبلغ مراده من إثارة السخرية
والضحك، والتهكم البالغ.

وقد مضى ابن زيدون على شاكلة الجاحظ فأكثر من ذكر أسماء الرجال^(٥)
وما يتصل بهم من التاريخ والأخبار والأحداث، مع محاولته الواضحة في أن

(١) العنصر: الأصل.

(٢) العين هنا من قولنا عين الشيء أي نفسه وحقيقته.

(٣) الدَفْلَى: شجر مرّ لا يؤكل (لا يصلح لإنسان ولا حيوان) لمرارته وهو من نباتات الزينة في الشوارع والحدائق.

(٤) الأندلس د. شوقي ضيف: ٤٦٧.

(٥) شرح ابن نباتة الرسالة الهزلية في كتاب مطبوع بعنوان: (سَرُحُ العيون في شرح رسالة ابن زيدون)

من آخر من طبعها: دار الفكر العربي بالقاهرة بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - ١٩٦٤.

يكون لرسالته سماتها الخاصة في طريقة عرضه لأولئك الرجال، وفي إكثاره من ضرب الأمثال، ونثر الأبيات الشعرية، وجلب الأشرطة من شعراء آخرين بما يوافق السياق والمقصد، حتى صارت الرسالة في حاجة إلى شرح وتعريف بالأعلام والأشعار وبسط للإشارات ومختصرات الأخبار.

وتبدأ الرسالة على هذا النحو:

((أما بعد! أيها المصّاب بعقله، المورّط بجهله، البين سقطه^(١)، الفاحش غلطه، العائر في ذيل اغتراره، الأعمى عن شمس نهاره، السّاقط سقوط الذباب على الشّراب، المتهافت تهافت الفرائش في الشّهاب^(٢)؛ فإن العُجب^(٣) أكذب، ومعرفة المرء نفسه أصوب.

وإنك راسلتني مُستهدياً من صِلتي ما صَفرت^(٤) منه أيدي أمثالك... مُرسلاً (فلانة) مُرتّاده... وإنّها أعذرت في السّفارة لك^(٥)، وما قصّرت في النيابة عنك، زاعمة أنّ المروءة لفظُ أنت معناه، والإنسانية اسمُ أنت جسّمه وهيّولاه^(٦)، قاطعةً أنك انفردت بالجمال، واستأثرت بالكمال، واستعليت في مراتب الجلال، واستوليت على محاسن الجلال^(٧)، حتّى خيّلت أنّ يوسف، عليه السلام، حاسنك فغضضت منه^(٨)، وأن امرأة العزيز رأتك فسَلت عنه؛ وأنّ قارون أصابَ بعضَ ما كنّزت، والنّطف^(٩) عثر على فضل ما ركزت، وكسرى حمل

(١) السّقط: الرّديء.

(٢) تهافت النَّاس على الشيء: تتابعوا. والشّهاب: الشعلة الساطعة من النار.

(٣) العُجب: الكبر.

(٤) صَفِر: حلا. والصّلة: المودة، والتقريب.

(٥) أعذرت: بلغت العذر باجتهاده في الأمر.

(٦) الهيولى: الصورة المعنوية التي يُصَبّ الجسمُ على مثالها.

(٧) الجلال جمع الخلّة وهي الصّفة.

(٨) حاسنك أي: نafسك في الحُسن (ليظهر أيّهما أكثر حسناً)، وغَضّ منه: نقص من قدره.

(٩) النّطف: رجل من تميم أغار على قافلة كانت خارجة من اليمن إلى كسرى فأصاب منها ما لا كثيراً وثروة نفيسة. والركاز: ما دفن في الجاهليّة من كنوز.

غاشيتك^(١)، وقيصّر رعى ماشيتك، والإسكندر قتل دارا^(٢) في طاعتك!
وأردشير جاهد ملوك الطوائف لخروجهم عن جماعتك^(٣)، والضحّاك^(٤)
استدعى مسأمتك، وجذيمة الأبرش^(٥) تمنى منادمتك، وشيرين قد نافست بوران
فيك^(٦)!

الرسالة الجديّة:

كان دخول ابن زيدون السّجن تجربة فاصلة في حياته وفي نظرته إلى الناس،
وتعامله معهم: من كبير وصغير على حدّ سواء.

ولدخول ابن زيدون السّجن قصّة: في وقت واحد، أو في مُدَّتَيْن متقاربتين
جداً: وقع الشّاعر الكاتب ذو المكانة الاجتماعية والسياسية في ورطتين. الأولى
أنّ وكيل أعمال ابن زيدون اعتدى على أرض مملوكة لسيّدة لم تشأ أن تبيع
تلك الأرض فاشتكت للقاضي وكان معروفاً بالشّدّة مع ((المسؤولين)) وذوي
النّفوذ إذا وقّعوا بين يديه، فأمر بسجن ابن زيدون ولم يقبل أي حلّ آخر.

والثانية: أنّ ابن جهور - على رغم مكانة ابن زيدون وسابق خدمته وطاعته
- شكّ فيه، وظنّ أنّ له يداً في حركة كانت تدبّر ضده. فسكت عن دخوله
السّجن، ولم يعمل على إخراجه. ولبت فيه خمس مئة يوم كما ذكر ابن زيدون
نفسه؛

ومن هنا كان التفات الشّاعر في سجنه إلى أبي الحزم بن جهور بالشعر،
والنثر معاً في محاولة منه لاسترضائه، ودعوة ضارعة لفكّ قيد السّجن عنه.

(١) الغاشية: غطاء السّرج أو المظلة.

(٢) الإسكندر المقدوني هزم دارا ملك الفرس، وقتله واحتلّ مملكته.

(٣) أردشير وحّد أمراء فارس (الذين تفرقوا بعد مقتل دارا) وأسس دولة جديدة.

(٤) الضحّاك رجل قديم كوّن ملكاً وكان طاغية جباراً.

(٥) جذيمة ملك الحيرة، كان له نديمان فقتلهما فضرب بذلك المثل.

(٦) شيرين زوجة أبرويز بن هرمز أحد ملوك الفرس. وبوران هي بنت أبرويز، وحصلت على الملك بعده.

وتنصّل الشاعر في أكثر من قصيدة من ((التُّهم)) و ((الريب)). وتصريحه بالولاء والوفاء يدلُّ على ما رُوِيَ من تغيُّر قلب ابن جهور على ابن زيدون، وتركه في السجن تخلصاً منه، وإخفاءً له عن السّاحة السياسيّة، أو تأديباً له (لو أحسنّا الظنّ بابن جهور). على أنّ قلوب معظم حكام دول الطوائف كانت قلوباً جافية قاسية، فأكثرهم لا يصلحون للحكم ولا تليقُ بهم الرّياسة.

- بعث ابن زيدون برسالته إلى أبي الحزم بن جهور، وهو في قمة التأثير والانفعال والتهاب العاطفة: أسفاً على شدة العقوبة، وسقوط الوضع الاجتماعي، ونزول مكانته عند الحاكم نفسه وعند الناس!

- وتتألف الرسالة (الجديّة) من جزأين متكاملين: قسم منشور وقسم شعري فيه قصيدة: تتمّ المقصد، وتستنفد الطاقة النفسية المتوهّجة.

- تبدأ الرّسالة ببيان العلاقة القديمة الوثيقة بين ابن زيدون وابن جهور: ((يا مولاي وسيدي الذي ودادي له، واعتماداي عليه، واعتدادي به، وامتدادي منه)).

والدّعاء له في مستهلّ الكلام ترقيقاً له واستمالةً لقلبه: ((ومَنْ أبقاه الله ماضٍ حدّ العزم، واريّ زند الأمل، ثابت عهد النعمة)).

والإشارة إلى ما أصابه من نكبة السّجن، وتسويغ ما درى له بما تحبّئه المقادير: ((إن سلّبتني - أعزّك الله - لباس إنعامك وعطّلتني من حلّي إيناسك، وأظمأتني إلى برودٍ إسعافك، ونفضت إلى كفّ حياطتك، وغضضت عني طرف حمايتك - بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك، وسمع الأصمّ ثنائي عليك، وأحسّ الجَمادُ باستنادي إليك - فلا غرو، قد يغصّ بالماء شاربُه، ويقتل الدواء المستشفي به، ويؤتّى الحذرُ من مأمنه...)).

والأمل في نجاح مقصد رسالته هذه: ((هذا العتب محمودٌ عواقبه، وهذه النبوة غمرةٌ ثم تنجلي، وهذه النكبة سحابة صيف عن قريب تقشّع...)).

ويقف ابن زيدون عند جوهر القضية من وجهة نظره، وهو براءته مما نسب إليه، وصحة علاقته ببني جهنم، وتلقيه - على الرغم من ذلك - عقاباً لا يستحقه: ((وأعود فأقول: ما هذا الذنب الذي لم يسعه عفوك؟ والجهل الذي لم يأت من ورائه حلمك؟)).

ويناقش ابن زيدون أبا الحزم في قضيته: ((ولا أخلو أن أكون بريئاً فأين العدل؟ أو مُسيئاً فأين الفضل؟:

إن لا يكن ذنبٌ فعفوك واسعٌ أو كان لي ذنبٌ فعفوك أوسع))
وتخرج الرسالة (الجدية) كما خرجت الرسالة (الهزلية) إلى تطويل يخدم قضية الرسالة، وهو تطويل يستعرض فيه ابن زيدون ثمانية معارفه اللغوية والأدبية والفقهية والتاريخية وغير ذلك مما زحرت به ثقافته الواسعة، ويوظف ذلك كله في سياق الرسالة وغرضها؛ فيقول:

((وما أراني إلا لو أنني أمرت بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت، وقال لي نوح: ﴿ارْكَبْ مَعَنَا﴾. فقلت: ﴿سَأُوي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾، وأمرتُ ببناء الصَّرح ﴿لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ وعكفتُ على العجل، واعتديتُ في السَّبَب، وتعاطيتُ فعقرت، وشربتُ من ماء النهر الذي ابتلي به جنود طالوت، وقُدْتُ الفيل لأبرهة، وعاهدت قريشاً على ما في الصَّحيفة...)).

إلى أن يقول بعد تهيئة السامع لقبول فكرة براءته، وحسن تصرفه، وسلامة نيته، وصحة طويته: ((فكيف ولا ذنب لي إلا نعمة أهداها كاشح، ونبأ جاء به فاسق، وهم الهمَّازون المشَّاورون بنميم، والواشون الذين لا يلبثون أن يصدعوا العصا، والغواة الذين لا يتركون أديماً صحيحاً...)).

ويخلف وقد آن أوانه من هذه الرسالة: ((والله ما غششتك بعد النصيحة، ولا انخرفت عنك بعد الصَّاغية، ولا نصبتُ لك بعد التشيع فيك...)).

ويطلب إقالته من عشرته بعد أن طالت نكبته: ((ومالك لا تمنع مني قبل أن أفترس، وتدركني ولما أمزق؟)).

ويذكر ابن زيدون - شاهداً على ولائه - تلك القصائد التي ذكر فيها أبا حزم بالثناء، وأثبت لنفسه فيها الولاء: ((وهل لبس الصباح إلا بُرداً طرزته بفضائك، وتقلدت الجوزاء إلا عقداً فصلته بمآثرك، واستملى الربيع إلا ثناء ملأته من محاسنك؟))...

ويقدم دليلاً آخر فيقول: إنه كان يستطيع مغادرة قرطبة إلى جهات كثيرة تستقبله، ولكنه راغب في جواز ابن جهور، باقٍ على الولاء والوفاء ومن كان كذلك كان جديراً بالاصطناع والتقريب.

وينتهي ابن زيدون رسالته بقصيدة تشفع النثر بنظم، وتجمع بين نوعي الأدب، وتعرض من مواهبه الأدبية ما يلفت إليه النظر، ويدعو إلى المجازاة الطيبة بالرضا والقبول.

المقامة في الأندلس

دخلت المقامات الأندلس في حينها، في أثناء الحركة الحياتية والثقافية المتبادلة بين الأندلس والمغرب من جهة والمشرق من جهة أخرى. ووصول مقامات بديع الزمان إليهم لم يحفز على إنشاء مقامات مماثلة تجري على النهج الذي سارت عليه؛ وإن أنشؤوا مقامات مقاربة، أو استفادوا منها في نصوصهم الأدبية، أو رسائلهم الفنيّة^(١).

والمقامات الباقية لمن قلّد البديع أو حاول مجاراة بعض خصائصه قليلة، وهي أشبه بالرسائل منها بالمقامات لغياب عنصر الكُدية، وغياب عناصر الإضحاك أو المفاجأة، وخلوها من حيوية مقامات بديع الزمان.

ومن هذه المقامات:

- مقامة أبي حفص عمر بن الشُّهيد^(٢)، وهو من شعراء المعتصم بن صمادح صاحب المريّة. اختار ابن بسام قطعاً من مقامته.

- ومقامة أبي محمد بن مالك القرطبي^(٣)، واختار ابن بسام قطعاً منها، وتدور حول مدح المعتصم بن صمادح ووصف انتصاراته، وتنتهي بطلب العطاء من الممدوح، فكانها قصيدة مديح طويلة...

(١) تُنظر مطالعات د. شوقي ضيف، والدكتور إحسان عباس. وقد تابَعهما د. عبد الملك مُرتاض في (فنّ

المقامات في الأدب العربي) ط ٢ - الدار التونسية - ١٩٨٨

(٢) الذخيرة ١/٦٧٠. وله ترجمة في الجذوة ٢٨٣، والبغية ٣٩٤، والمغرب ٢/٢٠٩

(٣) الذخيرة ١/٧٣٩. وله ترجمة في القلائد: ١٧٠

- ومقامة لابن المعلم (محمد بن عبد العزيز) اختار ابن بسام منها، ويرجح أن تكون في المعتضد بن عباد، وهي تحري على النسق الذي وصفنا في الفقرة السابقة.

والتفت الأندلسيون - بعد مرحلة المملاكي - إلى مقامات الحريري، وصاغوا على منوالها، وقتلواها. وقد سمع عدد من الأندلسيين هذه المقامات من صاحبها الحريري، ونقلوها معهم إلى بلاد الأندلس، وهيئوا لها جواً لم يهتأ مثله لمقامات المملاكي. ومن أشهر هؤلاء أبو القاسم بن جهور الذي أقرأ مقامات الحريري لعدد كبير من الدارسين وطلبة العلم، ومن سمعها أبو العباس الشريشي^(١) أخذها عن أبي بكر بن أرهر الحجري صهر أبي القاسم بن جهور، وعن أبي بكر بن مالك الفهري، وهو صهر آخر لابن جهور. وأخذها أيضاً عن عدد من الأدباء مثل ابن جبير الرحالة المعروف. وقد ألف الشريشي شروحاتاً على المقامات الحريرية: الكبير، والأوسط، والأصغر.

- وقد شرح مقامات الحريري في الأندلس أدباء آخرون واهتموا بهذه المقامات رواية وشرحاً ومعارضة.

ومن عارض مقامات الحريري أبو عبد الله بن أبي الخصال في ديوان رسائله مقامة واحدة مطوّلة^(٢)، وتختلف عن مقامات الحريري^(٣) في أطولها، ومبيل مستثماً إلى أن يجزأ قلمه في وصف عدة مقامات فهناك منظر في الريف، وآخر في بيت الحارث بن خنّام (راويّة المقامة) ثم ثلاث قصائد متتابعة، ثم تفتيش عن أبي زيد السُّروجي (البطل) ثم وصف لإحدى الخانات وحوار طويل مع

(١) أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن الشريشي (٥٥٧ - ٦١٩ هـ) أديب واسع المعرفة بعلوم اللغة، بارع في فنون النحر والشعر والأدب. أكثر من التأليف ولأزم التدريس والتعليم. وكان ناجحاً في تأليفه ومحاضراته معاً. ومن كتبه: شروحه الدائبة على المقامات الحريرية، وله شيء من الشعر المطبوع. وشرح الشريشي طبعات عديدة، أولها طبعة بولاق ١٢٨٤ هـ.

(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ٢٠٠.

(٣) تنقيح مطالعة د. إحسان عباس ٣١٧/٢.

صاحبها، ثم لقاء بين الحارث والسروجي فيه حوار طويل... ولا يلتزم هذا المنهج إلا كاتب لا يودّ أن ينشئ عدة مقامات متفرقة؛ وإنما هو ينشئ مقامة أو اثنتين، ويحاول أن يعرض براعته في رسم مناظر متعدّدة يجمعها معاً في مقامة واحدة.

فابن أبي الخصال احتفظ بشخصيّتي مقامات الحريري: وهما الحارث بن همّام، وأبو زيد السروجي^(١).

- تحدّث الحارث في أول المقامة عن جوّها وإطارها. فهو في منطقة من الرّيف، وقد ابتهجّ المشتغلون في الأرض بنزول المطر الغزير، وتوقّع الموسم الوفير. وبينما كان الحارث مع أولئك الفلاحين إذ برز رجلٌ رفع صوتاً جهورياً لفت إليه الأنظار وحثّهم على صلته وبرّه: قال

((أيّها الجَمْعُ الأريض^(٢)، والسُّودد العريض، والنفر البيض، والنائل المستفيض؛ والهمم السامية، والحفائظ الدّامية، والسيوف الماضية، والليوث الضارية؛ والقروم المصاعب والوشيج الزّاعب^(٣)).

حقاً إنكم لقطب الرّجاء، ورحى أهّجاء، وكشفُ الغمّاء، وجلا العمى والعماء. أما والذي كالأكم، وأنبا كالأكم^(٤)، ملأ بالخيرات ملأكم؛ إن للنعم لشكراً هو أوسع غاية، وأرفع راية؛ وأرقّ أنفاساً، وأضفى لباساً؛ وأعلى مظاهر، وأزكى بواطن وظواهر؛ وأربح مسالك، وأنجع مآلك^(٥)؛ وأسرع قبولاً، وأبعد ذبولاً. كلاًّ ليس الهناء بالدّس^(٦)، ولا النداء بالهمس؛ ورئمان العلوق غصّة في

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ٤٢٣ - ٤٢٤

(٢) أرض فلان: صار خيراً متواضعاً، فهو أريض.

(٣) الوشيج: شجر الرماح. زاعب رجل أو أرض تُنسب إليها الرماح.

(٤) كلاً: رعا. والكلاً الثانية: عشب المرعى.

(٥) مآلك جمع مألكة: رسالة.

(٦) الدّس: عدم إتقان طلي الجمل الأجر بالقطران.

الخلق^(١)؛ قد شكرتم قولاً فاشكروا طَوْلاً؛ وأثنتم لفظاً فاثنوا لدى البرِّ والصَّلة لحظاً؛ وبادروا بالحسنات قبل فَوْتِها، وانظروا إلى رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد مَوْتِها. ألا واثق بالخلف؟ ألا مُقْتَدٍ بالسَّلف، ألا يدُّ تطول؟ ألا حُرٌّ ينول؟ ألا مُعْطٍ من يسار؟ ألا مُوَّاسٍ من قُصار؟ ألا مؤثِّرٌ من إقتار؟

يا ينابيع الندى، ومصاييح الهدى، ومفاتيح الجَداء...)) ثم ذكر الحارث زوجته وأولاده، وشكا للناس سوء حالهم، وكثرة احتياجهم... وهكذا تنفتح أكياس القوم وصررهم، وتتوالى عليه عطاياهم ودراهمهم.

((قال: فما زلتُ أرمقه، وسهام العطاء ترشُّقه، وأتوسِّمه وتلك النوافل تتقسِّمه، حتى تعلقت عيني بخللٍ إزاء خدّه، أذهله الطمع عن سدّه فأثبت عَيْنَه، وعرفتُ مينه^(٢)!...)).

إذن اكتشف الحارث شخصية أبي زيد السَّروجي المتخفي الذي زعم المزاعم عن زوجته وأولاده ليستجدي عَوَاطف الناس، ويأخذ أموالهم بالكُدَيَّة!..

وتسلل الحارث وراء ((الشيخ)) ثم تعارفا، وتناولوا الطعام، ولم يقبل السروجي أن ينام عند الحارث - كأنه خشي أن يأخذ من ماله الذي جمعه - وفي الصِّباح يفتقد الحارث صاحبه. ثم يعرف أنه سجين: ارتهنه صاحب حان بدينه، ثم يعرف الحارث موضع صاحبه من الجُبِّ التي سجن فيه فيخلصه... ويقضيان وقتاً ممتعاً، ويطلب الحارث من السروجي أن يخلده في شيء من شعره... وتنتهي المقامة بقطعة من الشعر لأبي زيد السَّروجي.

وعارض مقامات الحريري أيضاً: أبو الطاهر محمد بن يوسف بن عبد الله التميمي المازني، القرطبي، (السَّرْقُسطي، الإِشْتَرَكُويي): أصله من إشتراكية وهو

(١) رثمان: محبة وعطف. العلوق، النفيس الذي يتعلق به القلب.

(٢) المين: الكذب.

حصن قرب تطيلة في شمال الأندلس، وولد بـسَرَقُسطة ونشأ بها، ثم سكن قرطبة فنُسب إليها أيضاً^(١).

وكان أبو الطاهر أديباً، كاتباً، شاعراً، من علماء العربية في زمانه. ومن كتبه المطبوعة (المسلسل) وهو كتاب لغوي و (المقامات اللزومية).

ومقامات أبي الطاهر خمسون مقامة. وقد التزم فيها مالا يلزم؛ فعُرفت بالمقامات اللزومية. وهي مبنية على السجع: واللزم فيها أن يلتزم في السجع حرفين اثنين بدلاً من حرف واحد كما هو مألوف. وربما التزم ثلاثة أحرف كالذي نجده في المقامة السادسة عشرة، وسمى الثامنة عشرة المدبجة لأنه جعل الكلمات في كل سجعتين تتقابل في نهاياتها وتتبادل كقولها من أولها: ((قال: كنت في ريان الحداثة والشباب، ورِيَّعان الدماثة والحِباب؛ قد خلعتُ الرسنَ والعِذار، وقطعتُ النَّسنَ والإعذار...))^(٢)؛ والتزم في الثانية والثلاثين أن يحتم سجعاتها بحرف الهمزة، وفي الثالثة والثلاثين أن يحتم السجعات بحرف الباء... إلخ. وفي هذا شيء من التعقيد، أو العُسْر. ولكن سَجْعُهُ في غير ذلك: ((تشيع فيه العذوبة والسهولة والقُدرة على التفنُّن في الوعظ والوصف ونسج الكلام))^(٣).

والشخصيتان الرئيسيتان في مقاماته هما: السائب بن قمام والشيخ أبو حبيب. وهو عنده رجل سدوسي محتال أُصِّلَهُ من حُمان. وقد ينزل في مقاماته رواية السَّدِّ المُنار بن حمام: ولا دخل له في أحداث المقامة، ولكنه يتلقى المقامة عن السائب (وقد ورد في تسع مقامات).

وقد يشترك في المقامة فَيان هما ابنا الشيخ أبي حبيب: غريب وحبيب.

(١) انظر دراسة عنه في: تاريخ النقد الأدبي في الأندلس - محمد رضوان الداية - الطبعة الثانية ٣٥٢.

وانظر في مقاماته أيضاً: حمير الطوائف والمراييع: ٣١٧ والأندلس في شوقي صيف: ٥٢٢.

(٢) المقامات (مصر): ٢٣١.

(٣) الأندلس: ٥٢٤.

وبنى السَّرْقِسطي مقاماته (كالحريري) على عَرَض جيل مكد (شحاذا أدبي) كبير هو الشيخ أبو حبيب.

ومقامات السَّرْقِسطي الخمسون: بَعْضُهَا حظي من المؤلف باسم جعله عنواناً لها، وبعضها جاء غُفْلاً من ذلك. ومما سَمَّاه: السابعة (وهي البحرية) والثانية عشرة (وهي الفارسية) والسادسة عشرة (وهي المثلثة) أي التزم فيها ثلاثة أحرف، والسابعة عشرة (وهي المرصعة)، والثامنة عشرة وهي المدبجة (وسميت في إحدى النسخ المخطوطة: الموشحة)... إلخ.

وقد أثنى د. ضيف على المقامات الزومية، وقال فيها: إنها أروع آثار السَّرْقِسطي، وإنها من أروع ما قدّمت الأندلس للأدب العربي من أعمال أدبية^(١).

وهذه مقامةٌ من مقامات أبي الطاهر، نقدمها تامةً ليظهر للقارئ صنيعة وأسلوبه وثقافته الواسعة.

المقامة الثانية^(*)

حَدَّثَ الْمُنْذِرُ بْنُ حُمَامٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا السَّائِبُ بْنُ تَمَامٍ، قَالَ: لَمَّا فَارَقْتُ جُرْجَانَ، أُرِيدُ أَرْجَانَ^(٢) بَرَّحَ بِي الشَّقِيُّ، وَجَدَ النَّزَاعُ وَالْتِّوَقُ، فَسِرْتُ أَسْتَصْحِبُ الرَّفَاقَ، وَأَجُوبُ الْآفَاقَ، حَتَّى فَارَقْتُ الْمَاهُولَ، وَرَكِبْتُ الْمَجْهُولَ، وَإِذَا أَنَا بِلُصَّةٍ رِحَالٍ^(٣)، عَلَى نَجَائِبٍ^(٤) عِجَالٍ، يَخْبُونُ^(٥) فِي أَرْضِ نَطِيَّةٍ^(٦)،

(١) الأندلس: ٥٢٢.

(*) المقامات الزومية للسَّرْقِسطي (ط مقرر): ١٦؛ (ط المغرب): ٢٥.

(٢) جرجان مدينة بين طبرستان وخراسان. وأرجان: مدينة قريبة من شيراز والأهواز بفارس.

(٣) لمة: جماعة.

(٤) النجائب جمع النجيب: الإبل الخفيفة السرعة.

(٥) يخبون: من الخب وهو نوع من السير السريع.

(٦) نطية: بعيدة.

وَيَنْطَوُونَ عَلَى عِزْمَةٍ وَطِيَّةٍ^(١)، فَعَطَفُوا عَلَى الزَّمَامِ، وَبَذَلُوا التَّحِيَّةَ وَالذَّمَامَ^(٢)،
ثُمَّ قَالُوا: ((مَنْ الرَّجُلُ الْوَحِيدُ؟ وَإِلَى أَيْنَ عَنِ الْمَهْيَعِ^(٣) تَحِيدُ؟)) فَقُلْتُ: ((مَنْ
قَذَفْتَهُ الْمَسَارِبُ، وَرَمَتْ بِهِ الْمَشَارِقُ وَالْمَغَارِبُ)). فَقَالُوا: ((رُزِقْتَ الْمُنَى،
وَوُقِيتَ الْمُنَى^(٤)، وَيُسَرُّ لَكَ الطَّرِيقُ، وَبُشِّرَ بِكَ الْمَعَشَرُ وَالْفَرِيقُ، هَلْ لَكَ عَهْدٌ
بِالْعُذَيْبِ وَالْغَمِيمِ^(٥)؟ وَهَلْ لَاقَيْتَ حَيِّيَّ أَسَدٍ وَتَمِيمٍ؟ وَهَلْ مَرَرْتَ بِالْوَعَسَاءِ^(٦)،
وَعُجْتَ عَلَى الْأَجَارِعِ وَالْأَحْسَاءِ^(٧)؟)) فَقُلْتُ: ((وَسَقَطَ السَّائِلُ عَلَى الْخَبِيرِ^(٨)،
وَأَتَاهُ بِالْقَبِيلِ وَالْدَّبِيرِ^(٩)، تَرَكَتْهَا وَالْكَلاَ جَمِيمٍ^(١٠)، وَالنَّبْتُ عَمِيمٌ، مِنْ أَرْضٍ
صَفَتْ مِنْهَا الْمَشَارِعُ، وَضَفَتْ^(١١) الْأَبَاطِحُ وَالْأَجَارِعُ، فَتَضَاكَتِ الْأَزْهَارُ
وَالْأَنْوَارُ، وَتَأَلَّفَ الْفِزْرُ وَالصَّوَارُ^(١٢). وَتَصَاحَبَ الْإِنْسُ وَالنَّوَارُ^(١٣)، وَتَغَايَرَتِ
الْأَنْجَادُ وَالْأَغْوَارُ. يَالَهُ مِنْ مَرْتَعٍ خَصِيبٍ، وَحِظٍّ لِرَائِدِهِ مُصِيبٍ، غَيْرَ أَنَّ بَهَا مِنْ
أَسَدٍ وَسُلَيْمٍ^(١٤)، كُلُّ أَسَدٍ وَأَيْمٍ^(١٥)، فَقَدْ تَقَصَّدَتْ عَلَيْهَا الدَّوَابِلُ^(١٦)، وَتَفَانَتْ

(١) الطِّيَّة: النِّيَّة.

(٢) الزَّمَام: حبل الدابة تُقَاد منه. وَالذَّمَام: العهد.

(٣) الْمَهْيَع: الطريق الواضح الواسع.

(٤) الْمُنَى: القدر والموت.

(٥) الْعُذَيْب: ماءٌ بين القادسية والمغيثة أو هو وادٍ في بلاد بني تميم. وَالْغَمِيم: موضع بين مكة والمدينة.

(٦) الْوَعَسَاء: موضع (قال ياقوت: هو بين التعليبة والخزيمية، وهي شقائق رمل متصلة) وهي التي ذكرها ذو الرمة:

أَيَا ظِيَّةِ الْوَعَسَاءِ بَسِينِ جَلَا جَلِيلٍ وَبَيْنَ النَّقَا أَلَسْتَ أُمُّ أُمُّ سَالِمٍ؟

(٧) الْأَجْرَعَان: موضع باليمامة والأحساء مواضع كثيرة، ومنها مدينة مشهورة بالبحرين (شرق الجزيرة العربية).

(٨) فِي أَمْثَالِ الْعَرَبِ: ((عَلَى الْخَبِيرِ سَقَطَتْ)).

(٩) أَيَّ أَتَاهُ بظاهر الأمر وباطنه، وأصله من قبيل الفتل (باطنه) وظاهره: دبیره.

(١٠) جَمِيم: مجتمع كثير.

(١١) ضَفَتْ: كثرت.

(١٢) الْفِزْرُ: القطيع من الغنم، وَالصَّوَارُ: القطيع من البقر.

(١٣) النَّوَارُ: ما ينشر من الضياء والوحش.

(١٤) أَسَدٌ وَسُلَيْمٌ: من القبائل العدنانية.

(١٥) الْأَيْم: الحية.

(١٦) تَقَصَّدَتْ: تكسرت، والدَّوَابِلُ: الرماح.

القبائل والقنابل^(١)، فجُدِّدَتْ عَلَيْهَا الذُّحُولُ^(٢)، وهَانَتْ عِنْدَهَا الْمُحُولُ^(٣)،
وتَأَكَّدَتْ الْأَحْقَادُ، وتَأَبَّدَتْ الْأَحْقَافُ^(٤)، والأَعْقَادُ؛ وأُذِيلَ عَلَيْهَا الْمَصُونُ^(٥)،
وَاتَّخَذَتْ الصِّيَاصِي^(٦) وَالْحُصُونُ، ففَارَقَتْ تَمِيمُ حِمَاهَا، وَرَمَاهَا بِالصَّغَارِ مَنْ
رَمَاهَا. فَتَمَيَّزَ مِنْهُمْ فَتًى يَرْفُلُ مِنْ هَمَّتِهِ فِي كَرَمٍ^(٧)، وَيَأْوِي مِنْ بَأْسِهِ إِلَى حَرَمٍ،
فَهَلَّلَ وَكَبَّرَ، وَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، وَقَالَ: لَأُمُّ الرَّائِدِ الْهَبْلُ^(٨)، وَلَا جَادَ الْقَطْرُ وَلَا
السَّبْلُ^(٩)، أَلَلَّهْ إِنَّ الْفَوْزَ لِأَسَدٍ، وَمَا الْقَوْمُ مِنْ لَيْفٍ وَلَا مَسَدٍ. لَقَدْ أَهْدَيْتَ
الْعَجَبَ الْعَجِيبَ، وَبَعَثْتَ الشَّجْنَ وَالْوَجِيبَ. لَقَدْ أَتَى الزَّمَانُ بَعَجَبَهُ، وَأَطْلَعَهُ قَبْلَ
رَجَبِهِ^(١٠)، فَعَوَّضَ مِنَ الرَّأْسِ بِالرَّجْلِ، وَمِنْ التَّاجِ بِالْحِجْلِ^(١١)، وَغَلَّبَ الْوَشِيطَ
عَلَى الصَّمِيمِ^(١٢)، وَالْحَمِيدَ عَلَى الذَّمِيمِ، وَاجْتَمَعَ عَلَى الزَّمِيمِ^(١٣)، وَالْفَذَّ^(١٤) عَلَى
الْجَمِيعِ، وَالتَّوَالَى عَلَى الْهُوَادِي^(١٥)، وَالْعَيْرِ^(١٦) عَلَى الْجَوَادِ، وَالْفِدَانَ عَلَى
الْبَاسِلِ^(١٧)، وَالنَّابِحَ عَلَى الْعَاسِلِ^(١٨)، وَالْأَنْزَلَ عَلَى الطَّامِحِ^(١٩)، وَالْأَعْزَلَ عَلَى

(١) الطائفة من الناس والخيول.

(٢) الذحول جمع الذحل: الشار.

(٣) المحول جمع المحل.

(٤) الأحقاف: مكان، وأصله جمع حقف: ما اعوجَّ من الرمل. وتأبَّدت: توحَّشت. والأعقاد جمع العقد: المتراكم من الرمل.

(٥) أُذِيلَ: امتنهن.

(٦) الصياصي بمعنى الحصون.

(٧) أصله من رَفَلَ فِي ثَوْبِهِ جَرَّهُ (لظوله) وفي الكلام استعارة.

(٨) الرائد: الذي يسبق القوم لمعرفة الطريق. والهبل: التكل.

(٩) السبل: المطر.

(١٠) إشارة إلى المثل: عَشَّ رَجَبًا تَرَعَجِبًا.

(١١) الحجل: الخللخال.

(١٢) الوشيط: الدخيل، والصميم: الأصيل.

(١٣) الجع: الأحمق، والزميع: الشجاع المقدام.

(١٤) الفذ: الفرد.

(١٥) التوالي: الأعجاز والهوادي: الأعناق. والعرب تقول: ليس هوادي الخيل كالتوالي.

(١٦) العير: الحمار.

(١٧) الفدان: الثور. والباسل: الأسد.

(١٨) العاسل: الذئب.

(١٩) الأنزل: المنخفض. والطامح: العالي.

الرَّامِح^(١)، وَأَبْنِ النَّبُونِ^(٢) عَلَى الْعَوْدِ، وَالسَّبَلِ عَلَى الْجُودِ^(٣)، وَالشَّاحِجِ عَلَى
الصَّاهِلِ^(٤)، وَالظَّامِئِ عَلَى النَّاهِلِ^(٥)، وَفَاضِلِ النَّبْعِ بِالْغَرْبِ^(٦)، وَالْعَجَمِ بِالْغَرْبِ.

فَانْبَرَى سَيِّدُ الْقَوْمِ، فَقَالَ: لَقَدْ ثَنَيْتَ الْعَزَائِمَ، وَتَبَهَّتِ النَّوَائِمُ، وَأَبْنَتْ الْأَحْيَاءُ،
وَذَمَرْتَ الْقَبَائِلَ وَالْأَحْيَاءُ^(٧). ثُمَّ أَشَارَ إِلَى شَيْخٍ كَالْعُرْجُونِ^(٨)، يَمْزُجُ صَفَوًا
بِأُجُونِ^(٩)، وَوَقَارًا بِمَجُونِ، فَقَالَ: وَأَنْتَ يَا أَحَا اللَّسَنِ، وَالْبَيَانِ الْحَسَنِ، فَمَا
رَأَيْكَ وَقَدْ طَرَحْتَنَا الطَّوَارِخَ، فِيمَا جَرَتْ بِهِ السَّوَارِخُ وَالْبَوَارِخُ؟ فَقَالَ: أَرَى أَنْ
تُحْمِلَنِي جَوَادًا، وَتَرْقُبَ مِنِّي عَوَادًا، وَتَقْدَحَنِي وَارِيًا، وَتَرْسِلَنِي سَارِيًا، وَأَنْتَابُ
الْقَوْمِ، وَأُطِيلُ الْحَوْمَ، وَأَتَخَلَّلُ الْقَبَائِلَ وَالشُّعُوبَ، وَأَسْتَحْبِرُ الصَّادِحَ وَالنَّعُوبَ،
وَأَتِيكَ بِالْحَبْرِ مِنْ فَصِّهِ^(١٠)، وَبِالْحَدِيثِ عَلَى نَصِّهِ، وَأُوشِكُ نَحْوَكُمْ إِيَابًا، وَلَا
أُطِيلُ عَنْكُمْ غِيَابًا، فَتَعْلَمُ أَيْنَ اسْتَقَلَّتْ بَعْشَائِرُكَ الْمَنَازِلُ، وَعَمَّا انْقَلَبَ الْعَدُوُّ
الْمَنَازِلُ، فَقَالَ: إِنَّ الرُّأْيَ رَأْيُكَ، وَإِنْ شَاقْنَا بَعْدُكَ وَنَأْيُكَ. قَالَ: فَامْتَطَيِ
الْيَعُوبَ^(١١)، وَنَفِضِ الْجُيُوبَ، وَتَقَلَّدِ الْحُسَامَ، وَتَوَفَّرِ الْجَسَامَ، وَمَلَأِ الْمَزَادَ،
وَاحْتَقِبِ الزَّادَ^(١٢)، وَقَالَ: أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ مِنْكُمْ كِرَامًا، وَأَسْأَلُهُ أَنْ يُيسِّرَهُ مَرَامًا.

فَتَبَعْتُهُ مُوَادِعًا، وَحَسِبْتُهُ مُجَادِعًا، فَأَرَاهُ مِنِّي مُرِيبًا، وَقَالَ: حَنَانِيكَ يَا
غَرِيبًا! وَأَنْشَدَ:

(١) الرامح: ذو الرمح، وفي الكلام تورية بأعضاء السجود.

(٢) ابن النبون من الإبن: الفني. والعود: المسن.

(٣) السبل: المنظر والجود الكثير منه.

(٤) الصاهل: الحصان، والشاحج: الحمار.

(٥) الناهل: الذي ارتوى.

(٦) النبع: شجر تنحل منه السمسم والقمي. والغرب: شجر أخضر منه.

(٧) ذمره: حظه وشجاعه.

(٨) العرجون: عذق النخلة إذا يسر وأخرج.

(٩) الأجون: الماء المتغير الصنع واللون.

(١٠) أي من أصله. وفي أمثال العرب: يأتيك بالأم من فضته.

(١١) اليعوب: اسم فرس مشهور، وهو في الأصل: التطويل السريع.

(١٢) ملأ حقيقته.

أَمَّا تَرَى الْآلَ وَالسَّرَابَا
إِذَا أَرَاكَ الزَّمَانُ وَجْهَهَا
وَلَا تُبَلِّ عَنْ مَلَامَ قَوْمٍ
وَلَا تَكُنْ عَاجِزَ الْمَسَاعِي
وَرِدْ بِمَاءٍ غَدِيرٍ خُمٍ
وَكُنْ بِأَنْبَائِهَا عَلِيمًا
وَلَا تَهَبْ مِنْهُمْ جُمُوعًا
كُلُّ عَلَى ظَهْرِهَا غَرِيبٌ
وَكُلُّ مَا فَوْقَهَا تُرَابٌ
وَالدَّهْرُ بِالْحُرِّ قَسْدٌ أَرَابَا
فَسِرْ عَلَى وَجْهِكَ انْسِرَابَا
قَدْ أَرْسَلُوا نَحْوَكَ الْخِرَابَا
وَأَمْلَأْ إِذَا أُمُكِّنَ الْجَرَابَا
تَسْتَعْذِبُ الْمَاءَ وَالشَّرَابَا
وَالْتَقِ بِهَا الذُّنْبَ وَالْغُرَابَا
وَإِغْنِ بِهَا بَلَقْعًا خَرَابَا
فَكَيْفَ تَشْكُرُ بِهَا إِغْتِرَابَا؟
فَمَا لَنَا نُسِيكَ التُّرَابَا؟

فَقُلْتُ: ((الشيخ، والله، أبو حبيب، ومن لك بذلك التشبيب أو التسبيب؟
وكما راجعتك الفتوة، هلاً عاودتك المروءة، كشد ما داريت النصول^(١)،
وازدريت الذوابل والنصول^(٢)، فمضى عني وهو يقول:

هَيْهَاتَ مِنْكَ عَوَادِي
وَذُو الْحِزَامَةِ غَادِي
وَالْمَرْءُ بَيْنَ سَبِيلِي
وَالْعَوَاقِبِ يَوْمًا
قُلْ لِلْعَرَاقِينِ عَنِّي
مَا الْمَحَوَّضِ تَغْرِي
لِلْأَيْمَنِ حَرٌّ
وَرُبَّ سَمْحٍ جَوَادِي
وَالدَّهْرُ جَمُّ الْعَوَادِي
بِكُلِّ شُعْبٍ وَوَادِي
رَوَائِحٍ وَغَسَادِي
ظَاهِرٌ وَبَاسِدِي
وَقُلْ لِأَهْلِ السَّوَادِي
بِكَيْدِ أَهْلِ الْبَسَادِي
خَدَعْتُهُ بِسَوَادِي
رَزَاتِي بِجَوَادِي

(١) نصل الشعر: زال عنه حصابه.

(٢) الذوابل: الرماح، والنصول: السيوف.

كَمْ ضَرَّ قُرْبُ وَسَادٍ وَغَرَّ طُولُ سِوَادٍ^(١)
هَلْ يَمْنَحُ الدَّهْرُ يَوْمًا رِيَّ النَّفُوسِ الصَّوَادِي؟
فَقَدْ أَطَالَتْ إِلَيْهِ شَكْوَى الْجَوَى وَالْجَوَادِ

- وقد ظهر عدد من المقامات في الأعصر التالية في الأندلس ((وليس فيها ما يشير إلى تطوّر ما في طبيعة المقامة، أو موضوعها))^(٢). فمن ذلك مقامات لسان الدين بن الخطيب، وتَدُور في الأكثر على الرّحلات ووصف البلدان. وقد درسها د. ضيف في الرّحلات لفقد كثير من خصائص المقامات منها. ومعلوم أنّ في المقامات نوع يخلو من الراوي والبطل، كمقامات الزمخشري التي تدور كلها على الوعظ^(٣).

(١) السّواد: المسارة، وفي أمثال العرب: ((قرب السّواد وطول السّواد))، وله قصة انظرها في أمثال الميداني.

(٢) عصر الطوائف والمرابطين: ٣٢٦

(٣) المقامة - د. ضيف - ص: ٨١

أدب الرّحلة^(١)

نشط التأليف في فنّ الرّحلة، وتسجيل وقائع تلك الرحلات، ومجرياتها في عصور الأدب العربي المختلفة، ولفتت الرّحلات الأندلسيّة النّظر، لُبعد بلادهم عن المشرق، ووجود عنصر المخاطرة والمغامرة في خط سير الرحلة برّاً وبحراً. ولمزج بعض الرّحالة بين عناصر الرّحلة، ولقاء العلماء، وتسجيل بعض الوقائع الثقافية والحضارية.

ومما أثر في نشاط الرّحلة:

- السعي الحثيث من أنحاء الأرض لأداء فريضة الحجّ، وقصد المسجد النبويّ والمسجد الأقصى.

- والإغراب في الأرض مع جيوش الفتح.

- والرحلة في طلب الحديث، والعلوم المختلفة، ولقاء العلماء والأخذ عنهم.

- وروح المغامرة، وعقلية البحث والكشف والاستقصاء.

- واتّساع رقعة الدولة العربيّة الإسلاميّة.

ومن الرّحلات القديمة الباقية رحلة ابن فضّال^(٢) التي كانت سنة (٣٠٩ هـ).

(١) يُنظر كتاب: تاريخ الأدب الجغرافي: كراتشكوفسكي (ج١، ٢).

(٢) نشرت الرّحلة بتحقيق د. سامي الدّهان في المعهد الفرنسي بدمشق. وصدر منها نسخة مختصرة عن وزارة الثقافة بدمشق.

والرحلات على وجه من وجوهها، لاحقةً بعلم الجغرافية، لما يقدمه الرحالة من معلومات وصفية، ويرصد من ظواهر طبيعية، ويسجل من أرقام وحقائق في طبيعة الحياة، وفي ظروفها الاقتصادية والبشرية.

والرحلات معرضٌ لمعلومات تاريخية، تعدّ رافداً من روافد التاريخ، وقد تكون بالغة الأهمية، وخاصة حين ينفرد الرحالة بما يسجل أو يشاهد..

والذي يتابع الرحلات يرصد كثيراً من الظواهر الثابتة والمتغيرة في نواحي الحياة في المجتمع الواحد أو في المجتمعات الإنسانية الواسعة.

والرحلات - وإن كانت لاحقةً بواحدٍ أو بأكثر من واحدٍ من العلوم - هي فنٌّ من الفنون الأدبية: فيه جوانب متعددة من الفائدة، والإمتاع الإخباري، والإبداع الفني، والجمال الأسلوبى، والإثارة التي تجمع - عادةً - بين الحقيقة التاريخية والرؤى الأدبية.

وتدوين الرحلة يكون:

- تسجيلاً لذكريات شخصية، ورصداً لرؤية الرحالة في ما حوله من أمور الحياة، وحكاية لما يرى في بلاد الله الواسعة؛ وقد نجد أثر هذا في عنوان الرحلة نفسها، فقد سَمَّى ابن جبير رحلته بـ (تذكرة بالأخبار عن عجائب الأسفار)^(١).

- ويكون تسجيل مجريات الرحلة مترجماً بتسجيل مجريات الرواية عن العلماء، والترجمة للشيوخ الذين لقيهم الرحالة، وتسجيل أسماء الكتب والمرويات التي تلقاها في تطوافه؛ ونجد مثل هذا في رحلة أبي البقاء البلوي (تاج المفرق بتحلية علماء المشرق)^(٢).

- وقد تميزت الرحلة بالترجمة الذاتية؛ ومثال ذلك رحلة ابن خلدون وعنوانها: (التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً)^(٣).

(١) سترجع إلى هذا الكتاب.

(٢) طبع في نشرة مشتركة بين المغرب ودولة الإمارات (منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - أبو ظبي).

(٣) هو الجزء الأخير من تاريخه، وقد طبع وحده بتحقيق محمد بن تاووت الطنجي.

- على أن وراء الرّحلات المتوجّهة نحو مشرق هدفاً أُسمى، وهو أداء فريضة الحجّ، وزيارة قبر رسول الله ﷺ، والمسجد النبوي، وزيارة المسجد الأقصى.

ويلاحظ قارئ الرّحلات، على امتداد الأعصر أن الخلافات المستحكمة بين الدول، في بعض الظروف، لم تكن لتسنع حركة الرحلة، أو تحول دون الوصول إلى الأراضي المقدّسة، أو تحجز عن لقاء أهل العلم، أو حركة التجارة وغيرها..

ويلاحظ حيوية الحضارة العربية الإسلاميّة، وعمق أصالة العلم، ونزاهة العلماء، واستمرار التدفق في نسغ العلّم والآداب والفنون على الرغم من الظروف القاسية أحياناً...

وقد أدّت الرّحلات مهمّات جليّة: فهي وصلت بين المشرق والمغرب، وعقدت الأواصر العلميّة والثقافيّة بين هذين الجناحين، وعرّفت الأندلسيين والمغاربة بالطرق والمسالك والممالك والمدن، وقربّت بين اللّهجات، ونقلت العادات والتقاليد في ما بين البلدان شرقاً وغرباً، وعرّفت بعدد من جلّة العلماء - وقت تدوين الرّحلة -.

- وأول من يُذكر من رحالة الأندلس يحيى بن حكم الغزال^(١)، فقد قام برحلتين: إلى بلاد النورماندين، وإلى القسطنطينيّة. وليس لدينا إلا أخبار عن هذه الرّحلة، وخرائف تدلّ على ذكاء ذلك السّفير الرّحالة وخبرته الدبلوماسية.

- وفيهم أحمد بن عمر العُدري الدلائي (ت ٤٧٨ هـ)، صاحب كتاب: (ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، والبستان في غرائب البلدان، والمسالك إلى جميع الممالك)، نشر الدكتور عبد العزيز الأهواني قطعاً باقية. وقد بيّن المحقّق في مقدّمته أنه في أصله شامل للممالك الإسلاميّة؛ والباقي منه قطع عن الأندلس ومصر والشام.

(١) له ترجمة في هذا الكتاب.

- وفيهم ابن سعيد (أبو الحسن علي بن سعيد ٢٦١٠ - ٢٦٨٥ هـ)، وألّف كتاباً سَمّاه: (النفحة المسكية في الرحلة المكيّة) بقيت منه نقول يسيرة.

- وفيهم أبو حامد الغرناطي (محمد بن عبد الرحيم القيسي)؛ وله أكثر من كتاب في غرض الرحلة منها: (تحفة الألباب ونخبة الإعجاب).

ويعدُّ كراتشوفسكي في تاريخ الأدب الجغرافي أبا بكر بن العربي أوّل مَنْ وضع الأساس لفنّ الرّحلة في الأندلس^(١).

على أن أشهر الرّحالة الأندلسيّين هو ابن جُبَيْر.

رحلة ابن جُبَيْر^(٢):

مؤلف هذه الرّحلة أبو الحسين محمد بن جُبَيْر الكناني (٥٤٠ - ٦١٤ هـ)، ولد في بلنسية. وتلقّى علومه في مدن شرق الأندلس، واستقرّ كاتباً عند حاكم غرناطة: أبي سعيد بن عبد المؤمن الموحد.

وكان لابن جبير ثلاث رحلات: قام بالرّحلة الأولى بقصد أداء الفريضة سنة ٥٧٨، ومكث في رحلته إلى أن عاد سنة (٥٨١ هـ).

ولما فتح صلاح الدّين الأيوبي القدس (رجب ٥٨٣ هـ) رحل ثانية وزار القدس، وهنا صلاح الدّين بشعرٍ بقي بعضه، وضمّ إلى مجموع شعره.

وخرج ثالثة بعد وفاة زوجته، فقصد إلى الديار الحجازية، وحجّ، وزار، ثم استقرّ في الإسكندريّة، التي كانت مستقرّ كثير من علماء الأندلس، حتى وفاته سنة (٦١٤ هـ).

وابن جبير كاتب ديوان، مترسّل، وأديب شاعر، وفقه من أهل العلم، وقد جُمع الباقي من شعره في مجموع صغير.

(١) الجزء الأول: ٢٩٨

(٢) تنظر دراسة د. محمد مصطفى زيادة عن رحلة ابن جبير المطبوعة مع دراسة أخرى عن رحلة ابن بطوطة (مطبعة لجنة التّأليف والنشر، بالقاهرة ١٩٣٩).

ورحلة ابن جبّير المدوّنة هي تسجيل لأحداث رحلته الأولى التي سمّاها: (تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار).

وقد تحدّث الجغرافيون، والأدباء، عن قيمة هذه الرحلة، وذكروا خصائصها وأسلوب الكاتب فيها؛ وقوموها أدبيّاً:

من الناحية الجغرافيّة والاجتماعية، فالرحلة تعدّ ((من عمّد العلم الجغرافي، فإن ابن جبّير يحتلّ عن جدارة مكاناً صدرّاً في تاريخ الجغرافية في الأندلس على هذا الأساس، وإن لم تكن مادة كتابه جغرافية صِرْفاً، بل إن التاريخ والآثار هما الغالبان...))^(١).

وقوم د. ضيف الرحلة من الناحية الأدبية فقال: إنها كتبت بلغة سهلة بسيطة ملائمة تماماً لموضوعها؛ وطريقته في السرد محببة إلى النفس وهو يصف ما يشاهده وصفاً دقيقاً^(٢).

والحقيقة أن ابن جبّير كتب رحلته بالأسلوب السهل المرسل الخالي من الصنعة والزخرف والتوشية في معظم تلك الرحلة، غير أنه استعمل السجع شيئاً قليلاً، كالكلام الذي قاله عند رؤيته دمشق أوّل ما رآها. وكأنه أراد أن يُثبت للقارئ أنه قادر على انتهاج الأسلوب الشائع السائد عند الجوّدين آنذاك في كتاباتهم الأدبية؛ قال عند وصفه مدينة دمشق وما يكتنفها ويحيط بها من الغوطة الغناء:

((جَنَّة المَشْرِق، ومطلع حسنة المونق المَشْرِق. وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقرّيناها، وعروس المدن التي اجتليناها؛ قد تجلّت بأزاهير الرياحين، وتجلّت في حلل سندسيّة من البساتين؛ وحلّت من موضوع الحسن بالمكان المكين، وتزيّنت في منصّتها أجمل تزيين... ظل ظليل وماء سلسيل؛ تنساب مَذانبه انسياب الأراقم بكل سبيل؛ ورياض يحمي النفوس نسيّمها العليل...)).

(١) الجغرافية والجغرافيون... د. حسين مؤنس: ٤٣٨

(٢) الرّحلات (سلسلة فنون الأدب العربي).

فهذا من الأسلوب المنمّق، المحسّن والمؤنّق، الذي تكتنفه الصنعة، وتزينه السّجعة؛ ويخرج عن الإرسال إلى التقييد، وعن البساطة إلى التجويد...

ومن رحلته في وصف حمص، سالكاً طريقه إلى دمشق:

وتجدُ في هذه البلدة عند إطلالك عليها من بُعد، في بسيطها ومنظرها وهيئة موضوعها، بعضَ شبهِ بمدينة إشبيلية من بلاد الأندلس، يقعُ للحين في نفسك خياله، وبهذا الاسم سُميت في القديم، وهي العلة التي أوجبت نزول الأعراب أهل حمص فيها حسبما يُذكر. وهذا التشبيه وإن لم يكن بذاته، لحظةً من إحدى جهاته.

فأقمنا بها يوم الأحد المذكور ويوم الإثنين بعده، وهو الثاني ليوليو، إلى أول الظهر. ورحلنا منها، وتمادى سيرُنا إلى العشي، ونزلنا بقرية حربية تُعرف بالمشعر، فعشّينا بها الدّواب ثم رحلنا عند المغرب، وأسرينا طول ليلتنا، وتمادى سيرُنا إلى الضُّحى الأعلى من يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من الشهر المذكور، ونزلنا بقرية كبيرة للنصارى المعاهدين تُعرف بالقارة، ليس فيها من المسلمين أحد؛ وبها خانٌ كبير كأنه الحصن المشيد، في وسطه صهريج كبير مُملوء ماءً يتسرب له تحت الأرض من عينٍ على البعد، فهو لا يزال ملاًن.

فأرحنا بالخان المذكور إلى الظهر، ثم رحلنا منه إلى قرية تعرف بالنبك، بها ماء جارٍ ومحرث متسع، فنزلنا بها للتعشية. ثم رحلنا منها - بعد احتلاس نهريمة خفيفة - وأسرينا الليل كله، فوصلنا إلى خان السلطان مع الصباح. وهو خانٌ بناه صلاح الدين صاحب الشام، وهو في نهاية الوثاقة والحسن بباب حديدٍ على سبيلهم في بناء خانات هذه الطرق كلها، واحتفالهم في تشييدها وفي هذا الخان ماء جارٍ يتسربُ إلى سقايةٍ في وسط الخان كأنها صهريج، ولها منافسٌ ينصبُ منها الماء في سقاية صغيرة مُستديرة حول الصهريج ثم يغوص في سربٍ في الأرض.

والضريقُ من حمص إلى دمشق قليلُ العسارة، إلا في ثلاثة مواضع أو أربعة، منها هذه الخانات المذكورة. فأقمنا يوم الأربعاء الثالث والعشرين لربيع المذكور بالخان المذكور مُريحين ومستدركين للنوم إلى أول الظهر، ثم رَحَلْنَا وَجَزْنَا بِثِيَةِ الْعُقَاب، ومنها يُشرف على بسيطِ دمشق وغُوطتها، وعند هذه الثنية مفرقٌ في طريقين: إحداهما التي جئنا منها، والثانية آخذةً شرقاً في البرية على السَّماوة إلى العراق. وهي طريقٌ قصْدٌ، لكنها لا تُدخَلُ إلا في الشتاء، فأنحدرنا منها بين جبالٍ في بطنٍ وادٍ إلى البسيط، ونزلنا منه بموضع يُعرف بالقصير، فيه خانٌ كبير، والنهرُ جارٍ أمامه. ثم رَحَلْنَا مِنْهُ مَعَ الصُّبْح، وسرنا في بساتين متصلة لا يوصفُ حُسْنُهَا، ووصلنا دمشق في الضحى الأعلى من يوم الخميس الرابع والعشرين لربيع الأول، والخامس ليوليو، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

شهر ربيع الآخر

استهلَّ هلالُه يوم الأربعاء بموافقة الحادي عشر ليوليه، ونحن بدمشق نازلين فيها بدارِ الحديث غربيٍّ جامعها المكرَّم.

ذكر مدينة دمشق، حرسها الله تعالى

جَنَّةُ المشرق، ومطلعُ حُسْنِهِ المشرقِ المشرق، وهي خاتمةُ بلادِ الإسلام التي استقر بناها، وعروُسُ المدن التي اجتليناها، قد تحلَّتْ بأزاهير الرياحين، وتجلَّتْ في حُلُلٍ مُندمجة من البساتين، وحلَّتْ من موضوع الحسن بالمكان المكين، وتزينت في منصتها أحسن تزيين، وتشرقت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمه. صلى الله عليهما، منها إلى ربوة ذات قرارٍ ومعين، فحل ظيل، وماء سنسبيل، تنساب مذانبه السياب الأراقم بكلَّ سبيل، ورياض يحيي النفوس نسيمها العليل، تخرج لناظريها بمجتنى صقيل، وتناديهم. هلموا إلى معرُس الحسن ومقيل، قد شمت أرضها كثرة الماء حتى اشتاقت إلى الطماء فتكادُ تناديك بها الصُّمُّ الصَّلاب: ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مَغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ، قد أحْدَقَتِ البساتينُ بها إحداق أهالةً بالقمر، واكتنفتها اكتناف الكمامة، وامتدَّتْ بِشَرْقِيَّهَا غُوطُهَا الْخَضِرَاءُ

امتدادَ البصر، فكلُّ موضعٍ لحظتهُ بجهاتها الأربع نضرتهُ اليانعة قيّد النظّر، والله صِدْقُ القائلين عنها: إن كانت الجنةُ في الأرضِ فدمشقٌ لا شكَّ فيها، وإن كانت في السّماء فهي بحيث تُسامتها^(١) وتُحاذيها.

ذكر جامعها المكرم، عمره الله تعالى:

هو من أشهرِ جوامع الإسلام حُسناً، وإتقانَ بناءٍ، وغرابةَ صنعةٍ، واحتفالٍ تنميقٍ وتزيين. وشهرتهُ المتعارفةُ في ذلك تُغني عن استغراق الوصفِ فيه. ومن عجيبِ شأنه أنه لا تنسجُ به العنكبوتُ ولا تدخله، ولا تُلِمُّ به الطيرُ المعروفةُ بالخطّاف. انتدبَ لبنائه الوليد بن عبد الملك، رحمه الله، ووجهه إلى ملك الروم بالقُسطنطينية يأمره بإشخاصِ اثني عشر ألفاً من الصُّناع من بلاده، وتقدّم إليه بالوَعيد في ذلك إن توقّف عنه. فامتثلَ أمره مُذعِناً بعد مراسلةٍ جرتُ بينهما في ذلك ممّا هو مذكورٌ في كُتبِ التّاريخ. فشرع في بنائه، وبُلغت الغاياتُ في التّأنق فيه، وأنزلت^(٢) جُدُرُه كلّها بفصوصٍ من الذهبِ المعروف بالفسيّفساء، وخُلِطت بها أنواعٌ من الأصبغة الغريبة، قد مُثلت أشجاراً، وفرّعت أغصاناً منظومةً بالفصوص، ببدايع من الصنعة الأنيقة المعجزة وصنّف كلّ واصل، فجاء يغشي العيونَ وميضاً وبصيصاً. وكان مبلغُ النفقة فيه، حسبما ذكره ابن المَعلى الأسدي في جُزءٍ وعه في ذكر بنائه، مئةُ صندوق، في كلّ صندوق ثمانية وعشرون ألفَ دينارٍ ومئتا ألفَ دينار، فكان مبلغُ الجميعِ أحدَ عشرَ ألفَ ألفٍ دينار، ومئتي ألفَ دينار!))....

- رحلة البلوي: (تاج المفرق بتحلية علماء المشرق)

وصاحب الرحلة من رجال القرن الثامن، وهو أبو البقاء خالد بن عيسى البلوي، من أهل قُتُوربة، اشتغل بالقضاء، والعلم، والكتابة الديوانية، وكتب مدّة - في أثناء رحلته - كاتب إنشاء في تونس (٧١٣ - ٧٦٨ هـ).

(١) تسامتها: تقابلها.

(٢) أنزلت: رصّعت.

بدأ البلوي رحلته سنة (٧٣٧ هـ)، واستمرت أربع سنوات تقريباً، وكان الحج هو غرض الرحلة الرئيسي، ثم كان مع الحج والعمرة والزيارة لقاء العلماء والرواية عنهم. والأخذ عن جلّتهم في موضوعات شتى من الفنون التي يهتم المؤلف بها.

وزار في رحلته بلدان المغرب ومصر والديار الحجازية وفلسطين وبلاد الشام؛ وكانت رحلة برية وبحرية؛ وقد روى أبو البقاء البلوي ذلك كله من بحريات الرحلة، ومصادقاتها؛ ومن لقاء العلماء والشيوخ والأدباء، ودوّنه بأسلوب مجوّد، مسجوع غالباً؛ ولكنه كان أسلوباً قادراً على الإفصاح والإبانة والدلالة بصفة عامة؛ ولو جرى على الأسلوب المرسل لكان كلامه أحلى وأجلى؛ ويبدو أنه أراد مجازاة كتابة العصر التي غلبت على الرسائل الديوانية، وكثير من الرسائل الإخوانية، ودخلت أيضاً إلى المؤلفات والمصنفات كالذي نجده في تراجم كتاب (الكتيبة الكامنة في شعراء المئة الثامنة) للسان الدين بن الخطيب وغيره.

وهذه قطعة من رحلة البلوي (تاج المفرق...) تصف رحلة العودة إلى الأندلس: تبين طريقته في التدوين، والعرض، وأسلوبه في الكتابة والتعبير؛ ويظهر للقارئ أثر الأسلوب المنمّق المسجوع، الذي قد تضيع معه أحياناً معالم الخبر، أو تفصيلاته، وتقلّ الفائدة حين تكون الحاجة ماسّة إلى معرفة الأحوال والأرقام والبحريات الدقيقة:

نزلنا بمصر وهي أحسن كاعبٍ	فقيده مثل زانها كرم الفعل
فلَمْ أَرَّ أمضى من حسام خليجها	يلوح على إفرنده صدأ الصقل
إذا سال لابل سلّ في متهالك	من الأرض جذب طلّ فيه دمّ الخل!
غداة جلا تبر الشعاع مُتونه	ولا شك أن الماء والنار في النصل
ولا مثل أعطاف الغصون كأنها	شمائل معشوق تنّى من الدلّ
ينظم تعويذاً لها سبج الدجى ^(١)	وينثر إعجاباً بها لؤلؤ الطل!

(١) السبج: الخرز السود.

ورحنا على البحر وقد سكن هائجهُ، وركن مائجهُ؛ وأقبلت الزوارق تهفو
بقوادم غربان. وتعطر بسوالم غزلان، تخالها في سمائه أهلة مكسوفة، وتحسبها
فوق مئة جريدة دهم مصفوفة! وزورقنا بينها يسرع في اندفاعه. وقد استدرنا
تحت ظل شراعهِ فحسبته خوف العواصف طائراً مدّ الحنان على بنيه جناحه،
وما برحنا نسرع سفراً، ونسير نفراً، ونرتشف من ماء النيل كوثرأ، ونتجلى من
حبابه زهراً، ومن جوانبه زهراً، وننبوأ من جناته منازل فتحت أبوابها فدخلناها
زمرأ، وأنشدتها حين ودعتها:

وفتحت أبواب السُّهادِ لناظري وجعلت ليلى بالنُّجوم مُسمراً!

إلى أن وصلنا إلى (فوهة) ضحوة يوم الجمعة الثاني والعشرين لصفر المذكور
وهي بلدة من أحسن بلاد ذلك الساحل مرأى وأخصبها مرعى، وأملحها
مرسى، وأمنحها أنساً وأينعها روضاً، وأنفعها أرضاً... إلخ. •

فأقمنا بها برهة ثم قطعنا النيل أمامها عشية، وسرنا في الخليج راكبين بين
جَنَاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرِ مَعْرُوشَاتٍ، وبلدانٍ مُوشَّاةٍ بِالْبَطَاحِ مَنْقُوشَاتٍ،
ورروضات هي مرتعُ النواظر، ومتنفسُ الخواطر. قد أخذت أدوات الجنان،
وضحكُن عن العبقرى الحسان. وأتت من الحسن والإحسان بما يقصر عن
وصفه لسانُ القلم وقلمُ اللسان. إلى أن وصلنا الإسكندرية فدخلناها في صبيحة
يوم الأحد الرابع والعشرين لصفر المذكور، ونزلنا بالمدرسة الموسومة بالعسكية
منزلاً تشبّه الأتس، وتلك الأعيان. وتسبح من حسنه الأفواء والألسن، وأقمت
مزدداً: هل يتسنى لي السفر أم القعود؟ وهل أعود في البحر أم أبقى على توبتي
منه لا أعود؟ يدبر ابن آدم والقضاء بضحك. إلى أن تهيأ مراكبُ ابن خلاص
للسفر إلى تونس، فلما كمل فيه الواسق وركب فيه الخلق، قلت: الدخول فيما
دخل الناس فيه هو الحق، وجعلت أفضل البحر فتقرب الأوطان، ونسيت هوله
وما أنسانيه إلا الشيطان فاستخرت الله تعالى وركبت فيه أنا وأخي محمد
بمرسى المنار في عشي يوم الأحد ثاني يوم من شهر ربيع النبوي المبارك من عام

ثمانية وثلاثين المذكور. ثم رُفِعَ الشراع وسرنا حتى إذا كنا بالمواسط أمر الله
باجتماع الرياح المختلفة، وتفريق تلك الأمة المؤتلفة، فضربنا في البحر يميناً
ويساراً، وسرنا إقبالاً وإدباراً، ورأينا بُروقاً وأمطاراً، وكسرنا أقساطاً وجراراً،
وقدّرنا الهلاك إمّا انطماراً، وإمّا انكساراً! فلما انتهينا إلى قريب طرابلس الغربيّة
بعث الله تعالى ريحاً شديدة غريبة ضربت من تجاهنا في وجوهنا، وردّتنا على
أعقابنا وأدبارنا، إلى أن دخلنا بها في مرسى العمارة في عشي يوم السبت الموفّي
عشرين لشهر ربيع الآخر من العام المذكور بعد أن كابدنا نصباً وعناء، وعدمنا
زاداً وماء، وكدنا نموت غرقاً وجوعاً وظماء. والأخبار كلما كانت أشدّ على
شاهدها كانت أطربَ على من سمعها. والأسفار تُسفرُ عن أخلاق الرّجال،
وتجولُ بالمرء في كل مجال. لا جرم أني لقيتُ بها أنجاءً وأغواراً، وظلماتٍ
وأنواراً!

والناسُ كالنّاسِ إلا أن تجرّبهم وللبصيرة حكمٌ ليس للبصرِ
كالأيكٍ مُشْتَبِهاتٍ في منابتها وإنما يقع التفضيل بالشرِ

وهذا المرسى لما رسينا به قام رئيس الجفن^(١) المذكور، رجلٌ من الأرذلين
يُلَقَّبُ بالَفَنش. فقال: يا قوم قد رمنا السفر فما تيسر لنا، فلا بدّ لي من الإقامة
أيام الشتاء هنا على كل حال وهي ثلاثة أشهر لا محالة. فمن أراد السفر في البرّ
غرباً أو شرقاً فليفعل. ثم أظهر لنا العزم من القعود، وأعطانا جميع المواثيق
والعهود، وأشهد على نفسه شهود السفينة وناهيك بالشهود، وحلف باللازمة
المغلظة، وأيمان الطّلاق المؤكّدة ثم رفع إلى السّماء يديه وشرع في سبّ والديه،
والدعاء بالذبح على ولديه. فهبط عند ذلك من المركب نحو المئتي رجل
مشرّقين ومغرّبين:

تُقَيِّضُ لي من حيث لا أعلم النّوى ويسري إليّ الهمُّ من حيث أعلم!

(١) الجفن: المركب.

ثم قام فقال لي: يا سيدي حفظك الله، وأصلحك إني والله أحبك فوجب عليّ أن أنصحك. فقلت: وما ذاك جعلت فداك؟ فقال: أرى أن تنزل البر لتستريح، وتكفي هذا الماء وهذا الريح، وهنا في هذه البراري دشار يقال له العماري فصل إليه، فإن صلح بك أخذت حوائجك وعزمت عليك. فقلت له: لعمري لقد نصحت وبيّنت وأوضححت. وعجبت من فضله، وشكرته على قوله، ولم أدر أنه تحيل فيما تحيل، ومكر فيما ذكر:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة ولو حالها تخفى على الناس تعلم
فبادرت مسرعاً ونهضت لا مؤدعاً، ونزلت أنا وأخي على أن نعود، ونرتاد
حيث نلتزم القعود^(١):

وقد كان حسن الظن بعض مذهب فادّبني هذا الزمان وأهله!

ابن بطوطة ورحلته:

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إبراهيم اللواتي (نسبة إلى لواتة من قبائل البربر) الطنجي؛ نسبة إلى طنجة نسبة إلى طنجة بالمغرب الأقصى (ولد ٧٠٣ وتوفي ٧٧٩). وهذه الرحلة تدخل في أدب المغاربة، غير أن لهذه الرحلة خبراً طريفاً. فالرحالة ابن بطوطة طنجي، ألقى مجريات رحلته شفاهاً، فسمعها مع الجمهور كاتب السلطان المريني أي عنان، وهو محمد بن محمد بن جزي الكلي الغرناطي الأندلسي، فدونها بقلمه، وصاغها بأسلوبه، ولونها بطريقته. وتعدّ رحلة ابن بطوطة أعظم الرحلات المعروفة في العصور الوسيطة. وقد دُعيت هذه الرحلة باسم (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)^(٢) وتعدّ وثيقة مهمة هذا العصر (القرن الثامن الهجري) في ما يخصّ الأندلس والمغرب والبلاد العربية وأقطار الإسلام في آسية وأطراف أوربة، وفي بعض البلاد الإفريقية.

(١) ويرجع البلوي لبحد الفنش قد هرب بالركب وما فيه.

(٢) طبعت مراراً. واشتهرت بعنوان: رحلة ابن بطوطة.

والرحلة في حملها مكتوبة بقلم سهل، مُفصّل؛ ابتعد فيه عن الصنعة والسجع والتكلف؛ ولكنه زيّن المقدمة، وأوليات وصف البلدان، بشيء من السجع، غالباً، بحارة لبعض الذوق السائد.

وفي نصّ طريف سجّله حين كان في دمشق، قال:
((مررت يوماً ببعض أزقة دمشق، فرأيت به مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صحيفة من الفخار الصيني، وهم يُسمّونها الصّحن، فتكسّرت، واجتمع عليه الناس، فقال له بعضهم: اجمع شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني، فجمعها وذهب الرجل معه إليه فأراه إياها، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصّحن. وهذا من أحسن الأعمال...)).

وقال في مكان آخر:

((وأهل دمشق يتنافسون في عمارة المساجد، والزوايا، والمدارس، والمشاهد؛ وهم يُحسِنون الظن بالمغاربة، ويطمئنون إليهم بالأموال والأهلين والأولاد، وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق لا بدّ أن يتأتى له رجة من المعاش من إمامة مسجد، أو قراءة بمدرسة... إلخ...)).

رحلة ابن الحاج النميري^{*} الغرناطي:

(فيض العُباب وإفاضة قَدَاح الآداب في الحركة السّعيدة إلى قُسطنطينة والزّاب) صاحب الرحلة فتيّة محدّث وأديب شاعر كاتب، ورحالة أندلسي، هو أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن الحاج النميري الغرناطي. ولد بغرناطة سنة (٧١٣ هـ)، ودخل ديوان الإنشاء سنة (٧٣٤ هـ)، وطاف داخل الأندلس (٧٣٧ هـ). وقصد إلى المشرق فأدّى فريضة الحج، وطاف بالبلاد. وكثّر تردّده على البلاد المشرقية ووصلت أسفاره إلى ما وراء الشام والعراق. وروى عن عدد من العلماء الكبار مثل علم الدين البرزالي (ت ٧٣٩ هـ) والحافظ المزي (ت ٧٤٢ هـ) والحافظ الذهبي (ت ٨٤٧ هـ).

(*) ترجمته في نيل الابتهاج ٤٤ - ٤٦، والرافى بالوفيات ٤٠/٦، والإحاطة ٣٥٠/١، والكتيبة الكامنة:

عدد من العلماء الكبار مثل علم الدين البرزالي (ت ٧٣٩ هـ) والحافظ المزّي (ت ٧٤٢ هـ) والحافظ الذهبي (ت ٨٤٧ هـ).

واشتهرت براعته في الكتابة والإدارة فعمل في الدّواوين، وأُعجب به سلطان المغرب أبو عنان المريني. واصطحبه معه في رحلة شملت أقطاراً كثيرة في بلاد المغرب الأقصى والأوسط والأدنى؛ وهي التي عنونها بـ (فيض العباب)^(١).

وقد وصف المقرّي صاحب هذه الرحلة فقال فيه: ((الشاعر المُفلق له النظم الرائق العذب الجامع بين جزالة المغاربة ورقة المشاركة)).

ومن تأثره بالمشرق، وعناية المشاركة به حظي بلقب (برهان الدين) على طريقتهم في اتّخاذ الألقاب إضافةً إلى الأسماء والكنى.

وقد تّمت هذه الرّحلة سنة (٧٥٨ هـ)؛ بدأت في ٢٠ جمادى الأولى وانتهت في غرة ذي الحجة.

وهي رحلةٌ سياسيّةٌ قصد منها السُّلطان أبو عنان المريني أن يوطّد سلطته ويقضي على فتن الأعراب التي كانوا يقومون بها، ويُزعجون السّلطة والأمن؛ ومع الهدف السياسي كان للرّحلة جوانب اجتماعية وثقافية متعدّدة.

وكانت الرّحلة - إضافةً إلى غرض الوصف العام وتسجيل الرّقائع - معرضاً للقاء الشخصيات العامّة، ولقاء الأدباء والشعراء والفقهاء. وكانت الرّحلة معرضاً لوصف مشاهدات كثيرة من الآثار والعمائر القديمة ومن كل ما يلفت النظر ويجلب الاهتمام.

وقد غلب الأسلوب المسجوع على لغة هذه الرّحلة فكان لا يحدّ عنه ((لا في الخبر ولا في الحكاية ولا في الوصف وتحليل المواقف، ولا في مديح أبي عنان والدولة المرينيّة))^(١).

(١) صدر هذا الكتاب في المغرب، دراسة وإعداد د. محمد بن شقرون، دون تاريخ ودون اسم الناشر أو مكان الطبع.

((...)) وفي يوم الجمعة المذكور كان نزولنا بعيون القصب، ولا عين إلا وقد قرّت، ولا صدر إلا وقد أناخت به المسرات واستقرّت. وبينما مولانا - أيده الله - في مجلسٍ مُلكه، ونحن بين يديه وأبصارنا مُحدقة إليه، وهو متفكّر في أحوال مَنْ بالشّرق من البُغاة الذين شهروا سيوف الفتن، وأجنفوا^(١) عن النهج الواضح والسّنن، والحُساد الذين خبثت بطانتهم وظهارتهم، وعظّمت للحرب العوان إثارتهم. إذا بكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني قد وصل إلى الباب الكريم، ووفدت منه خزانة آداب هي أبدع من الدُّر النّظيم، فتناول - أيده الله - منه سيفراً، وفتحته على وجه التفاؤل الذي أبقي في بطون الأوراق ذِكراً، فلم تقع عينه الكريمة إلا على هذين البيتين؛ وهما من قصيدة لأعشى همدان وهي هذه:

بِحُند أمير المؤمنين وخيله وسلطانه أضحى مُعاناً مؤيداً
ليهن أمير المؤمنين ظهوره على أمة كانت طغاةً وحُساداً

فشكر الله على ذلك مولانا الذي رحم الله به البلدان، وزاد إمضاءً لعزائمه التي ظهرت الإسلام والإيمان.

وكان بالبساط الكريم^(٢) الشّيخ الفقيه العدل الأديب أبو محمد البرطال أحد شهود البيت، فأنشد ارتجالاً مبلّغاً بالسّرور آمالاً:

تهنّأ بزجرٍ يا خليفة ربّنا يبلغك المقصود والله فأحمداً^(٣)

وعلى أثر ذلك تسابق الأصحاب في ميدان النّظم والتّوطئة بقصائد هذين البيتين اللذين أحيا للإجادة أوضح الرّسم؛ فأتوا في ذلك بقصائد تفتّحت عن كمائم الأفكار زهراً، وطلعت بسماء القراطيس زهراً^(٤)، وثنت قُدود الأقلام

(١) أي حادوا وسالوا.

(٢) يعني في حضرة السلطان أبي عنان.

(٣) يطلب إليه التفاؤل بالخير من ذلك الشعر الذي صادفه.

(٤) أي كالكوكب المشرقة المضيئة.

وقد كادت تميل سكرًا. فمما حضرني الآن من ذلك قول الفقيه الحسيب الكاتب البارع المجيد أبي عبد الله العزفي:

لك السَّعدُ بالآمال أصبح مُسعدا فلا زلتَ تعدُّو كلَّ حين على العدا
وعلياك شمسٌ قد أنارت فطالما بها أوضحَ اللهُ السَّبيلَ إلى الهدى
سريتَ بحزم تنشرُ العدلَ في السورى وتطوي بساطَ الجورِ ممَّن قد اعتدى
إلى وطنِ الأعرابِ في الشرقِ كي ترى تصدَّ الذي منهم لظلمِ تعمدا^(١)
وظل لسبلِ الحجِّ بالجورِ قاطعاً فضلل عن ذاك السَّبيل من اهتدى
وبالعسكرِ الجرارِ دوخت أرضهم فملكتهـا بالبأسِ فيهم وبالندي
إلى وطنٍ قد كان بالجورِ خالياً فأصبحَ معمورَ النواحي مهندا
ولما أخافوا السَّبلَ يَممت أرضهم وصيرت حربَ القومِ فرضاً مؤكدا
فراعتهُم تلكَ الكتائبُ إذ أتت تجرُّ قناةً أو حساماً مهندا
وجاؤوك أفواجاً يرومون بيعةً فمُدَّ بعونِ اللهِ للبيعةِ اليدا
بجندِ أميرِ المؤمنين وخيله وسلطانهِ أمسى مُعاناً مؤيدا
ليهنَ أميرَ المؤمنين ظهوره على أمةٍ كانت بغاةً وحسدا!

وقال الفقيه البارع الشاعر المجيد أبو العباس بن عبد المَنَّان:

إليك وإلا لا طوى الركبُ فدُفدا عليك وإلا ما الثناء مرددا؟
وعنك وإلا ما المآثرُ والعُلا ومنك وإلا ما المواهبُ والجدا
أ (فارس) يا أعلى الملوك مناقباً وأعلامهم كعباً وأطروهم يدا
ملكـت فأوسعت البلادَ وأهلها أماناً ومنناً بالحماسة والندى...

وقال الفقيه العدل الكاتب أبو العباس بن النعمان:

(١) يلتقي هذا الشعر مع غرض السلطان من حمته السياسية والديبلوماسية والإدارية من ضبط شؤون البلاد والعباد، وخاصة عدم انضباط أعراب المناطق الشرقية.

دعتك لنصر الدين عادية العدا على أمة تدعوك مولى وسيدا
تمد يد الآمال ترجو تخلصاً وقد نشبت في جبل من جار واعتدى
بها ظمأ للعدل لم لا ولم ترد على بعدها من عدلك الدهر موردا
لك الفضل إن أوليتها نيل ما رجحت وأنفذت سهماً للأعادي مسددا

وقال مؤلف الكتاب إبراهيم بن عبد الله بن الحاج قصيدة أولها:

سرى وعيون الشهب تشكو التسهدا خيال على الأكوار قد زار مكمدا
وما راعه إلا الصباح كأنه حسام بغمد الليل قد كان مغمدا
وومضة برق ألبس الخد فضة من الدمع لما ألبس الأفق عسجدا

وهكذا كانت الرحلة معرضاً لمجريات أحداثها السياسية والدبلوماسية والإدارية، كما كانت مجالاً لرصد مداولات السلطان أبي عنان مع الولاة والقادة، وزعماء الناس؛ وتسجيلاً لمجريات لقاء العلماء والأدباء والشعراء. وهذا كله يعكس صورة الحياة العامة من جهة وحركة الأدب والشعر والثقافة من جهة أخرى.

القلصادي^(١):

تحدث العلامة التونسي ابن عاشور عن هجرة العلماء الأندلسيين في أواخر زمان العرب والمسلمين في الأندلس فقال: ((كان علماء الأندلس لشعورهم بسوء العاقبة يعملون في الهجرة إلى ما جاورهم من بلدان، وكان مقصدهم من ذلك تلمسان والمغرب الأقصى ثم إلى تونس. وبدخول رحالة الأندلس أصبحت هاته الأقاليم وارثة العلوم الأندلسية)). ولا شك في أن عدداً من المهاجرين الأندلسيين وصلوا إلى بر الشام ومصر. وإن كانوا في تلك المدة أقل بكثير ممن قصد إلى الديار المغربية.

(١) راجع مقدمة تحقيق كتابه (تمهيد الطالب ومنتهى الراغب إلى أعلى المنازل والمناقب) المعروف برحلة القلصادي. وقلصادة هذه قرية قريبة من غرناطة، لعل أصله منها فنسبت أسرته إليها.

ومن هؤلاء المهاجرين: الرَّحالة الأندلسي العالم الرياضي أبو الحسن القلصادي المتوفى سنة (٨٩١ هـ) قبل سقوط غرناطة بست سنوات فحسب، والمولود سنة (٨١٥ هـ) أو قبلها.

- وهو أبو الحسن علي بن محمد القرشي البسطي، الشهير بالقلصادي. ولد بمدينة بسطة (في الشمال الشرقي من غرناطة) وفيها تلقى علومه الأولى. وكان يتردد على غرناطة عاصمة دولة بني الأحمر. التي حكمت الأندلس الباقية.

وقد رحل سنة (٨٤٠ هـ) إلى تلمسان فأقام ثمانى سنوات، ثم أقام بها قريباً من سنة بعد عودته من الحج. وأقام بتونس سنتين بعد إقامته في تلمسان، واستقر بها سنة أخرى في عودته من رحلته المذكورة. وأقام بمصر في عودته أيضاً أكثر من سنة، ثم استقر بغرناطة بعد غياب استمر نحو خمس عشرة سنة، واشتغل بالتعليم والتأليف على رغم ظروف غرناطة القاسية آنذاك بسبب اشتداد حرب الاستغلاب؛ واشتداد الخلافات الداخلية^(١).

ورحل ثانية إلى الأندلس على نية الإقامة الدائمة في (باجة) من الديار التونسية وكان ذلك نحو (٨٨٨ هـ)، وقد يئس من صلاح الأحوال، وبعد أن أبلى مع جمهرة الفقهاء في رفع الخلافات الداخلية، والتشجيع على القتال والإسهام فيه.

- وتوفي القلصادي بعد سكناه بأجرة بسنوات قليلة (سنة ٨٩١ هـ). وله مؤلفات كثيرة في علوم شتى.

- ورحلة القلصادي تعتمد على الإيجاز، والبعد عن الجزئيات، وهو لا يتوسع في ذكر الأحداث ووصف البلدان وأحوالها. فجاءت رحلته قصيرة مختصرة.

(١) راجع مثلاً: (آخر أيام غرناطة) أو: نبذة العصر في انقضاء دولة بني نصر لمؤلف أندلسي من القرن الحادي التاسع - طبع دار حسان - دمشق.

وصف مدينة بسطة:

((ثم ارتحلتُ عن مسقط رأسي، ومحل أنسي، مع أبناء جنسي بسطة سقى الله أرجاءها المشرقة وأغصانها المورقة شآبيب الإحسان، ومهدّها بالهدنة والأمان: دارٌ تحجل منها الدُّور، وتتقاصرُ عنها القُصور، وتقرُّ لها بالقصور مع ما حوتهُ من المحاسن والفضائل، من صحّة أحسام أهلها وما طبعوا عليه من كرم الشّمائل، فوائدها الصحيح، وفضائلها الفسيح، وبحسبك فيها عدمُ الحرج، لأن داخلها باب الفرّج^(١) .

ولذلك قال فيها ابن الخطيب: إنها محلّ خصيب، ومنزلٌ حبيب، وكفاها بمسجدِ الجنة دليلاً على البركة، وباب المسك دليلاً على الطيب، ولها من اسمها نصيب، إذ هي بحر الطعام وينبوع العيون المتعدّدة بعدد أيام العام:

دارٌ مشى الإتقانُ في تنجيدها	حتى تناسب روضها وبنائها
مرموقةُ الجَنّاتِ ذاتُ قرارةٍ	يمتدُّ قدام العيونِ فضاؤها
ما زال يضحكُ دائماً نوارها	في وجهِ ساحته ويلعبُ ماؤها

ولبعض أصحابنا فيها، الأديب الكاتب ابن الأزرَق^(٢) :

في بسطةٍ حيث الأباطحُ مشرقةٌ أضحت جُفُوني بالمحاسنِ معلقةٌ
وله أيضاً في تورية:

قل لمن رام النوى عن وطنٍ	قوله ليس بها من حرج
فرّج لهم بسكنى بسطةٍ	إن في بسطةٍ باب الفرّج

(١) مفهوم أن (باب الفرّج) أحد أبواب المدينة، ومواضعها.

(٢) ابن الأزرَق هو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن علي الأصححي الغرناطي المالقي. نشأ بمالقة مسقط رأسه وبها تعلم، كان ممن أخذ عنهم أبو إسحاق إبراهيم البدوي وأبو عمرو محمد بن منظور، وأبو إسحاق إبراهيم بن فتوح، وأبو عبد الله محمد السرقسطي وغيرهم. وتولى القضاء والسفارة وكان يدرس وينتج - من أشهر مؤلفاته (شفاء الغليل في شرح المختصر الخليلي) و (بدائع السلك في طبائع الملك). وتوفي بالقدس سنة (٨٩٦ هـ) ودفن بها.

وبعد ذلك صار يعرض لي قولُ القائل:

كَانَتْ لَنَا أَعْوَامٌ وَصُلِّيَ بِالْحِمَى فَكَأَنَّهَا مِنْ طَيْبِهَا أَيَّامٌ
ثُمَّ انْتَبَتْ أَيَّامٌ هَجَرَ بَعْدَهَا فَكَأَنَّهَا مِنْ طَوْلِهَا أَعْوَامٌ
ثُمَّ انْقَضَتْ تِلْكَ السَّنُونَ وَأَهْلُهَا فَكَأَنَّهَا وَكَأَنَّهُمْ أَحْلَامٌ

[الارتحال إلى تلمسان ووصفها]:

وذلك عام (٨٤٠ هـ / ١٤٣٦ - ١٤٣٧ م)، وجعلت كلما لاح بارق^(١) ارتحتُ إليه، أو ذرّ شارق سلمت من البعد عليه، إلى أن ركبَت البحرَ من المنكب^(٢)، وسَهَلَ اللهُ أمرنا في ذلك المركب، فحللنا بوهران^(٣)، وأقمنا بها أياماً في سُرورٍ وأمان؛ ثم توجَّهنا إلى المقصودة بالذات، المخصوصة بأكمل الصفات: تلمسان^(٤)، يالها من شان؛ ذات المحاسن الفائقة، والأنهار الرائقة، والأشجار الباسقة، والأثمار المحدقة، والناس الفضلاء الأكياس، المخصوصين بكرم الطباع والأنفاس، ولا يُنكر وجود الفاذ^(٥) من جميع الأجناس، وأدركت فيها كثيراً من العلماء، والصلحاء والعُباد والزُّهاد، وسوقُ العلم حينئذٍ نافقة، وتجارةُ المتعلمين والمُعَلِّمين رابحة، والهَمُّ إلى تحصيله مُشرفة، وإلى الجدِّ والاجتهاد فيه مُرتقية، فأخذت فيها بالاشتغال بالعلم على أكثر الأعيان، المشهود لهم بالفصاحة والبيان...))

(١) المنكب: مرفأً ساحلي مرتفع في جنوب شرقي الأندلس بمقاطعة غرناطة. وهو أقرب مرفأً إلى غرناطة.

(٢) وهران بفتح أوله وسكون ثانيه، وآخره نون: مدينة على ضفة البحر ببلاد المغرب (في القطر الجزائري).

(٣) تلمسان بكسرتين وسكون الميم وسين مهملة: مدينتان متجاورتان مسورتان. كانت مركزاً علمياً وحضارياً أيام ملوكها من بني عبد الوادي.

(٤) الفاذ: الشاذ - يقال كلمة فاذة: شاذة.

الفصل الرابع

تَراجِمُ أُنْدُلُسِيَّة

٢٨٩	يحيى بن حَكَم الغزال
٢٩٥	سعيد بن جودي السعدي
٣٠٠	ابن عبد ربه القرطبي
٣١١	ابن زيدون
٣٣١	ابن خفاجة
٣٤٢	ابن أبي الخصال
٣٥٦	أبو البقاء الرندي
٣٦٧	لسان الدين بن الخطيب

يحيى بن حكم (الغزال)*

(١٥٦ - ٢٥٠ هـ)

١ - هو يحيى بن حكم، البكري، الجياني^(١)، المشهور بلقب الغزال. فالبكري نسبة إلى أصله العربي، والجياني نسبة إلى مدينة جيان التي ينتمي إليها وإن كانت سكناه في قرطبة. والغزال لقب لزمه لحسنه، وجماله الذي حافظ عليه إلى زمان متأخر من حياته.

وكان الغزال ذكياً، ألمعياً، حاضر البديهة (وهذا يفسر قدرته على ارتجال الشعر)، وكان جريئاً صريحاً يقول ما يعتقد، ويصرّح بما يجول في نفسه، ومن هنا برز في ديوانه شعر النقد الاجتماعي والهجاء والتعريض.

وكان الغزال مثقفاً ثقافة واسعة في العلوم العقلية والعلوم النقلية. وقد وُصف بالعرّاف لخبرته في علم النجوم.

وقد كان مُقرباً إلى البيت الأمويّ، فتولى عدداً من الأعمال، وذهب سفيراً إلى بلاد الجوس، وإلى القسطنطينية^(٢).

وهناك خبر عن رحلة للغزال إلى المشرق، وليس بين أيدينا تفاصيل عنها.

* يُنظر ديوانه (مجموع شعره)، ومقدمتنا لدراسة حياته وشعره (الطبعة الثانية - دار الفكر - دمشق ١٩٩٣).

(١) تنظر ترجمته في المقتبس (تح الدكتور محمود علي مكّي) ١١ - ١٣، وجذوة المقتبس ٣٥١، وبغية الملتبس ٤٨٥ - ٤٨٦، والمغرب في حُلّى المغرب ٥٧/٢، والبيان المغرب ٩٣/٢، ونفح الطيب ٥٦/٢ - ٢٥٤/٢، والمطرب من أشعار أهل المغرب ١٣٢، وبتيمة الدهر ٥٦/٢.

(٢) هناك تفصيل لخبر سفاراته في مقدمة الديوان ١٥ - ١٧.

- واختلف في بلاد الجوس أهي الدائمرك أم إيرلنده، وهما من مناطق نفوذ النورماندين.

٢ - شعر الغزال الباقي يدل على نظمه في أغراض شتى، فيها الغزل، والهجاء، والمدح، والوصف، والحكمة والتأمل في شؤون الحياة، وتبرز مقدرة الشاعر على معالجة النقد الاجتماعي في موضوعات مختلفة.

- والهجاء - والتعريضُ فرْعٌ لاحقٌ به - من أغراض الشاعر البارزة في شعره الباقي.

ومن يراجع شعر الغزال يتنبّه إلى أن الهجاء عنده - في ما بين أيدينا منه - موظّف في قضايا اجتماعيّة غالباً. فقد هجا المغني (زرياب) بشعر لم يصل إلينا. وعددًا من ذوي المكانة والسلطة كالقائد ابن أبي العطاف لهروبه من بعض الوقائع، ونَصْرُ الخَصِيّ، والقاضي يُخامر (لغفلته) وبعض عُدول القاضي يُخامر...

ويظهر للمتابع أنّ الغزال لم تكن له مع هؤلاء وأمثالهم قضايا شخصية، ولكنه كان يعالج حالات عامّة أو ينتقد ظواهر محدّدة^(١).

- ويبرز في شعره عنصر النقد الاجتماعي مثل الغنى والفقر، وعلاقة الرجل بالمرأة، وألعاب التسلية التي لا هدف لها، واختلط نقده الاجتماعي بالسخرية اللاذعة، والدّعابة.

- وفي شعر الغزال الباقي قطع غير قليلة تتعلّق بحياته من سفر وغربة، ومن طول الزمان الذي عاشه فتقلّبت به الأحوال مع أمراء خمسة حكموا الأندلس، ومع أجيال متوالية تمرّ به وهو ثابت كشجرة زيتون عتيقة.

ومن هذا الشعر المعبر، قصيدة على بحر الرجز (أرجوزة) يقول فيها^(٢):

(١) يلاحظ أن أستاذنا الدكتور شوقي ضيف ترجم للغزال في (شعراء الهجاء) انظر كتابه عن الأندلس في

سلسلة تاريخ الأدب العربي ٢٣٠

(٢) الديوان ٤٧ - ٤٨

تَسْأَلُنِي عَنْ حَالِي أُمُّ عُمَرَ
وهي تَرى مَا حَلَّ بِي مِنَ الْغَيْرِ^(١)
وَمَا الَّذِي تَسْأَلُ عَنْهُ مِنْ خَيْرٍ
وَقَدْ كَفَاهَا الْكَشْفُ عَنْ ذَاكَ النَّظَرِ
وَمَا تَكُونُ حَالِي مَعَ الْكِبَرِ
أَرَبْدٌ مَنِي الْوَجْهَ وَأَبْيَضَ الشَّعْرُ^(٢)
وَصَارَ رَأْسِي شُهْرَةً مِنَ الشُّهُرِ
وَيَسْتَنْصِرُ وَجْهِي وَأَقْشَعِرُ^(٣)
وَنَقَصَ السَّمْعُ بِنَقْصَانِ الْبَصَرِ
وَصِرْتُ لَا أَنْهَضُ إِلَّا بَعْدَ شَرِّ
لَوْ ضَامِنِي مَنْ ضَامِنِي لَمْ أَنْتَصِرْ^(٤)
فَانْظُرْ إِلَيَّ وَاعْتَبِرْ ثُمَّ اعْتَبِرْ
فَإِنَّ لِلْحَلِيمِ فِي مُعْتَبِرٍ!^(٥)

فهذه صورة تجمع بين تصوير الظاهر الخارجي لرجل تقدمت به السن جداً؛ وبين التصوير الداخلي الذي يفسر الشكوى، ويقدم لها الأسباب والعلل. والقصيدة تدل على طبيعة شخصية الغزال: الواضحة، والواقعية. وهي صورة مرسومة بيد صاحبها الذي يسوق الكلام بين الحقيقة الماثلة (الصعبة) وبين الدُّعابة المرححة أيضاً.

وتبلغ السخرية مداها حين يتصور كيف سيعامله أقاربه بعد موته! لقد استطالوا حياته، وخلف جيلاً بعد جيل حتى جاء من أهله وذويه من لا ينسجم

(١) الغير: هي غير الدهر وأحواله وحدثاته المتغيرة.

(٢) أربد من الرُبْدَة وهي الكُدرة. ويكون ذلك من غضب؛ وأراد هو أثر كبر السن.

(٣) اقشعر الجلد: قفّ وتقبّض.

(٤) ضامه حقه، وضامه في حقه: نقصه إياه وظلمه.

(٥) الحليم: العاقل (يريد من ينتفع بأحوال غيره).

معه (لاختلاف السنّ والمشرّب والاهتمام). وانظرُ إلى آخر بيت، وصورته الحركيّة: التي تنضح أسيّ، ولا تخلو من تخيل ابتسامة استغراب! قال^(١):

أصبحتُ والله محسوداً على أمدٍ من الحياة قصير غير مُستدٍّ
حتى بقيتُ بحمدِ الله في خلفٍ كأنني بينهم من خشيةٍ وحدي
وما أفارقُ يوماً مَنْ أفارقَه إلا حسبتُ فراقِي آخرَ العهدِ
انظرُ إليّ إذا أدرجتُ في كَفَنِي وانظرُ إليّ إذا أدرجتُ في اللحدِ
واقعدُ قليلاً وعائِنُ مَنْ يُقيمَ معي مِمَّنْ يُشيعُ نعشي مِنْ ذَوِي وَدِي
هيهاتَ كُلُّهُمْ في شأنِهِ لِعَبٍّ يرمي الترابَ ويحثُّهُ على خَدَي! ^(٢)

وهذه صورة أخرى^(٣)، ولكنها - الآن - لإنسان كما يراه الشاعر؛ وهو إنسان تغلبه شهواته، ويتصرف من وحي مصلحته الشخصية دون اعتبار لغيره: إنسان أنانيّ تكثر فيه الآفات (الاجتماعية). ولا تخلو الصورة من المبالغة:

إذا أُخبرتَ عن رَجُلٍ بَرِيءٍ من الآفاتِ ظاهِرُهُ صَحيحُ
فَسَلُّهُمْ عَنْهُ: هَلْ هُوَ آدَمِيٌّ؟ فَإِنْ قالوا: نَعَمْ، فالقولُ رِيحُ! ^(٤)
ولكنْ بعضُنَا أَهْلُ اسْتِتارٍ وعندَ الله أَجمَعُنَا جَريحُ ^(٥)
ومِنَ إِنْعامٍ خالِقِنَا عَلِينَا بأنْ ذُنُوبَنَا لَيْستَ تَفُوحُ ^(٦)
فلو فاحتْ لأصبحنا هُرُوباً فرادى بالفلأ ما نَسْتَرِيحُ
وضاقَ بكلِّ مُنتحلٍ صلاحاً لَتَن ذُنُوبِهِ البَلَدُ الفَسيحُ! ^(٧)

(١) الديوان ٤٦ - ٤٧

(٢) حثا عليه التراب: هاله.

(٣) الديوان ٤٢

(٤) فالقول ريح: لا قيمة له، لا يثبت.

(٥) أهل استتار: ستر. وجريح: مجروح أي فيه قول أو طعن (يريد: لا أحد بلا ذنوب).

(٦) جعل الشاعر الذنوب كالرائحة المُستتة؛ ولكن من إِنْعام الله تعالى أنْ رائحتها لا تفوح (وفي هذا سترٌ أيضاً).

(٧) انتحل الصلاح: ادّعاه وهو ليس من أهله.

تعليق: يُنظر في الغرض العام للقطعة، وفي معاني بعض الأبيات شعر لأبي العتاهية (ديوانه ٩٧) وفيه: أحسنَ الله بِسْـــــــــــــــــا أنْ المنايا لا تفـــــــــــــــــوح!

- وهذه صورة لمغنية تقدمت بها السن^(١)؛ ذهب رونقها، وشاهت صورتها، ولم يُحسن لسان قولها. فهي - عنده - تستحق السخرية والوصف الضاحك:

جَرْدَاءُ صَلْعَاءُ لَمْ يُبْقِ الزَّمَانُ لَهَا إِلَّا لِسَانًا مُلِحًّا بِالْمَلَامَاتِ^(٢)
لَطَمْتُهَا لَطْمَةً طَارَتْ عِمَامَتُهَا عَنْ صَلْعَةٍ لَيْسَ فِيهَا خَمْسُ شَعْرَاتِ^(٣)
كَأَنَّهَا بَيْضَةُ الشَّارِي إِذَا بَرَقَتْ بِالْمَازِقِ الضَّنْكِ بَيْنَ الْمَشْرِفِيَّاتِ^(٤)
لَهَا حُرُوفٌ نَوَاتٍ فِي جَوَانِبِهَا كَقِسْمَةِ الْأَرْضِ حِيزَتْ بِالتَّخُومَاتِ^(٥)
وَكَاهِلٌ كَسْنَامِ الْعَيْسِ جَرَّدَهُ طَوْلُ السِّفَارِ وَالْحَاحُ الْقَتُودَاتِ!^(٦)

ولا شك في أنّ هذه القطعة، تؤكّد ما ينتبه إليه القارئ في سائر شعر الشاعر من ظهور موهبة التصوير، والتقاط الصور الغريبة، اللافتة، ومن مزج الصورة الحقيقية الواقعية بشيء من السخرية التي تقتضي نوعاً من المبالغة في الأشكال والأحوال والألوان.

- وهذه قطعة قصيرة تعبّر عن موقف كامل. وكان الغزال يكتفي بالقطعة، ولو كانت البيتين والثلاثة، إذا استطاع بها أن يصور الموقف أو يقدم الفكرة. والقطعة تتحدث عن فقيه ولاّه القاضي معاذ الشعباني على الأحباس (الأوقاف) فلم يكن نزيهاً في الحفاظ على أموال الناس بين يديه وهي تغضّ من معرفة القاضي معاذ بالناس؛ وتصفه بطيب القلب وسلامة النية التي تطمع (فقهاء السوء): قال^(٧):

(١) الديوان ٤٢

(٢) الملام والملامة: العذل. ويريد الشاعر أيضاً ما وراء ذلك من الشريرة وما يتبعها.

(٣) العمامة - في اللغة - ما يُلفُّ على الرأس.

(٤) الشاري: الخارجي. والبيضة: الخوذة. وشبهها - لاميعة - بخوذة أحد الخوارج لعنايتهم بالحرب واستعدادهم وترتيب آلتهم.

(٥) لها حروف نوات: أصلها نواتي بالهمزة فحذف. ولعلها نواتي على التسهيل. والتخوم: مفصل ما بين القريتين والأرضين... ولم أقف على جمع الكلمة بـ (تخومات).

(٦) القتل: خشب الرّحل، والجمع - في كتب اللغة - أقتاد وأقتد وقُتود.

(٧) الديوان ٦٧ - ٦٨

يقول لي القاضي معاذ مشاوراً -وولّي امرءاً- فيما يرى-من ذوي العدل-:
فديتك! ماذا تحسب المرء صانعاً؟ فقلت: وماذا يفعل الدبُّ في النحلِ
يدقُّ خلاياها ويأكلُ شهدها ويترك للذّبانِ ما كان من فضل!

لقد كان الغزال صوتاً اجتماعياً عالياً، لا يستنكف عن الجهر بالرأي، ولا
يوارب، ولا يهادن، ويسمّي الأشياء بأسمائها ولو كانت التسمية جارحة. إنه
يضحي بالكياسة الاجتماعية في سبيل قول الرأي الصريح، وتقديم الصورة على
حالتها ولو كانت قبيحة!

سعيد بن جودي

السَّعْدِي الإِلبيريّ الأندلسي*

(نحو ٢٤٠؟ - ٢٨٤ هـ)

١ - هو أبو عثمان سعيد بن سليمان جودي السَّعْدِي^(١)؛ وينتمي في قبيلة هوازن العربيّة، من جُند دمشق الداخلين إلى الأندلس. وكان جدّه الأعلى أسباط بن جعفر السعدي من أهل العلم والفقه، وتولى قضاء البيرة لعبد الرحمن الداخل. وكان لأسرته صلة بدولة بني أميّة وخدمة عالية فيها.

عاش سعيد بن جودي في القرن الثالث الهجري، ومات غيلةً سنة (٢٨٤ هـ) وكان بين (٢٧٧ و ٢٨٤ هـ) زعيماً للدَّعوة العربية ورجالها في منطقة البيرة وما حَوَّلها. وهي الدَّعوة التي تصدَّى فيها العرب لجماعة المولدين الذين انقلبوا على الدَّولة، وعاثوا فيها - وخصوصاً عمر بن حفصون - والذين عادوا العرب، ونهَضُوا بالفتنة ضدهم.

* ينظر كتاب (سعيد بن جودي السعدي الإلبيري الأندلسي) بتحقيقنا وفيه دراسة لسيرته، ومجموع شعره. ط دار الفكر بدمشق، صدر في مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث (ط ١ : ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م).

(١) انظر ترجمة سعيد بن جودي وأخباره في: جذوة المقتبس ٢١٣، والمقتبس لابن حيان (القسم الذي نشره ملشور أنطونية)، وبغية الملتبس ٢٩٤، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم، الحلة السَّيِّئة ١٥٤/١، والمغرب ١٠٥/٢، وأعمال الأعلام ٣٥، والإحاطة ٢٧٥/٤.

- وإشارة إلى حياته وشعره في تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ ١٤٥/٤، تاريخ الأدب العربي - د. شوقي ضيف (الأندلس) ٢٠٦، تاريخ الأدب الأندلسي ٩٢/١، وفصول في الأدب الأندلسي ٩٥، والأدب الأندلسي ٦٠.

وتقدّر ولادته بنحو سنة (٢٤٠ هـ) تقريباً، أعني أواخر حكم الأمير عبد الرحمن الأوسط (ت: ٢٣٨ هـ) أو أوائل عهد الأمير محمد (حكم من ٢٣٨ إلى ٢٧٣ هـ).

وكانت أيام الأمير محمد، وابنه المنذر، وابنه الآخر عبد الله أياماً صعبة على الدولة لكثرة الفتن والثوار وطالبي الانفصال والانعزال.

واتخذت فتنة المولّدين طابعاً شعوبياً، وأسهمت في إضعاف الدولة الأموية، واتجهت نحو العرب في ما يشبه حرب الإبادة والسيطرة. فقام من العرب من قاومهم؛ وفيهم سعيد بن جودي السّعدي^(١).

وقد كان سعيد فارساً بارعاً الفروسية، ومحارباً عنيداً، وسياسياً مقنعاً. وقد تسلّم رئاسة العرب في منطقته بعد وفاة سلفه سوار بن حمدون.

وكان إلى ذلك شاعراً بارعاً وخطيباً مفوهاً، ونقرأ في ترجمته أنه كانت تُعدّ له عشر خصال تفرّد بها في زمانه ولا يُنكرها أحد وهي (الجود، والشجاعة، والفروسية، والجمال، والشعر، والخطابة، والشدة، والطعن، والضرب، والرماية).

وقد وصل سعيد يده بيد الإمارة الأموية، وولاه الأمير عبد الله على جُند دمشق. وانتظم سعيد في ولاية الدولة الأموية يُعين جيوشها ضدّ أصحاب الفتن، ويحارب الثائرين عليها، ويوفّر الطاعة للدولة والنظام في منطقته.

وقد دُبّرت عليه مؤامرة انتهت بمقتله سنة (٢٨٤ هـ).

٢ - وصف سعيد بن جودي بأنه كان شاعراً مفلحاً (بارعاً) وخطيباً بليغاً. ولكن: لم يبق لنا من شعره إلا قصائد قليلة وقطع أخرى، منها ست تتصل بالقضية العربية، وهي أشعار حماسية فيها فخر بالعرب ومجوم على المولّدين وحلفائهم، وثناء على بعض أصحابه من قادة الدعوة العربية مثل سوار ويحيى بن صقال. وله شيء من الرثاء، والغزل.

(١) انظر تفصيلاً لهذه الأحداث، ومجرياتهما، في دراستنا عن الشاعر.

٣ - شعر سعيد بن جودي الحماسي يستحضر المعاني العربية الحماسية، ويمزج بعضها ببعضها الآخر في تناسق وتسلسل، ويصف الأحداث بمقدرة شاعر بارع قادر على استخدام الأدوات الفنية، واستحضار المشاهد المتحركة، والانتقاء من الألفاظ الدالة، الموحية، في براعة تذكّرنا بالشعراء الكبار.. ناهيك عن حرارة انفعال الشاعر بالموقف، وصدور ذلك كله عمّن حمل السيف يلتمع في يده وجهه بالصوت يتردد في حلقه...»^(١).

وشخصية الشاعر ماثلة بخصائصها وخصالها في شعره، وخصوصاً في جانبه الحماسي.

وفي شعره الدال على القدرة والبراعة في اختيار الألفاظ، وسوق الأفكار من خلال العبارات المتأنية قوله^(٢) وقد وقع في الأسر:

خليلي صبراً راحة الحرّ في الصبر ولا شيء مثل الصبر في الكرب للحرّ
فلا تيأس من فرحة بعد ترحية وأن تبأيا باليسر من بعدما عُسِر^(٣)
فكم من أسير كان في القيد موثقاً فأطلقه الرحمن من خلق الأسر^(٤)

- سمع سعيد بن جودي يوماً^(٥) منشداً يُنشد قول أبي قيس بن الأسلت^(٦):

قد حصت البيضة رأسي فما أطعم نوماً غير تهجاع
أسعى على جلّ بني مالكٍ كلُّ امرئٍ في شأنه ساع

فقال معارضاً على البديهة، وضمن الشطر الأخير:

(١) سعيد بن جودي ٦٠ - ٦١

(٢) مجموع شعره ٨٤

(٣) بأى الشيء: أصلحه وجمعه.

(٤) القيد: القيد.

(٥) سعيد بن جودي ٨٧ - ٨٨

(٦) أبو قيس من زعماء الأوس في المدينة (في الجاهلية) وكان شاعرهم وخطيبهم.

الدَّرْعُ قَدْ صَارَتْ شَعَارِي فَمَا أَبْسُطَ حَاشَاهَا لَتَهْجَاعِي! ^(١)
وَالسَّيْفُ إِنْ قَصَّصَرَهُ صَانَعُ طَوَّلَهُ يَوْمَ الْوَغَى بِأَعْي
وَمَا كُمَيْتِي لِي بِمَسْتَقْصِرٍ إِذَا دَعَانِي لِلْقَسَا دَاعٍ
هَذَا الَّذِي أَسْعَى لَهُ جَاهِدًا «كُلُّ أَمْرٍ فِي شَأْنِهِ سَاعٍ»

يقول - من باب الفخر، وتحت ظلال الحماسة والفروسية: إنه صار حليف سلاح وريب حروب، وصارت الدرع لباسه الذي يياشر جسده على قساوتها وشدتها، فهو أقوى وأشد؛ وصارت درعُه هي نفسها فراشه الذي يياشر به الأرض.

واستفاد سعيد بن جودي من معانٍ سابقة مرَّ بها شعراء فرسان، كقول أحد بني مازن:

مَقَادِيمُ وَصَّالُونَ فِي الرُّوعِ خَطْوَهُمْ بِكُلِّ رَقِيقٍ الشَّفَرَتَيْنِ يَمَانِ!
وَقَوْلُ قَيْسِ بْنِ الْخَطِيمِ:

إِذَا قَصُرَتْ أَسْيَافُنَا كِنَانٌ وَصَلَهَا خَطَانَا إِلَى أَعْدَائِنَا فَنَضَارِبُ!

- وله قصيدة أثنى فيها على صديقه زعيم العرب قبله سوَّار بن حمدون وافتخر بشجاعته وشجاعتهم، يقول فيها واصفاً لقاء خصومهم ^(٢):

وَلَمَّا رَأَوْنَا رَاجِفِينَ إِلَيْهِمْ تَوَلَّوْا سِرَاعًا خَوْفٌ وَقَعَ الْمَنَاصِلِ
فَسَرْنَا إِلَيْهِمْ وَالرِّمَاحُ تَنُوشُهُمْ كَوَقَعَ الصِّيَاصِي تَحْتَ رَهْجِ الْقَسَاطِلِ
فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ غَيْرُ عَانٍ مَصْفَدٍ يَقَادُ أَسِيرًا مَوْثَقًا فِي السَّلَاسِلِ
وَأَخْرَ مِنْهُمْ هَارِبٌ قَدْ تَضَايَقَتْ بِهِ الْأَرْضُ يَهْفُو مِنْ جَوَى وَبَلَابِلِ!

ويصف الكتيبة العربية التي ائتلف داخلها العدنانية والقحطانية في لقاء عربيٍّ موحدٍ ضدَّ المولدين، ويضفي عليها صفات عظيمة من الشجاعة والفروسية وطيب الأصل:

(١) الشعار: الثوب الذي يياشر البدن (الملايس الداخلية) والتهجاع: النومة الخفيفة.

(٢) الديوان ٩٣ - ٩٤

بها من بني عدنان فتيان غارةٍ ومن آل قحطان كمثل الأجادلِ
يقودهم ليثٌ هزْبَرٌ ضُبَارِمٌ مَحَشٌ حروبٍ ماجدٌ غير خاملِ
أرومته من خير قيس نَمَا بهِ إلى المجد قَدُماً والعُلا كلُّ فاضلِ

فهذا صوتٌ عربيٌّ، يرفع شعار الفخر، ويدعو بالحماسة ويُثني على صاحبه
بالشجاعة، وعلى أتباع سوار وصاحبه الشاعر سعيد بكلِّ صفةٍ مُستحسنة في
مثل هذه المواقف.

ابنُ عبدِ ربِّه*

(٢٤٦ هـ - ٣٢٨ هـ)

أدرك ابنُ عبدِ ربِّه زمناً من عهد الإمارة الأموية المروانية، وزمناً آخر من عهد الخلافة، وكان في جملة شعراء الدولة، مادحاً، مدافعاً، مسجلاً الأحداث والفتوحات، وكان من جهة ثانية في الشعراء: يغني أحلامه وشؤون ذاته. ويعدّ في أشهر شعراء المرحلة من تاريخ الأدب الأندلسي. ويدخل ابن عبد ربِّه في شعراء هذه المدة شاعراً بارزاً، ويدخل أيضاً مؤلفاً مصنفاً فهو صاحب كتاب (العقد) الشهير.

١ - وهو أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربِّه (١٠ رمضان ٢٤٦ - ١٨ جمادى الأولى ٣٢٨ هـ)، ولد بقرطبة لأسرة تنتمي إلى (سالم) أحد موالى الأمويين. ونشأ فقيراً مغموراً. ولكنه كان أحد من بلغ المكانة والخطوة بشعره وأدبه، فاغتنى بعد فقر، وظهر بعد خمول. وسرعان ما تفتحت له أبواب الأمراء، والممدّحين من رجال الدولة: الولاة، والوزراء، والقواد.

* ترجمته في جذوة المقتبس ٩٤، وبغية الملتبس ١٣٧، ومطمح الأنفس ٢٥١، ومعجم الأدباء ٢١١/٤، ووفيات الأعيان ١١٠/١، ورايات المبرزين ٤٧، والمطرب ١٤١، وبيمة الدهر ٣٦٠/١، ونفح الطيب ٥٩٥/٥، ومواضع أخرى منه.

- وانظر مواضع متفرقة من المقتبس لابن حيان، وتاريخ الناصر (مدونة من عهد الناصر) وكتاب التشبيهات لابن الكتاني الطيب...

- وانظر في الدراسات ما في: تاريخ الأدب الأندلسي - الجزء الأول - الدكتور إ. عباس، ومقدمة الديوان، وكتاب (ابن عبد ربِّه للدكتور جبرائيل جبور)، وتاريخ النقد الأدبي في الأندلس (د. رضوان الداية).

٢ - تمكن ابن عبد ربه من ثقافة معاصرة متينة رُكناها: العلوم الدينية الشرعية من جهة، وعلوم العربية وآدابها من جهة أخرى. وقد تمكن ابن عبد ربه من الثقافة العربية، واطلع على الشعر العربي قديمه ومحدثه. وتظهر آثار تلك الثقافة الواسعة في كتابه العقد^(١). كما تظهر في إشارات الفقهية والتاريخية، ومعارضاته الأدبية في شعره المتبقي.

وقد ترك ابن عبد ربه ديوان شعر كبيراً رآه الحميدي صاحب (جذوة المقتبس)، ولكنه فقد ولم يتبق لنا منه سوى نتف قليلة مبثوثة في كتب الأدب، والتاريخ، وفي كتاب (العقد)، وسوى ذلك من المصادر^(٢).

٣ - ويستطيع الدارس أن يكوّن صورة مقربة لشخصية ابن عبد ربه، وأن يتلمّس عدداً كبيراً من خصائص تلك الشخصية ومقوماتها. فهو إنسان معتدل، أقرب إلى الهدوء والاتزان. وتشعر من خلال أخباره، وشيء من مساجلاته الشعرية أنه إنسان قادر على إنشاء العلاقات الاجتماعية، والوصول إلى رجال الدولة الكبار من الأمراء (الحكام من بني أمية) وغيرهم من القادة والوزراء. وكان لتدنيّه وورعه أثر في أسلوب معاملته الناس له، وحسن إجابته وقضاء حاجاته.

ومع ذلك فقد كان في طبع ابن عبد ربه شيء من سرعة الاستجابة وسرعة ردّ الفعل. وفي شعره شيء من التعريض، والهجاء، تدل، على رغم تدنيّه، على هذه الزاوية من طبعه.

٤ - أدرك ابن عبد ربه من أمراء بني أمية عهد الأمير محمد (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) والأمير منذر (٢٧٥ هـ) والأمير محمد (٣٠٠ هـ) وأدرك شطراً من عهد عبد الرحمن الناصر الذي تلقب بالخلافة (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ).

(١) طبع كتاب العقد مراراً، وأشهر طبعاته في ستة أجزاء، وجزء سابع إضافي للفهارس في (لجنة التأليف والترجمة والنشر).

(٢) جمع شعر ابن عبد ربه تحت عنوان (ديوان ابن عبد ربه) بتحقيق د. محمد رضوان الداية - الطبعة الثالثة - دار الفكر - دمشق.

وصلة ابن عبد ربه بالدولة المروانية وثيقة، والقدر القليل الباقي من مدائحه فيهم يدل على ثقتهم به، وعلى اعتقاده بخلافتهم ومحبتهم فيه. وقد عرفوا له مكانته فقربوه إليهم. وتجد مصداقاً لذلك في مدائحه في الخليفة الناصر عبد الرحمن وتسجيل فتوحاته وانتصاراته.

وفي شعره أيضاً مدائح لعدد من الوزراء والقواد، والفقهاء من رجال الدولة المروانية، وفيه مدائح في بعض حكام الأقاليم الذين أطلقت الدولة أيديهم في حكمها لمساعدتها في بسط سلطانها وفي توفير النظام.

فمدح من القواد: عبد الله بن محمد بن أبي عبدة، وأبا العباس أحمد بن محمد ابن أبي عبدة، ومدح الوزير الكاتب عبد الله بن محمد الزجاجي. ومدح أيضاً ابن حجاج الذي فوض إليه الأمويون حكم إشبيلية وقرمونة، ومدح الفقيه أبا صالح المعافري وسواهم.

قال مثلاً في إبراهيم بن حجاج (وبنو حجاج لخميون من اليمن)^(١):

كتابُ الشوقِ يطويهِ الفؤادُ	ومن فيضِ الدُموعِ له مدادُ
تخطُّ يدُ البكاءِ به سُطوراً	على كبدي ويُملِها السُّهادُ
وكيفَ وبى فؤادُ مستطيرُ	لمن لا يستطيرُ له فؤادُ
أمنَ يمنٍ يكونُ الجودُ خلسوا	وإبراهيمُ حاتمُها الجوادُ
زيارتُه لمن يأتيه حجٌّ	ومدحتُه رباطُ أو جهادُ
وما لي في التخلُّفِ عنه عذرُ	ولي في الأرضِ راحلةٌ وزادُ

وقد كان ابن حجاج مقرباً للشعراء، مثيباً لهم، وتشعر في هذا النص بروح التكسب والمبالغة في إسباغ الصفات الحميدة على الممدوح، واستخدام ألفاظ الحج والجهاد وما أشبه ذلك لتوكيد المدح وعضد معانيه.

وأجمل ما قاله في المديح تلك القصائد المطوّلة التي سجّل فيها فتوحات الناصر لدين الله عبد الرحمن الناصر في معاقل خصومه كابن حفصون، وفي غزواته، وغزوات قواده ما وراء الحدود.

(١) ديوان ابن عبد ربه ٥٢

ومن هذه القصائد مطولة جيميّة قالها في شأن غزوة (المُنتلون) وكانت غزاة للناصر افتتح فيها سبعين حصناً. قال فيها^(١):

قد أوضح الله للإسلام منهاجا
وقد تزينت الدنيا لساكنها
يا ابن الخلائف إنَّ المُنزّل لو علمتُ
والحربُ لو علمت بأساً تصولُ به
ماتَ النِّفاقُ وأعطى الكفرُ ذمّةهُ
وأصبح النصرُ معقوداً بألويةٍ
أدخلتَ في قبة الإسلام مارقةً^(٥)
بحفَلٍ تشرقُ الأرضُ فضاءً به
يقودهُ البدر يسري في كواكبه
يرونَ فيه بروق الموتِ لامعةً
غادرتَ في عقوتي جَيّان ملحمةً
في نصفِ شهرٍ تركت الأرض ساكنةً
وُجدتَ في الخَبرِ المأثور منصلتاً
تملا بك الأرض عدلاً مثل ما ملئت
يا بدرَ ظلمتها يا شمسَ صُبحتها
خلقتَ من جوهر العقيان خالصةً
إن الخلافةَ لن ترضى - ولا رضىتُ -

والناسُ قد دَخَلوا في الدِّينِ أفواجا
كأنما ألبستُ وشياً ودياجا
نداك ما كان منها الماءُ ثجاجاً^(٢)
ما هيّجتُ من حُمياك الذي اهتاجاً^(٣)
وذلت الخيلُ إجماعاً وإسراجا
تطوي المراحل تهجيراً وإدلاجاً^(٤)
أخرجتها من ديار الشُّركِ إخراجا
كالبحر يقذفُ بالأمواج أمواجا
عَمرماً كسوادِ الليل رجراجاً^(٦)
ويسمعونَ به للرعَدِ أهراجاً^(٧)
أبكِت منها بأرض الشُّركِ أعلاجاً^(٨)
من بعد ما كان منها الظهَرُ قد ماجا
من الخلائف خراجاً وولاجاً
جوراً وتوضّحُ للمعروف منهاجا
يا ليثَ حَومتها إن هائجٌ هاجا
ولم تكنُ نطفةً في الصُّلبِ أمشاجا
حتى عقدتَ لها في رأسك التّاجا

(١) ديوان ابن عبد ربه ٣٥ - ٣٧

-وهناك تفصيلات عن هذه الغزوة في البيان المغرب ٣٢٤، والمدونة ٢٤

(٢) ثَج الماء: سال.

(٣) الحميا: شدة الغضب.

(٤) التهجير: السير في الهاجرة.

(٥) أي فئة مارقة.

(٦) العرمم الشديد. وجيش عرمم: كثير.

(٧) استعار الشاعر الهزج لصوت الرعد.

(٨) العقوة: ما حول الدار والمحلة.

فقد جمع الشاعر في هذه القصيدة مديح الخليفة بأمرين اثنين معاً: انتصاره على من سماهم (المارقين) من المخالفين الذين كانت لهم صولات في أنحاء الأندلس، واعتمدوا على تضعضع هيبة الدولة مدّة من الزمن، حتى جاءهم الناصر بحزمه وعزمه، والتفاف عدد من الأعوان والقواد حوله. والأمر الثاني: مكانة عبد الرحمن في الأمة والدولة، وقدرته على سياسة الدولة وانفراج أزمة الناس بوجدانهم الأمن والطمأنينة وسطوة الدولة من جديد.

وقد كرّر الشاعر هذه المعاني، وما يشبهها في قصائده التي رفعها إلى الناصر في حركاته الجهادية، أو في أعمال قواده. كقوله في صنيع حاجبه (بدر) سنة ٣٠٠ هـ في إعادة الاستقرار إلى مدينة (إستجة):

ألا إنّه فتح يُقرّ له الفتحُ فأولّه سعدٌ وآخره نجحُ
سرى القائد الميمون خيرَ سريةٍ تقدّمها نصرٌ وتابعها فتحُ
ألم تره أودى بإستجة العدى . فلاقوا عذاباً كان موعده الصُّبحُ!

ولا يخفى تضمينه بعض المعاني القرآنية، وسلاسة الأسلوب وتدقيقه أيضاً. وشعره المدحي في بني مروان وقوادهم ووزرائهم داخل في جملة شعر المديح في الشعر العربي من حيث كونه شعر مناسبات، مقصوداً به الثناء والولاء، ونيل الأعطيات. وهو - أيضاً - يعبر عن موقفه من الدولة، ويسجل الأحداث تسجيلاً رائعاً يخلد الفتوحات والانتصارات، ويقدم مادة مساعدة، بالإضافة إلى القيم الأدبية - في تاريخ الفترة وأحداثها.

وقد ألف ابن عبد ربه أرجوزة مطوّلة في غزوات الناصر، وصل بها إلى سنة (٣٢٢ هـ) تطرق فيها إلى مكانة الناصر في تاريخ الأندلس المعاصر (للمؤلف) ورتبته في الخلافة، وتشوّف الناس إلى سلطانه، منها:

هو الذي جمّع شمل الأمّة وجاب عنها دامسات الظلمة
وجدّد الملك الذي قد أخلقا حتى رست أوتاده واستوسقا^(١)
وجمّع العدة والعديدا وكشف الأجناد والحشودا

(١) استوسق الأمر: انتظم. ويقال: استوسق له الأمر: أمكنه.

وتحدث عن غزو (جَيَّان):

ثم انتحى جَيَّانُ في غزاته بعسكر يُسْعِرُ من حُماته
فاستنزل الوحش من الهضاب كأنما حُطَّتْ من السحاب

هـ - وغلب على أغراضه الشعرية الرئيسية: غرضُ الغزل. فقد كان يُعنى به في مقدمات بعض قصائده المطولة، وفي مقطوعات كثيرة، وتشعر أحياناً أن تلك المقطوعات مصنوعة، وخصوصاً تلك القطع التي بناها لتكون أمثلة أو تكملة لأمثلة العروض (راجع الجزء الخامس من العقد. وديوان ابن عبد ربه).

وقد ميز الدارسون، والقدماء قبلهم، فقرتين من حياة ابن عبد ربه:

أ - مدة الشباب التي قال فيها الشاعر شعر الغزل، ووصف في شعره الخمرة وأطلق للسانه العنان.

ب - ومدة الشيخوخة والسنّ المتقدمة. وقد أدركه في هذا السن الورع الشديد حتى إنه نقض كل قصيدة قالها في شبابه في غرض الغزل والخمرة والمجون بشعر آخر يكفر به عما سلف من قول، وسمى تلك القصائد (الممحّصات) أو المكفّرات، قال في شبابه قطعة غزلية، فيها:

هلا ابتكرتَ لبين أنت مبتكرُ هيهاتَ يأبى عليك الله والقدرُ
ما زلتُ أبكي حذارَ البين ملتهفاً حتى رثى لي فيك الريحُ والمطرُ
يا برّدهُ من حيا مزن على كبدٍ نيرانها بغليل الشّوق تستعرُ
آليتُ ألا أرى شمساً ولا قمرأً حتى أراك فأنت الشمس والقمرُ

فمحّصها في شيخوخته بقصيدة على الوزن والروي، وأنهى المحّصة بمطلع القطعة السابقة فقال^(١):

(١) القصيدتان في ديوانه ٦٨ .

يا عاجزاً ليس يعفو حين يقتدرُ
عائناً بقلبك إن العين غافلةٌ
سوداءُ تزفرُ من غيظٍ إذا سمرتُ
إن الذين اشتروا دنيا بآخرةٍ
يا من تلهى وشيبُ الرأسِ يندبهُ
لو لم يكن لك غير الموتِ موعظةٌ
أنت المقولُ له ما قلت مبتدئاً:
ولا يُقضى له من عيشه وطَرُ
عن الحقيقةِ واعلم أنها سقرُ؟
للظالمين فلا تبقي ولا تذرُ
وشقوةً بنعيم ساء ما تجروا
ماذا الذي بعد شيب الرأسِ تنتظرُ؟
لكان فيه عن اللذاتِ مزدجرُ
«هلاً ابتكرتَ لبين أنت مبتكرُ»

وهو على رغم محصاته كان كما يقول الدكتور إحسان عباس «متصاوناً متديناً آخذاً بحظه من المتع المباحة وقد كان مغرمًا بالغناء ويرى إباحته. أما الخمرة فلا أظنه كان يشربها، وإن أكثر من ذكرها في شعره... على أنه قد يستشف من ندمه عندما كبر أنه كان مقبلاً على اللذات، ولكنني أعتقد أن توبته كانت توبة الفقيه المتحرّج لا توبة اللاهي العابث.. إلخ»^(١).

وإشارته إلى حبه الغناء، إشارة إلى قطعة مرتجلة قالها ابن عبد ربه بديهة حين سمع مغنية في دار رجل لا يعرفه، وبعث بها إليه مكتوبةً فأدخله، وعرفه، وقام بحقه. والقطعة هي:

يا من يضمنُ بصوتِ الطائرِ الغردِ
لو أن أسمعَ أهل الأرض قاطبةً
لولا اتقائي شهاباً منك يُحرقني
لو كان زرياب^(٢) حياً ثم أسمعهُ
فلا تضمنَ على أذني تقرطها
أمّا الشراب فياني لست أقربه
ما كنتُ أحسبُ هذا الضنّ من أحدٍ
أصغتُ إلى الصّوت لم ينقصْ ولم يزدِ
بناره لاسترقتُ السّمعَ من بُعدٍ
لمات من حسدٍ أو ذاب من كمدٍ
صوتاً يجول مجال الروح في الجسدِ
ولستُ آتيك إلا كسرتي بيدي!

(١) تاريخ الأدب الأندلسي ١٨٤/١

(٢) زرياب هو علي بن نافع: موسيقي بارع ومغن مجيد. رحل من المشرق إلى الأندلس، وحظي عند أمراء بني أمية. وذاع صيته جداً. وكان له أثره في الحياة الأدبية والاجتماعية أيضاً.

- وانظر دراسة عنه وعن أثره في الموسيقى العربية في عدد مستقل من سلسلة أعلام العرب.

٦ - والهجاء، والتعريض غرضٌ من أغراض شعره، ولعله كان غرضاً رئيسياً في مرحلة الشباب، ثم اضمحل بعد ذلك. وتجد الشاعر قادراً على اصطیاد المثالب وعلى التلميح إن شاء دون التصريح، ممّا يستدرّ منه ما يريد: مادياً كان طلبه أم معنوياً. ويعينه في ذلك أسلوب متدفّق، وقوة نافذة في معرفة جوانب الشخصية، وألفاظ دالة متلاحقة، كقوله (في بعض حواشي السلطان - ولم يسمه - وقد سأله إطلاق محبوس فتلكأ):

حاشا لمثلك أن يفكّ أسيراً	أو أن يكون من الزّمان مُجيراً
لبست قوافي الشعر فيك مدارعاً	سوداً وصكّت أوجهاً وصدوراً ^(١)
هلا عطفّت برحمةٍ لمّا دعت	ويلاً عليك مدائحٍ وثُبوراً ^(٢)
لو أن لؤمك عادَ جوداً عُشره	ما كان عندك حاتمٌ مذكوراً ^(٣)

ومن طريف ما يذكر في باب التعريض أنه أثبت عند أحد القضاة عقداً لتسجيله فأبطأ بانتظار رجل ثبت (عدل)، فلم يحتمل ابن عبد ربه الانتظار، وأخذ ورقة طويلة كتب في رأسها أربعة أبيات وترك باقيها فارغاً على بياضه، قال:

تبرّمت الوثيقة بالوثاق	وصار الروح منها في التّراقي
فلو أنصصتها نظراً وحزماً	إلى مَنْ بالمدينة والعراق
لعلّ القوم يتفقون فيها	وكيف لهم؟ وأنّى باتفاق
فجأج العلم واسعةً عليكم	وهنّ عليّ ضيقة الخناق!

(١) صكه: ضربه شديداً. والمدارع جمع مدرع، ومدرعة وهي ثوب من صوف.

(٢) الثبور: الهلاك.

(٣) الإشارة إلى حاتم الطائي.

- «يستبعد الشاعر من المخاطب، ويستكثر عليه أن يكون من الأجواد الذين يفكون الأسير أو يجيرون من ريب الزمان وصرفه؛ ويجعل قوافي الشعر كائناً لبس السّواد من غيظ أو أسف لأن المخاطب ردّ رجاء شعر الشاعر، ويعاتبه لأنه خيّب رجاء مدائح التي انقلبت إلى لوم وعتاب وهجاء. ثم يختم بيت شديد: إن لؤم هذا الرجل لو انقلب عُشره إلى مديح لغلّب بفخره - إذن - حاتمُ الطائي في جوده!...».

فلما قرأها القاضي استغرب البياض، واستدعى أحد أصدقائه يشاوره فقال له: إنه يُوعِدُكَ إن لم تنفذ قضيتَه ملأ باقي الصحيفة بهجائك!.. فأسرع بإنفاذه!

٧ - وفيما تبقى من شعره خطراتٌ ذاتيةٌ هنا وهناك، تحدث الشاعر فيها عن مواقفه في الحياة، وما يشغله منها. وتظهر فيها آفاق ثقافته، الفقهية بخاصة.

ولكن هذه الخطرات لا تمثل فلسفةً خاصّة، وإنما هي آراء الشاعر، ذي الثقافة العربية - الإسلامية الواسعة، الذي يعود باستمرار إلى منظومة من القواعد الأخلاقية، والذي لا تكاد تجد الفوارق واسعة في سلوكه الحياتي بين شبابه وشيبه في كثير من جوانب تلك الحياة.

وهذا نموذج من شعره الذي صبّ فيه آراءه ومواقفه في الحياة. وجعل عنوان هذه القطعة: «من قولنا في وصف الدنيا»:

ألا إنما الدنيا نضارةٌ أيكّة	إذا اخضرّ منها جانبٌ جفّ جانبٌ ^(١)
هي الدارُ ما الآمالُ إلا فجائعُ	عليها ولا اللذاتُ إلا مصائبُ
فكم سَخِنتُ بالأمس عينٌ قريرةٌ	وقرّت عيونٌ دمعُها اليوم ساكبُ

وهي قطعة تمثل موقفاً واضحاً من الحياة. فهي أيام معدودات، لا تستوي أحوالها، فهي بين إقبال وإدبار. ولهذا فأَيّ معنىٍ للسُرور المغرق أو للحزن الشديد، وكل الناس يرون أن لا شيء في هذه الحياة باقٍ؟. ويربط هذه الآراء البسيطة بمواقفه الرصينة، وثقافته الدينية، كما يظهر ذلك أكثر جلاء في قوله^(٢):

مدامعٌ قد خدّدتُ في الخدودُ	وأعينٌ مكحولّةٌ بالهجود
ومعشرٌ أوعدهم ربّهم	فبادروا خشيةً ذاك الوعيدُ
فهم عكوفٌ في محاريبهم	يكون من خوف عقاب الجيدُ
قد كاد أن يعشب من دمعهم	ما قابلت أعينهم في السجود!

(١) ديوان ابن عبد ربه ٢١

(٢) الديوان ٦٠

٨ - ويتصل بهذه العواطف ما نجده مبعوثاً في ديوانه، في غرض الرثاء. وبلغت نظر قارئ الديوان قصائد ومقطعات قالها في رثاء ابنين له. أحدهما توفي طفلاً، والآخر يافعاً. فمن قوله في ذلك^(١):

واكبدا قد تقطعت كيدي وحرقتها لواعج الكمد
ما مات حيٍّ لميتٍ أسفاً أعذر من والدي على ولي
يا رحمة الله جاوري جدثاً دفنت فيه حشاشتي بيدي
ونوري ظلمة القبور على من لم يصل ظلمه إلى أحد

وتظهر لك عواطف (عقلانية) أكثر مما تظهر عواطف مسرفة، مجهشة، عالية الصوت. وما ندري أهى السن المتقدمة، وتؤدة الشيوخ، أم هي شخصية الأديب المتفقه، والمتزن، الداخِل تحت مظلة القناعة بالقضاء والقدر. ولكنه في رثائه أولاده يميل إلى الحديث عن أثر فقد الوالد في نفسه، وخيانة صبره له، ثم تحمّله بعد ذلك؛ ويستمطر له الرحمة والغفران، ويخرج إلى مناجاة رقيقة مؤثرة مع الموت الذي لم يمهّل المتوفى. وإلى تعداد مناقب الفقيد ومآثره، وملامح الذكاء، والغد الذي صار أمساً.

٩ - ابن عبد ربه شاعر عصره (مدة حياته) بلا منازع. وقد كان مكثراً، مشاركاً في التعبير عن أحداث عصره، وتدوين أيام الناصر لدين الله بخاصة، كما كان الشعر زاده الشخصي في التعبير عن نفسه، وفي صلته بالناس على اختلاف وجوه الصلة والعلاقة.

وقد نُقل عن المتنبّي وقد سمع شعره قوله: يا ابن عبد ربّه لقد يأتيك العراق حبواً. وكان الأندلسيون يعدونه في وقته (مليح الأندلس)، يعنون مليح شعرائهم.

وكانت مشاركة ابن عبد ربه في أغراض الشعر المختلفة من أسباب غلبته، وشهرته، ونفاذه في نواحي الحياة الثقافية. كما كان لكتابه (العقد) أثر في شهرته بعد أن ذاع الكتاب وصار أشبه بالكتاب المقرر كما نقول بلغة اليوم.

وقد كان ابن عبد ربه أولع بتقليد بعض شعراء المشاركة ومعارضتهم في سبيل إثبات التفوق والتقدم. كمعارضته مسلم بن الوليد في قصيدته:

أديرا عليّ الراح لا تشربا قبلي ولا تطلبنا من عند قاتلي ذحلي^(١)

فعارضه بقصيدة (نقلها في العقد) أولها:

أقتلني ظلماً وتحدّني قتلي وقد قام من عينك لي شاهدا عدل؟

وجارى أبا تمام في صفته القلم. وكان أبو تمام قد مدح محمد بن عبد الملك الزيات بقصيدة طويلة وصف في أثنائها القلم، ومنها:

لك القلم الأعلى الذي بشباته تُصاب من الأمر الكلى والمفاصل

فوصف القلم، على روي آخر، ووزن مختلف^(٢):

بكفّسه ساحر البيان إذا إدارة في صحيفة سحرًا

وقد كان شعر ابن عبد ربه مختلفاً من حيث عنايته به، فهو حيناً وليد البديهة والارتجال، وكان مولعاً بهذا، وهو في أحيان أخرى وليد الأناة والصنعة. ولكن صنعة ابن عبد ربه تقصد إلى العبارة الجميلة والجملة الأنيقة. وأن تأتي الأفكار متناسقة، متسلسلة بشكل منطقي، لا نبوّ فيها ولا اضطراب. فقصيدته نسق متصل. ولعلّ لغلبة العنصر الذهني أثراً في هذه الخصائص.

ومن جهة ثانية فإن ابن عبد ربه لم يُغرق في طلب الصورة، ولم يجعلها الأساس دائماً لتقديم الفكرة الجديدة أو المعنى المولّد. وبمعنى آخر، كان عنصر التصوير عنده عنصراً معتدلاً. لم يسرف في الأخذ منه، ولم يدعه إلا في القليل، وبخاصة في مقطعات البديهة والارتجال.

والرّصانة والأناة في تناول الفكرة، والدمائة في العبارة من أهم خصائص أسلوب ابن عبد ربه، وما يتميز به شعره الباقي.

(١) الذحل: الثأر.

(٢) ديوان ابن عبد ربه ٨٧

ابنُ زَيْدُون*

(٣٩٤ هـ - ٤٦٣ هـ)

اشتهر ابن زيدون بعدد من المراهب الشخصية والأدبية؛ ويُعدُّ نموذجاً لتكامل هذه المراهب والخصال في نتاجه الأدبي من جهة، وفي حياته العملية من جهة ثانية.

وقد بقي لنا من آثاره الأدبية ديوان شعر، ورسالتاه: الجدية والهزلية؛ ونتفأ أخرى من رسائله؛ وهي على قلّتها تسوّغ له المكانة المرموقة التي وصل إليها في زمانه، والتي احتفظت بها ذاكرة التاريخ السياسي والاجتماعي والأدبي في الأندلس والمشرق معاً.

وهو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن غالب بن زيدون المخزومي، القرشي، القرطبي. وأبوه - الذي كان أول أساتذته - من فقهاء مدينة قرطبة المعدودين في زمانه، ومن ذوي النفوذ لدى الدولة الأموية، كما كان من ذوي اليسار أيضاً.

في بيئة ملائمة، وفي ظلّ أسرة علميّة، ذات مكانة اجتماعيّة نشأ ابن زيدون وتعلّم، وتدرّج بين لداته في علومه، وفي ظهور شخصيّته. فقد لفت إليه الانتباه:

* ترجمته في الذخيرة ١-٢٨٩، وخذوة المتبس ١٢١، وبغية المتبس ١٧٤، والمنظرب ١٦٤، والمعجب ١٦٢، والمغرب ١/٦٣، وقلائد الأعقيان ٨٠، وإعتاب الكتاب.

- وانظر ابن زيدون: علي عبد العظيم، ود. شوقي ضيف، وابن زيدون: رؤية في الشخصية ودراسة في الفن - د. محمد رضوان الداية.

- و: الغزل الأندلسي في القرن الخامس الهجري - د. علي دياب - ط ٢ - ١٩٩٤ م - دمشق.

بذكائه وفطنته، ومعرفته بفن الكتابة الديوانية والأدبية، وبراعته في نظم الشعر، وكياسته في ربط العلاقات مع الناس.

وكانت المدّة التي عاش فيها ابن زيدون مدّة صعبة على الأندلس: فحين ولد ابن زيدون كان الحكم تحت قبضة أسرة الحاجب (المنصور) ابن أبي عامر وكانت الخلافة الأموية قد آلت إلى شكل خارجي صوري. وما لبثت الفتنة أن ذرّت قرنهما بانقضاء دولة العامريين، وكانت الفترة بين (٤٠٠ و ٤٢٢ هـ) فترة قاسية كثر فيها الخلفاء الأمويون، وتدخل بعض الحسينيين الواردين من المغرب في بعض المناطق وأقاموا لأنفسهم دويلة، واستطال بعض الولاة والقادة وسيطروا على بعض المناطق، وبدأ ما يُعرّف في التاريخ الأندلسي باسم دول الطوائف.

واشتهر من دول الطوائف: بنو جَهْوَر الذين سيطروا على قرطبة وما والاها. وبنو عَبَّاد الذين اتخذوا إشبيلية لدولة تضم مساحة واسعة.

ولا تلبث أخبار ابن زيدون حتى تعلن عن وجوده في ديوان الحكم الذي يديره أبو الحزم بن جَهْوَر حاكم قرطبة^(١).

ويظهر في شعر ابن زيدون في هذه المدّة (منذ نبوغه في الشعر إلى هجرته من قرطبة إلى إشبيلية) أثر موقفين مهمين في حياته:

أحدهما: دخوله السّجن (أقلّ من سنتين) في قضية حقوقية على يد قاضي متشدّد إلى أن نجا من السّجن بالفرار (أو بمساعدة أبي الوليد بن جَهْوَر بما يُشبه الفرار).

والثاني: إعجابه بالأميرة الأموية ولأدّة بنت المستكفي، وقد وُصِفَتْ بالكياسة والذكاء وقوة الشّخصية، والمشاركة في الأدب (نظم الشعر).

(١) انظر كتاب محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الثاني: دول الطوائف. وكتاب الدكتور عبد الرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي.

وقد أشار ابن زيدون إلى هذه الخصال بعبارة الشرف التي تروحي بالمعاني الحقيقية والمحازية من النسب والحسب والتمكّن والحفاظ على المكانة، فقال:

ما ضرّ أن لم نكن أكفاءه شرفاً وفي المودّة كافٍ من تكافينا^(١)

وقد رجع ابن زيدون إلى عمله في الديوان^(٢) مدة حياة أبي الحزم، وشطراً من مدة حكم ابنه أبي الوليد بن جهور. وخاف ابن زيدون عواقب فتنة نشبت في قرطبة اشترك فيها بعض أصحابه، فترك قرطبة، ولحق بإشبيلية عند بني عباد مرحباً به. واستمر هناك إلى أن احتل بنو عباد قرطبة سنة (٤٦١ هـ).

وفي إشبيلية حظي ابن زيدون بمقام رفيع في الوزارة والسفارة، كما كان في قرطبة، مع زيادة تقدير وتوقير أيام المعتضد بن عباد، وابنه المعتمد بن عباد.

لم يكد ابن زيدون ينعم بالعودة إلى مدينته المحبوبة قرطبة حتى اضطر إلى الذهاب لإشبيلية لعمل يتعلق بوظيفته، سنة (٤٦٣ هـ)، ولكنه مرض في هذه الرحلة، وتوفي. وخلفه ابنه أبو بكر عند بني عباد بمثل ما كان لوالده من تقدير وتكريم.

كانت ثقافة ابن زيدون واسعة، ومعرفته كبيرة: علمه أبوه (ت ٤٠٥ هـ) وكفله جده لأمه أبو بكر محمد بن إبراهيم بن سعيد القيسي (ت ٤٣٢ هـ) فأخذ عنه، وأفاده شيوخ، فيهم أبو العباس أحمد بن عبد الله بن ذكوان (ت ٤١٣ هـ) وأبو بكر مسلم بن أحمد القرطبي النحوي (ت ٤٣٢ هـ)؛ وأساتذة آخرون، إضافة إلى قراءات ابن زيدون الخاصة في مكاتب الأسرة، وفي مصادر العلم والمعرفة الغزيرة في مدينة قرطبة العريقة؛ وإلى دروس العلم التي كانت تلقى في المسجد الجامع بقرطبة، وبالزّهراء. وألح د. ضيف^(٣) إلى موارد ثقافة ابن زيدون فقال: إنه من صنع قرطبة وجامعتها، وما كان يُلقى فيها من الدروس

(١) من قصيدته: أضحى التناهي؛ وتجدّها في هذا الكتاب.

(٢) «وَرَر ابن زيدون لأبي الحزم جهور وزارة استشارة لا وزارة عمل»: تاريخ الأدب العربي - د. عمر

فروخ - ٥٩٠/٤

(٣) ابن زيدون ١٧

وضروب التعليم إذ كان يختلف - كغيره من شباب عصره - إلى العلماء والأدباء هناك فينهل من معارفهم وثقافتهم ويأخذ من آدابهم وعلومهم ما يصقل به لسانه ويشحذ فكره، وفي ذلك يقول مفاخرًا:

ونجذني علم توالى فنونه كما يتوالى في النظام سخاب^(١)

عالم ابن زيدون عددًا من الأغراض الشعرية:

- فأوسع فنون شعره: الغزل والنسيب، والمديح؛ ومعه شيء من الاستعطاف والاعتذار.

- وتتدرج الأغراض الأخرى بعد ذلك: من الإخروانيات (ومعها الغار وأحاج ومباسطات) والتعريض والهجاء، والحنين إلى قرطبة ووصفها.

الغزل والنسيب:

يشكل هذا الفن نحو ثلث شعر ابن زيدون؛ وهو في تقدير الدكتور عمر فروخ^(٢): أجملها، وأصدقها تعبيراً عن نفسه وأصدقها بأحداث حياته.

وإشارات كتب الأدب والتراجم الأندلسية القديمة مثل (قلائد العقيان) و (الذخيرة) و (المغرب) تدل على أن قسماً كبيراً من غزل ابن زيدون كان لاسم ولادة، وهي الأميرة الأموية ابنة المستكفي، أحد الخلفاء، الضعاف الذين نصبوا في مدة الفتنة (٤١٤ - ٤١٦ هـ).

ويتردد في هذه الكتب، وغيرها، كما تشير نصوص الديوان نفسها بأن هذا القدر العظيم من شعر الغزل هو في ولادة، إذ يذكر اسمها صراحة، أو يشار إليها فيه إشارة (فقد كانت ترفض أن يذكر اسمها في الشعر)، ومن جهة أخرى فإن هناك إشارات أخرى من ذكر نسبها (عبد شمس) أو مكانتها (سليلة الدوحة

(١) نجذني: صقلني وهذبني. والسحاب: قلادة تتخذ من أزهار عطرة.

(٢) تاريخ الأدب ٥٩٤/٤

الأموية) أو شكلها ولونها وملاحها (كما تصورها أبيات كثيرة في قصيدته: أضحى التناي).^(١)

وتعصّد الدراسة الموضوعية والأسلوبية للشعر هذا التوجّه؛ فإن ولادة كانت موجودة في شعر الصّبا، والشباب بكثرة وقوّة؛ وتوجد لها ملامح كثيرة في الشعر الذي نظمّه الشاعر بعد القطيعة.

على أنّ في الباحثين من يظنّ أنّ ولادة لم تظهر إلا بالنز اليسير من شعر ابن زيدون. وفيهم د. محمود صبح الذي يبالغ ويقول دون دليل: إن قصيدة (أضحى التناي) و (إني ذكرتك بالزهراء) ليستا في ولادة^(٢)!

أما الدكتور إحسان عباس فيثير تساؤلات كثيرة لحصر الشعر الذي قيل في ولادة ومحاولة تخليصه من الشعر الذي قيل في غيرها (؟) على الرغم من صعوبة ذلك في قصائد كثيرة^(٣).

والدكتور شوقي ضيف^(٤) يقسم شعر الغزل عند ابن زيدون ثلاثة أقسام:

- ما قيل في المرحلة الأولى من اللقاء والقبول.
- ما قيل في المرحلة الثانية من القطيعة.
- ما قيل في المرحلة الثالثة من اليأس أو ما سمّاه (دور الذكرى) وينتظم هذا الدور مقدمات مدائح.

ويؤكد ما ذهب إليه د. ضيف، بصفة عامّة، انسجام كل قسم أو مرحلة في مقاصده وعواطفه، وأنّ ابن زيدون لم يذكر بعد ولادة اسماً آخر، ولا يلمح قارئ الديوان شبحاً آخر تجنب الشاعر الإشارة إليه.

(١) ابن زيدون شاعر قرطبة ٦٣

(٢) دراسات في الأدب الأندلسي ١٩٢ وما بعدها، في بحث عقده لولادة.

(٣) ابن زيدون ٣٥ - ٣٦

(١) من شعر الغزل في الدور الأول: قوله:

هل لداعيك مجيبٌ	أم لشاكيك طيبٌ
يا قريباً حين ينأى	حاضراً حين يغيبٌ
كيف يسلكك محبٌ	زانسه منك حبيبٌ

- وقوله في قطعة أخرى:

لئن كنت في السنّ ترّبّ الهلال	لقد فقت في الحسن بدرّ الكمال
لقد بلغتني دواعي هواك	إلى غاية ما جرت لي ببال
فقل للهوى يجرّ ملء العنان	فميدان قلبي رحيبُ المجال!

وشعرُ هذه المدة، في الديوان الذي بين أيدينا، قليل، ويغلب عليه شكل المقطوعة، فكأن كل قطعة تعبير موجز، أو بطاقة سريعة يختزن فيها الشاعر خواطره، ولحاث نفسه.

(٢) وتظهر قطع وقصائد بعد ذلك تنضح بالشكوى والألم: «فالدُّنيا عابسة من حوله، وكبده تتفتت حسرة وقلبه يتقطع ألماً...»^(١) ومن هذه الأشعار:

يا غزلاً أصارني	موثقاً في يد المحن
إنني مُد هجرتني	لم أذق لذّة الوسن
ليت حظي إشارة	منك أو لحظة عنن ^(٢)
ليس لي عنك مذهب	فكما شئت لي فكن!

ومنها قوله:

كم ذا أريد ولا أراذ	يا سوء ما لقي الفؤاد
أصفي الوداد مدلاً	لم يصنف لي منه الوداد
يقضي عليّ دلاله	في كل حين أو يكاد

(١) ابن زيدون: د. شوقي ضيف ٣٤

(٢) العنن: العارضة.

وواضح أن هذه الصورة من غزله تباين الصورة الأولى. فقد فرّت منه السعادة التي كان ينشدها، ولم يعد له منها إلا عذاب السّجن والألم والفراغ...

٣ - والقصيدتان المشهورتان: (أضحى التناهي)، و (إني ذكرتكَ بالزّهراء) نظم الأولى بعد القطيعة، ونظم الثانية بعد السّجن، وهو في حال صعبة من ضياع الآمال والأحلام: في السياسة من جهة وفي العاطفة من جهة أخرى. وهو - إن عاد إلى عمله بعد استرضاء أبي الخزم بن جهور - بقي مفرداً وحيداً بعد قطيعة لم تغيّر لها الأيام التالية.

وابن زيدون، في تقدير المُعتدلين من دارسي فن الغزل عنده، نظم شعره الغزلي هذا عن تجربة صادقة^(١) ضغطت على شعوره وقلبه ولم تلبث أن حطمت فؤاده، وقصيدته (أضحى التناهي): قصيدة تفيض بالحنين والحب والولاء... وكأنما يصب فيها زفراته، وينفث لوعاته... قال الدكتور ضيف: ونلتقي دائماً في ديوانه بمثل هذه القصيدة؛ ومن أروع ما فيه قصيدته (إني ذكرتكَ بالزّهراء) كتبها إليها بعد خروجه من السّجن، وقبل العفو عنه..

والقصيدة القافية هذه قصيدة تعاطف فيها الشاعر مع الطبيعة وبثها أحزانه، وجعلها تشاركه في ما يتأبّه؛ فكان له فيها تخفيفٌ عما به، وتعبير عن أشواقه إلى الذكريات الماضية.

والشاعر في هذا النص - وإن كان قد مال إلى شيء من وصف الطبيعة - يريد أن يتحدث عن ولادة في المقام الأول: وهكذا نجده يجعل النسيم يرقّ له، ويجعل قطرات الندى على الأزاهير دموعاً تبكي بها على حاله، ولما حلّ به؛ ويطلب إلى النسيم أن يحمله إليها:

(١) ابن زيدون: د. شوقي ضيف ٤١

إنني ذكرتُك بالزهراءِ مشتاقاً
وللنسيمِ اعتلالٌ في أصائله
والروضُ عن مائه الفضيِّ مبتسم
نلهو بما يستميلُ العينَ من زهرٍ
كأن أعينه إذ عاينتُ أرقى
وردٌ تالِقٌ في ضاحي منابتِه
سرى ينافحه نيلوفرٌ عبثُ
كلَّ يهيجُ لنا ذكرى تشوقنا
لا سَكَنَ الله قلباً عن ذكركم
لو شاء حملي نسيمُ الصبح حين سرى
يوم كأيام لذاتٍ لنا انصرمتُ
لو كان وفي المنى في جمعنا بكم
يا عِلقي الأخطرَ الأسنى الحبيب إلى
كان التجازي بمحض الودِّ مذُ من
فالآن أحمد ما كنا لعهدكم

والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا
كأنه رقّ لي فاعتل إشفاقاً^(١)
كما شققت عن اللّبات أطواقاً^(٢)
جال الندى فيه حتى مال أعناقا
بكت لما بي فجال الدمع رقراقا
فازداد منه الضُّحى في العين إشراقاً^(٣)
وسنانُ نَبّةٍ منه الصبح أحداقاً^(٤)
إليك، لم يعد عنها الصدر أن ضاقا
فلم يطرُ بجناح الشوق خفاقا
وافاكم بفتى أضناه ما لاقى
بتنا لها حين نام الدهر سُراقاً
لكان من أكرم الأيام أخلاقا
نفسى، إذ ما اقتنى الأحباب أعلاقاً^(٥)
ميدان أنسٍ جرينا فيه أطلاقاً^(٦)
سَلَوْتُم، وبقينا نحن عشاقاً!!

يستمر ابن زيدون إذن على هذا النحو شاكياً إلى الطبيعة، جاعلاً إياها جسراً ينقل أفكاره إلى محبوبته، وكأنه يقول: إن الدنيا قد تجاوزت معي فيما أنا فيه، ويدعو ولادة إلى العودة إلى الماضي، أو على الأقل إلى مشاكلة الطبيعة فيما حنّت به عليه.

(١) الأصائل ج أصل: وهو العشي.

(٢) اللّبات ج لبة: وهي موضع القلادة من الصدر.

(٣) ضاحي منابتِه: من «ضحّا» إذا برز للشمس.

(٤) النيلوفر: ضرب من الرياحين ينبت في المياه الراكدة.

(٥) العلق: الغالي النفيس. الأخطر والخطير: الرفيع. الأسنى: الأضوأ.

(٦) أطلاق: جمع طلق (بالكسر): الشوط. يقال: عدا طلقاً أو طلقين. والتجازي: التفاضل. والمحض: الخالص.

- وقصيدة (أضحى التناهي)^(١) من القصائد الطويلة في ديوان ابن زيدون، وموضوعها شخصي (غزلي): ولا تكاد تختلف أخبار القصيدة وملاحظات النقاد أنها قيلت في ولادة بنت المستكفي، بل إن فيها إشارات واضحة إليها. ولولا الحرج لذكر اسمها (انظر البيت ٣٤ من القصيدة).

- وهي قصيدة تمثل حياته الحاضرة، وتلخص حياته الماضية من جوانب متعددة، وكان حديث ابن زيدون عن أيامه الماضية بما فيها من نعيم، وأيامه الحاضرة وما فيها من شقاء حديثاً فيه شيء من المبالغة.

- وقد شاعت هذه القصيدة - مع (إني ذكرتك بالزهراء) - في المشرق والمغرب، ومن أسباب ذلك الشيوع: سهولة النصّ وكونه في غرض الغزل، وظهور أسلوب الشاعر فيه، وتجليه للقارئ في أجلى صورته إلى موسيقى رنانة ناعمة حاملة تشيع في القصيدة كلها؛ وخيال جامع.

أضحى التناهي بديلاً من تدانينا	وناب عن طيب لقيانا تجافينا
ألاً وقد حان صبحُ البين صبحنا	حين، فقام بنا للحين ناعينا ^(٢)
من مبلغ الملبسينا بانتراحهم	حزناً مع الدهر لا يئلى ويوليننا
أن الزمان الذي ما زال يضحكنا	أنساً بقربهم قد عاد يئسينا
غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا	بأن نغص، فقال الدهر: آمينا
فانحل ما كان معقوداً بأنفسنا	وانبت ما كان موصولاً بأيدينا ^(٣)
وقد نكون وما يُخشى تفرقنا	فاليوم نحن وما يُرجى تلاقينا
يا ليت شعري ولم نُعتب أعاديكم	هل نال حظاً من العُتبى أعاديها ^(٤)

(١) القصيدة في الديوان ١٤١ - ١٤٨

(٢) ألاً: حرف تحضيض. الحين: الهلاك. وفي الديوان: «داعينا» في موضع «ناعينا»؛ وهذه رواية نفح الطيب.

(٣) انبت: انقطع.

(٤) العُتبى: الرضا. وأعتبه: أعطاه العتبى. يريد لم نأت ما يسر أعاديكم.

لم نعتقدُ بعدكم إلا الوفاءَ لكم
 ما حقُّنا أن تُقِرُّوا عينَ ذي حسدٍ
 كنا نرى اليأسَ تُسلينا عوارِضُه
 بنتمُ وبنّا فما ابتَلتُ جِوانِحنا
 نكادُ حين تُناجيكم ضمائرنا
 حالت لفقدكم أيامنا فغدَتُ
 إذ جانبُ العيش طلقٌ من تألُّفنا
 وإذا هصرنا فنونَ الوصلِ دانيةٌ
 لِيُسْقَ عهدكم عهدُ السّرور فما
 لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرُنا
 والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً
 ولا استفدنا خليلاً عنك يشغلنا
 يا ساري البرق غادِ القصرَ واسق به
 واسأل هنالك هل عَنّي تذكُّرنا
 ويا نسيم الصَّبَا بَلِّغْ تحيَّتنا
 فهل أرى الدهرَ يقضيها مُساعفةً

رأياً، ولم نتقلدُ غيره ديناً
 بنا، ولا أن تُسرِّوا كاشحاً فينا^(١)
 وقد يئسنا فما لليأس يُغرينا
 شوقاً إليكم، ولا جفت مآقينا^(٢)
 يقضي علينا الأسى لولا تأسينا^(٣)
 سوداً، وكانت بكم بيضاً ليالينا^(٤)
 ومربعُ اللهو صافٍ من تصافينا
 قطافُها، فجَئنا منه ما شينا^(٥)
 كتتمُ لأرواحنا إلا رياحيناً
 إن طالما غيرَ النأي المحبِّينا^(٦)
 منكم، ولا انصرفت عنكم أمانينا
 ولا اتخذنا بديلاً منك يُسلينا
 من كان صرف الهوى والودَّ يسقينا^(٧)
 إلهاً تذكُّره أمسى يعنينا^(٨)
 من لو على البُعد حيّ كان يُحيينا
 فيه، وإن لم يكن غيباً تقاضينا^(٩)

(١) الكاشح: مضر العداوة.

(٢) بان القوم: فارقوا. يريد: ابتعدتم، وابتعدنا.

(٣) الأسى: الحزن. وتأسى: تحمّل وتحلّد، وتعزى وتصير.

(٤) حال الشيء: تحوّل من حال إلى حال.

(٥) هصر الغصن: أماله. وفنون الوصل: ضروبه وأنواعه. (والفنون ج فنن وهو الغصن وما تشعب منه).

(٦) وفي رواية: إذ طالما.

(٧) غاد القصر: أي باكره بالغمام (أول النهار).

(٨) عني: آلم وأتعب.

(٩) غب الرجل: جاء زائر أيام، أو كل أسبوع.

رَيْبُ مَلِكٍ كَانَ اللَّهُ أَنْشَأَهُ
أَوْ صَاغَهُ وَرِقاً مُحْضاً وَتَوَجَّهَهُ
إِذَا تَأَوَّدَ آدَتُهُ رِفَاهِيَّةً
كَانَتْ لَهُ الشَّمْسُ ظِئْرًا فِي أَكَلْتِهِ
كَأَنَّمَا أُثْبِتَتْ فِي صَحْنٍ وَجَنَّتِهِ
مَا ضَرَّ أَنْ لَمْ نَكُنْ أَكْفَاءَهُ شَرْفًا
يَا رَوْضَةً طَالَمَا أَجْنَتْ لَوَاحِظُنَا
وَيَا حَيَاةً تَمَلِّينَا بِزَهْرَتِهَا
وَيَا نَعِيمًا خَطَرُنَا مِنْ غَضَارَتِهِ
لَسْنَا نُسَمِّيكُ إِجْلَالًا وَتَكْرِمَةً
إِذَا انْفَرَدَتْ وَمَا شُورَكَتِ فِي صِفَةٍ
يَا جَنَّةَ الْخُلْدِ أَبْدِلْنَا بِسَدْرَتِهَا
كَأَنَّنَا لَمْ نَبِتْ وَالْوَصْلُ ثَالِثُنَا
سِرَّانٍ فِي خَاطِرِ الظُّلُمَاءِ يَكْتُمُنَا
لَا غُرُوفٍ فِي أَنْ ذَكَرْنَا الْحَزْنَ حِينَ نَهَتْ

مِسْكَاً، وَقَدَّرَ إِنْشَاءَ الْوَرَى طِينَا
مِنْ نَاصِعِ التَّبَرِ إِبْدَاعاً وَتَحْسِينَا^(١)
تَوْمُ الْعُقُودِ، وَأَدْمَتُهُ الْبُرَى لِينَا^(٢)
بَلْ مَا تَجَلَّى لَهَا إِلَّا أَحَايِينَا^(٣)
زُهْرُ الْكُوكَبِ تَعْوِيْذاً وَتَزْيِينَا^(٤)
وَفِي الْمَوْدَةِ كَافٍ مِنْ تَكَافِينَا
وَرِداً جَلَاهُ الصَّبَا غَضّاً وَنَسْرِينَا
مُنَى ضُرُوباً وَلِذَاتِ أَيْنِنَا^(٥)
فِي وَشْيِ نُعْمَى سَحْبِنَا ذِيْلَهُ حِينَا^(٦)
وَقَدَّرَكَ الْمُعْتَلِي عَنْ ذَاكَ يُغْنِينَا
فَحَسْبُنَا الْوَصْفُ إِضَاحاً وَتَبْيِينَا
وَالْكُوْثِرُ الْعَذْبُ زَقُوماً وَغَسْلِينَا^(٧)
وَالسَّعْدُ قَدْ غَضَّ مِنْ أَجْفَانٍ وَاشِينَا
حَتَّى يَكَادَ لِسَانُ الصَّبْحِ يُفْشِينَا
عَنْهُ النُّهَى وَتَرْكُنَا الصَّيْرَ نَاسِينَا

(١) الورق: الفضة. التبر: الذهب.

(٢) تأود: تمايل. آدته: أثقلته. توم العقود: مزدوجة من التؤلؤ. (والتؤام ما تشابك من التؤلؤ). البرى جيرة: الخلاجيل.

(٣) النظير: المرضعة. الأكلة جمع كلة: وهي ستر رقيق.

(٤) زهر الكواكب: أي النيرة المشرقة. وزهر جمع أزهر.

(٥) تملينا: تمتعنا. ضروب: صنوف (ج ضرب).

(٦) خطر في مشيته خطراً: رفع يديه ووضعهما، واهتز وتبختر. الغضارة: النعمة والسعة والخصب وطيب العيش.

(٧) السدرة (سدرة المنتهى) شجرة في السماء السابعة. والزقوم: شجرة في جهنم، منها طعام أهل النار، الكوثر: نهر في الجنة، الغسلين: ما يسيل من جلود أهل النار ولحومهم ودمائهم.

إِنَّا قَرَأْنَا الْأَسَى يَوْمَ النَّوَى سُوراً
أَمَّا هَوَاكُ فَلَـمْ نَعْدِلْ مَنَهْلَهُ
لَمْ نَجْفُ أَفَقَ جَمَالِ أَنْتِ كَوَكْبَهُ
وَلَا اخْتِياراً تَحْنُنَاهُ عَنْ كَثَبِ
نَاسِي عَلَيْكَ إِذَا حُثَّتْ مَشْعَشَعَةً
لَا أَكْوَسُ الرِّاحِ تُبْدِي مِنْ شَمَائِلِنَا
دُومِي عَلَى الْعَهْدِ - مَا دَمْنَا - مُحَافِظَةً
فَمَا اسْتَعْضُنَا خَلِيلاً مِنْكَ يَحْبِسُنَا
وَلَوْ صَبَا نَحُونَا مِنْ غُلُو مَطْلَعِهِ
أَوَّلِيْ وَفَاءً وَإِنْ لَمْ تَبْذُلِي صِلَةً
وَفِي الْجَوَابِ مَتَاعٌ إِنْ شَفَعْتَ بِهِ
عَلَيْكَ مِنَّا سَلامُ اللَّهِ مَا بَقِيَتْ

مكتوبة، وأخذنا الصبر تلقينا
شرباً، وإن كان يروينا فيظميناً^(١)
سالين عنه؛ ولم نهجره قالينا^(٢)
لكن عدتنا - على كره - عوادينا^(٣)
فينا الشمول، وغنانا مغنينا
سيما ارتياح، ولا الأوتار تلهينا
فاحر من دان إنصافاً كما دينا
ولا استفدنا حبيباً عنك يثنينا
بدر الدجى لم يكن حاشاك يصبينا
فالطيف يقنعنا والذكر يكفيننا
بيض الأيادي التي ما زلت تولينا
صباة بك نخفيها فتخفيننا

المدح^(٤):

يُعدّ المدح الغرض الثاني في أغراض ابن زيدون، في الديوان المائل بين أيدينا. ولم يكن ابن زيدون من الشعراء المتكسبين بالشعر، ولكنه كان يقدمه في وفادة على حاكم، أو تقرباً إلى أمير، أو تثبيتاً لمكانته السياسيّة، أو اعتذاراً ممزوجاً بالمدح (كما نعرف من حاله مع أبي الحزم بن جهور)، ومن هذا قوله في أواخر قصيدة له في أبي الحزم:

عُتْبَاكَ - بعد العتب - أمنيّة
ما لي - على الدهر - سواها اقتراح!

(١) الشرب: المورد، والماء المشروب.

(٢) قلا يقلو قلاء وقلاً: أبغض.

(٣) العوادي: الشواغل (ج عادية) الشغل يصرفك عن الشيء، وعدتنا: صرفتنا.

(٤) انظر (المدح) في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

فهو لا يريد أكثر من رضى الأمير عنه، ومعاملته كسابق عهده.

وقوله من قصيدة أخرى:

فاشفعُ أكنُ مثلَ ممطورٍ ببلدته جَذلانَ بالوَطنِ المألوفِ والوطرِ!

ولم يطلب في هذه القصيدة أكثر من حسن المعاملة، وقبول الشفاعة من أي تهمة ألصقت به أو ظنَّ في حُسن ولائه.

- وقد مدح ابن زيدون أبا الحزم بن جهور وابنه أبا الوليد (وكان أبو الوليد صديقاً له) ومدح المعتضد بن عبّاد صاحب إشبيلية وابنه المعتمد (وكان المعتمد صديقاً لابن زيدون وتلميذاً على مدرسته الشعرية). ومدح المظفر بن الأفطس صاحب بَطْلَيْوُس، والأمير باديس بن جبوس صاحب غرناطة.

خصائص شعر الغزل عند ابن زيدون:

إذا نظرنا إلى القصيدة الغزلية عند الشاعر لاحظنا أن الشعر الغزلي عند ابن زيدون لم يتخذ شكلاً واحداً.. إذ لم تكن القصيدة على وتيرة معينة من حيث طولها وقصرها وعدد أبياتها والبحور التي يستخدمها. إننا لا نجد تناسقاً في أشكال القصائد من طول ومن قصر. فهناك المقطوعات الصغيرة القصيرة التي يعبر فيها الشاعر عن لحظة انفعالية معينة دون أن يكون ذلك ساحة لعرض أفكار كثيرة أو جوانب متشابكة.. فموقف ما من المواقف؛ أو إحساس من الإحساسات يرصده الشاعر فيعبر عنه بسرعة ويكتفي بما صنع؛ وإننا لنجد ظاهرة غلبة المقطوعات على القصائد في المرحلة الأولى بشكل خاص، فنحن لا نظفر بقصيدة كاملة في هذه المرحلة كلها؛ كما نلاحظ تفشي هذه الظاهرة بشكل واضح في شعر المرحلة الثالثة.

أما شعره الذي تردد فيه بين الأمل واليأس وكان يحاول به إرضاء ولادة، فنجد فيه القصائد الطوال التي تلائم مثل ذلك الظرف من دفاعٍ ومناقشةٍ وبسطٍ لمعاني الغزل الكثيرة. ونلاحظ أيضاً أن هنالك القصائد والمقطوعات الخاصة

بالغزل أي التي تنفرد بموضوع واحد. وهذا كثير في شعر ابن زيدون، غير أننا نلمح أن الشاعر كان يتحدث عن ولادة ويتحدث إليها في ثنايا الأغراض الأخرى كالمديح وشعر الاستعطاف ووصف الطبيعة، وغير ذلك من الموضوعات. ولنأخذ نماذج سريعة على هذا: في إحدى قصائده في السجن قال:

ما جالَ بعدك لحظي في سنا القمر إلا ذكرتُك ذكراً العين بالآثر
ولا استطلتُ ذمماً^(١) الليل من أسفٍ إلا على ليلةٍ سرّت مع القصرِ

وكتب في رسالته الجدية التي رفعها إلى أبي الحزم بن جهور أبياتاً منها:

الهوى في طلوع تلك النجوم والمُنَى في هبوب ذاك النسيم
سرّنا عيشنا الرقيق الحواشي لو يدوم السُرور للمستديم

إلى أن يقول طارقاً غرضه الأصلي:

أي هذا الوزيرُ ها أنا أشكو والعصا بدءُ قرعها للحليم

كما أننا نلاحظ أن الشاعر تحدث عن ولادة في أثناء حديثه عن مدينة قرطبة وفي أثناء وصفه للطبيعة ومن الأمثلة البارزة على ذلك قصيدته القافية التي مطلعها:

إنّي ذكرتُك بالزهراء مشتاقاً والأفقُ طلقٌ ووجهُ الأرضِ قد راقا

ونلاحظ أيضاً أن ابن زيدون في هذا يحافظ على ظلّ قويّ للمقدمات الغزلية المألوفة، ولكنه كان يصوغها بشكل خاص، ويتحدث فيها عن حبّ حقيقي وتجربة ذاتية واضحة. ونلاحظ أن بعض القصائد، وخاصة في شعر المرحلة الثانية امتازت بشيء من الطول الظاهر الواضح كما في قصيدته (أضحى التناهي).

(١) الذمّاء لغة: بقية الرّوح، يعني البقية الباقية من آخر الليل.

ومما نلاحظه أن ابن زيدون عارض بعض الشعراء المشاركة وقلدهم أو حاول الإفادة منهم.. من ذلك معارضته للبحري في قصيدته أضحى التنائي.. ومن ذلك أيضاً صياغته على نمط قصيدة للمتنبى اقتبس فيها بيتاً له إذ يقول:

هل تذكرون غريباً عادةً شجنُ من ذكركم وجفاً أجفانه الوسنُ
يُخفي لواعجه والشوق يفضحه فقد تساوى لديه السرّ والعَلنُ!

إلى أن يختم هذه القصيدة ببيت المتنبي:

* بَمِ التَّعَلُّلِ لَا أَهْلٌ وَلَا وَطَنُ *

ومن الملاحظات البارزة أن القصيدة الغزلية أخذت عند ابن زيدون شكل الرسالة أو شكل الكتاب المقترح من حيث إن الشاعر جعلها عرضاً لموضوع فيه سِمات الكتاب وخصائصه، إلا أن هذا الشعر لم يفقد بذلك رونقه أو طلاوته التي نعرفها في شعر ابن زيدون.

- ومن أغراض شعر ابن زيدون: الاستعطاف. وهو لجأ إلى هذا الغرض حين سُجن في ظلّ دولة أبي جهور، وقد توسل ابن زيدون - في محاولاته لإقالة عثرته - بالنثر والشعر. وفي هذه المدة - مدّة سجنه ومدة قليلة بعدها اختفى فيها إلى أن سوّى الأمر مع ابن جهور - أصدر ابن زيدون عدداً من الرسائل والقصائد الاستعطافية إلى ابن جهور، وعدداً آخر من الرسائل والقصائد التي لها علاقة بسجنه وفراره من السجن، ليست من أدب الاستعطاف؛ ولكنها لَمّا كانت في ظلّ تلك المدة، وتوسلاً ببعض أصدقائه لإنقاذه؛ سلكنا دراستها في أثناء موضوع الاستعطاف والاعتذار.

في السجن تعرض الشاعر لمعاملة قاسية: ذلك أنه سجن في البداية في مكان يليق بالسجين السياسي، ثم نزلوا به إلى سجن جمعوا فيه بينه وبين اللصوص والسراق وقطاع الطرق؛ فكان هذا أمراً شديداً جداً عليه. ولعله أيضاً مُنع من أن يزوره أقاربه كالعادة؛ وتذكر أمه المريضة الطاعنة في السن. فكان هذا يزيد حسرةً، ويزيده ألماً. يقول في مخاطبة أمه:

أَمَقْتُولَةُ الْأَجْفَانِ مَا لَكَ وَالْهَاءُ أَلَمْ تُرِكَ الْأَيَّامُ نَجْمًا هَوَى قَلْبِي؟

وقال من قصيدة أخرى يذكر فيها كم مضى عليه من أيام في السجن:

أَفَصَبْرًا مَثْنٍ خَمْسًا مِنَ الْأَيَّامِ مِ نَاهِيكَ مِنْ عَذَابٍ مُقِيمٍ
وَمُعْنَى مِنَ الضَّنَى بَهْنَاهُ نَكَاتُ بِالْكُلُومِ قَرَحِ الْأَلُومِ
سَقَمٌ لَا أَعَادَ فِيهِ وَفِي الْعَا إِدِ أَنْسَ يَفِي بَرِّ السَّقِيمِ

وكان لا بدّ للشاعر من أن يخرج من ذلك السجن. ولقد حاول لخروجه محاولات عديدة فاتصل بالأمير أبي الحزم مباشرة برسائل وقصائد كان يبعث بها إليه، ولكنها لم تُجد نفعاً، فاتصل بعدد من أصدقائه ممن لهم صلات وثيقة بالأمير محاولاً أن يجعلهم وسطاء بينهما. وكان من الذين كلفهم بهذه المهمة صديقه الكاتب الوزير أبو حفص بن برد الأصغر في قصيدته:

مَا عَلَى ظَنِّي بِأَسْ يَجْرَحُ الدَّهْرُ وَيَاسُو

ولكن محاولاته جميعاً لم تفلح، فكان لا بدّ له من ثاني الخطتين فلجأ إلى الفرار. وفي هربه روايات؛ فبعضهم يقول إنه هرب مستعيناً بحارس السجن مطمئناً إياه بالمال، وبعضهم يرى أنه ما كان يستطيع الفرار دون معاونة من ذي سلطة في قرطبة. ويبدو - وهذا رأي له مرجحاته الكثيرة - أن الشاعر «إنما هرب من السجن بمساعدة خفية من صديقه وليّ العهد أبي الوليد بن جهور» ولم يكن هذا غريباً في ذلك الزمان الذي يغصّ بالملابسات السياسية المتشابكة.

وقد اعتذر في إحدى قصائده عن الفرار من السجن (فقد لأمه بعضهم لذلك الفرار وعدوه عيباً) قال:

وَقَدْ وَسَمُونِي بِأَلْتِي لَسْتُ أَهْلَهَا وَلَمْ يُمْنِ أَمْثَالِي بِأَمْثَالِهَا قَطُّ
فَرَرْتُ فَإِنْ قَالُوا: الْفِرَارُ إِرَابَةٌ فَقَدْ فَرَّ مُوسَى حِينَ كَمَّ بِهِ الْقَبِيطُ^(١)

(١) إرابة: أي اتهام وشك. أي هو فرّ مضطراً كما فرّ موسى عليه السلام... إلخ.

وقال من رسالة مطولة له معتذراً عن فراره من السجن مصوراً تلك الحادثة:
فلم أستطع صبراً، وعلمت أنني أبليت عذراً؛ ولم يبق إلا أن يعذرني لبيد وكساد،
ورأيتُ أن «العاجز من لا يستبد»، «فالمرء يعجز لا المحالة»، ولم أستجز أن
أكون ثالث الأذلين: العير والوتد، وذكرتُ أن الفرار من الظلم والهرب مما لا
يطاق من سنن المرسلين؛ قال الله، عز وجل، على لسان موسى، عليه السلام:
﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ [الشعراء ٢٦/٢١].

وقال الشاعر:

لا عارَ لا عارَ في الفرار فقد فرَّ نبيُّ الهدى إلى الغارِ
إلى آخر الرسالة.

قوله: أبليت عذراً، أي أديته إليه فقبله - وقد أشار إلى قول لبيد:
إلى الحولِ ثم اسم السلام عليكما ومن يئكِ حولا كاملاً فقد اعتذر
وإشارته إلى أن العاجز من لا يستبد معنى من قول عُمر بن أبي ربيعة:
* إنما العاجزُ من لا يستبد *

وإشارته إلى الأذلين معروفة عند العرب ومن ذلك ما قاله المتلمس:
ولا يقيمُ على ذلٍّ يُراقبُهُ إلا الأذلانِ عَيْرُ الحيِّ والوتدُ
وهرب ابنُ زيدون من سجنه، ولجأ بصورة مؤقتة إلى دولة بني عباد - وقيل
إلى مكان آخر - إلى أن عاد إلى قرطبة مرة أخرى.
وهذه قصيدة كان بعث بها إلى صديقه أبي حفص بن برد الكاتب، ليتوسط
لدى أبي الحزم لعله يفك إسهاده.

والنصّ يصور حال الشاعر النفسية وثورته العارمة على ظروفه.

قال*:

ما على ظنّي بأسٌ
رُبّما أشرفَ بالمرّ
ولقد يُنجيك إغفا
والمحاذيرُ سيّهاً
ولكم أجدى قُعود
وكذا الدهرُ إذا ما
وبنو الأيامِ أخيا
نلبسُ الدُّنيا ولكن
يا أبا حفصٍ وما سا
من سنا رأيك لي
ورِدادِي لك نصّ
أنا حيرانٌ وللأُمـ
ما ترى في معشرٍ حا
ورأوني سامريّاً

يَجْرَحُ الدَّهْرُ وَيَاسُو^(١)
ع على الآمالِ يَاسُ
ل، ويُردِيكَ احْتِرَاسُ
والمَقَادِيرُ قِيَّاسُ^(٢)
ولكم أَكْدَى التِّمَّاسُ^(٣)
عَزَّ نَاسٌ ذَلَّ نَاسُ
ف: سَرَاةٌ وَخِساسُ^(٤)
مَتَعَّةٌ ذَاكَ اللَّبَّاسُ
واك في فَهْمِ إِيَّاسُ^(٥)
في غَسَقِ الخُطْبِ اقْتِبَاسُ^(٦)
لم يُخَالِفْهُ قِيَّاسُ^(٧)
ر وضُوحٌ والتَّيَّاسُ
لُوا عَنِ العَهْدِ وَخَاسُوا^(٨)
يُتَّقَى مِنْهُ المَسَاسُ^(٩)

* الديوان ٢٧٣ - ٢٧٧

- (١) ياسو (ياسر): يداوي.
- (٢) المحاذير ج محذور: وهو ما يُحذر منه. قياس ج قوس. المقادير ج مقدار: الأمر المحتوم.
- (٣) أكدي الرجل: بخل وقلّ خير، أو قطع عطاءه. أجدي: أغنى وأفاد.
- (٤) هم أحياف أي مختلفون. (واحدة أحياف أي أهمهم واحدة والآباء شتى)، سرارة جمع سري: وهو الماحد السخي، وخساس جمع خسيس: الدني، والدون لا يعأ به.
- (٥) إياس: هو إياس بن معاوية يضرب به المثل بالركن (الظننة والتفرس وسرعة الفهم).
- (٦) الغسق: الظلمة. والسنا: الضياء.
- (٧) انص: القول المحكم من القرآن الكريم أو الحديث الشريف، ولا مجال للرأي معه. والتياس أن تقيس المشكلة الحاضرة على مثيلاتها مما ورد فيه نص صريح.
- (٨) خاس: غدر ونكس.
- (٩) السامري: هو الذي أضلّ بني إسرائيل ودعاهم إلى الشرك لما خرج موسى عليه السلام لمناجاة ربه، وعاقبه الله بأنه لا يمس إنساناً إلا أدركتهما الحسى معاً، فكان يتحاشى الناس.

كُلُّهُمْ يَسْأَلُ عَنْ حَا
 إِنَّ قَسَا الدَّهْرُ فَلِلْمَا
 وَلَئِنْ أَمْسَيْتُ مُحِبُّو
 أَذُوبُ هَامَتِ بِلَحْمِي
 يَلْبِدُ الْوَرْدُ السَّابِتِي
 فَتَأْمَلُ كَيْفَ يَغْشَى
 وَيُفَتِّ الْمِسْكُ فِي التَّرُّ
 لَا يَكُنْ عَهْدُكَ وَرَدًا
 وَأَدِرْ ذِكْرِي كَأَسَا
 وَاعْتَنِمْ صَفْوَ اللَّيَالِي
 وَعَسَى أَنْ يَسْمَحَ الدَّهْرُ
 لِي، وَلِلذُّبِ اعْتِسَاسُ^(١)
 مِنْ الصَّخْرِ انْبِجَاسُ^(٢)
 سَا فَلَغِيثِ احْتِبَاسُ
 فَاَنْتَهَاشُ وَاَنْتَهَاسُ^(٣)
 وَلَهُ بَعْدُ افْتِرَاسُ^(٤)
 مُقْلَعَةُ الْمُحْدِ النَّعَاسُ
 بٍ، فَيُوطَا وَيُودَاسُ
 إِنَّ عَهْدِي لَكَ آسُ
 مَا امْتَطَلْتُ كَفِّكَ كَأَسُ
 إِنَّمَا الْعَيْشُ اخْتِلَاسُ
 رُ فَقَدْ طَالَ الشَّمَّاسُ^(٥)

صنع ابن زيدون النص في هذا الجو النفسي الخاص: جو السجن الخانق الذي ضيق فيه على الشاعر تضيقاً شديداً. لنقل إذن في مناسبة النص: سجن الشاعر ورأى أنه مظلوم، فكتب إلى الأمير أبي الحزم يستعطفه ويسترضيه، فلم يفلح فيما حاول. وكتب إلى بعض أصدقائه من ذوي المكانة فلم يستمعوا إليه. وبلغه عن بعض أصدقائه القدامى ما ينالونه به من وقعة لدى الأمير فحز ذلك في نفسه. وكتب بهذا المعنى إلى صديقه الكاتب أبي حفص بن برد الأصغر هذه الأبيات التي بين أيدينا.

(١) اعتس: طاف بالليل.

(٢) انبجس الماء: انفجر.

(٣) الانتهاس: الأخذ بالأضرار. والانتهاس: الأخذ بمقدم الأسنان.

(٤) السبتي: الجريء. والورد: من أسماء الأسند.

(٥) شمس الرجل: امتنع وأبى، والفرس الشموس إذا كان لا يمكن أحداً من ظهره، ولا من الإسراج والإلجام ولا يكاد يستقر.

وهذه القصيدة تُعدُّ في القصائد غير الطويلة التي بين أيدينا من شعر ابن زيدون. وهي بالقياس إلى شعره في السجن قصيدة أقل طولاً وأقصر عدد أبيات من غيرها، وهو استعمل بحراً قصيراً نظم عليه^(١)، وهي على حالها هذه أشبه بأن تكون حكاية حال من أن تكون شكوى واستجداء. ذلك أن الشاعر آنس من صديقه أبي حفص وفاء وحسن بلاء وغيباً حسناً، فشكا إليه سوء تلك العلاقات الإنسانية مع كثير من الناس.. شكا له أولئك الأشخاص الذين ربّاهم فكانوا وبالاً عليه.. وأنه في نصه هذا ليث جريح حبيس لا يقوى على الصّولة، لكنه لم يفقد حماسة المؤمن بقضيته؛ المقتنع من حسن الختام.. وفي تقديره أن الشاعر قد أنشأ هذا النص في مرحلة متأخرة من أيام سجنه. ذلك أننا نجده في هذا النص في حالٍ من الغضب الشديد، لم يكن غضبه لأنه سُجن ولكن من تلك العلاقات التي انبتت من أصدقاء قدامى وجدوا في سجنه (الذي طال أمده) وسيلة للطعن عليه، والتقرب إلى السلطان بالكيد له، وشتمه والانتقاص منه.

والشاعر لا يزال على أمل قوي في أن تنفرج الكربة، وأن تزول الغشاوة وأن تتزحزح تلك الصخرة التي سدت أمامه السبل.. وهو يحدثنا عن الزمان الغادر والحظ البائس الذي كان من نصيبه. وهو إذ يلقي التبعات على الزمان إنما يدلنا على أمور فهو حين تضيق به السبل يجد الزمان هدفاً سهلاً قريب المتناول. وقد يكون الهجوم على الزمان ستاراً للهجوم على أشخاص قد لا يستطيع أن يهاجمهم مباشرة؛ فهو لن يهجو أبا الحزم بن جهور ولن يناله بسوء، وهو سجين على كل حال. وإن في (الدهر) و (الزمان) و (القدر) و (الأيام) و (الليالي) و (الحظ) وسائل كافية لكي ينفّس بها عما في مكنونه ودخيلة نفسه.

ابن خفاجة

(٤٦١ هـ - ٥٣٣ هـ)

١ - ترجمت كتب الرجال والتراجم الأدبية لابن خفاجة باعتباره من العلماء من جهة، وباعتباره من نبهاء الأدباء وفحول الشعراء من جهة ثانية. فقد تلقى العلم عن أهله في زمانه، وكانت له رواية عالية، ولازم أهل الأدب ونبغ في الشعر فَعُرِفَ بهذا الفن، واسترسل تحت مظلته طوال حياته.

ولد أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح عبيد الله الهواري^(١) في بلدة تدعى شُقر، أو جزيرة شُقر، القريبة من بلنسية المُطلّة على البحر المتوسط سنة (٤٥١ هـ) والمنطقة كلها من المناطق الغنية بالأنهار ومساقط المياه والينابيع، الغارقة في الخضرة الطبيعيّة، والعناية الزراعية الفائقة.

واكتفى الشاعر من الدنيا برزق قليل تدرّه عليه قطعة أرض، واستغنى، وتعفّف، عن انتجاع الأمراء والحكام، وعن مدّ يده إليهم. على أنه مدح المرابطين، وقد أسهموا في إنقاذ الأندلس من السقوط في يد العدو، واستنقذوا مدينة بلنسية وما حولها بعد أن احتلّها المغامر القشتالي السيّد القمبيطور كما كان يلقّبهُ العرب. وهو أفّاق مرتزق انتهز فرصة ضعف المنطقة سياسياً وعسكرياً.

(١) له ترجمة في قلائد العتيان ٢٤١، ٣٠٤، ومطمح الأنفس ٨٦، والمعجم لابن الأبار ٥٩، والتكملة

٧٠/١، والروض المعطار ٤٨، ١٠٣، ووفيات الأعيان ٣٩/١، والمغرب ٣٦٧/٢

- وانظر دراسة موسّعة عنه في: (ابن خفاجة) د. محمد رضوان الداية.

- و: حياة وآثار الشاعر الأندلسي ابن خفاجة - لحمدان حجّاجي.

وقد خرج عن الأندلس إلى المغرب في مدّة وجود ذلك المغامر في شرق الأندلس، وذاق مرارة الاغتراب، وأثمرت هذه التجربة ظهور شعر الحنين في ديوانه بشكل واضح.

٢ - كان لابن خفاجة مكانته في عصره عند الحكّام من أمراء الطوائف وعند المرابطين من الحكّام والقادة وطبقتهم. وكانت له صداقات مع كبار رجال عصره من العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء مثل ابن السيّد البطليوسي، وابن أبي الخصال، وابن خاقان، وابن باجة، وابن وهبون...

وكان له معجبون بفنّه وأدبه وشعره، واجتمع له عدد كبير من الأدباء والمحبيّن من أنحاء الأندلس يحملون عنه شعره، ويقرؤونه عليه، وقد أثنوا عليه، وأفادوا من طريقته (المذهب الخفاجي)، وأطلقوا عليه لقب (جَنَّان الأندلس) لكثرة وصفه للطبيعة الأندلسية، وارتباطه النفسي والحياتي ببلدته شُقر، وبلاده: الأندلس.

٣ - وابن خفاجة يُصنّف في الشعراء، فهو في طليعة شعراء الأندلس ذوي التميّز والتفرد وظهور الشخصية، وشارك في الترسُّل، والنقد الأدبي. ولديوانه مقدمة أنشأها وكتبها بقلمه تنم عن خبرة بهذا الفن ورأي واضح.

ووصف ابن خفاجة - من خلال تراجمه وتراجم تلامذته وتراجم أساتذته وأصحابه - بأنّه يُحيط بعدد من فنون المعرفة: الحديث، والفقه، واللغة، والنحو، والمنطق، وغيرها.

٤ - وفنون شعر ابن خفاجة الممدّح، والثناء، والغزل، والنسيب، والمجاء (وقد حذف أكثره من نسخة ديوانه التي اعتمدها وأذاعها) والعتاب والحكمة والزهد.

على أنه برع في وصف الطبيعة^(١)، (وأكثر من هذا الغرض)، وفي شعر الحنين.

(١) انظر بحث (وصف الطبيعة في الأندلس) من هذا الكتاب.

المدح^(١):

الممدوحون في شعر ابن خفاجة: أمراء من المرابطين، ووزراء، وقضاة. ومدح من أبناء يوسف بن تاشفين (أمير المسلمين، صاحب دولة المرابطين) إبراهيم، وتميمًا، وأمراء آخرين، كما مدح السيّد مريم بنت تيفلويت.

وتدور قصائد المديح حول التهنئة بالولاية، أو الشكر على صنيع، أو التوسّل بقبول شفاعته لأحد الناس..

ومدح الحرّة مريم، زوج الأمير تميم يدل على المكانة التي بلغتها المرأة المرابطية، وعلى ثقافة القوم العربية، ومن قصيدته فيها:

وكفى احتماءً مكانة وصيانةٍ	أنّي علقتُ بذمّة من مريم
ذات الأمانة والديانة والتقوى	والخلق الأشرف والطريق الأقوم
من أسرة يتلفّعون إلى الوغى	يوم الحفيظة بالعجاج الأقيم!

وقد مدح ابن خفاجة هؤلاء الممدوحين بالمعاني المألوفة في الشعر العربي من الشجاعة والكرم والنسب، وركّز على صفات الممدوح الشخصية، ونوّه بالمقوّمات الخلقية والدينية من ورع وتقوى وإغاثة ملهوف... وكان يضع قصائد المديح في مواضعها التاريخية وفي مناسباتها الملائمة: بعد معركة ظافرة، أو بمناسبة احتفال هام أو حدثٍ ذي بال.

وأثبت ابن خفاجة في مدحه المرابطين نسبتهم العربيّة، كما أكد ابن خلدون ذلك في ما بعد من اتصال نسب البربر بنسب العرب، وربط بين هؤلاء الممدوحين وبين نسب في قريش كقوله في إبراهيم بن يوسف بن تاشفين:

من قريش في الصميم ومن فتية أحياء في الصّمم!

وترتبط هذه المعاني كلها برباط شعوري متكامل:

(١) انظر (المدح) في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

إمامٌ تدانى رأفةً وسما به إلى المجد بيتٌ طاول النجمَ أروعُ
جليٍّ ومن بطحاء مَكَّة حنّةً إليه، وللبيت الحرام تطلّعُ
تري لقريش فيه بَرَقَ مخيلةٍ يلوحُ وعرقاً للخلافة ينزعُ!

وتبلغ قصيدته التي عُنُونُها (في الاعتبار) الذروة في وصف الطبيعة، وفي الإعجاب بطبيعة بلاده، والاستغراق في الائتلاف معها، والاستظلال بظلالها مادياً ومعنوياً. ولقد تجلّى امتزاجه بالطبيعة في تفاعله مع مُعطياتها، والعيش في أجوائها المرحّة الجميلة كما تجلّى في محاولة استكناه غوامضها وغرائبها، وفي الوقوف موقف المعتبر لعظمة ما صنع الله تعالى فيها وأبدع.

ولا بدّ ونحن نقبل على مراجعة قصيدته (في الاعتبار) والغوص في معانيها ومقاصدها أن ننتبه إلى أن الشاعر عُمّر طويلاً، وكان إذ مات أصحابه عنه واحداً بعد واحد يتربح مجيء الموت على كُرهِ منه ورأى أنه على الرغم من رحلة حياته الطويلة، لم يكد يلبث في هذه الحياة إلا عشيّةً أو ضُحاهَا، كما قال^(١):

ثم وُلّت كأنها لم تكد تلبث ... إلا عَشِيَّةً أو ضُحاهَا

وجعل ابن خفاجة نفسه كذلك الجبل الذي يُؤوي الشريد والطريد، والعباد والزاهد، فأنطق الجبل، واستمع إلى حديثه ووعظه في تشخيص متقن، واندماج رائع. وانتهى الشاعر إلى الاستسلام المُطلق عن شخص رجل زاهد، تائب، عابد، مُعتبر^(٢).

شعر الحنين:

تدل أخبار ابن خفاجة، وتنمّ أشعاره عن رجل: مرهف الإحساس، مضطرم العاطفة، سريع التأثر والانفعال. لقد كان الشاعر مغرقاً في محبة وطنه الأندلس، وحبّ وطنه الصغير: جزيرة شُقر. وكان أيضاً وفياً لأصدقائه، مرتبطاً بهم، كثير العودة في شعره إلى ذكرياته معهم، وإلى ذكريات الصبا وأيام الشباب.

(١) سنورد القصيدة كاملة في غرض الحنين.

(٢) انظر: ابن خفاجة ٦٢ - ٦٤

ومن هنا كان ابن خفاجة مشغولاً بدائرتين متشابكتين: هما دائرة المكان ودائرة الزمان. أمّا دائرة المكان فإطارها شُقر، والأندلس. وأمّا دائرة الزمان فإطارها يدور حول أيام الصِّبا والشباب، وما كان يكون في الشباب من صَبوات، وما يكون معها من صداقات وأصدقاء!

ولا يغيبُ عن البال أنَّ ابنَ خَفَاجَة عانى من الغُربة واكْتَوَى بنارها وذاقَ مرارتها، وهو الإنسان الألف؛ وها هو ذا يضع في أوّل آماله وغاية أمانيه: رؤية الوطن ولقاء الديار:

فيا ليت شعري هل لدهري عطفةٌ فتجمع أوطاري هناك وأوطاني
ميادين أوطاري ومعهد لذّتي ومنشأ تهيامي، وملعب غزلاني

وينادي بأعلى صوته:

ألا هلْ إلى أرض الجزيرة أوبّةٌ فأسكن أنفاساً وأهدأ مضجعا؟!

ونظر ابنُ خَفَاجَة إلى وطنه نظرةً شاعريّةً شموليّةً:

إنّ للجنة بالأندلس مجتلى حسن وريّا نفس
فسنا صُبّحتها من شنبٍ ودُجّا ليلتها من لعس^(١)
فإذا ما هبت الريح صبا صحتُ: واشوقي إلى الأندلس!

ويكثر في شعر ابن خفاجة ذكر مواضع في بلده شُقر مثل: باب الزخارف، والشطّ، والكنيسة، والمرج... (انظر قصيدته: بين شُقر وملتقى نهريها).

وقد أكثر الشاعر من ذكر الماضي، ومن الكلام عن أشباحه الماثلة في الفكر والذهن، التي لا تغيب على الرغم من تقادم الأيام والأعوام. ومن شعره في هذا المقصد قوله:

(١) الشَّنبُ: جمال الثغر وصفاء الأسنان. واللّعس: ميل باطن الشفة إلى السواد (وهي صفة مستحسنة عندهم).

ويا رَبَّ ذيل للشباب سَحَبْتُهُ وما كنت أدري أنه سَيُقْلَصُّ
ولحمة عيش بين كأس رويّة تدار، وظبي باللّوى يُتَقَنَّصُ
ألا بانَ عيش كان يندى غضارة فيا ليت ذاك العيش لو كان ينكصُ!

فالزّمان - وهو تعبير آخر عن العُمر عند الإنسان - ينسحب من بين يديه؛
فإن التقدم في السن يعني النقصان من سنوات العُمر!

وفي شعر الحنين يلاحظ القارئ اضطرام نفس الشاعر، فإذا ما زاد الحنينُ
وغلب تحوّل إلى تشخيص الشببية أو زمان الشباب، في صور تتحرّك، وتتكلّم
وكانها شخوص حقيقية؛ في إطار شعري بالغ الروعة وعطاء وجداني عميق.

ويكثر وصف الزمان الماضي (وفيه الشباب الرائق) بكلمات دقيقة مؤثرة مثل
«شهيّ» و «قصير» و «طيّب» و «نديّ». ويرى الشاعر أن الشباب رَسْمٌ أو طَلَل
يمكن أن ييكيه كما ييكى الشاعر عادة عند الأطلال. وفي هذا يقول من قصيدة:

ولم أدْرِ ما أبكي أرسمَ شبيبةً عفا أم مصيفاً من سُليمى ومربعا؟
وأوجعُ توديع الأحبة فرقةً شباب على رغم الأحبة ودّعا
وما كان أشهى ذلك الليل مرّقداً وأندى مُحياً ذلك الصبح مَطْلعا
وأقصر ذاك العهد يوماً وليلةً وأطيب ذاك العيش ظلاً ومكرعا

ويقول في قصيدة أخرى:

فأه طويلاً ثم أهٍ لكِبرةً بكيتُ على فقد الشباب بها دما

ويجتمع الحنين إلى الوطن، بالحنين إلى الشباب في مواقف كثيرة فتظهر عاطفة
الشاعر الحزينة، ويرتفع صوته الباكي في تعبير شعري مفعم بخلجات إنسانية.
وتلتقي عند الشاعر أحاديث غربتين: غربّة المكان (ووحشته أحياناً) بغربة
الزمان وصيرورة الشباب إلى ذكريات مؤرّقة حزينة!

-اشتهرت في كتب المختارات الأدبية، وفي كتب تاريخ الأدب، قصيدة لابن
خفاجة، بائئة: أسهبَ الدارسون في تقويمها واجتلاء جوانبها المختلفة، وكثيراً ما

تَرَدُّ فِي النُّقُولِ تَحْتَ عُنْوَانِ (وَصَفِ الْجَبَلِ)؛ أَمَّا الشَّاعِرُ فَقَدْ قَدَّمَ لَهَا بِقَوْلِهِ: «وَقَالَ فِي الْإِعْتِبَارِ» وَهِيَ قَصِيدَةٌ رَائِعَةٌ، بِالِغَةِ الدَّلَالَةِ عَلَى حَالِ الشَّاعِرِ وَنَفْسِهِ فِي تِلْكَ الْحَقْبَةِ مِنْ حَيَاتِهِ، وَجَعَلَ الْجَبَلَ مُعَادِلًا مَوْضُوعِيًّا لِنَفْسِهِ وَعُمُرِهِ الطَّوِيلِ وَمَا مَرَّ عَلَيْهِ مِنْ حَوَادِثِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ*:

- ١- بَعِثَكَ هَلْ تَدْرِي أَهْوَجُ الْجَنَائِبِ
- ٢- فَمَا لُحْتُ فِي أُولَى الْمَشَارِقِ كَوَكْبًا
- ٣- وَحِيدًا تَهَادَانِي الْفَيَانِي فَأَجْتَلِي
- ٤- وَلَا جَارَ إِلَّا مِنْ حُسَامٍ مُصَمَّمٍ
- ٥- وَلَا أَنْسَ إِلَّا أَنْ أَضَاحِكَ سَاعَةً
- ٦- بَلِيلٍ إِذَا مَا قُلْتُ قَدْ بَادَ فَاَنْقَضَى
- ٧- سَحَبْتُ الدِّيَاجِي فِيهِ سُودَ ذَوَائِبِ
- ٨- فَمَزَّقْتُ جَيْبَ اللَّيْلِ عَنْ شَخْصٍ أَطْلَسَ
- ٩- رَأَيْتُ بِهِ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ أَغْبَشَا
- ١٠- وَأَرَعَنْ طَمَّاحِ الذُّؤَابَةِ بَاذِخِ
- ١١- يَسُدُّ مَهَبَّ الرِّيحِ عَنْ كُلِّ وَجْهَةٍ
- ١٢- وَقُورٍ عَلَى ظَهْرِ الْفَلَاةِ كَأَنَّهُ
- تَحُبُّ بِرَحْلِي أَمْ ظُهُورُ النَّجَائِبِ^(١)
- فَأَشْرَقْتُ، حَتَّى جُبْتُ أُخْرَى الْمَغَارِبِ
- وُجُوهَ الْمَنَايَا فِي قِنَاعِ الْغِيَاهِبِ^(٢)
- وَلَا دَارَ إِلَّا فِي قُتُودِ الرِّكَائِبِ^(٣)
- تُغَوِّرَ الْأَمَانِي فِي وَجْهِهِ الْمَطَالِبِ
- تَكْشِفَ عَنْ وَعْدٍ مِنَ الظَّنِّ كَاذِبِ
- لَأُعْتَبِقَ الْأَمَالَ بِيضَ تَرَائِبِ^(٤)
- تَطْلُعَ وَضَاحِ الْمَضَاحِكِ قَاطِبِ^(٥)
- تَأْمَلَ عَنْ نَجْمٍ تَوَقَّدَ ثَاقِبِ^(٦)
- يُطَاوِلُ أَعْنََانَ السَّمَاءِ بَغَارِبِ^(٧)
- وَيَزَحْمُ لَيْلًا شُهْبَهُ بِالْمَنَّاكِبِ
- طَوَالَ اللَّيَالِي مُطَرِّقًا فِي الْعَوَاقِبِ

* القصيدة في الديوان ٢١٥ - ٢١٧

- (١) هوج الجنائب: رياح الجنوب الموحاء. والجنائب: جمع نجية، وهي الناقة الكريمة، وتُحَبُّ: من حَبَّ الفرسُ أي مشى أنحَبَ، وهو ضربٌ من العدو.
- (٢) أجتلي: أنظر. والغياهب: جمع الغييب، وهو الظلمة، والليل.
- (٣) صمم السيف: مضى في العظم وقطعه. والقتود: جمع القناب، وهو عيدان الرُّحْلِ.
- (٤) الترائب: جمع تريبة، وهي عظام الصدر مما يلي الترقوتين، وموضع القلادة.
- (٥) الجيب: ما يلي العنق من الثوب. والأطلس: الذي في لونه غُبْرَةٌ إلى سَوَادٍ؛ يريد: عن شخص أُنْفَقَ أطلس، قد اختلط فيه آخر سواد الليل بأول بياض النهار.
- (٦) الأغبش: الذي لونه الغُبْشَة، وهي لون ظُلْمَةٍ آخر الليل، وأراد بالنجم هنا الزهرة أو عطارد، لظهورها عند مطلع الفجر.
- (٧) الأرعن: الجبل الشديد التواء. والباذخ: العالي. والطامح: المرتفع. والغارب: الكاهل، وأعلى كل شيء.

- ١٣ - يُلَوِّثُ عَلَيْهِ الْغَيْمُ سُودَ عَمَائِمٍ
 ١٤ - أَصَحَّتْ إِلَيْهِ وَهُوَ أَخْرَسٌ صَامِتٌ
 ١٥ - وَقَالَ: أَلَا كَمْ كُنْتُ مُلْجَأً فَاتِكِ
 ١٦ - وَكَمْ مَرَّ بِي مِنْ مُدْلِجٍ وَمُؤَوَّبٍ
 ١٧ - وَلَا طَمَ مِنْ نُكْبِ الرِّيحِ مَعَاطِفِي
 ١٨ - فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ طَوَّوْهُمْ يَدُ الرَّدَى
 ١٩ - فَمَا خَفَقُ أَيَّكِي غَيْرَ رَجْفَةٍ أَضْلَعِ
 ٢٠ - وَمَا غَيَّضَ السُّلْوَانُ دَمْعِي وَإِنَّمَا
 ٢١ - فَحَتَّى مَتَى أَبْقَى وَيَظْعَنُ صَاحِبُ
 ٢٢ - وَحَتَّى مَتَى أُرْعَى الْكَوَاكِبَ سَاهِرًا
 ٢٣ - فَرُحْمَاكَ يَا مَوْلَايَ دَعْوَةَ ضَارِعٍ
 ٢٤ - فَأَسْمَعَنِي مِنْ وَعْظِهِ كُلَّ عِبْرَةٍ
 ٢٥ - فَسَلَّى بِمَا أَبْكِي وَسَرَّى بِمَا شَجَا
 ٢٦ - وَقُلْتُ وَقَدْ نَكَبْتُ عَنْهُ لَطِيئَةً
- لَهَا مِنْ وَمِيضِ الْبَرْقِ حُمْرُ ذَوَائِبِ^(١)
 فَحَدَّثَنِي لَيْلَ السُّرَى بِالْعَجَائِبِ^(٢)
 وَمَوْطِنَ أَوَّاهٍ تَبْتَلُ تَائِبِ^(٣)
 وَقَالَ بِظُلِّي مِنْ مَطْيٍ وَرَاكِبِ^(٤)
 وَزَاخَمَ مِنْ خُضْرِ الْبَحَارِ جَوَانِبِي
 وَطَارَتْ بِهِمْ رِيحُ النَّوَى وَالنَّوَابِ
 وَلَا نَوْحُ وَرُقِي غَيْرَ صَرْخَةٍ نَادِبِ^(٥)
 نَزَفْتُ دُمُوعِي فِي فِرَاقِ الْأَصَاحِبِ^(٦)
 أَوْدَعُ مِنْهُ رَاحِلًا غَيْرَ آيِبِ^(٧)
 فَمِنْ طَالِعِ أُخْرَى اللَّيَالِي وَغَارِبِ
 يَمُدُّ إِلَى نَعْمَاكَ رَاحَةً رَاغِبِ^(٨)
 يُرْجِمُهَا عَنْهُ لِسَانُ التَّجَارِبِ
 وَكَانَ عَلَى لَيْلِ السُّرَى خَيْرَ صَاحِبِ^(٩)
 سَلَامٌ، فَإِنَّا مِنْ مُقِيمٍ وَذَاهِبِ^(١٠)

(١) يُلَوِّثُ: يُلَفُّ. وَالدَّوَائِبُ: جمع الذُّوَابَةِ، وهي النَّاصِيَةُ.

(٢) أَصَاحَ لَهُ: اسْتَمَعَ وَأَصْغَى.

(٣) الْفَاتِكُ: الْجَرِيءُ الشَّجَاعُ. وَالْأَوَّاهُ: الَّذِي يَتَأَوَّهُ مِنْ ذُنُوبِهِ، وَتَبْتَلُ: تَنْسَكُ وَانْقَطَعَ لِلْعِبَادَةِ.

(٤) الْمُدْلِجُ: السَّائِرُ لَيْلًا. وَالْمُؤَوَّبُ: الَّذِي يَسِيرُ جَمِيعَ النَّهَارِ وَيَنْزِلُ اللَّيْلَ. وَقَالَ: نَامَ فِي الْقَائِلَةِ، وَهِيَ مَتَصِفُ النَّهَارِ.

(٥) الْأَيْكُ: الشَّجَرُ الْكَثِيرُ الْمَلْتَفُ. وَخَفَقَ الْأَيْكُ: تَحَرَّكَ وَاضْطَرَبَ. وَالرُّقَى: جَمْعُ الرُّقَاءِ، وَهِيَ الْحَمَامَةُ الَّتِي يَضْرِبُ لَوْنَهَا إِلَى الْخَضَرَةِ.

(٦) وَغَاضَ الدَّمْعُ: قَلَّ، وَنَقَصَ. وَالسُّلْوَانُ: النَّسِيَانُ.

(٧) يَظْعَنُ: يَرْتَحِلُ. وَأَبَ: رَجَعَ.

(٨) الضَّارِعُ: الْخَاشِعُ الْخَاضِعُ.

(٩) سَرَّى عَنْهُ: كَشَفَ عَنْهُ هَمَّهُ. وَشَجَا: أَحْزَنَ.

(١٠) الطَّيَّةُ: الْجِهَةُ أَوِ النَّاحِيَةُ الْبَعِيدَةُ.

- «وقال، وقد طلع عليه القمر في بعض ليالي أسفاره، فجعل يطرق في معنى كُسوفه وإقماره، وعِلَّة إهلاله تارةً وسِراره، ولزومه لمركزه مع انتقاله في مداره، مُعْتَبِراً بِحَسَبِ فَهْمِهِ واستطاعته، ومُعتقداً أَنَّ ذلك معدودٌ في عبادة الله وطاعته، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران ١٩٠/٣]. فقال، وقد أقام معاينة تلك النصبه واستشرف تلك الحالة والهيئة مُقام المناجاة لِمَنْ خَلا بِنَفْسِهِ يُفَكِّر، ونَظَرَ نَظْرَةَ الْمُوفِّقِ يعتبر*:

- | | |
|--|--|
| ١ - لَقَدْ أَصَحْتُ إِلَى نَجْوَاكَ مِنْ قَمَرٍ | وَبِتُّ أُذِلِّجُ بَيْنَ الْوَعْيِ وَالنَّظَرِ ^(١) |
| ٢ - لَا أَجْتَلِي لِمَحَا حَتَّى أَعْيِ مُلَحَاً | عَدَلًا مِنْ الْحُكْمِ بَيْنَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ ^(٢) |
| ٣ - وَقَدْ مَلَأْتُ سَوَادَ الْعَيْنِ مِنْ وَضَحٍ | فَقَرَّطِ السَّمْعَ قُرْطَ الْأُنْسِ مِنْ سَمَرِ ^(٣) |
| ٤ - فَلَوْ جَمَعْتَ إِلَى حُسْنِ مُحَاوَرَةٍ | حُزَّتِ الْجَمَالَيْنِ مِنْ خُبْرٍ وَمِنْ خَبَرٍ |
| ٥ - وَإِنْ صَمْتُ فَفِي مَرَاكَ لِي عِظَةٌ | قَدْ أَفْصَحَتْ لِي عَنْهَا أَلْسُنُ الْعِبَرِ |
| ٦ - تَمُرُّ مِنْ نَاقِصٍ حَوْرًا، وَمُكْتَمِلٍ | كَوْرًا، وَمِنْ مُرْتَقٍ طَوْرًا وَمُنْحَدِرٍ ^(٤) |
| ٧ - وَالنَّاسُ مِنْ مُعْرِضٍ يَلْهَى وَمُلْتَفِتٍ | يَرْعَى، وَمِنْ ذَاهِلٍ يَنْسَى وَمُدَّكِرٍ |
| ٨ - تَلْهُو بِسَاحَاتِ أَقْوَامٍ تُحَدِّثُنَا | - وَقَدْ مَضَوْا فَقَضَوْا - أَنَا عَلَى الْأَثَرِ |
| ٩ - فَإِنْ بَكَيْتُ - وَقَدْ يَكِي الْجَلِيدُ - فَعَنْ | شَجْوٍ يُفَجِّرُ عَيْنَ الْمَاءِ فِي الْحَجَرِ ^(٥) |

- وقال يصف متفجعاً**:

* المقدمة الثرية للشاعر نفسه، والنص في الديوان ١٣٠ - ١٣١

(١) أصحْتُ: استمعت. وأذِلِّجُ: أسيرُ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ.

(٢) أجتلي: أنظر.

(٣) الوَضَحُ: بياضُ الضَّوءِ.

(٤) الْحَوْرُ: النَّقْصُ. وَالْكَوْرُ: الزِّيَادَةُ؛ يُقَالُ: نَعُودُ بِاللَّهِ مِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ؛ أَي: مِنَ النَّقْصِ بَعْدَ الزِّيَادَةِ.

(٥) الْحَلِيدُ: الصَّبْرُ عَلَى الْمَكْرُوهِ، وَالْقَوِي. وَالشَّجْوُ: الْهَمُّ وَالْحَزَنُ.

** المقطوعة في الديوان ٢٨١

- ١ - وَصَقِيلَةَ النَّوَّارِ تَلْوِي عِطْفُهَا
٢ - عَاطَى بِهَا الصَّهْبَاءُ أَحْوَى أَحْوَرُ
٣ - وَالنُّورُ عَقْدٌ، وَالْغُصُونُ سَوَالِفُ
٤ - بِحَدِيقَةٍ مَثَلِ اللَّيْلِ ظِلًّا بِهَا
٥ - رَقَصَ الْقَضِيبُ بِهَا وَقَدْ شَرِبَ الثَّرَى
٦ - غَنَاءَ الْحَفِّ عِطْفُهَا الْوَرَقُ النَّدَى
٧ - فَتَطَلَّعَتْ فِي كُلِّ مَوْقِعٍ لَحْظَةً
- وَقَالَ يَصِفُ شَجَرَةً مُنَوَّرَةً وَمَاءً سَائِحًا*:
١ - يَا رَبِّ مَائِسَةَ الْمَعَاطِفِ تَزْدَهِي
٢ - مُهْتَزَّةً يَرْتَجُّ مِنْ أَعْطَافِهَا
٣ - نَفَضَتْ ذَوَائِبَهَا الرِّيحُ عَشِيَّةً
٤ - حَطَّ الرِّبْعُ قِنَاعَهَا عَنْ مَفْرَقِ
٥ - لَفَاءٍ حَاكٍ لَهَا الْغَمَامُ مُلَاءَةً
٦ - نَضَحَ النَّدَى نُورًا هَا فَكَأَنَّمَا
٧ - وَلَوَى الْخَلِيجُ هُنَاكَ صَفْحَةً مُعْرِضٍ

- مِنْ كُلِّ غُصْنٍ خَافِقٍ بَوْشَاحٍ^(٧)
مَا شَيْتَ مِنْ كَفَلٍ يَمُوجُ رَدَاحٍ^(٨)
فَتَمَلَّكَتْهَا هِزَّةُ الْمُرْتَاحِ^(٩)
شَمِطٍ كَمَا تَزْبَدُ كَأْسُ الرَّاحِ^(١٠)
لَبَسَتْ بِهَا حُسْنًا قَمِيصَ صَبَاحٍ^(١١)
مَسَحَتْ مَعَاطِفَهَا يَمِينُ سَمَاحٍ
لَشِمْتَ سَوَالِفَهَا ثَغُورُ أَقَاحٍ!^(١٢)

(١) يصف في هذا البيت شجرة منورة (مزهرة)؛ والنوار: الزهر الأبيض.
(٢) الصهباء: الخسر. والأحوى: من به حوة، وهي السمرة السحبية في الشفة.
(٣) الخزع: سعطف الوادي. والخليج: النهر.
(٤) اللّمي: سمرة في الشفة، وهو مما يستحسن. والتنب: عذوبة في الأسنان. والأنوار: جمع نورة، وهي الزهرة البيضاء.
(٥) ألحف عطفه الورق: أي عطاؤه؛ تقول: ألحفت فلاناً الثرب إذا أنبسته إياه.
(٦) العذار: جانب النحية.
* القطعة في الديوان ٢٨١ - ٢٨٢
(٧) ماس: تيس؛ تبخر.
(٨) الكفل: العجز. والرّداح: الثقبيلة الأوراك.
(٩) الارتياح: النشاط والرحمة.
(١٠) الشميط: الذي خالط سواده بياض.
(١١) اللّفاء: الملتفة الختمعة.
(١٢) الأقاح جمع الأقحوان: نوع من الأراهير، تشبه به الزهور، والأسنان.

- وقال يَنْدُبُ مَعَاهِدَ الشَّبَابِ، وَيَتَوَجَّعُ لَوْفَاةِ الْإِخْوَانِ وَالْأَتْرَابِ، بِعَقَبِ سَيْلٍ عَفَا الدِّيَارَ وَمَحَا الْآثَارَ*:

- ١ - أَلَا عَرَّسَ الْإِخْوَانُ فِي سَاحَةِ الْبَلَى
- ٢ - فَدَمَعُ كَمَا سَحَّ الْغَمَامُ وَلَوْعَةُ
- ٣ - إِذَا اسْتَوْقَفْتَنِي فِي الدِّيَارِ عَشِيَّةً
- ٤ - أَكْرُبُ بِطَرْفِي فِي مَعَاهِدِ فِتْيَةٍ
- ٥ - فَطَالَ وَقُوفِي بَيْنَ وَجْدٍ وَزَفَرَةٍ
- ٦ - وَقَدْ دَرَسْتَ أَجْسَامَهُمْ وَدِيَارَهُمْ
- ٧ - وَحَسْبِي شَجْوًا أَنْ أَرَى الدَّارَ بَلْقَعًا

- وَمَا رَفَعُوا غَيْرَ الْقُبُورِ قَبَابًا^(١)
- كَمَا ضَرَبَتْ رِيحُ الشَّمَالِ شِهَابًا^(٢)
- تَلَدَّتْ فِيهَا جِيئةً وَذَهَابًا^(٣)
- تَكَلَّتُهُمْ بِيضُ الرُّجُودِ شَبَابًا
- أُنَادِي رُسُومًا لَا تُحِيرُ جَوَابًا^(٤)
- فَلَمْ أَرَ إِلَّا أَقْبَرًا وَيَابَا^(٥)
- خَلَاءً وَأَشْلَاءَ الصَّدِيقِ تُرَابًا^(٦)

- وقال، وَأَعَدَّهَا لَتُكْتَبَ عَلَى قَبْرِه*:

- ١ - خَلِيلِي هَلْ مِنْ وَقْفَةٍ لَتَأْلَمِ
- ٢ - خَلِيلِي هَلْ بَعْدَ الرَّدَى مِنْ ثَنِيَّةٍ
- ٣ - وَإِنَّا حِينَا أَوْ رَدِينَا لِإِخْوَةٍ
- ٤ - وَمَاذَا عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ مُحْيِيًا
- ٥ - وَفَاءً لِأَشْلَاءٍ كَرُمْنَ عَلَى الْبَلَى

- عَلَى جَدَثِي أَوْ نَظْرَةٍ لِتَرَحُّمِ
- وَهَلْ بَعْدَ بَطْنِ الْأَرْضِ دَارُ مُحَيِّمٍ^(٧)
- فَمَنْ مَرَّ بِي مِنْ مُسْلِمٍ فَلْيُسَلِّمْ
- أَلَا عِمَّ صَبَاحًا أَوْ يَقُولَ أَلَا اسْلَمْ
- فَعَا جَ عَلَيْهَا مِنْ رُفَاتٍ وَأَعْظَمِ^(٨)

* القصيدة في الديوان ١٧٧ - ١٧٨

(١) عَرَّسَ: نَزَلَ لَيْلًا.
(٢) سَحَّ الْمَطَرُ: انْصَبَ.
(٣) تَلَدَّتْ: تَلَفَّتْ بَيْنًا وَشِمَالًا، وَتَلَدَّتْ أَيْضًا: تَحَيَّرَ.
(٤) لَا تُحِيرُ جَوَابًا: لَا تَرُدُّ جَوَابًا.
(٥) دَرَسَتْ: انْمَحَتْ آثَارُهَا. وَالْيَابَ: الْخَرَابُ.
(٦) الشَّجْوُ: الْحُزْنُ وَالنَّهَمُ. وَالْبَلْقَعُ: الْبَلْدُ الْقَفْرُ.

* الأبيات في الديوان ٣٦٣

(٧) الثَّنِيَّةُ: الطَّرِيقُ فِي الْجَبَلِ. وَدَارُ مُحَيِّمٍ: دَارُ مُقَامٍ، وَأَصْلُهُ مِنْ قَوْلِهِمْ حَيِّمَ الْقَوْمِ إِذَا نَصَبُوا خِيَامَهُمْ.
(٨) عَا جَ عَلَى الْمَكَانِ: مَرَّ بِهِ، وَعَظَفَ رَأْسَ بَعِيرِهِ إِلَيْهِ.

ابن أبي الخصال^(١)

١ - أبو عبد الله محمد بن مسعود بن خلصة الغافقي، المشهور بابن أبي الخصال. والغافقي نسبة عربية إلى غافق. وأسرته من قرية فرغلط من جهة شقورة التابعة لمدينة جيان. ولد في قريته سنة (٤٦٥ هـ) في أسرة علمية مشهورة. وقد ظهر من أسرته الصغيرة: هو، وأخوه أبو مروان وأخوه الثالث أبو جعفر. وقد انتقل بعد مدة إلى قرطبة، ونجد كتب التراجم تنسبه إلى أصله (الفرغلطي الشقوري) أو إلى سكنه (القرطبي).

وابن أبي الخصال أحد أعلام القرن الخامس والسادس: ثقافة، وعلماء، وكتابة، وشعراً، وإدارة، وصلة بالعلماء والأدباء تأثراً بمن سبق وتأثيراً بمن لحق.

برع ابن أبي الخصال في فن الكتابة، وكتب لكثير من الأمراء والولاة والحكام، ومن كتب لهم أمير المسلمين وزعيم دولة المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين. وتنقل في خدمته بين الأندلس والمغرب (فقد كان القطران دولة موحدة) ومن المدن التي خدم فيها: قرطبة، وبلنسية، وسرقسطة، وفاس، وسبتة...

وامتدت حياة ابن أبي الخصال إلى سنة (٥٤٠ هـ) حيث قتل على يد بعض الجنود - وهم لا يعرفونه - مع ابن أخته عبد الله بن عبد العزيز.

(١) قلائد العقيان ١٩٩، والمعجم في شيوخ الصدي ١٤٤، والمغرب ٦٦/٢، والمطرب ١٨٧، وبغية المتمس ١٢١، والخريدة (قسم الأندلس) ٤٥٩/٢، والإحاطة ٢٦٤/٢، والمعجب ١٢٤، وبغية الرعاة ١٠٤

- ولنا عليه دراسة: (ابن أبي الخصال).

٢ - يعدّ ابن أبي الخصال مثلاً جيّداً للمثقف الأندلسي في زمانه. فقد أخذ عن شيوخ كبار في علوم شتى: في العلوم الشرعية - وخصوصاً علوم الحديث النبوي -، وفي علوم اللغة، وفي الدراسات الأدبية.

وأجمل ابن بشكوال صورة الرجل بعبارة موجزة فقال: «كان مفخرة وقته وجمال جماعته: حسن العشرة، واسع المبرّة، من أهل الخصال الباهرة، والأذهان الثاقبة، فصيح اللسان، حسن البيان، جلو الكلام، أحد رجال الكمال؛ وله تأليف حسان»^(١).

ولخصّ د. شوقي ضيف معالم شخصيته، ومجال إبداعه الأدبي، ووصل بين ثقافته وعلومه من جهة وبين إبداعه في كتابته وتأليفه فقال^(٢): إنه درس على شيوخ الأندلس عامة وشيوخ قرطبة خاصة، ونهل من حلقاتهم ما جعله متفنناً في العلوم مستبحراً في الآداب واللغات، عالماً بالأخبار ومعاني الحديث والآثار والسير والأشعار..

٣ - ومن آثاره الباقية ديوان كبير^(٣) فيه: من آثاره النثرية والشعرية، رسائل ديوانية، ورسائل إخوانية، ومقامات، وخطب، ورسائل نبوية، وقصائد متفرقة، ومعارضة لبعض مؤلفات المعري.

(١) معارضة (ملقى السبيل) لأبي العلاء المعري:

و (ملقى السبيل) رسالة قصيرة للمعري رتبها على حروف المعجم. وفي كل حرف يورد شيئاً من النثر ويردّفه بشيء من الشعر، وهكذا حتى يستوفي الحروف كلّها.

(١) الصلّة (الترجمة ١١٨٧).

(٢) الأندلس ٤٠٩.

(٣) بقي منه مخطوطة وحيدة ناقصة، طبعت بعنوان (رسائل ابن أبي الخصال) حقق الكتاب د. محمد رضوان الداية، ونشرته دار الفكر بدمشق: ١٩٨٧ م.

وهو في كل حرف يلتزم السجع بالحرف نفسه، وتكون قافية الشعر على الحرف نفسه أيضاً.

ومن ذلك قول ابن أبي الخصال في حرف الراء^(١):

الحازم إذا ورد صدر، وإذا رأى فرصة ابتدر؛ لا يعاف الكدر ولا يُسخطُ
القدر، ويعفو إن قدر.

لله من لم تنم حزامته	مهما يرد في ملمة صدرا
إذا رأى فرصة قد ابتدرت	قام لها في الركاب وابتدرا
وليس شيء إليه من كرم	أحب من عفوه إذا قدرا
يؤثر بالصفو ذا مودته	عن طيب نفس ويشرب الكدرا
إن جرّ ما لا يريده قدر	أبدى رضاه وأكرم القدرا

(٢) من شعره النبوي في آخر رسالة كتب بها إلى مقام رسول الله ﷺ، على نسق الرسالة التي أوردناها، غير أنّ هذه الرسالة التي نختار منها قد ذُلت بعدد من القصائد الشعرية في الغرض نفسه^(٢).

قال:

يا رسول الإله هل	أنا في الركب مُغتدي؟
ليت شعري تلهّفاً	من شج عنك مُبْعِد
هل أقولن لمقلتي	وهي بالدمع ترتدي
والسرى قد رمت بها	في حمى ذلك الندي
اجزعي أو تجلّدي	هذه دار أحمدي
هذه تربة الهدا	فضيلي أو اهتدي!
أين دعواك في الهوى	اصدري عنه أو ردي ^(٣)

(١) رسائل ابن أبي الخصال: ٣٧٥ - ٣٧٦

(٢) القصيدة في رسائل ابن أبي الخصال ٣٩٥

(٣) ردي فعل أمر من (ورد). والشعر يجري على مقصد تحدي النفس والتلوم الذاتي.

ربّ دمسجٍ أرقّته في ظلال وفي دد^(١)
 وسوامٍ سرّحته في حمى الله مُغْتَد^(٢)
 لستَ مني ولستَ من لكِ متى خنت موْعدي
 فاستمدّي حُرّ الدُّمو ع من القلب تُمدّدي
 وانضحني عنك ما مضى واغسلي اليوم بالغدا!

- وهذه رسالة إخوانية كتبها ابن أبي الخصال، وهي رسالة جوابية عن رسالة لأحد أصدقائه يُخبره بوصولها؛ وبدأها بأربعة أبيات من الشعر، استهللاً للغرض المقصود، وجمعاً بين الشعر والنثر^(٣):

أيها الساطع نشراً وأرج كيف يستأذنها مَنْ قد وَلَجَ؟^(٤)
 كيف يستأذن مَنْ مَسْكَنَهُ في عُيونٍ ونفوسٍ ومُهَجَ؟
 ما على المسك ولا البدر ولا الص بَح من إذنٍ إذا الصَّبَحُ انْبَلَجَ
 إنّما أنتَ متى تُهدي شذى في سنى القلب والروح امتزج!

وافتني لسَيدي وظهيري - لا زالت همّته تعلو الهمم وتَفُوتُها^(٥)، ونفاسُته تغزو النفوس وتَقُوتُها - رفعةٌ خلع عليها سناه، وعُنيت بحوكها يُمناه؛ فجاءت كالحلّة يضاحك الشمس إبريزها^(٦)، ويحاسنُ الرّوضَ تَفْويفُها وتطريزها^(٧): بدائع ينحط عن ذروتها البديع^(٨)، ويقتبس من جذوتها الأشقر الصّديع^(٩).

(١) الدد: اللهو واللعب.

(٢) السّوام جمع السّائمة: كل إبل أو ماشية تُرسل للرّعي (ولا تُعلف).

(٣) رسائل ابن أبي الخصال ٤١٥ - ٤١٧.

(٤) الأرج: الرائحة العطرة.

(٥) تفوتها: تسبقها.

(٦) الإبريز من الذهب: الخالص.

(٧) المفوّف من الثياب: الرقيق أو ما فيه خيوط بيض.

(٨) يعني بديع الزمان الهمداني: الكاتب، صاحب المقامات.

(٩) الأشقر الصّديع: الفجر.

سامرها الأدب مُعِينَا، وخامرها الطَّبْعُ مَعِينَا، فجَلَّاهَا حُوراً عِينَا. فَلَله طِرْسُكَ
وما نَسَق، وبرُّكَ لَقْدَ عَلا وَبَسَق.

وأهلاً بك من عَرِيقِ سَبَق، وسَلِيلِ خَطِّي صدق؛ لَشَدَّ ما اسْتُولِيتَ على
مداك، واستُولِيتَ إلى سَمَاءِ مُتَّداك، وَتَقَيَّلْتَ أَبَاكَ^(١)، وَطَعَنْتَ في ثَغْرِ النَحُورِ
عَدَاكَ. وَ لَعَا لَكَ^(٢) مِنْ مُنْتَمٍ إلى سَابِقٍ لَمْ يَلْحَقْهُ عَثَارٌ، وَلَا شُقَّ لَهُ غِبَارٌ. لَا
تُرْعَ! فَمِنْ الشَّعَابِ تَحْتَفِلُ فَتَزْخُرُ الْأَنْهَارُ؛ وَأَوَّلُ قَرَحِ الْخَيْلِ الْمَهَارُ^(٣). وَحَبَّذا
مَنْتَمَاكَ! لَقَدْ ذَكَرَ جَوَاراً، وَحَرَّكَ مِنْ عَهْدِنَا الْمَاضِي حُوراً^(٤). لَا جَرْمٌ! إِنْ
عَهْدِي لَكَ نَاضِرٌ، وَإِنَّهُ بِكَ عَلَى الْغَيْبَةِ الْقَصِيَّةِ حَاضِرٌ. وَيَا مَاءُ مِنْ أَنْبَاكَ أَنِّي
صَادٍ^(٥)، وَيَا صُبْحُ قَدْ كَانَتْ عَيْنِي لَكَ بِمَرْصَادٍ. وَمُحَالٌّ أَنْ يَسْتَأْذِنَ عَلَى النَّفْسِ
مَنَاها، وَعَلَى الْكَبْدِ الْحَرَّى رِيَّها وَبُشْرَاهَا، وَعَلَى الْعَيْنِ السَّاهِرَةِ كَرَاهَا وَسَنَاها:

أَنْتَ الْكَرَى مُؤْنَساً عَيْنِي وَبَعْضُهُمْ مَثَلُ الْقَذَى مَانِعاً عَيْنِي مِنَ الْوَسَنِ

- وَرَعَى اللَّهُ دَاعِياً إِلَى الْبِرِّ دَعَا، وَرَحِمَ مَنْ نَبَتَ عَلَى دِمْنَتِهِ الْمَرْعَى^(٦).

- وَأَقْرَأَ عَلَيْكَ سَلاماً هُوَ الْمِسْكُ فَتِيَّتَا، وَالْدَرَّ نَظِيماً وَشَتِيَّتَا، يُوَالِيكَ مَقِيلاً
وَمَبِيَّتَا، وَيَطَاوِلُكَ الْعُمَرُ كَرِيَّتَا^(٧)؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ.

وَلَهُ مِنْ رِسَالَةِ زُرْزُورِيَّةَ^(٨) :

«.... إِيَّيَّ - لَعَمْرِي - قَصْدُ كُلِّ عَجِيْبَةٍ، وَمَنِي اسْتِفَادَ النَّاسُ كُلِّ غَرِيْبَةٍ؛

(١) تَقَيَّلَ أَبَاهُ: أَشْبَهَهُ وَعَمَلَ عَمَلَهُ.

(٢) «لَعَا لَكَ» عِبَارَةٌ تَقَالُ لِلْعَاثِرِ إِعَانَةً لَهُ.

(٣) الْقُرْحُ مِنَ الْخَيْلِ: مَا بَلَغَ خَمْسَ سَنَوَاتٍ (جَمْعُ قَارِحٍ) وَالْمَهَارُ جَمْعُ الْكَثْرَةِ لِلْمَهْرِ.

(٤) الْعِبَارَةُ تَذَكُّرُ بِقَوْلِ ابْنِ زَيْدُونَ:

لَا يَكُنْ عَهْدِي لَكَ وَرَدَاً إِنْ عَهْدِي لَكَ آسُ

(انْظُرِ الْقَصِيدَةَ فِي مَكَانِهَا مِنْ هَذَا الْكِتَابِ).

(٥) صَادٍ: اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ صَدَيْ بِمَعْنَى: عَطَشَ.

(٦) الدَّمْنَةُ: آثَارُ الدَّارِ وَالنَّاسِ. وَتُسْتَحْدَمُ لِمَعْنَى الْقَبْرِ. وَانْظُرِ الْمَقَامَةَ الْبَغْدَادِيَّةَ لِبَدِيعِ الزَّمَانِ الْهَمْدَانِي فِي

قَوْلِ عِبَارَةِ ثَمَّةَ «قَدْ نَبَتَ الرَّبِيعُ عَلَى دِمْنَتِهِ».

(٧) الْكَرِيْتُ مِنَ السَّنِينِ وَالشُّهُورِ وَالْأَيَّامِ: التَّامُّ.

(٨) رِسَائِلُ ابْنِ أَبِي الْخَصَالِ ٣٣٤ - ٣٣٥؛ وَانْظُرِ (الرِّسَائِلَ الزُّرْزُورِيَّةَ) فِي الْفَصْلِ الثَّلَاثِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ.

فاشكروا الله كما هداكم للخير، وعَلِّمكم منطق الطير، فها أنتم تزجرون
سنيحها^(١)، وتفقهون تسبيحها!

لعلك امْتَرَيْتَ^(٢) وقلت: زور ما حكيت. كلاً، ما هو زور إنما هو زرزور.
عليه الليل مزرور. رشتة النجوم بأندائها، وذرت عليه من صفائها. فهو مُنَمَّمُ
الدَّوَّاجِ^(٣) بديع الائتلاف والازدواج، يياسطكم البعيد والقريب، ويطارحكم
المُسْتَعْمَل والغريب. يلقطُ الإحسانَ حَبًّا، ويُضْمِرُه حَبًّا، ويلفظه لؤلؤاً حَبًّا.

لا جَرَمَ! أنه سابقُ الحبشة، المصلِّي بعد أنجشِه. يحدو القلوب إلى تقاها،
وينفث على الذنوب برِّقاها، ويكحلُّ العيون بألذَّ من كراها، ويسري إلى
الأرواح بالطف من سُراها، بنغمةٍ تغني عن الزمر وتعديل حلاوة النهي والأمر،
فالأيام معه أنس وأجر، والليالي شفقٌ وفجر...».

وفي أثناء الرسالة الزرزورية عدد من القطع والقصائد الشعرية تتناسق مع
الرسالة، وتخدم غرضها العام، ومن ذلك قوله في هذه الرسالة:

هل كنتَ تَعْلَمُ قَبْلَ اليومِ زرزورا	يهدي لك السَّحر منظوماً ومنتورا
منغم الصوت من يأذنُ لنغمته	لم يقترح بعدها بَمَّاً ولا زيراً ^(٤)
من أين أُقْصَى ولي فيها كلَّ قاصية	شدو تركتُ به المحزون مسرورا
وربَّ مولىً جميل قد سجعت به	وكان لولا افتضاح الشكر مستورا
وليلة كحلت مني نواظِرَها	بحكمة ملأت أجفانها نورا
كفأتُ ظلماءها مني بساطعة	شقتُ عن الصبح جيباً كان مزرورا ^(٥)
لله تلك! فكم من أنفُسٍ ربقتُ	وأعين غادرتُها نحوها صُورا ^(٦)

(١) زجر الطير: أثارها ليتيمَّن بسنوحها أو يتشاعم ببروحها. والسنيح الطائر الذي يمر من مياسرك إلى ميامنك.

(٢) امترى: شك.

(٣) الدواج - بتشديد الواو وتسهيلها - نوع من الثياب. استعاره الكاتب لريش الزرزور.

(٤) البَمّ والزير: من أوتار العود.

(٥) كفأها: طردها.

(٦) ربقه: ربطه. وصُور: مائلة.

ذخيرة حبّاتها الصّالحات لكم
مهلاً! فما نحن إلا مثلكم أمم
تغدو حِمَاصاً لأرزاق مقدّرة
من كل أرقط عنوان السّجود به
ما زال مُغرئ بئر البرّ يكرمه
إذا نثرت له حبّاً تتبّعهُ
والعلقُ ما زال مخبوءاً ومذخوراً^(١)
تسبح الله تغريداً وتصفيراً^(٢)
فتقتضي فضل رزق الله موفوراً^(٣)
يقطّع الليل توشيحاً وتكفيراً^(٤)
إذا غدا البرّ مجفّواً ومهجوراً
لقطاً، وأودعه صدراً وتاموراً!^(٥)

- في رسائل ابن أبي الخصال رسالة أدبية ردّ فيها على رسالة كتبها أحد معاصريه، وهو أبو محمد عبد الله بن محمد بن القاسم الفهري. كان من أسرة حكمت حصن البونت في مدة الطوائف إلى أن ضمه المرابطون في حركة توحيد الأندلس سنة (٤٨٥ هـ).

وكان ابن القاسم قد كتب رسالة قصيرة يفضّل فيها بديع الزمان الهمداني (صاحب المقامات) على أبي إسحاق الصّابي. فانتصر ابن أبي الخصال لأبي إسحاق وفضّل أسلوبه بخصائصه المختلفة على أسلوب بديع الزمان، وهو تفضيل للأسلوب المرسل الذي لا يطغى عليه السّجع، ولا تُثقله المحسنات.

بدأ ابن أبي الخصال رسالته بتحية ابن القاسم، ومحاورته في أصول متبعة لا بدّ منها عند التصدي للمفاضلة أو لإطلاق حكم من الأحكام. وأشار إلى رسالة ابن القاسم، ومضمونها، فأثنى عليه، وبيّن في الوقت نفسه رأيه، وقال له: إنه ظلم أبا إسحاق الصّابي:

(١) العلق: النّفس.

(٢) في البيت إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ [الأنعام ١٥٩/٦].

(٣) إشارة إلى الحديث: «... يرزقكم كما يرزق الطير تغدو حِمَاصاً وتروحُ بطاناً...».

(٤) الأرقط: ما كان في لونه سواد يشوبه نقط بياض. والإشارة إلى الزرّور.

(٥) التامور: القلب.

«.. ووقفت لك منذ أيام على نفثاتٍ غُرٍّ، وكلام بين الصابي والبديع حُرٍّ: عال تناوله خاطرك من علو، ووقعت طير القلوب منه على ثمر حلو. لكنك - والله يغفر لك - جرّعت الصابي منه صاباً، وملأت صدور شيعه أوصاباً؛ فهم بين جموع منفضة، ودُموع مرفضة، ونواظر كليلة، وخواطر فليلة. ينظرون من طرف خفيّ، ويتظلمون منك من برّ حفيّ، لا يستقلّ لهم لواء، ولا يرتدّ إليهم طرْفهم وأفئدتهم هواء!

مهلاً! فذاك الأقوام، ولا عداك القصْدُ والقوام. فالقضاء جدّ عسير، والخطب - وإن اجتهدتَ - غير يسير. وإذا استقداك هواك فلا تهّم، وإذا نظرت بعين رضاك فاتهم. فالموازنة كالمبارزة إنما تكون بالوفاء، ومقارعة الأكفاء بالأكفاء... .. وأبو الفضل وإن كان - كما سمي - بديعاً، ولأخلاف البلاغة رضيعاً لا يقاس بأبي إسحاق رأساً ولا يجعل له سلماً ولا بأساً. لأنهما وإن جمعهما أصل اللسان ومزاولة الإحسان كالثريا وسهيل لا يلتقيان، ولا يشتبهان فيما ينتقيان. أبو إسحاق معيّن القول، مُقدّم على الهول...»^(١).

- ومن رسائل ابن أبي الخصال* النبوية، الموصولة الغرض بالنظر إلى المشاعر المقدسة في الديار الحجازية:

إلى الرؤوف الرحيم، الرسول الكريم، ذي الخلق العظيم، والحسب الصّميم؛ والصّفح الجميل، والمَنّ المُوَفّي على التّأميل. صريح الصّريح، ورقوء^(٢) دم الذّبيح، المخصوص بالمقام المحمود، والحوض المورود؛

(١) النص بتمامه - وهو طويل - في رسائل ابن أبي الخصال ١٤٠ - ١٥٦

- وانظر دراسة عنه في تاريخ النقد الأدبي في الأندلس - ط ٢ - مؤسسة الرسالة.

* رسالة بعث بها الكاتب، مع قاصدٍ حاجّ إلى الدّيار المقدّسة يُبدي فيها أشواقه إلى الحرمين الشّرفين ودعائه الله تعالى أن يسّر له أداء الفريضة والصّلاة في الحرم النبويّ، وأداء مناسك الحجّ والعُمرة.

وقد أكثر الأندلسيون من توجيه مثل هذه الرّسائل، والالتفات بالخطاب إلى مقام رسول الله ﷺ.

(٢) الرّقوء بضمّ الرّاء: مصدر رقأ (الدمع والدم) إذا جفّ. والرّقوء (بفتح الرّاء): دواء يُوضع على الدم فيسكن. ويقال: فلان رَقُوء بين القوم: أي مُصلح.

وخطيب الأنبياء، وإمامهم في اليوم المشهود. المكين الأمين الذي ليس «على الغيب بضنين»^(١). النازل عن خير الظهور إلى خير البطون. والمتردد من الأب الأقصى إلى الأب الأدنى بين كل مصونة ومصون. الذي تسلمه الآتي عن الماضي أمانة حملها من كل سلف خياره^(٢)، ونوراً عرفت في جباه السؤدد سيماء وآثاره؛ إلى أن أذن الله سبحانه فظهرت أسرار الكامنة، وأدته إليه صلوات الله عليه الطاهرة آمنة. الذي «جعلت له الأرض مسجداً وطهوراً»^(٣)، وأجلت له الغنائم، وكانت «حجراً محجوراً»^(٤) و «نصيراً بالرعب»^(٥) سنين وشهوراً^(٦). وأوتي «جوامع الكلم»^(٧) فانتظمت لفظته سطوراً. وبعث «إلى الأحمر والأسود»^(٨) فضلاً كان له مذكوراً. ونسخت بملكته الملل: إما مؤمناً وإما كفوراً. وأنزل عليه الفرقان هدىً ونوراً. فأحيا نفوساً وشفى صدوراً. الذي وجبت نبوته وسير الغيب عليه منسدل. وآدم - صلوات الله عليه - في طينته منجدل. لبنة التمام التي انعقد بها التأسيس، وقيمة النظام التي ادخر لها الوضع النفيس؛ إمام وفد الرحمن وفرط وراد^(٩) الإيمان. الذي نكلت عن بسالته

(١) ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير ٨١/٢٤].

(٢) إشارة إلى ما روي عن النبي ﷺ، وأنه «خيار من خيار من خيار».

(٣) روى الإمام أحمد (المسند ٣٠١/١) من حديث ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يُعْطَهُنَّ نبي قبلي ولا أقولهنَّ فخراً: بُعثت إلى الناس كافة: الأحمر والأسود، ونصرت بالرعب مسيرة شهر، وأجلت لي الغنائم، لم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأعطيت الشفاعة، فأخرتها لأمتي، فهي لمن لا يشرك بالله شيئاً».

(٤) من الآية ٥٣ من سورة الفرقان ٢٥. وحجراً محجوراً: أي حرام ممنوعة.

(٥) من حديث أنس رضي الله عنه: «أعطيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً». (ورواه الإمام أحمد في مسنده ١٧٢/٢) من حديث عبد الله بن عمرو: «أوتيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعها...».

(٦) روى الإمام أحمد في مسنده (١٤٩/٤) من حديث عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ خرج يوماً فصلّى على أهل أحد صلاته على الميت ثم انصرف إلى المنبر فقال: «إني فرط لكم وإني شهيدٌ عليكم، وإني والله لأنظر إلى الحوض...» إلى آخر الحديث.

- وفي النهاية (٣٣٤/٣) من الحديث: «أنا فرطكم على الحوض» أي متقدمكم إليه، يقال: فرط يفرط... فهو فرط إذا تقدّم وسبق القوم ليرتاد لهم الماء....

الضَّراء^(١)، وسلَّمتْ له في الخَفَرِ العَذراء. واغترفت لواقح الرِّياح ليمينه، واغترفت لوائح الصِّباح من نُورِ جبينه. الآخذ بالحُجرات^(٢)، الوارد بالمُعجزات. الَّذي سلَّم عليه الحَجَرُ^(٣) والتَّأَمَّ إليه الشَّجر، وانشقَّ لبرهانه القمر، وحنَّ إلى حضرة الجذع المُنقَعِر. وأنبأه بسورته السَّمُ المُستَعِر^(٤). ونَبَعَ من أنامله الماء، وأجابت بدعوته ثم انجابت السَّماء: أبي القاسم خيرة الخير، وسيد البشر، المُصطفى من أكرم العِتر^(٥)، جاشم المَجاشم، وذؤابة هاشم. هامة العرب، ومُنتهى مَجْد الأبعد والأقرب. الحاشِر العاقِب، ذي المَجْد الثَّاقِب، وزُهر المآثر والمناقب. الَّذي فاز المُحْسِنون بطاعته واستنقذ المُذنبون بشفاعته. صَلَّى اللهُ عليه، حساب كرامته لديه، وكِفَاء ما يُدني منه ويُقَرِّبُ إليه. مِن عَتِيقه المعلن بتصديقه، الدَّاعي في قُربه، المُستَشْفِي بريح تُربه المُستَشْفِع به إلى رَبِّه، المؤمن بما آمَن به، من رسله وكتبه: فلان بن فلان.

كتبته يا واضع الإصر والأغلال، ورافع رايات الهدى على الضَّلال، ومُبدلنا بالظُّلِّ من الحرُّور^(٦) ومُخرِجنا «من الظُّلمات إلى النُّور»^(٧) ومُرُوننا من الرِّحيق المختوم^(٨)، والحوُض الَّذي آنيته بعدد النُّجوم. ومُحظينا بالنظر إلى الحيِّ القيوم؛ عن دمع يسفح، ونفس يلفح، وصدرٍ بأشواقه ملآن يطفح، وعرفٍ عليك من

(١) الضَّراء جمع الضرو، وهو الضَّاري من السَّباع.

(٢) في مسند الإمام أحمد (٤٢٤/١) من حديث ابن مسعود «... ألا وإني ممسكٌ بحجزكم أن تهافتوا في النار كتهافت الفراش والذُّباب...».

(٣) في هذه العبارة وفيما يتلوها يراجع (الشفاء للقاضي عياض) الباب الرابع في خصائصه ﷺ وكراماته، ٤٧٩/١ وما بعدها.

(٤) السُّورة: الحِدة. والمُستعر: من استعرت النار: التَّهتت واتَّقدت.

(٥) العِترَةُ: نسل الرِّجل وأقرباؤه من ولد غيره، أو ولده وذريته وعقبه من صلبه أو رهطه وعشيرته الأذنون ممَّن مضى وغير.

(٦) إشارة الآية الكريمة ٢١ من سورة فاطر ٣٥

(٧) اقتباس من الآية الكريمة ٢٥٧ من البقرة ٢

(٨) إشارة إلى الآية الكريمة ٢٥٠ من سورة المطففين ٨٣

الصَّلَاةِ والتَّسْلِيمِ يَنْفَحْ؛ وَأَسْفِ إِلَيْكَ يَتَلَهَّبُ، وَزَفْرَةَ بِأَحْنَاءِ الضُّلُوعِ تَجِيءُ
وَتَذْهَبُ، وَحُشَّاشَةٌ بِعَوَائِقِ الْبُعْدِ عَنْكَ تُنْهَبُ.

وَكَيْفَ لَا أَقْضِي حُزْنَ، وَلَا أُرْسِلُ دُمُوعَ الْوَجْدِ وَالتَّلَهُّفِ مُزْنًا؟ أَمْ كَيْفَ أَلْذُّ
حَيَاةً، وَأَوْمِلُ نَجَاةً؟ وَلَمْ أَغْبُرْ إِلَى زِيَارَتِكَ لُجَّةً، وَلَا مَوْمَاةً؛ وَلَا أَخْطَرْتُ فِي
قَصْدِكَ نَفْسًا أَنْتَ مُنْقِذُهَا وَمُحْيِيهَا، وَلَا مَثَلْتُ بِمَعَاهِدِكَ الْمَشْهَدَةَ، وَمَشَاهِدَكَ
الْمُطَهَّرَةَ أُحْيِيهَا. وَلَا نَزَلْتُ عَنِ الْكُورِ^(١) كَرَامَةً لِلْبُقْعَةِ الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي ثَوَّيْتُ فِيهَا.

فَوَا أَسْفَا أَلَّا أُحِبَّ (٢) إِلَى ذَرَاكَ (٣) مُسْتَقْبَلًا، وَأَلَّا أُكِبَّ عَلَى ثَرَاكَ مُقْبَلًا،
وَأَلَّا أَصَافِحُ مِنْ تِلْكَ الْعَرَصَاتِ مَدَارِسَ الْآيَاتِ (٤)، وَمَهْبِطَ الْوَحْيِ وَالْمُنَاجَاةِ.
حَيْثُ قُضِيَ فَرَضُ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ، حَيْثُ انْتَشَرَ التَّنْزِيلُ، وَسَفَرَ بِالْوَحْيِ
جَبْرِيلُ، وَبَرَزَتْ خَبِيَّةُ الدَّهْرِ، وَأُوْثِرَتْ بَلِيلَةُ «خَيْرٍ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ» أَسْفَا لَا يَعْفُو
رَسْمُهُ، وَلَا يَمْحُو نَدْبُهُ وَوَسْمُهُ إِلَّا الْوَقُوفُ بِحَرَمِ اللَّهِ وَحَرَمِكَ، وَالتَّوَسُّلُ هُنَاكَ
إِلَى كَرَمِهِ بِكَرَمِكَ.

اللَّهُمَّ كَمَا جَعَلْتَنِي مِنْ أُمَّتِهِ، وَاسْتَعْمَلْتَنِي بِسُنَّتِهِ؛ وَشَوَّقْتَنِي إِلَى آثَارِهِ، وَشَغَلْتَ
قَلْبِي بِتَخِيلِهِ وَتَذْكَارِهِ؛ وَأَرَيْتَنِي تِلْكَ الْمَعَالِمَ الْمُنِيفَةَ خِيَالًا، وَخَطَطْتَ مِنْهَا فِي
الضَّمِيرِ مِثَالًا؛ وَأَشْهَدْتَنِيهَا مِلْءَ السَّمْعِ وَالْفُؤَادِ جَمَالًا: فَاشْفِ بِمَرَأَاهَا بَصَرًا
ضَرِيرًا، وَاكْحَلْهُ بِسِنَاهَا «يَرْتَدِّدُ بَصِيرًا». وَاجْعَلْ لِي فِيهَا مُعْرَسًا وَمَقِيلًا. وَضَعُ
عَنِّي مِنْ شَوْقِهَا إِصْرًا ثَقِيلًا.

اللَّهُمَّ يَسِّرْ لِي إِلَى قَصْدِهِ، وَأَعِدْ لِي بِالْقُرْبِ عَلَى بُعْدِهِ، وَاعْمُرْ بِي مَا بَيْنَ قَبْرِهِ
وَمَنْبَرِهِ^(٥)، وَمَبْدَاهُ وَمَحْضَرُهُ، وَمُصَلَّاهُ وَمَنْحَرُهُ.

(١) الكور: رحل البعير أو الرَّحْلُ بأداته.

(٢) الحُب: نوعٌ من العُدْو.

(٣) الذَّرَا: الكنف.

(٤) في ديوان دعبل الخزاعي ٧١

مدارسُ آياتٍ خلَّتْ مِنْ تِلَاوَةٍ وَمَنْزِلٌ وَحْيٍ مَقْنَرِ الْعَرَصَاتِ

لَا لِرَسُولِ اللَّهِ بِالْخَيْفِ مِنْ مَنَى وَبِالرَّكْنِ وَالتَّعْرِيفِ وَالْجَمَرَاتِ

(٥) في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة».

اللهم شرفني بقضاء الفريضة، ومضاء في تلك الأرض الأريضة^(١) اللهم لا تحرمني طيب طيبة، وأنخ هذه الشيبة بياب بني شيبة^(٢) واغسلها هناك من ذنوبها وخطاياها، وفر من ثوابك الجزيل حظوظها وعطاياها، وعج إلى خاتم أنبيائك صدور مطاياها. وهب لي عزيمة من أطاع، وبسطة من استطاع، وادفع عني الضرر والضرورة؛ ولا تمنني جلس البيت ضرورة^(٣).

لو أوتيت يا رسول الله سُؤلي، لسبقت إليك كتابي ورُسولي، لكن قل الوفّر، واستقل^(٤) السفر، وغادروني حرّضاً^(٥) ولساهم الأسى والوجد غرضاً. أتبعهم نفساً لا يؤوب، وقلباً يستخفه القلق والثوب. وأتسبّت بهم تسبّت الأسير بالطلق، وأخطهم لحظ السقيم للمُفِيق، وأتعلّقُ تعلق الغريق. فلم أملك - يا رسول الله! - إلا رُقعة تشكو بثّ التبريح^(٦)، وتحية خفيفة المحمل طيبة الريح؛ تتأرج بأرجائك، وتندرج إلى قبولك ورجائك.

فأتوسّل بك يا رسول الله إلى مُصْطَفِيكَ بالرسالة والوسيلة^(٧)، ومختصّك بالدرجة الرفيعة والفضيلة، ومؤتمنك على إقامة حقّه، ومُبْتَعِثك بالهدى والنور إلى جميع خلقه؛ لیسعدني بجوارك، ويكرمني بخلول دار هجرتك وأنصارك، وأفرغ بعد حقوقه من حقوقك. وألم بصديقك وفاروقك، وأعرج على الصّهرين: أبي عمرو ذي النورين، وأبي السبطين الحسن والحسين. وأندب الشهيد المقتول، وأعزي الزهراء البتول^(٨).

(١) أرض أريضة: زكية.

(٢) باب بني شيبة هو باب السلام. ومنه يدخل الحاج أول ما يدخل إلى البيت الحرام، وتطالعه من ثمة الكعبة المشرفة.

(٣) جلس البيت: ملازمه. والضرورة: الذي لم يحج.

(٤) أي تحملوا وسافروا.

(٥) الحرّض: الكالُ المعنى، المضنى سقماً.

(٦) يقال: برّح به الشوق: جهده.

(٧) في حديث الأذان «اللهم آت محمداً الوسيلة...»: الوسيلة في الأصل ما يتوصّل به إلى الشيء ويُتقرب به وجمعها وسائل، والمراد به في الحديث: القرب من الله تعالى.

(٨) البتول: لقب فاطمة الزهراء لانقطاعها عن نساء زمانها فضلاً ودينياً وحسباً؛ أو لانقطاعها عن الدنيا.

وَأَقِفْ بِحَوَارِيكَ^(١) الْمَوْدُودِ وَأَسَدِ الْأُسُودِ، وَبَابِنِ عَبِيدِ اللَّهِ ذِي الْجُودِ وَالْفَضْلِ
الْمُبِينِ^(٢) وَبِالْأَمِينِ حَقِّ الْأَمِينِ^(٣) وَبِقَرِيعِي زُهْرَةَ فِي التَّقَى وَالِدَيْنِ^(٤) وَبِسَعِيدِ
ذِي^(٥) الْفَضْلِ الْمُبِينِ.

وَأَقْضِي حَقَّ الْأَمْهَاتِ، وَالْأَزْوَاجِ الطَّاهِرَاتِ، وَسَائِرِ أَهْلِ الْكَرَامَاتِ،
وَأَتَقَرَّرِ^(٦) مَنَازِلَ السُّعْدَاءِ، وَمَشْهَدَ سَيِّدِ الشُّهَدَاءِ^(٧). وَأَدْعُو رَبَّكَ فِي جَبَلِ
أَحْبَبَتِهِ^(٨) وَأَحَبِّكَ. وَأَحُطَّ بِوَارِثِ الرَّأْيِ وَالرَّأْيَةِ، وَصَاحِبِ السُّقْيَا وَالسَّقَايَةِ،
وَحَائِزِ الْعُقْبَى وَالْغَايَةِ^(٩). وَأَعْتَمِدْ عِصْمَةَ الْهَلَاكِ، وَأَبَا أَبِي الْأَمْلَاقِ حَبْرَ الْعِلْمِ
وَالْتَّوِيلِ وَفَاتِحَ أَغْلَاقِ التَّنْزِيلِ وَبَحْرَ الْوَدَى الْجَزِيلِ^(١٠).

طَالَعْتُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَنِيَّتِي، وَأَعْمَلْتُ فِي قَصْدِكَ أُمْنِيَّتِي، وَاسْتَأْنَسْتُ بِرَجَاءِ
يُعْمَلُ إِلَيْكَ مَطِيَّتِي، وَيَحُلُّ عِقَالَ عَزْمَتِي وَطِيَّتِي^(١١). وَغَيْرَ عَزِيزٍ عَلَيَّ مَنْ شَفَعَكَ
فِي الْقِيَامَةِ، وَأَقْطَعَكَ دَارَ الْمُقَامَةِ، وَأَعْطَاكَ لَوَاءَ الْحَمْدِ وَالْكَرَامَةِ: أَنْ يَجْمَعَ لِي
بِكَ بَيْنَ الشَّفَاعَتَيْنِ، وَيُؤْتِيَنِي فِي الدُّنْيَا بَلْقِيَاكَ وَفِي الْآخِرَةِ بِسُقْيَاكَ الْحُسْنَيْنِ.

اللَّهُمَّ بَلِّغْ عَنِّي الْمُبْلَغَ الْأَمِينِ، وَالرَّسُولَ الْقَوِيَّ الْمَكِينِ مَا أَظْهَرُهُ مِنْ مَحَبَّتِهِ
وَأَبْطَنُهُ، وَأُسِرُّهُ وَأُغْلِنُهُ، وَبَيِّنْ عَنِّي مَا لَا أَسْتَطِيعُ أُبَيِّنُهُ. اللَّهُمَّ اشْهَدْ بِصَلَاتِي عَلَيْهِ
وَسَلَامِي، وَمَحَبَّتِهِ فِيهِ وَإِلْمَامِي وَاشْدُدْ وَسِيلَتِي لَدَيْهِ وَذِمَامِي. وَصَلِّ اللَّهُمَّ عَلَيْهِ
وَعَلَى أَصْحَابِهِ أَعْلَامِ الْإِسْلَامِ وَمَصَابِيحِ الظَّلَامِ، وَعَلَى أَهْلِ قُرْبَاهِ وَمَنْ نَصَرَهُ

(١) حوارِي النبي ﷺ: الزبير بن العوام، رضي الله عنه.

(٢) طلحة بن عبيد الله أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، رضي الله عنه.

(٣) أمين الأمة: أبو عبيدة بن الجراح.

(٤) هما سعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف. ينتميان في بني زُهرة من قريش. رضي الله عنهما.

(٥) سعيد بن المسيب صهر أبي هريرة رضي الله عنه، وكان فقيه الفقهاء في زمانه.

(٦) أَتَقَرَّرُ: أَتَتَّبِعُ.

(٧) سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ: حمزة بن عبد المطلب، ودفن حيثُ اسْتُشْهِدَ عِنْدَ أُحُدٍ، رضي الله عنه.

(٨) إشارة إلى الحديث عن جبل أحد: «هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنَحْبُهُ» (مسند أحمد ٣/٣٤٠).

(٩) يعني العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، رضي الله عنه.

(١٠) هو عبد الله بن عباس، حبر الأمة، رضي الله عنه.

(١١) الطِّبَةُ: المنزل الذي تنتويه.

وآواه وعلى أزواجه الصّالحات الصّابرات السّائحات^(١) صلاةً تباري وتُفّاوحُ
 ثناءهم وتُعادي وتُراوحُ فناءهم: يتضوّعُ شذاها بقُبورهم، ويسطّعُ نشرها
 عليهم، إلى يومِ نشورهم، مشفوعاً عبّقها بالدّوام والتّمام إلى دار السّلام.

ثمّ سلامُ الله عدّد خلقه، ورضى نفسه، على نبي رحمته، ووليّ عصمته،
 المخصوص بتمام نعمته المكين عند ربّه، المَغفُور له ما تقدّم وما تأخّر من ذنبه؛
 ورحمةُ الله وبركاته، وأنهاره وجنّاته، وروحه وريحانه، ومغفرته ورضوانه،
 صلّى الله عليه وسلّم.

(١) السّائح: الصّائم، الملازم للمسجد (والعبادة).

أبو البقاء الرندي^(١)

(٦٠١ هـ - ٦٨٤ هـ)

اشتهر الرندي بقصيدته التي رثى فيها عدداً كبيراً من المدن الأندلسية التي سقطت لزمانه بيد العدو؛ وهي القصيدة التي اخترناها في الكتاب لتمثل هذا النوع من الشعر الذي عبّر فيه أصحابه عن مشاعر الأندلسيين بعد أن مالت شمس السيادة العربية الإسلامية في الأندلس إلى المغيب، وصوّر ما حلّ بهم من ضروب العسف والهوان، وما تبدّل من وجه الأرض ووجه الزمان.

والشاعر هو صالح بن يزيد بن صالح.. بن شريف الرندي. وتختلف كنيته بين أبي البقاء وأبي الطيّب. وهو مشهور في المشرق، وخصوصاً في هذا العصر بأبي البقاء.

وهو أديب، شاعر، ناقد. قضى معظم أيامه في مدينة رُنْدَة - بضم الرّاء - واتصل ببلاط بني نصر (بني الأحمر) في غرناطة، وكان يفد عليهم ويمدحهم، وينال جوائزهم. وكان يُفيد - حين يدخل غرناطة - من مجالس علمائها، ومن الاختلاط بأدبائها، كما كان يُنشدهم من شعره أيضاً.

وقد ترجم للرندي، ابنُ عبد الملك المراكشي في (الذيل والتكملة) قال في ترجمته: «وكان خاتمة الأدباء بالأندلس^(٢)، بارع التصرّف في منظوم الكلام

(١) انظر كتابنا (أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس) - دار سعد الدين - الطبعة الثانية.

(٢) أي: آخر أدبائها المشهورين المهيمنين لزمانه (القرن السابع) ولقد ظهر في الأندلس أدباء وشعراء مذكورون بعد ذلك.

ومنتوره، فقيهاً، حافظاً.. وله مقامات بديعة في أغراض شتى. وكلامه نظماً ونثراً مدوّن». وقال ابن الزبير في ترجمته - كما نقل ابن الخطيب -: شاعر مُجيد في المدح والغزل وغير ذلك. ووصف لسان الدين شعر الرندي فقال: «شعره كثير، سهل المأخذ، عذب اللفظ، غير مؤثر للجزالة».

لقد كان الرندي شخصية مرموقة في عصره، علماً وأدباً وشعراً. واشتهر أمره في الأندلس، والمغرب، وكانت جوانبه متعددة كما يظهر لنا من ثبت تواليفه. فمن كتبه: (الوافي في نظم القوافي)، وهو مؤلف نقدي بلاغي (مخطوط). وله تأليف في العروض والفرائض وغيرها. وقد أثبت لسان الدين في ترجمة الرندي قطعةً من كتاب له سمّاه: (روض الأُنس ونزهة النفس)، وهو مخطوط اطلعت عليه وأفدت منه.

لأبي البقاء الرندي شعر جيّد، ولم أقف في ترجماته على أنه جَمع ديوان شعره. وقد جَمعتُ له من مؤلفه (الوافي) ومن كُتب الأدب والتراجم والتاريخ قدراً صالحاً من الشعر، يكون (ديواناً) للشاعر^(١).

- وله القصيدة الطنّانة في استنهاض الهمم والدعوة إلى الجهاد ورتاء ما سقط إلى زمانه من مدن الأندلس الكبرى.

جو النص:

منذ أن قامت دويلات الطوائف في الأندلس (القرن الخامس الهجري) وقوة الأندلسيين تتضاءل في الجزيرة أمام ازدياد قوة أعدائهم من الدول المجاورة. وقد طال عمر الإسلام في الجزيرة الأندلسية بسبب موجتين اثنتين قدمت الواحدة بعد الأخرى من المغرب: وهما دولة المرابطين ودولة الموحدين.

(١) ترجمته في نفح الطيب ٤٧/١، وأزهار الرياض ٤٧/١، والذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي

(بقية السفر الرابع ١٣٦٠ - ١٣٩)، والإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب.

- وانظر: تاريخ النقد الأدبي في الأندلس (د. محمد رضوان الداية) ٣٣٢ - ٤٧٠ الطبعة الثانية؛ و: أبو البقاء الرندي - د. محمد رضوان الداية.

ومنذ أن انحلت دولة الموحدين ودبّ الضعف فيها من أوائل القرن السابع؛ والمدن الأندلسية تتساقط في أيدي الدول المجاورة في الحملة الصليبية على المغرب والتي عاصرت الحملات الصليبية على المشرق. فسقطت جزيرة ميورقة (٦٢٧ هـ) والبنوت (٦٣٣ هـ) وقرطبة (٦٣٣ هـ) وبلنسية (٦٣٦ هـ) وشاطبة ودانية (٦٣٨ هـ) وبياسة (٦٣٣ هـ) ولورقة وقرطاجنة (٦٤٠ هـ) وإشبيلية (٦٤٦ هـ) ومرسية (٦٦٨ هـ)... وكانت من قبل قد سقطت مدن هامة مثل طليطلة (٤٧٨ هـ) التي فرط فيها المعتمد بن عباد ومثل شلب (٥٩٣ هـ) وغيرها من المدن.

وانحصرت دولة الإسلام في الأندلس منذ النصف الثاني من القرن السابع على القسم الجنوبي الشرقي من الجزيرة، تحت حكم بني نصر. وكان أميرهم الأول ثبت ملكه في تلك المقاطعة (وعاصمتها غرناطة) بعد التنازل عن عدد كبير من المدن والحصون. وانتفعت دولة بني الأحمر بالتعاون مع بني مرين في الدفاع عن الأندلس ومهاجمة العدو المشترك. لكن هذه الرابطة ضعفت في القرن التاسع.

- أدرك الشاعر هذا كله ورأى بعينه ما يجري في تلك الأرض من قتل الأندلسيين وسفك دمائهم، وارتداد المستضعفين منهم، ورأى أمحاء الحضارة العربية الإسلامية. وكان يخشى بلا شك أن يستفحل الأمر فأنشد قصيدته هذه، مُستثيراً لهمم، داعياً أهل المغرب، ومن وراءهم إلى نجدة تلك البلاد المنكوبة.

(راجع تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين): وعصر المرابطين والموحدين (جزآن) من تأليف الأستاذ عنان.

القصيدة:

أثبت المقرئ قصيدة الرندي في أزهار الرياض ٤٧/١ - ٥٠ وفي نفح الطيب ٤٨٦/٤ - ٤٨٨. ونبه في الكتابين على زيادات طرأت على القصيدة، أضافوها

إليها بعد توالي سقوط المدن الأندلسية. وقد نشر هذه الزيادات الأستاذ المحقق عبد الله كنّون - رحمه الله - في (صحيفة معهد الدراسات الإسلامية) في مدريد (المجلد السادس ١٣٧٨ - ١٩٥٨) نقلاً عن نسخة شخصية في خزانته من أزهار الرياض.

وفي كتاب (ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا) لشهاب الدين الخفاجي (ت ١٠٦٩ هـ) ترجمة لأحد الأدباء واسمه يحيى القرطبي، نسبت إليه هذه القصيدة النونية، ولكنها ليست مقصورة على أبيات الرندي، بل فيها الزيادات التي نشرها الأستاذ كنّون. ومن ترجمة يحيى القرطبي المسجوعة في الكتاب نستطيع أن نتبين أنه أندلسي ممن صار يطلق عليهم اسم (الموريسكيين) - على الأغلب - وعبارة الخفاجي هي «السيد يحيى القرطبي: هو فيما بلغني روض مخصب ربيع من فرع بالفضل فريع، من فروع الدوحة العلية العلوية، وثمره تلك الشجرة النبوية الباسقة بما سقاها من ماء الندى، والمورقة المثمرة بالعلم والهدى ... أسر بالأندلس في موقعة أسرت أفراح القلوب، وشقت قلوب المؤمنين قبل الجيوب، فأصبح في حال تعدّ المنايا أمانيا، ويرى لضعف الدين الموت طبيياً شافياً، إذ عثرت خيول الفتن والنقم بذوي المروءة والنعم، فأرسل قصيدة نعى بها الإسلام، ونادى ملوك الروم^(١) وعلماءها الأعلام فلم يجد بها صفيّاً، يقول له: لقد أسمعت لو ناديت حياً. وذلك في عهد السلطان سليمان الذي دخل في خبر كان، وهي هذه: لكل شيء...». ريحانة الألبا ١/ ٣٧٠ - ٣٧٤ طبعة الأستاذ عبد الفتاح الحلو (مصر - عيسى البابي الحلبي).

والقصيدة التي تحقق المقري من نسبتها، وعدد أبياتها إلى الرندي تبلغ ٤٣ بيتاً. وهي حيث نسبت إلى يحيى القرطبي ٦١ بيتاً. ويظهر لي أن السيد يحيى القرطبي أضاف زيادات على قصيدة الرندي ليحكي حال الأندلس بعد سقوطها كلها، وليحرّض على الجهاد لاستنقاذها. ولعلّ مما يدعم هذا الرأي أنه رفعها

(١) يريد الأتراك العثمانيين.

إلى أكبر ملوك الإسلام لزمانه، سلطان الدولة العثمانية، وقد توسّم المقرئ شيئاً قريباً من هذا النفع والأزهار:

والقصيدة هي:

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نَقْصَانُ فَلَا يُغَرِّ بِطَيْبِ الْعِيشِ إِنْسَانُ
هِيَ الْأُمُورُ كَمَا شَاهَدَتْهَا دَوْلٌ^(١) مِنْ سَرِّهِ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَرْمَانُ
وَهَذِهِ الدَّارُ لَا تُبْقِي عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَدُومُ عَلَى جَالِهَا شَانُ
يَمَزُّقُ الدَّهْرُ حَتْمًا كُلَّ سَابِغَةٍ إِذَا نَبَتَ مَشْرِفِيَّاتٌ وَخَرْصَانُ^(٢)
وَيَنْتَضِي كُلَّ سَيْفٍ لِلْفَنَاءِ وَلَوْ كَانَ ابْنُ ذِي يَزْنَ وَالْغَمْدُ غَمْدَانُ^(٣)
أَيْنَ الْمُلُوكِ ذُورُ التَّيْجَانِ مِنْ يَمَنِ وَأَيْنَ مِنْهُمْ أَكَالِيلُ وَتَيْجَانُ
وَأَيْنَ مَا شَادَهُ شَدَادٌ فِي إِرْمٍ^(٤) وَأَيْنَ مَا سَاسَهُ فِي الْفَرْسِ سَاسَانُ^(٥)
وَأَيْنَ مَا حَازَهُ قَارُونُ مِنْ ذَهَبٍ^(٦) وَأَيْنَ عَادَ وَشَدَادُ وَقَحْطَانُ^(٧)
أَتَى عَلَى الْكُلِّ أَمْرًا لَا مَرَدَّ لَهُ حَتَّى قَضَوْا فَكَاَنَّ الْقَوْمَ مَا كَانُوا
وَصَارَ مَا كَانَ مِنْ مُلْكٍ وَمِنْ مُلْكٍ كَمَا حَكَى عَنْ خِيَالِ الطَّيْفِ وَسَنَانُ
دَارُ الزَّمَانِ عَلَى دَارَا وَقَاتِلِهِ وَأَمَّ كِسْرَى فَمَا آوَاهُ إِيْوَانُ^(٨)

(١) دال الزمان: انقلب من حال إلى حال. ودول ج دولة: انقلاب زمان.

(٢) نقل البكري في المقصود بإرم عدداً من الأقوال منها أنها دمشق، والإسكندرية: ونقل أنه «وجد بالإسكندرية حجر نقش فيه: أنا شداد بن عاد الذي نصب العماء...» البكري ٤٠٨/٢ - ٤٠٩.

ووردت الكلمة هكذا «أيرم» في الكتاب نفسه ٢١٥/١

(٣) قارون: هو الذي ذكره الله تعالى في سورة القصص: ويضرب به المثل في كثرة المال وعظيم الكنوز.

(٤) السابغة: الدرع الكامنة. المشرفيات: السيوف المنسوبة إلى المشارف، وهي مشارف الشام: قرى من أرض العرب تدنو من الريف، منها السيوف المشرفية. والخرصان: جمع خرص، وهي الرمح.

(٥) سيف بن ذي يزن: من ملوك اليمن، وغمدان قصر كان له. قال البكري: هو (قصبة صنعاء). انظر:

معجم ما استعجم ١٠٠٢/٣

(٦) ساسان: أبو طائفة عظيمة من ملوك الفرس.

(٧) عاد: أبو رهط من العرب البائدة.

(٨) هو دارا الأصغر بن دارا الأكبر، قتله أصحابه في معركته مع الإسكندر المقدوني (الكامل لابن الأثير

٢٨٢/١). الإيوان: هو إيوان كسرى الذي بالمدائن، مدائن كسرى. قال ياقوت: إنه قصر الأكاسرة

بالمدائن، وإنه تعاون على بنائه عدد من ملوكهم. وانظر ما ذكره ابن الأثير (الكامل ٤٨٠/١).

كَأَنَّمَا الصَّعْبُ لَمْ يَسْهُلْ لَهُ سَبَبٌ
فَجَاءَتْ الدَّهْرُ أَنْوَاعٌ مُنَوَّعَةٌ
وَلِلْحَوَادِثِ سُلوَانٌ يُهَوِّنُهَا
دَهَى الْجَزِيرَةِ أَمْرٌ لَا عِزَاءَ لَهُ
أَصَابَهَا الْعَيْنُ فِي الْإِسْلَامِ فَارْتُزَّتْ
فَاسْأَلْ بِلَنْسِيَّةٍ مَا شَأْنُ مُرْسِيَةٍ
وَأَيْنَ قُرْطَبَةٍ دَارُ الْعُلُومِ فَكَمْ
وَأَيْنَ حِمَصٌ وَمَا تَحْوِيهِ مِنْ نُزْهِ

يَوْمًا وَلَا مَلِكِ الدُّنْيَا سَلِيمَانُ
وَلِلزَّمَانِ مَسَرَّاتٌ وَأَحْزَانُ
وَمَا لِمَا حَلَّ بِالْإِسْلَامِ سُلوَانُ
هُوَ لِهَ أَحَدٌ وَأَنْهَدَ ثَهْلَانُ^(١)
حَتَّى خَلَتْ مِنْهُ أَقْطَارُ وَبُلْدَانُ
وَأَيْنَ شَاطِئَةٍ أَمْ أَيْنَ جَيَّانُ
مِنْ عَالَمٍ قَدْ سَمَا فِيهَا لَهُ شَأْنُ
وَنَهْرُهَا الْعَذْبُ فَيَاضٌ وَمِلَّانُ

(١) أحد: جبل قريب من المدينة. وثهلان: جبل باليمن.

* زاد في الريحانة بين هذين البيتين عدداً آخر من الأبيات، هي من زيادات يحيى القرطبي على القصيدة، وهي:

كَذَا طَلِيْطَلَةٍ دَارِ الْعُلُومِ فَكَمْ
وَأَيْنَ غِرْنَاطَةِ دَارِ الْجِهَادِ وَكَمْ
وَأَيْنَ حَمْرَآؤَهَا الْعَلِيَا وَزَخْرَفُهَا
قَوَاعِدُ كَنْ.. (البيت ٢٠ في النص)

وَالْمَاءُ يَجْرِي بِسَاحَاتِ الْقُصُورِ بِهَا
وَنَهْرُهَا الْعَذْبُ يَحْكِي فِي تَسْلُسِلِهِ
وَأَيْنَ جَامِعُهَا الْمَشْهُورُ قَدْ تَلَيْتْ
وَعَالَمٌ كَانَ فِيهِ لِلْجَهْلِ هَدًى
وَعَابِدٌ خَاضِعٌ لِلَّهِ مَبْتَهَلٌ
وَأَيْنَ مَالِقَةِ مَرْسَى الْمَرَكَبِ كَمْ
وَكَمْ بَدَاخِلُهَا مِنْ شَاعِرٍ فَطِنٍ
وَكَمْ بَخَارِجُهَا مِنْ مَنْزِلِ فَرْجٍ
وَأَيْنَ جَارَتُهَا الزَّهْرَا وَقُبَّتُهَا
وَأَيْنَ بَسْطَةُ دَارِ الزَّعْفَرَانِ فَنَلِ
وَكَمْ شَجَاعٍ زَعِيمٍ فِي الْوَعْيِ بَطْلٍ
كَمْ جَنْدَلَتْ يَدُهُ مِنْ كَافِرٍ فَعْدَا

قَدْ حَفَّ جَدُّوْهَا زَهْرٌ وَرِيحَانُ
سَيُوفٌ هَنَدِ لَهَا فِي الْجِسْرِ لَمْعَانُ
فِي كُلِّ وَقْتٍ بِهِ آيٌ وَفَرْقَانُ
مَدْرَسٌ وَلَهُ فِي الْعِلْمِ تَبْيَانُ
وَالدَّمْعُ مِنْهُ عَلَى الْخَدَيْنِ طُوفَانُ
أَرَسَتْ بِسَاحَتِهَا فَلَكٌ وَغَرِبَانُ
وَذِي فُنُونٍ لَهُ حَذَقٌ وَتَبْيَانُ
وَجَنَّةٌ حَوْلَهَا نَهْرٌ وَبَسْتَانُ
وَأَيْنَ يَا قَوْمَ أَبْطَالٍ وَفَرَسَانُ
رَأَى شَبِيهًا لَهَا فِي الْحُسْنِ إِنْسَانُ
بَدَا لَهُ فِي الْعِدَا فَتْلٌ وَإِيمَانُ
تَبْكِيهِ مِنْ أَرْضِهِ أَهْلٌ وَوَلِيدَانُ

وحمص هي مدينة إشبيلية - سميت كذلك لنزول جند حمص الشام بها - وهي عند نهر الوادي الكبير.

قواعدٌ كُنَّ أركانَ البلادِ فما
تَبكي الحنيفةُ البيضاءً من أسفٍ
على ديارٍ من الإسلامِ خاليةٍ
حيثُ المساجدُ قد صارتُ كنائسَ ما
حتى المحاريبُ تبكي وهي جامدةٌ
يا غافلاً وله في الدهرِ موعظةٌ
وماشياً مَرحاً يُلهيه موطنه
تلك المصيبةُ أنستَ ما تقدّمها
يا أيها الملكُ البيضاءً رايتُهُ
يا راكبينَ عتاقَ الخيلِ ضامرةً
وحاملينَ سُيوفَ الهندِ مُرهفةً
وراتعينَ وراءَ البحرِ في دعةٍ
أعندكم نباءٌ من أهلِ أندلسٍ
كم يستغيثُ بنو المستضعفينَ وهمُ
ماذا التقاطعُ في الإسلامِ بينكمُ
ألا نفوسُ أبياتٍ لها همَمُ
يا من لذةِ قومٍ بعدَ عزِّهمُ
بالأمسِ كانوا مُلوَكاً في منازلهمُ
فلو تراهم حيارى لا دليلَ لهمُ

عسى البقاءُ إذا لم تبقَ أركانُ
كما بكى لفراقِ الإلفِ هيمانُ^(١)
قد أسلمتُ ولها بالكفرِ عمرانُ
فيهنَّ إلا نواقيسُ وصلبانُ
حتى المنابرُ ترثي وهي عيدانُ^(٢)
إن كنت في سِنة فالدهرُ يقظانُ
أبعد حمصٍ تغرُّ المرءَ أوطانُ
وما لها مع طولِ الدهرِ نسيانُ
أدركُ بسيفك أهلَ الكفرِ لا كانوا^(٣)
كأنها في ظلالِ النقعِ نيرانُ
كأنها في مجالِ السَّبقِ عقبانُ
هَمُّ بأوطانهم عزٌّ وسُلطانُ
فقد سرى بجديثِ القومِ رُكبانُ
أسرى وقتلى، فما يهتزُّ إنسانُ
وأنتم يا عبادَ الله إخوانُ
أما على الخيرِ أنصارٌ وأعوانُ
أحالَ حالهم كُفرٌ وطغيانُ
واليومَ هم في بلادِ الكفرِ عُبدانُ
عليهم من ثيابِ الذلِّ ألوانُ

(١) الحنيفة: الإسلام.

(٢) عيدان ج عود: الغصن بعد أن يقطع، الخشب.

(٣) هذا البيت قريب من مطلع قصيدة ابن الأبار التي دعا فيها المستنصر الموحدى صاحب إفريقية

(تونس) لإنقاذ بلنسية من يد ملك أرغون (جائمة) ومطلع تلك القصيدة:

أدرك بخيلك خيل الله أندلساً
وقد اخترنا منها في ترجمته.
إن السبيل إلى منجاتها درسنا

ولو رأيت بُكاهم عند بيعهم
يا ربّ أم وطفلٍ حيلَ بينهما
وظفلةٍ ما رأتها الشمسُ إذ برزتُ
يقودُها العُلجُ للمكروهِ مُكرهةً^(٢)
لمثل هذا يذوبُ القلبُ من كمدٍ
لهالك الأمرُ واستهوتك أحزانُ
كما تفرّقُ أرواحُ وأبدانُ
كأنما هي ياقوتٌ ومرجانُ^(١)
والعينُ باكيةٌ والقلبُ حيرانُ^(٣)
إن كان في القلبِ إسلامٌ وإيمانُ

-وفي أغراض الرندي المديح، فقد كان على صلة حسنة بدولة بني نصر، وكان يفدُ عليهم في غرناطة وينال جوائزهم، ومن شعره الممدّحي، قوله من قصيدة بدأ بالغزل الرقيق:

أثامٌ شَفَّ عن وردٍ نَدِ
أم على الأزرارِ من حُلَّتْها
بأبي لينٍ له لو أنّه
لا وألحاظٍ لها سَاحِرَةٌ
لا طلبتُ الثَّارَ منها ظالماً
أم غمّامٌ ضحكت عن بَرَدِ
بَدْرُ تَمٍّ في قضيبِ أَمَلَدِ^(٤)
نقلت عِطْفَتَه للخَلَدِ^(٥)
نفثت في القلبِ لا في العُقَدِ^(٦)
وأنا القاتلُ نفسي يدي
ثم ينتقل إلى غرض المديح:

لا أرى بالسُّكْرِ إلّا مِن هوى
مَلِكُ العَليّا ولو أنصفتَه
أو هباتِ المَلِكِ المؤيِّدِ
ففتحت اللّامَ لمن أُنْفَدِ^(٧)

(١) الطفلة: الرخصة الناعمة. ورواية النفخ: وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت

(٢). العُلج: أرجل الضخم من أهل العجم..

(٣) بعد هذا البيت من ربحانة الألبا، من الزيادات على النص:

هل للجهاد بها من طالسٍ فلقد
وأشرف الحور والولدان من غرف
ثم الصلاة على المختار من مضر
تزعرفت جنة المأوى لها شان
فازت لعمرى بهذا الخير شجعان
ما هبّ ريع صبا واهتز أغصان

(٤) الأملد: الناعم اللين.

(٥) الخلد: البال والنفس.

(٦) النَّفث: النَّفخ مع ريق قليل. والعُقَد ج عقدة: من العقد ضدّ الحل.

(٧) فتحت اللّام: أي قلت: مَلِك. والتفنيذ: الكذب.

وله غزل رقيق يقاربُ منهج الشعراء العذريين قديماً، ومن قطعه الغزلية قوله^(١):

يا سالب القلب مني عندما رمقا	لم يُبق حبك لي صبراً ولا رمقا
لا تسأل اليوم عما كابدت كبدي	ليت الفراق وليت الحب ما خلقا
ما باختياري ذقت الحب ثانية	وإنما جارت الأقدار فاتفقا
وكنت في كلني الساعي إلى تلمي	مثل الفراش أحب النار فاحترقا
يا من تجلّى إلى سرّي فصيرني	دكاً وهزّ فؤادي عندما صعقا
انظر إليّ فإنّ النفس قد تلفت	وارفق عليّ فإنّ الروح قد زهقا!

قال الرندي في تقديمه للقصيدة: ولما بويع بالحضرة النصرية بولاية العهد الأمير المعظم أمير المسلمين - أيده الله - واقتزن بذلك مولد ابنه الأمير المعظم - أسعده الله - قلت في ذلك في عروض قصيدة أبي الطيب*.

مَنْ الظَّبَاءُ تَرُوعَ الْأَسَدَ بِالْمُقَلِّ	وما رمتها بغير الغنج والكحل
مَنْ كُلِّ رَوْدٍ تَرُدُّ السُّمَرِ مَشْرَعَةً	وما اتقها بغير الحلي والحلل ^(٢)
وَرَبَّمَا أَقْدَمْتَ وَالْخَيْلُ مُحْجَمَةٌ	فقطعن الطعنة النجلاء بالنجل ^(٣)
تلك الشُّمُوسُ الَّتِي قَدْ أَطْلَعْتَ قُزْحًا	أذياهنّ ولا غيم سري الكلال ^(٤)
يُرِيكَ شَرْخَ الصَّبَا مِنْهُمْ رَأْدُ ضُحَى	وهنّ من مذهبات العصب في أصل ^(٥)
كَمْ لِلْجَمَالِ بِهَا مِنْ آيَةٍ تُلِيَتْ	على المحبّ فجلت شبهة العدل

(١) أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس ١٣٦ - ١٣٧

* قصيدة الرندي معارضة لقصيدة المتنبي التي مطلعها:

أجاب دمعى وما الداعى سوى طلل دعا فلّياه قبل الخيل والإبل

(٢) في القاموس: الرئدة والرؤودة: الشابة الحسنة.

(٣) النجل (بالتحريك) سعة العين.

(٤) الكلال ج كلة: الستر الرقيق.

(٥) رآد الضحى: ارتفاعه. وأصل جمع أصيل.

وَقُضِبَ بَانَ عَلَى كَثْبٍ لَهَا زَهْرٌ
خَفَّتْ لَهَا وَشَحَّ جَالَتْ عَلَى هَيْفٍ
وَنَظْرَةٍ يُشْتَفَى مِنْهَا بَثَانِيَّةٌ
بَعَتْ الْحَيَاةَ بِهَا مِنْ لِحْظٍ جَارِيَةٍ
وَلَّى عَزَائِي مِنْ أَجْفَانِهَا فَرَقًا
وَلَيْلَةً بِاللَّوَى مَا كَانَ أَطْيَبَهَا
بَتْنَا نَسَاقِي الْمَنَى وَالْأَنْسُ ثَالِثَنَا
حَتَّى بَدَتْ غُرَّةٌ لِلصُّبْحِ مُشْرِقَةٌ
يَا يَوْمَ سَعْدٍ كَأَنَّ الْعِيدَ عَادَ بِهِ
شَهِدْتُهُ، فَرَأَيْنَا الْأَرْضَ قَدْ بَهَرَتْ
وَلِلطَّبُولِ بِهِ خَفَقٌ يُسَاجِلُهُ
وَكُلَّ أَشْوَسَ سَاجِي الطَّرْفِ مِنْ أَدَبٍ
وَيَجْتَلي غُرَّةً بِالْبِشْرِ مُشْرِقَةٌ
لِلَّهِ مِنَ عِيدَيْنِ فِي نَسَقٍ
أَهْلًا بِذَا الْوَلَدِ الْمَيْمُونِ مَوْلَدُهُ
أَهْلًا بِذَا الْمَلِكِ النَّصْرِيِّ مُحْتَدُهُ
وَبِيعَةٍ عُقِدَتْ وَالسَّعْدُ يُسَعِدُهَا
عَلَى تَقْلِيدِهَا أَوْلَى الْأَنَامِ بِهَا
الْفَاعِلُ الْفَعْلَ لَا يُعْزَى لَهُ خَطَأٌ

يُسْقَى - وَلَا ظَمًا - بِالْأَدْمَعِ الْهَمْلِ
فَوَقَّرْتَهَا مِنَ الْأَرْدَافِ بِالثَّقَلِ
كَمَا تَدَاوَيْتَ بِالصَّهْبَاءِ مِنْ ثَمَلٍ!
إِذَا رَنْتَ فَجِدَارًا مِنْ بَنِي ثَعْلٍ^(١)
كَأَنَّمَا هُوَ عَمْرُو وَهِيَ سَيْفٌ عَلِي!
زَالَتْ مَعَاهِدُهَا وَالْعَهْدُ لَمْ يَزَلِ
وَالرَّاحُ مِنْ شَنْبٍ وَالنَّقْلُ مِنْ قُبَلٍ^(٢)
كَمَثَلِ وَجْهِ وَلِي الْعَهْدِ يَوْمَ وَلِي
وَالنَّاسُ فِي مَرْحٍ وَالذَّهْرُ فِي جَذَلِ
وَالشَّمْسُ قَدْ سَتَرَتْ وَجْهًا مِنَ الْخَجَلِ
خَفَقُ الْبَنُودِ عَلَى الْخَطِيئَةِ الذُّبُلِ
يَهْوِي لِلثَّمِ يَدٍ أَشْهَى مِنَ الْأَمَلِ
كَمَا تَجَلَّتْ إِيَّاهُ الشَّمْسُ فِي الْحَمَلِ^(٣)
لِهَذِهِ الدَّوْلَةِ الْغَرَاءِ فِي الدُّوَلِ
وَالصَّارِمِ الْمُتَضَيِّ مِنْ أَكْرَمِ الْخَلَلِ
وَالْفَارِسِ الْبَطْلِ بْنِ الْفَارِسِ الْبَطْلِ
فَمَا تَرَى فِي خِلَالِ الْأَمْنِ مِنْ خَلَلِ
وَوَارِثِ الْمَجْدِ مِنْ آبَائِهِ الْأَوَّلِ
وَالْقَائِلِ الْقَوْلَ لَا يُؤْتَى مِنَ الْخَطَلِ

(١) بنو ثعل حي من أحياء العرب، وهم الذي عناهم امرؤ القيس بقوله:

رب رام ممن بسني ثعل
مخرج كفيه من ستره

(٢) الشنب: عذوبة في الأسنان.

(٣) إياة الشمس: نورها وحسنها.

(٤) الغمر (بالضم): الذي لم يجرب الأمور.

(٥) الأيم: الأفعى.

مُحْيِي الْغَرِيِّينَ مِنْ دِينٍ وَمِنْ أَدَبٍ
وَبَاعَثَ الْجَيْشَ بَعْدَ النَّذْرِ مُتِّدًا
مَا نَامَ عَنْ بَأْسِهِ قَوْمٌ عَلَى غَرَرٍ
وَلَا اتَّضَى عَزْمَهُ سَيْفًا لِهَيْبَتِهِ
وَلَا هَمَى جُودَهُ مِنْ سُحْبِ أُنْمَلِهِ
صِفَاتُ مَلِكٍ صِفَاتُ الْمَكْرَمَاتِ لَهُ
وَخُلِقَ مِنْ خُلُقَتِ السَّعْدِ غُرَّتُهُ
كَالْغَيْثِ لَكُنَّهَا نَفْعٌ بِلَا ضَرَرٍ
كَأَنَّ رَاحَتَهُ رَوْضٌ؛ وَلَا زَهْرٌ
مِنْ أَصْفَرِ حُبِّهِ لِلْمَجْدِ أَنْحَلَهُ
أَخُو الرُّدَيْنِيِّ مِنْ شَكْلِ وَمَكْرُمَةٍ
وَأَبْيَضِ صَيْغٍ مِنْ مَاءٍ وَمِنْ لَهَبٍ
مَاضِي الْعِذَارِ يَهَابُ الْغَمْرِ صَوْلَتُهُ
أَبْهَى مِنَ الْوَصْلِ بَعْدَ الْهَجْرِ مَنْظَرُهُ
وَأَسْمَرُ ظَنٍّ مَاءٌ كُلٌّ سَابِغَةٌ
هَامَ الْكِمَاءُ بِهِ حُبًّا وَلَا عَجَبٌ
إِذَا الطَّعِينُ تَلَقَّاهُ فَأَرْعَفَهُ
يَا ابْنَ الْهُمَامِ الَّذِي لَهُ حُلَى حَسُنْتَ
وَمَنْ لَهُ كَرَمٌ رِيَشَ الشِّتَاءِ بِهِ
أَهْنَأُ بِهَا نِعَمًا فِي إِثْرِهَا نِعَمٌ
وَحِذْ إِلَيْكَ حُلَى فَصَلَّتْهَا حُلَا
وَاسْتَقْبَلَ السَّعْدَ بِالْبُشْرَى الَّتِي طَلَعَتْ

وَقَاتِلِ الْقَاتِلَيْنِ: الْجُبْنَ وَالْبَخْلَ
فَيْتَشْنِي وَهُوَ فِي ثَانٍ مِنَ النَّفْلِ
إِلَّا وَأَيُّقِظُهُمْ طَيْفٌ مِنَ الْوَجَلِ
إِلَّا تَغْلَغَلَ فِي الْأَحْشَاءِ كَالْغَلَالِ
إِلَّا وَأَغْنَتْ أَيْادِيهِ عَنِ السَّبِيلِ
كَالْنَعْتِ، كَالْعُطْفِ، كَالْتَوَكِيدِ، كَالْبَدَلِ
وَاللُّعْلَى يَدُهُ، وَالْجُودِ، وَالْقُبْلِ
كَالْبَحْرِ لَكُنَّهَا أَهْلَى مِنَ الْعَسَلِ
غَيْرِ الْيَرَاعِ بِهَا وَالْبَيْضِ وَالْأَسَلِ
فَلَوْ بَرَاهُ الْهَوَى مَا شَاءَ لَمْ يَحُلِ
وَرَبَّمَا طَالَهُ فِعْلًا وَلَمْ يَطُلِ
عَلَى اعْتِمَالٍ فَلَمْ يَجْمَدْ وَلَمْ يَسِلِ
كَأَنَّمَا هُوَ مَطْبُوعٌ مِنَ الْأَجَلِ^(١)
حُسْنًا وَأَقْطَعَ مِنْ بَيْنِ عَلَى مَلَلٍ
فَحَاصَ كَالْأَيْمِ يَسْتَسْقِي مِنَ النَّهْلِ^(٢)
مِنْ لَوْعَةٍ بِمَلِيحِ الْقَدِّ مَعْتَدِلِ
حَسْبَتُهُ عَاكِفًا يَنْكِي عَلَى طَلَلِ
بِهَا الْإِمَارَةُ حُسْنُ الْمَدْحِ بِالْغَزَلِ
فَطَارَ حَتَّى سَرَى فِي الْأَرْضِ كَالْمَثَلِ
وَسَرَّ وَاسْمٌ وَصِلٌ وَجُدٌ وَسُدٌ وَصِلِ
الْفَضْلُ فِيهَا لِتِلْكَ الْمَكْرُمَاتِ، وَلِي
وَابْلَغْ بِتِلْكَ الْعُلَى مَا شِئْتَ مِنْ أَمَلِ

(١) الغمر (بالضم): الذي لم يجرب الأمور.

(٢) الأيم: الأنقى.

لسان الدين بن الخطيب^(١)

(٧١٣ هـ - ٧٧٦ هـ)

يرد اسم لسان الدين بن الخطيب في عالم السياسة فقد كان لمدة طويلة وزيراً خطيراً ذا شأن، ويُذكر في عالم الكتابة والنشر الفني فقد شغل منصب كاتب، ثم صار رئيس الكتاب، وهو أحد شعراء الأندلس في القرن الثامن الهجري وله موشحات كثيرة. ومن جهة أخرى فهو مؤلف مصنف مَدَّ يده إلى موضوعات متعددة من جوانب العلم والثقافة والمعرفة والأدب.

وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله السَّلْماني، كانوا يُعرفون ببني الوزير، وغلب عليهم لقب الخطيب نسبة إلى لقب اكتسبه أحد أجداده (سعيد).

ولد في (لوشة)، إحدى المدن التابعة لغرناطة سنة (٧١٣ هـ). وسرعان ما انتقل إلى غرناطة، وكان أبوه كاتباً في الديوان السلطاني. فنشأ في رعاية والده وتلقى علومه على عدد من شيوخ العصر وأكابر العلماء. وتنوعت ثقافته، وكثرت العلوم التي تلقاها ما بين الطب والحكمة من جهة والشعر والموشح من جهة، إضافة إلى فنون وقضايا مختلفة متعددة.

تدرّج لسان الدين في الخدمة السلطانية كاتباً مع أبيه وأخيه في الديوان السلطاني. فلما استشهد أبوه وأخوه في معركة طريف سنة (٧٤١ هـ) حلّ محلّ

(١) ترجمته في نثر الجمان (أعلام المغرب والأندلس) ١٢٩، ونشير فرائد الجمان ٢٤٢، والدرر الكامنة

٤٤٩/٣، والتعريف بابن خلدون ٨٥، ونفع الطيب للمقري (مواضع كثيرة) فالكتاب مؤسس على

ترجمته) وانظر تاريخ الفكر الأندلسي ١٣٨، والشعر الأندلسي (غارثيا غومز) ٣٦.

- وأصدر محمد عبد الله عنان كتاباً مفرداً عن (لسان الدين بن الخطيب) في مكتبة الخانجي.

- و: لسان الدين بن الخطيب - د. عصام قصبجي - طبع جامعة حلب ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م.

أبيه في الديوان. وزادت صلته بأستاذه ومعلمه أبي الحسن بن الجيّاب وارتقت مكانته تدريجاً. وكان قد نبغ في الشعراء مثلما نبغ في الكتاب.

ولما توفي ابن الجيّاب سنة (٧٤٩ هـ) في الطاعون الجارف، اختار سلطان غرناطة أبو الحجاج يوسف: لسان الدين بن الخطيب رئيساً للكتاب. واستمر نجمه في الصعود، واسمه في اللمعان في الأندلس، وفي المغرب أيضاً.

وفي عهد الغني بالله محمد (الخامس) من بني نصر علا نجم لسان الدين. فقرّبه الأمير؛ وقلده المهم من أموره: ومنحه رتبة الوزارة إضافةً إلى رئاسة الكتاب، والسفارة، وما يليق بذلك من ألقاب ورسوم.

وترك لسان الدين غرناطة مع محمد الخامس من (٧٦١ إلى ٧٦٣ هـ). وبقي في المغرب بعد انقلاب حصل على محمد الغني بالله. فلما عاد الأمير إلى غرناطة - بعد أن تدبّر أمور نفسه - عاد معه أثيراً لديه كما كان.

ولكن لسان الدين غادر غرناطة سنة (٧٧٣ هـ) دون أن يُعلم الأمير بوجهته، واستقرّ في المغرب في حالٍ تشبه حال اللاجئ السياسي (كما نقول اليوم).

وكان لسان الدين قد أحسّ تألباً عليه من قبل القاضي النباهي؛ وتلميذه ابن زمّرك؛ وكانا صديقين قديمين؛ وخشي أن يصيبه من الأمير سوء، فهرب بنفسه، ثم لحق به أهله وأولاده إلى المغرب.

غير أنّ الظروف تتغير في المغرب (الأقصى) ويأتي إلى الحكم أمير ووزير يدينان بالولاء للغني بالله النصري. وتنتهي حياة لسان الدين بأن يموت صبراً على يد وفدٍ قصد من غرناطة إلى فاس خصيصاً لتصفية قضية لسان الدين، وكان هذا سنة (٧٧٦ هـ).

٢ - على كثرة مشاغل لسان الدين وتشعب اهتماماته السياسية والاجتماعية كان كاتباً غزير النتاج، كثير التواليف، متعدد الاتجاهات. وله آثار في الكتابة

الديوانية والإخوانية (في الترسل). وله شعر كثير، وله مؤلفات في التراجم والتواريخ والطلب والأدب والتصوف وسوى ذلك من وجوه التأليف.

- فمن كتبه: الإحاطة في أخبار غرناطة (طبع في أربعة أجزاء) وهو كتاب تراجم. وجيش التوشيح (طبع بتحقيق أ. هلال ناجي) وهو مختارات من الموشحات الأندلسية مع مقدّمات وملاحظات. وروضة التعريف بالحبيب الشريف (طبع مرتين): في التصوف، وعارض به ديوان الصّباة لابن أبي حجلة. وله (ريحانة الكتاب ونجعة المُنْتَاب) مجموعة رسائل - مطبوع^(١). ونفاضة الجراب (وهو أشبه بالملذّكات الشخصية عن حياته في المغرب في رحلته الأولى) طبع بمصر. وله (رقم الحلل في نظم الدول) مطبوع: في التاريخ، و (اللمحة البدرية في الدولة النصرية) مطبوع. وله كتاب ترجم فيه للشعراء المعاصرين له سماه: (الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة) طبع ببيروت. وله مؤلّفات أخر بين مطبوع ومخطوط ومفقود.

٣ - لسان الدين بن الخطيب شاعر، وشّاح، مترسل، كاتب. وهو يمثّل - على أكثر من وجه - حركة الأدب في القرن الثامن الهجري، وإن لم يكن المقدّم على شعراء عصره. ولكن غزارة نتاجه ووفرة شعره بين أيدينا تجعل الحديث عنه صالحاً للمقايسة والمقابلة^(٢).

ويسيطر على شعر لسان الدين جانبان: الوجدانيات الخاصة به من شعر ذاتي، كالتأمل، والغزل، ووصف الطبيعة الأندلسية؛ غرناطة وما حولها. والتعبير

(١) أخرجه الأستاذ محمد عبد الله عنان في جزأين في مكتبة الخانجي بالقاهرة.

(٢) طبع ديوان لسان الدين بن الخطيب في الجزائر بعنوان: الصيّب والجّهام والماضي والكهيم. حققه محمد الشريف قاهر، ونشرته الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر ط ١٩٧٣ م في جزء واحد. ثم صدر في الدار البيضاء بالمغرب ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م بتحقيق محمد منتاح ونشرته دار الثقافة في جزأين بعنوان: ديوان لسان الدين بن الخطيب.

بالشعر عن جوانب الحياة من وجهة نظر الشاعر المتأمل... وما يخص نفسه وأسرته وحياته الخاصة.

والجانب الآخر: استخدام الشعر وسيلة للاتصال بالعالم الخارجي وخصوصاً شعر المديح الذي كان يقدمه - كغيره من شعراء العصر - إلى البلاط النصري في المناسبات والاحتفالات والأعياد... والشعر الذي جعله تصويراً للأحداث العامة، ومشاركةً في علاقاته الشخصية والسياسية.

ويُتابع لسان الدين سلسلة الشعراء الذين سَخَرُوا الشَّعْرَ لتدوين التاريخ؛ وكتابه: (رقم الحلل في نظم الدول) مثالٌ لذلك؛ لأنه منظومة في تلخيص التاريخ الإسلامي، وتلخيص تاريخ الأسرة النصرية إلى زمانه.

ومن هنا اتسم شعره أحياناً بما يتَّسم به شعر البديهة من السرعة والارتجال أحياناً. وكان صورةً عصريةً حيّة تعين على تكميل تاريخ الفترة ودراستها.

٤ - ولسان الدين بن الخطيب، على العموم، شاعر طويل النفس، مقتدرٌ على إطالة القصائد. وفي شعره لمحاتٌ دالةٌ باستمرار على ثقافته الواسعة، ومخزونه التراثي الغزير الذي يُحسن استخدامه.

ويمتاز الشاعر على الجملة بالتمكن اللغوي؛ وتراصّ البناء الشعري، وسيطرة الفكرة أحياناً على حساب العاطفة. ويحاولُ الشاعر باستمرار أن يعتمد أسلوب التّصوير والتّخييل؛ وأن يشحن القصيدة - أو القطعة - بما يستطيع من طاقة غنائية موسيقية.

٥ - لابن الخطيب قصيدة مشهورةٌ ألّقاها بين يدي سلطان بني مرين أبي عنان، حين وفد من الأندلس على المغرب في رسالةٍ سلطانية: وقَدَّم لها بما نصّه في الديوان (ص ٥٤٣):

«وقفت أمام سلطان المغرب أمير المسلمين أبي عنان رحمةُ الله عليه (أمدحه) بها في المحفل المشهود قبل أن أُلقي له مضمّن الرسالة التي تحملتها عن سلطاني بالأندلس:

خليفة الله ساعد القدر
ودفعت عنك كف قدرته
ليس لنا ملجأ نؤمله
وجهك في النائبات بدر دجى
والناس طراً بأرض أندلس
وجملة الأمر أنه وطن
ومن به مذ وصلت حبلمهم
وقد أهتمتهم نفوسهم

غلاك ما لاح في الدجى قمر
ما ليس يستطيع دفعه البشر
سواك أنت الشمال والوزر^(١)
لنا، وفي المجد كفاك المطر
لولاك ما أوطنوا ولا عمروا
في غير عليك ماله وطر
ما جحدوا نعمة ولا كفروا
فوجهوني إليك وانتظروا!

وترى الشاعر يحيي سنة شعراء المديح؛ ويستعمل هنا قدرته باعتباره شاعراً
متمكناً، ويستفيد من قدرته الأخرى باعتباره سفيراً يتقن أصول مخاطبة الملوك،
ويعرف أن لكل مقام مقالاً.

ومن شعر لسان الدين المدحي، ما أنشده؛ وهو ما يزال في مستقبل الشباب،
مناسبة معركة منتصرة، هذه القصيدة؛ وقدم لها بقوله:

«وقلت أحاطبه - يعني أمير غرناطة - في الغزوة التي جرف فيها حصن
إستبة؛ وفتح معقل بني بشير عام ثلاثة وأربعين، ونظمتها بظاهر إستبة»:

السعد جندك والقضاء دليل
فإذا هممت بلغت كل ممنع
شهدت لك العلياء أنك ربها
والجود أنك غيظه الهامي الحيا
والحق يغني عن شهادة شاهد
من استجار غلاك عز جواره
وإذا توخيت السياسة في الورى
وإذا جنبت المغريات إلى العدى

والله بالنصر العزيز كفى
وإذا رأيت الرأي ليس يفيل^(٢)
والدين أنك سيفها المسلول
هذا وكل شاهد مقبول
أنى يرام على الصبح دليل
وعزيز قوم لم يطعك ذليل
يوماً؛ فما للعدل عنك عدول
سيان عندك فرسخ أو ميل

(١) يقال: فلان ثمال قومه: أي قوامهم وغيائهم.

(٢) إذا رأى الرأي كان ثاقباً لا يخيب، نافذاً غير ضعيف.

ولو استعنت الدهر واستجدته
وأتى ومن قطع الظلام كواكب
لبدا لأمرك طاعة وقبول
ومن الصباح أسنة ونصول

ومنها:

إن رمت في الله الجهاد وطالما
وأنت للدين الحنيف وأهله
وقدحت زناد عزيمة نصريّة
وسلكت للتقوى سبيلاً سنّها
ورجعت والنصر العزيز مصاحب
في عسكر لجب كأن جموعه
كالبحر إلا أنهن كئائب
والبرق إلا أنهن أسنة
فبكل نجد راية منشورة
أرضى الإله جهادك المقبول
من أن يطيح نجعته المطلول
تركت ديار الكفر وهي طول
علم الملوك أبوك إسماعيل
لك والملائكة الكرام قيل
فوق الوهاد إلا رجفن سيول
والرياح إلا أنهن خيول
والرعد إلا أنهن طبول
وبكل غور مقنب ورعيل

- وهذا نموذج ثالث من شعر لسان الدين في غرض الغزل. وهو يبدو، وإن ركب فيه قافية عريضة، متمكناً مجيداً. قال:

يا هلالاً، يا قضييأ، يا رشا
يا غزالاً ورده في أدمعي
قد فشا فيك هيامي في الوري
ولكم آثرت كتمان الهوى
كيف بالكتمان يوماً لامرئ
أو بسلولان لمن في رية
خذ فؤادي لك مني هبة
إن تبدى أو تشى أو مشى
كلما شاء ومرعاه الحشا
وهو لولا دمع عيني ما فشا
غير أن الدمع بالسرّ وشا
سيره في خده قد نقشا
جسمه والقلب في وادي الأشا^(١)
حرةً وافعل بقلبي ما تشا

(١) رية، ووادي الأشا أو وادي الأشاة من جهات جنوبي الأندلس الشرقي.

بعثُ فيكَ النومَ بالسُّهدِ فلا
 كم ليالٍ بتُّ في ظلمائها
 كلَّما صحتُ بها وا كبدي
 وكأنَّ النجمَ شَرِبْتُ ثُلَّ
 وكأنَّ الصبحَ في الليلِ وقد
 ثائرٌ راقبٌ منه فرصةٌ
 وتخالُ الأفقَ ثغراً قاصياً
 ملئتُ من جوهري الدَّمعِ يدي
 وجَرى من ماء عيني نهرٌ
 فاعجبوا من جوهري لا يُقتنى
 يا نديمي فؤادي كلما
 آنساً قلبي بتذكاري الحمى
 ضاعَ يومَ البينِ قلبي فاجثياً
 وامزجها قهوةً عطريّةً
 فإذا أبصرها ذو قُرّة
 وإذا قبلها شاربها
 فسلا السّاقى الذي أترعها

فرَّقَ عندي بين صُبحٍ وعشا
 أمتطي من نارٍ شوقي فرُشا
 مادت الأرضُ لما بي دَهِشا
 واصلَ الثَّملةَ حتّى ارتعشا
 ملاً الأرجاءَ ممّا جيّشا
 ثمّ لما أمكّنته بطّشا
 غلبَ الرومُ عليه الحبشا
 عجباً أقبلُ في قلبي الرّشا!
 حين أرسلتُ دُموعي مُجهّشا
 ولنهرٍ ليس يَروى عطّشا
 نفحت ريحُ النّعامي انتعشا
 فالحمى من أهله قد أوَحشا
 بين أخفاف المطايا وانبشا
 كرّمتُ كرماً وطابت عرّشا
 ظلّها بالبُعدِ ناراً فعّشا
 قطّب الوجهَ لها وانكمشا
 حياً أودعها أو حنّشا!

ومن شعره القصيدة التي مدح بها السلطان المريني أبا سالم، وجعلها مدخلاً
 لنزوله مع سلطان غرناطة الغني بالله حين جرت عليهما الحركة الانقلابية
 واستنجاهه به، وفي أول القصيدة^(١):

«سلا» هل لديها من مخبّرةٍ ذكرُ
 وهل باكر الوسمي داراً على اللوى
 بلادى التي عاطيت مشمولة الهوى
 وهل أعشب الوادي ونمّ به الزهرُ؟
 عفت أيها إلا التوهّم والذكرُ
 بأكنافها والعيش فينان مُحضّرُ

(١) الديوان (ط المغرب) ٤١٤/٢

وَجَوِّيَ الَّذِي رَبَّى جَنَاحِي وَكَرُهُ
نَبْتُ بِي لَا عَنْ جَفْوَةٍ وَمَلَالَةٍ
ولكنها الدنيا قليل متاعها
وَلِلَّهِ عَيْنَا مَنْ رَأَى رَأَى وَلِلْأَسَى
فَهَا أَنَا ذَا مَا لِي جَنَاحٌ وَلَا وَكَرُ
وَلَا نَسْخَ الْوَصْلِ الْهَنِيِّ بِهَا هَجْرُ
وَلذَاتُهَا دَابَّاً تَزُورُ وَتَزُورُ!
ضِرَامٌ لَهُ فِي كُلِّ جَانِحَةٍ جَمْرُ

فالشاعر يذكر مدينة (سلا) إحدى حواضر المغرب، وفيها مقام سلطان بني مرين أبي سالم، ويتذكر بلاده (غرناطة والأندلس) بعد أن اضطرت الظروف إلى تركها (لا عن جفوة وملالة) ولكن لطارئ دهمهم، وانتزعهم من بلادهم... ومَدَّخَلَ الشاعر في قصيدته بارع، لأنه يوحى بالحديث عن الديار على عادة العرب، وهو في الحقيقة يمهّد لموضوعه الذي هيّأه من الاستنجاد وطلب اللجوء أولاً والنصرة ثانياً.

وقال في معرض المديح، وهو يذكر السلطان أبا سالم:

تَنَاقَلَتِ الرِّكْبَانُ طَيْبَ حَدِيثِهِ
نَدَى لَوْ حَوَاهِ الْبَحْرُ لَذَّ مَذَاقُهُ
وَبَأْسٌ غَدَا يَرْتَاغُ مِنْ خَوْفِهِ الرَّدَى
فَلَمَّا رَأَتْهُ صَدَّقَ الْخَبَرَ الْخَبْرُ
وَلَمْ يَتَعَقَّبْ مَدَّةً أَبَدًا جَزْرُ!
وَتَرَفُّلٌ فِي أَثْوَابِهِ الْفَتَكَةُ الْبِكْرُ

وفي جانب من القصيدة:

قَصْدُنَاكَ يَا خَيْرَ الْمُلُوكِ عَلَى النَّوَى
كَفَفْنَا بِكَ الْأَيَّامَ عَنْ غُلُوءِهَا
وَعُذْنَا بِذَاكَ الْمَجْدِ فَاَنْصَرَمَ الرَّدَى
وَلَمَّا أَتَيْنَا الْبَحْرَ يُرْهَبُ مَوْجُهُ
لِتَنْصِفَنَا مِمَّا جَنَى عَبْدُكَ الدَّهْرُ!
وَقَدْ رَابَنَا مِنْهَا التَّعَسُّفُ وَالْكَبَرُ
وَلَدْنَا بِذَاكَ الْعِزْمَ فَاَنْهَزَمَ الذَّعْرُ
ذَكَرْنَا نَدَاكَ الْغَمْرَ، فَاحْتَقَرَ الْبَحْرُ

- وللسان الدين الموشحة المشهورة:

جَادَكَ الْغَيْثُ إِذَا الْغَيْثُ هَمِي
لَمْ يَكُنْ وَصْلُكَ إِلَّا حُلْمًا
يَا زَمَانَ الْوَصْلِ بِالْأَنْدَلُسِ
فِي الْكَرَى أَوْ خَلْسَةِ الْمُخْتَلَسِ

والموشحة ثابتة في هذا الكتاب: (انظر الفصل الثاني: الموشحات الأندلسية).

خاتمة

كانت حياة الأدب في القطر الأندلسي، وعلى امتداد ثمانية قرون امتداداً لحياة الأدب العربي في سائر أقطار الدولة العربية الإسلامية المترامية الأطراف: النّبع واحد، واللغة واحدة، والملامح الأدبية متقاربة، متداخل بعضها في بعضها الآخر.

وكانت أيضاً رافداً جديداً، فيه من محاولات الإبداع والتجديد مثل ما فيه من محاولات المحاكاة والمضاهاة، وبين هذين الجانبين: التقليد والمحاكاة من جهة، والإبداع والتجديد من جهة أخرى؛ كوّن الأدب العربي في الأندلس لنفسه تلك السمات التي تشرب من النّبع، وتصب فيه في آن معاً.

وقد حاولت في هذا الكتاب أن أعرض على القارئ الكريم أبرز جوانب الأدب العربي في الأندلس، وأن أقف عند جوانب من الجديد الذي حاولوه. وأن أعرف بعدد من أعلام الأدب في الشعر والنثر من الأسماء التي أثرت في مجريات الحياة الأدبية، والتي ثبتت أيضاً في ذاكرة الناس على امتداد العصور الأدبية.

ولاشك في أنّ للأندلس في نفوس الناس مكانة خاصة. فالأندلس في بلدانها وتواريخها وأحداثها ووجوه الإبداع فيها وكثير من شخصياتها؛ امتزجت بوجدان أبناء الأمة منذ زمان الفتح القديم (أواخر القرن الأول الهجري)، ثم التفت المشاركة إلى الأندلس شيئاً فشيئاً: في احتكاكهم بالوافدين من الأندلس لأسباب شتى، وفي أخبار أبناء المشرق الذين قصدوا إلى تلك البلاد زيارة أو تجارة، أو لتقديم الخبرة العلمية أو غير ذلك من الأسباب.

وكان لأحداث الأندلس التاريخية والحربية، واستمرار أحوال أهلها من المقاومة والجهاد أثر في الجانب العاطفي الشديد التأثير، وقد أسهم شعراء الأندلس في رسم صور واقعية حيناً وصور قريبة إلى الخيال حيناً آخر.

هذا الكتاب مقدمةٌ أوليةٌ لمتابع مجريات الأدب الأندلسي. أرجو أن يكون فيه ما يُطفئُ الشوق، ويُبُلِّدُ الصدى، ويمتّع النفس ويسرّ الخاطر.

على أن لنا عودة إلى القارئ الكريم - إن شاء الله - مع الكتاب الموسّع في «تاريخ الأدب الأندلسي» الذي يستوفي ويستوعب ويُقنع ويُرضي.

والحمد لله رب العالمين

محمد رضوان الداية

فهرس الأعلام

((أ))

٦٦ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ،
١٢٦ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٥ ، ١٤٩ ،
٢٣٤ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ،
٣٣٥ ، ٣٣٦

ابن خلدون ٤٢ ، ٢٦٨

ابن خير ٥٠

ابن دراج القسطللي ٦٢ ، ٢٢٧

ابن رشد ٤٧

ابن راشد ٢٠٢

ابن زيدون ٥٧ ، ١١٧ ، ١١٨ ،

١٤٦ ، ٢٣٤ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ،

٢٥٥

ابن زمرك ٦٩ ، ١٢٩ ، ١٤٨

ابن السراج ٢٣٦

ابن سعيد أبو الحسن علي بن سعيد

٢٧٠

ابن سعيد أبو الحسن علي بن موسى

١٣٦

إبراهيم بن حجاج ٣٠٢

إبراهيم بن عبد الله بن الحاج ٢٨٢

ابن الأبار ٦٦ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٠ ،

٣٦٢

ابن برد الأصغر ٢٢٠ ، ٢٤٠

ابن بسام ١٨٣ ، ١٨٤ ، ٢٢٩ ، ٢٥٦

ابن بشكوال ٣٤٣

ابن جبير ١٠٣ ، ٢٢١ ، ٢٣٩

ابن جحدر الإشبيلي ٢٠٤

ابن جزي ٦٧

ابن الجياب ٣٦٨

ابن الجنان الأنصاري ١٠٢ ، ٢٢٢

ابن الحداد الوادي آشي ٥٨ ، ٨٣

ابن حزم ٥٦ ، ١٢١ ، ١٨٢ ، ٢٢٧ ،

٢٣٤ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩

ابن خاتمة الأنصاري ١٨٥ ، ١٩٩

ابن خفاجة = أبو إسحاق إبراهيم بن

أبي الفتح عبيد الله الهواري ١٨ ،

ابن سهل الإشبيلي ١٨٧	ابن مرج الكحل محمد بن إدريس
ابن السيد البطليوسي ١٠١	١٢٧
ابن شهيد = أبو عامر أحمد بن عبد	ابن المقفع ٢٤٤
الملك الأشجعي ٢١٨، ٢٢٧، ٢٣٤،	ابن هردوس ٢٢١
٢٤٢، ٢٤٤، ٢٤٥	ابن هود ٢٢٢
ابن عاشور ٢٨٢	أبو إسحاق الإلبيري ٧٤، ٨٤، ٨٥،
ابن عبد ربه ٦٢، ١٠٦، ١٤٠،	٨٦، ٨٨، ١٠٩، ١٥٩
١٤١، ١٤٧	أبو إسحاق = إبراهيم بن عبد الله بن
ابن عبد الغفور الكلاعي ٤٧	الحاج النميري الغرناطي ٢٧٨
ابن عبد الملك المراكشي ٣٥٦	أبو إسحاق الصابي ٣٤٨
ابن عبدون ١٧٥	أبو البقاء = خالد بن عيسى البلوي
ابن عذاري ٢١٥	٢٦٨، ٢٧٤، ٢٧٥
ابن العسال ٨٥، ١٦٣	أبو البقاء = صالح بن يزيد بن صالح
ابن عطية ٤٨، ٥٠	بن شريف الرندي ٤٧، ٦٧، ١٣٧،
ابن عياش ٢٢١	١٤٣، ١٦٨، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨،
ابن الفخار الجذامي ١٠٧	٣٥٩، ٣٦٣، ٣٦٤
ابن فركون ٦٠، ٧٠، ١٣٨	أبو بكر بن أزهر الحجري ٢٥٧
ابن فضلان ٢٦٧	أبو بكر بن حزم ٢٤٤
ابن قزمان ٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٤	أبو بكر بن العربي ٢٧٠
ابن الكتاني الطبيب ١١٥	أبو بكر بن اللبانة ١٥٤
ابن ليون ١١١، ١٨٩	أبو بكر بن مالك الفهري ٢٥٧

- أبو بكر بن إبراهيم بن سعيد القيسي ٣١٣
أبو بكر محمد بن أحمد الأنصاري = الأبيض ١٩٢
أبو بكر محمد بن عبد الله الكتندي ١٢٨
أبو بكر مسلم بن أحمد القرطبي النحوي ٣١٢
أبو جعفر بن طلحة ٢٢٢
أبو جعفر الوقشي ١٦٥
أبو حامد الغرناطي = محمد بن عبد الرحيم القيسي ٢٧٠
أبو الحزم = ابن جهور ٢٥٢، ٣١٢، ٣٢٣، ٣٢٤
أبو الحسن الششتري ٢٠٧، ٢٠٨
أبو الحسن علي بن الإمام ١٢١
أبو الحسن = علي بن محمد القرشي البسطي القلصادي ٢٨٢، ٢٨٤
أبو الحسين سراج بن عبد الملك ٢٣٦، ٢٣٤
أبو الحسين = محمد بن جبير الكتاني ٢٧٠
أبو حفص بن برد الأصغر ٣٢٦، ٣٣٠
أبو حفص عمر بن الشهيد ٢٥٦
أبو زيد السروجي ٢٥٨
أبو سالم - السلطان ٣٧٤
أبو صالح المعافري ٣٠٢
أبو الطاهر محمد بن يوسف التميمي المازني القرطبي ٢٥٩، ٢٦٠
أبو عامر بن الحمارة ١٤٣
أبو عامر بن شهيد ٢٢٣
أبو العباس = أحمد بن عبد الله بن ذكوان ٣١٢
أبو العباس = أحمد بن محمد بن أبي عبيدة ٣٠٢
أبو العباس بن عبد المنان ٢٨١
أبو العباس بن النعمان ٢٨٢
أبو العباس الشريشي ٢٥٧
أبو عبد الله بن أبي الخصال الغافقي ١٢٣، ٢٢١، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٦، ٢٥٧، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٨، ٣٤٩
أبو عبد الله العزفي ٢٨١

أبو مروان عبد الملك بن إدريس
الجزيري ٢٣٠

أبو المطرف بن عميرة المخزومي ٢٢٢
أبو المطرف بن مثنى ٢٢٠

أبو المطرف عبد الرحمن بن أبي الفهد
الأشجعي ٤٤٣

أبو الوليد = أحمد بن عبد الله بن
غالب بن زيدون المخزومي ٣١١،
٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣١٧،
٣١٨، ٣١٩، ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤،
٣٢٥، ٣٢٧، ٣٢٩، ٣٣٠

أبو الوليد الباجي ١٤٤

أبو الوليد الحميري ١١٥، ٢٢٩

أبو هريرة ٣٥٢

أبو يحيى بن هشام القرطبي ١٢٢

إحسان عباس ٢٤٧

أحمد بن دراج القسطلبي = ابن درّاج

أحمد بن عبد الله المخزومي ٢٢٢

أحمد بن عمر العذري الدلائي ٢٦٩

أحمد بن فرج الجيّاني ٥٤

أحمد بن محمد بن موسى الصنهاجي

الأندلسي ٩٧

أبو عبد الله محمد بن سفر المريني
١٣٣

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن
إبراهيم اللواتي ٢٧٨

أبو عبد الله محمد بن يخلفتن الفازاري
القرطبي ٢٢١

أبو العتاهية ٨١

أبو العلاء المعري ٣٤٣

أبو علي القالي البغدادي ٤٦

أبو القاسم بن الجد ٢٢١

أبو القاسم بن جهور ٢٥٧

أبو عمر بن الباجي ٢٢٨

أبو عمر = أحمد بن محمد بن عبد ربه

٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٤، ٣٠٥

٣٠٧، ٣٠٩، ٣١٠

أبو محمد البرطال ٢٨٠

أبو محمد بن حزم ٢٤٦

أبو محمد = عبد الله بن محمد بن

القاسم الفهري ٣٤٨

أبو محمد بن عبد البر ٢٢٠

أبو محمد بن مالك القرطبي ٢٥٦

أحمد بن يحيى بن عيسى الإلبيري ٩٦

أخطل بن نمارة ٢٠٣

أصبغ بن الفرّج ٧٥

الأزرق = عبد الله محمد بن علي بن

محمد بن علي الأصبغي الغرناطي ٢٨٤

الأعمى التطيلي ١٤٢، ١٨٤، ١٩٢،

١٩٤

الأعمى المخزومي (بشار الأندلس) ٧٥

((ب))

بديع الزمان الهمداني ٢٤٤، ٢٤٧

البربر ٢٢

بقي بن مخلد ٤٨

بنو الأحمر ٣٨

بنو سعيد ١٨

البلديون ٢١

((ت))

تيم - الأمير ٦٦

((ج))

الجاحظ ٢١٥، ٢٤٤

جعفر بن عثمان المصحفي ١١٥

جعفر بن محمد بن مكّي بن أبي

طالب ١٤٧

((ح))

الحاجب المنصور ابن أبي عامر ٣١٢

الحارث بن همام ٢٥٨

حارثة بن الغلس ٢٤٥

حازم ٤٧

حازم القرطاجني ٦٦

حمزة بن عبد المطلب ٣٥٤

حميدة بنت النعمان الأنصاري ٢٣٢

الحميري ١١٧

((خ))

خلف بن فرج الإلبيري (السُّميسر) ٧٣

((د))

ديك الجن الحمصي ١٨٠

((ذ))

الذهبي - الحافظ ٢٧٩

((ر))

الرصافي البلنسي ٦٧، ٦٩، ١٣٦

الرعيّني ٥٠

((ز))

الزبير بن العوام ٣٥٤

زرياب بن علي بن نافع ٤١، ٦١.

٣٠٦

الزخشي ٢٦٦

زهير بن نمير ٢٤٤ ، ٢٤٥

((س))

السائب بن تمام ٢٦٠

السرقي ٢٦١

سعد بن أبي وقاص ٣٥٤

سعد بن جودي السعدي الإلبيري

١٤٦ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨

سعيد بن المسيب ٣٥٤

سليمان بن عبد الملك ٢٧

سوار بن حمدون ٢٩٨

((ش))

الشاميون ٢١

الشعوبية ٢٤

شنجول ٣٣

شوقي ضيف ٥٧ ، ٢٤٦

شهاب الدين الخفاجي ٣٥٩

الشيخ أبو حبيب ٢٦٠

((ص))

الصمة القشيري ٢٣٢

((ط))

طلحة بن عبد الله ٣٥٤

الطوائف ٣٥

((ع))

عبادة بن ماء السماء ١٨٣

العباس بن عبد المطلب ٣٥٤

عباس بن ناصح ١١٤

عبد الله بن بلقين ١٥٢

عبد الله بن سارة الشنتريني ٧٥

عبد الله بن الشمر ٧٢

عبد الله بن عباس ٣٥٤

عبد الله بن عبد العزيز ٣٤٢

عبد الله بن محمد أبي عبده ٣٠٢

عبد الله بن محمد الزجالي ٣٠٢

عبد الله بن كنون - ٣٥٩

عبد الحق بن سبعين ٩٦

عبد الحميد الكاتب ٢٤٤

عبد الرحمن الأوسط ٢٢٠

عبد الرحمن بن الحكم ٥٣ ، ١٦١

عبد الرحمن بن عوف ٣٥٤

عبد الرحمن الداخل ١١٤

عبد الرحمن الناصر ٦٢ ، ٣٠٢

عبد العزيز الأهواني ١٨١ ، ١٨٢

عبد الكريم القيسي الأندلسي ١٧١،

١٧٤، ١٧٦

عبد المجيد بن عبدون الفهري الياصري

١٥٧، ٢٢١

عبد الملك بن إدريس الجزيري ١٠٨

عبد الملك بن سراج ١٤٧

عبد الملك بن مروان ٩٣

عبد الله بن الحبّاب ٢١٣

العرب ٢١

علم الدين البرزالي ٢٧٩

علي بن حصن الإشبيلي ١١٩

علي بن عبد الله النمري الششتري ٩٨

علي بن عبد الرحمن = ابن حزمون

٧٦

عمر بن حفصون ٢٩٥

عياض - القاضي ٢٣٩

((غ))

الغني بالله - السلطان ٣٧٣

((ف))

فاطمة الزهراء ٣٥٣

((ق))

القرطي ٤٨

قيس بن الخطيم ٢٩٨

((ل))

لسان الدين بن الخطيب = أبو عبد

الله محمد بن عبد الله السلّماني ٦٧،

١٦٩، ١٨٦، ١٩٥، ١٩٨، ٢٢٤،

٢٢٥، ٢٦٦، ٢٨٤، ٣٦٧، ٣٦٨،

٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧٢، ٣٧٤

((م))

مالك - الإمام ٤٨

مالك بن المرحّل ١٠٣

محمد بن أيمن ٢٢٠

محمد بن سفر ١١٢

محمد بن عبادة القزاز ١٩٢

محمد بن عبد الله بن مسرة ٩٥

محمد بن مسعود ٢٣٤

محمد مجيد السعيد ١٠٤

محيي الدين = الشيخ الأكبر ٩٦

المرابطون ٣٦

المزي - الحافظ ٢٧٩

المستنصر الموحد ٣٦٢

معاذ الشعباني - القاضي ٢٩٣

ON
ANDALUSIAN LITERATURE
Fī al-Adab al-Andalusī
Dr. Muḥammad Ruḍwān al-Dāyah

مرّ أكثر من خمسة قرون على انطفاء شمعة الأندلس
الزّاهية وانقضاء آخر دول الإسلام فيها: دولة بني
الأحمر أو بني نصر في غرناطة. ولكنّ إشعاع الأندلس
بحضارتها، وثقافتها، وما تركه العلماء والفقهاء
والأدباء من آثار مسطرة خالدة، هو إشعاع باق، يرفد
تاريخ الآداب والعلوم والفنون والصناعات، ويسهم في
حركة التجديد التي تحاولها الأمة وترسي قواعدها في
العصر الحديث.

والجانب الإنساني عامة، والأدبي خاصة؛ من
التراث الأندلسي الباقي: هو جزء أساسي من حركة
تاريخ الأدب (بالمعنى الواسع)، وهو عامل له اعتباره
الكبير في النهضة الأدبية الحديثة.

ثم إنّ آثار أدبائنا وشعرائنا من أهل الأندلس تلفت
انتباه أبناء الأمة، وتثير فيهم مكامن الذكريات، وتقدّم
لهم الطريف والمبدع، وتغذي نفوسهم وقلوبهم، وتشبع
فضولهم في استقبال كل ما يصدر في المكتبة الأندلسية
التي تتسع وتغنى في أطراد متواصل.

وهذا الكتاب صلة موصولة بين ذلك الأريج الأندلسي وبين
القارئ المتشوّف إلى نسائم الأندلس العليلة.

فُرَات
موقع عربي رائد للتجارة الكتب والبرامج العربية
WWW.FURAT.COM

DAR AL-FIKR

3520 Forbes Ave., #A259
Pittsburgh, PA 15213
U.S.A

Tel: (412) 441-5226

Fax: (412) 441-8198

e-mail: fikr@fikr.com

http://www.fikr.com/